صحيفه

٣٠٣ بيان حكم التوكل في اظهار المرض وكتمانه
٣٠٤ كتاب المحبة والشوق والانس والرضى
٣٠٥ بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى
٣٠٧ بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى
٣١٢ بيان ان المستحق للمحبة هو الله وحده
٣٢٠ بيان ان أجل اللذات واعلاها معرفة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم وانه
لا يتصوّر ان يؤثر عليها لذة أخرى الا من حرم هذه اللذة
٣٢٥ بيان السبب في زيادة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا
٣٢٩ بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى
٣٣٣ بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
٣٣٤ بيان السبب في قصور افهام الخلق عن معرفة الله سبحانه
٣٣٧ بيان معنى الشوق الى الله تعالى
٣٤٢ بيان محبة الله للعبد ومعناها
٣٤٤ القول في علامات محبة العبد لله تعالى
٣٥٩ القول في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وما ورد في فضيلته
٣٦٧ بيان ان الدعاء غير مناقض للرضى
٣٧٠ بيان ان الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضى
٣٧٢ بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم
٣٧٦ خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة
٣٧٩ كتاب النية والاخلاص والصدق
٣٧٩ بيان فضيلة النية
٣٨١ بيان حقيقة النية
٣٨٢ بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم نية المرء خير من عمله
٣٨٥ بيان تفصيل الاعمال المتعلقة بالنية
٣٩٠ بيان ان النية غير داخلة تحت الاختيار
٣٩٣ فضيلة الاخلاص
٣٩٥ بيان حقيقة الاخلاص
٣٩٨ بيان أقاويل الشيوخ في الاخلاص
٣٩٩ بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للاخلاص
٤٠١ بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به
٤٠٤ الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته
٤١٠ كتاب المراقبة والمحاسبة
٤١٢ المقام الاول من المرابطة المشارطة

صحيفه

٤١٦ بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها
٤٢٢ محاسبة النفس
٤٣٦ توبيخ النفس ومعاتبتها
٤٤٤ كتاب الفكر
٤٤٤ فضيلة التفكر
٤٤٦ بيان حقيقة الفكر وثمرته
٤٤٩ بيان مجارى الفكر
٤٥٧ بيان كيفية التفكر فى خلق الله تعالى
٤٧١ كتاب ذكر الموت ومابعده
٤٧٢ الشطر الاول فى مقدماته وتوابعه الى نفخة الصور
٤٧٣ الباب الاول فى ذكر الموت والترغيب فى الاكثار من ذكره
٤٧٦ الباب الثانى فى طول الامل وفضيلة قصره وكيفية معالجته
٤٨٤ الباب الثالث فى سكرات الموت وشدته ومايستحب من الاحوال عنده
٤٩٢ الباب الرابع فى وفاته صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين
٥٠٣ الباب الخامس فى كلام المحتضرين من الخلفاء والامراء والصالحين
٥٠٧ الباب السادس فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور
٥١٧ الباب السابع فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت
٥٣١ بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم
٥٣٥ الشطر الثانى فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور الخ
٥٣٧ صفة ارض المحشر وأهله
٥٣٩ طول يوم القيامة وصفته ودواهيه وأساميه
٥٤١ صفة المساءلة
٥٤٤ صفة الميزان
٥٤٥ صفة الخصماء ورد المظالم
٥٤٩ صفة الصراط
٥٥١ صفة الشفاعة
٥٥٣ صفة الحوض
٥٥٤ القول فى صفة جهنم وأهوالها وانكالها
٥٦ القول فى صفة الجنة وأصناف نعيمها
٥٦٥ بيان جمل متفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الاخبار
٥٦٧ صفة الرؤية والنظر الى وجه الله تعالى
٥٦٧ خاتمة الكتاب فى سعة رحمة الله تعالى

تمت فهرست الجزء الرابع من كتاب احياء علوم الدين

الربع الرابع من كتاب احياء علوم الدين
تأليف الامام العالم العلامة المحقق المدقق
حجة الاسلام أبي حامد محمد بن محمد بن
محمد الغزالي قدّس الله روحه
ونوّر ضريحه
آمين

بيان اسماء كتب الربع الرابع من الاحياء

كتاب التوبة
وكتاب الصبر والشكر
وكتاب الخوف والرجاء
وكتاب الفقر
وكتاب التوحيد
وكتاب المحبة والشوق والانس والرضى
وكتاب النية والصدق والاخلاص
وكتاب المراقبة والمحاسبة
وكتاب التفكر
وكتاب ذكر الموت

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب، وبذكره يصدر كل خطاب، وبحمده يتنعم
أهل النعيم في دار الثواب * وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخي دونهم الحجاب *
وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب * باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله
العذاب * ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب *
ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب * ونمزج الخوف برجائنا مزج من
لا يرتاب * أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب * ونصلي على
نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض
والحساب * وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب * (أما بعد) فإن التوبة عن
الذنوب * بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين *
ورأس مال الفائزين * وأول أقدام المريدين * ومفتاح استقامة المائلين *
ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين * ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى
سائر الأنبياء أجمعين * وما أجدر بالأولاد * الاقتداء بالآباء والأجداد *
فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم * فهي شنشنة يعرفها من أخزم * ومن أشبه أباه
فما ظلم * ولكن الأب إذا جبر بعدما كسر وعمر بعد أن هدم * فليكن النزوع
إليه في كل طرفي النفي والإثبات والوجود والعدم * ولقد قرع آدم سن الندم *
وتندم على ما سبق منه وتقدم * فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به

القدم

القدم * بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين * والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين * والرجوع الى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين * فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان * والمتجرد للشر شيطان * والمتلافي للشر بالرجوع الى الخير بالحقيقة انسان * فقد ازدوج في طينة الانسان شائبتان * واصطحب فيه سجيتان * وكل عبد مصحح نسبه اما الى الملك او الى آدم أو الى الشيطان * فالتائب قد أقام البرهان * على صحة نسبه الى آدم بملازمة حد الانسان * والمصر على الطغيان * مسجل على نفسه بنسب الشيطان * فأما تصحيح النسب بالتجرد لمحض الخير الى الملائكة فخارج عن حيز الامكان * فان الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه الا احدى النارين نار الندم أو نار جهنم فالاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان من خبائث الشيطان واليك الآن اختيار أهون النارين * والمبادرة الى اخف الشرين * قبل ان يطوى بساط الاختيار * ويساق الى دار الاضطرار * اما الى الجنة واما الى النار * واذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والادوية الميسرة لها ويتضح ذلك بذكر اربعة اركان (الركن الاول) في نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وانها واجبة على الفور على جميع الاشخاص وفي جميع الاحوال وانها اذا صحت كانت مقبولة (الركن الثاني) فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها الى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات وبيان الاسباب التي بها تعظم الصغائر (الركن الثالث) في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان اقسام التائبين في دوام التوبة (الركن الرابع في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الاركان الاربعة ان شاء الله عز وجل (الركن الاول في نفس التوبة

(بيان حقيقة التوبة وحدها)

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة امور مرتبة علم وحال وفعل فالعلم الاول والحال الثاني والفعل الثالث والاول موجب للثاني والثاني موجب للثالث ايجابا اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت * (أما العلم) فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما فاذا غلب هذا الالم على القلب واستولى انبعث من هذا الالم في القلب حالة اخرى تسمى ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال وبالماضي وبالاستقبال أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسا وأما بالاستقبال

فسمى العزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب الى آخر العمر وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء ان كان قابلا للجبر فالعلم هو الاول وهو مطلع هذه الخيرات وأعني بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الايمان مهما اشرق على القلب نار الندم فيتألم به القلب حيث يبصر باشراق نور الايمان انه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب او انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد اشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بارادته للانتهاض للتدارك فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر وبهذا الاعتبار قال عليه السلام الندم توبة اذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه اعني ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة انه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا فان هذا يعرض لمجرد الالم ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة انه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل بن عبد الله التستري التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك الا بالخلوة والصمت واكل الحلال وكأنه اشار الى المعنى الثالث من التوبة والاقاويل في حدود التوبة لا تنحصر واذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتبها عرفت ان جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الاحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الامور أهم من طلب الالفاظ المجردة

(بيان وجوب التوبة وفضلها)

اعلم ان وجوب التوبة ظاهر بالاخبار والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الايمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة فالسالك اما اعمى لا يستغني عن القائد في خطوة واما بصير يهدى الى اول الطريق ثم يهتدي بنفسه وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوة فيفتقر الى ان يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله او سنة رسوله وربما يعوزه ذلك فيتحير فسير هذا وان طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعد شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى اشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الايمان وهو لشدة نور باطنه يجتزي بأدنى بيان فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج الى نص منقول في كل واقعة فمن هذا حاله اذا اراد ان يعرف وجوب التوبة فينظر اولا بنور البصيرة الى التوبة ما هي ثم الى الوجوب ما معناه ثم يجمع

بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب في الوصول الى سعادة الابد والنجاة من هلاك الابد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشئ وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى وقول القائل صار واجبا بالايجاب حديث محض فان مالا غرض لنا آجلا وعاجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا اولم يوجبه فاذا عرف معنى الوجوب وانه الوسيلة الى سعادة الابد وعلم ان لا سعادة في دار البقاء الا في لقاء الله تعالى وان كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين مايشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم انه لا مبعد عن لقاء الله الا اتباع الشهوات والانس بهذا العالم الفاني والاكباب على حب مالا بدّ من فراقه قطعا وعلم انه لا مقرّب من لقاء الله الا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للانس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم ان الذنوب التي هي اعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك في ان الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى القرب وانما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه مالم يعلم ان الذنوب اسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد ومالم يتوجع فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في ان المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول الى المحبوب وهكذا يكون الايمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذورته عن حدود اكثر الخلق ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به الى النجاة من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى يا ايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا الآية ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ان الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين وقال عليه السلام التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله افرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في ارض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع راسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتدّ عليه الحر والعطش اوماشاء الله قال ارجع الى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى اموت فوضع راسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله تعالى اشدّ فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وفي بعض الالفاظ قال من شدّة فرحه اذا اراد شكر الله انا ربك وانت عبدي ويروى عن الحسن قال لما تاب الله عزوجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام ياجبريل فان كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي فأوحى الله اليه يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك ومن

سألني المغفرة لم أعجل عليه لأني قريب مجيب يا آدم واحشر التائبين من القبور
مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى
والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات
ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب الإيمان ولكن قد تدهش الغفلة
عنه فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي
في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق
الأحوال وذلك لا يشك في وجوبه وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب
وهو روح التوبة وبه تمام التلافي فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع ألم يحصل لا محالة
عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله فإن قلت تألم القلب
أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب (فاعلم) أن سببه تحقيق
العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت
الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإن ذلك محال بل العلم والندم
والفعل والإرادة والقدرة والقادر والكل من خلق الله وفعله والله خلقكم وما تعملون هذا
هو الحق عند ذوي الأبصار وما سوى هذا ضلال (فإن قلت) أفليس للعبد اختيار في
الفعل والترك (قلت نعم) وذلك لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار
أيضا من خلق الله والعبد مضطر في الاختيار الذي له فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة
وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام
يسكن الشهوة وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن
الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند
اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول فانجزام الإرادة بعد تردد
الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند
تمام أسبابه فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى
جهة الطعام لا محالة إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا
فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة وهما أيضا
من خلق الله وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم المانع وهما أيضا من
خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخلوقات تترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة
الله تعالى في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة
ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة مجزومة
ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا
تاما ما لم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المآل ولا يخلق العلم أيضا
إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم فالعلم والميل الطبيعي أبدا يستتبع الإرادة
الجازمة والقدرة والإرادة أبدا تستردف الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والكل
من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فلذلك يجب تقدم البعض

وتأخر

وتأخر البعض كما لا تخلق الارادة الا بعد العلم ولا يخلق العلم الا بعد الحياة ولا تخلق الحياة الا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لا ان الحياة تتولد من الجسم و يكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لا أن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم الا اذا كان حيا و يكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لا أن العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة الا جسم حي عالم ولا يدخل في الوجود الا ممكن وللامكان ترتيب لا يقبل التغيير لان تغييره محال فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الالهي والقدرة الازلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلمح البصر ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى انا كل شئ خلقناه بقدر وعن القضاء الكلي الازلي العبارة بقوله تعالى وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر وأما العباد فانهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة و بعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد و بعد علم بما اليه ميله يسمى الادراك والمعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الامور الاربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا ايها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وما قتلت اذ قتلت ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة فمن قائل انه جبر محض ومن قائل انه اختراع صرف ومن متوسط مائل الى انه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا الى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم ان كل واحد صادق من وجه وأن القصور شامل لجميعهم فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال باشراق النور من كوة نافذة الى عالم الغيب وانه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الاسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الاسباب انكشف له سر القدر و علم علما يقينا ان لا خالق الا الله ولا مبدع سواه (فان قلت) قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب انه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن ايصال ذلك الى الافهام الا بمثال (فاعلم) أن جماعة من العميان قد سمعوا انه قد حمل الى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه فطلبوه فلما وصلوا اليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم فقال الذي

لمس الرجل ان الفيل ماهو الا مثل اسطوانة خشنه الظاهر الا أنه ألين منها وقال الذى لمس الناب ليس كما تقول بل هو صلب لا لين فيه واملس لا خشونة فيه وليس فى غلظ الاسطوانة اصلا بل هو مثل عمود وقال الذى لمس الاذن لعمرى هو لين وفيه خشونه وصدق احدهما فيه ولكن قال ماهو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وانما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه اذ أخبر كل واحد عما اصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل ولكنهم بجملتهم قصروا عن الاحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال اكثر ما اختلفت الناس فيه وان كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك امواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع الى ما كنا بصدده وهو بيان ان التوبة واجبة بجميع اجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وان الندم داخل فى الوجوب لكونه واقعا فى جملة افعال الله المحصورة بين علم العبد وارادته وقدرته المتخللة بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله

(بيان ان وجوب التوبة على الفور)

اما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه اذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور والمتفصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل بل هى من المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصى عن عهدته مالم يصر باعثا عليه فالعلم بضرر الذنوب انما اريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان وهو المراد بقوله عليه السلام لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وما اراد به نفى الايمان الذى يرجع الى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينافيه الزنى والمعاصى وانما اراد به نفى الايمان لكون الزنى مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت كما اذا قال الطبيب هذا سم فلا تتناوله فاذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى انه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد انه غير مصدق بقوله انه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله أصلا فالعاصى بالضرورة ناقص الايمان وليس الايمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا اعلاها القلب والروح وادناها اماطة الاذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الاظفار نقى البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها وهذا مثال مطابق فالايمان كالانسان وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح والذى ليس له الا شهادة التوحيد والرسالة هو كانسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا اصل الروح وكما ان من هذا حاله قريب من ان يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التى تخلفت عنها الاعضاء التى تمدها وتقويها فكذلك من ليس له الا أصل الايمان وهو مقصر فى الاعمال

قريب

قريب من أن تقتلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل ايمان لم يثبت في اليقين اصله ولم تنتشر في الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة الا ما يبقى بالطاعات على توالي الايام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصي للمطيع اني مؤمن كما انك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر انا شجرة وانت شجرة وما احسن جواب شجرة الصنوبر اذا قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم اذا عصفت رياح الخريف فعند ذلك تنقطع اصولك وتتناثر أوراقك ويكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجر مع الغفلة عن أسباب ثبوت الاشجار. وسوف ترى اذا انجلى الغبار. أفرس تحتك ام حمار. وهذا امر يظهر عند الخاتمة وانما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها الا الاقلون فالعاصي اذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة اذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وان الموت غالبا لا يقع فجأة فيقال له الصحيح يخاف المرض ثم اذا مرض خاف الموت وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم اذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار فالمعاصي للايمان كالمأكولات المضرة للابدان فلا تزال تجتمع في الباطن مغيرة مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها الى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة وكذلك المعاصي فاذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الابد أولى بأن يجب عليه ذلك واذا كان متناول السم اذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بابطاله واخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه الا هذه الدنيا الفانية فمتناول سموم الدين وهي الذنوب اولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر فان المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفي فواتها النار الجحيم والعذاب المقيم الذي تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته اذ ليس لمدته آخر البتة فالبدار البدار الى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا يجاوز الامر فيه الاطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون ولا يغرنك لفظ الايمان فتقول المراد بالآية الكافر اذ بين لك أن الايمان بضع وسبعون بابا وان الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن فالمحجوب عن الايمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الايمان الذي هو أصل كما أن الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي هي حروف وفروع سيساق الى الموت المعدم للروح التي هي اصل فلا بقاء للاصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الاصل ولا فرق بين

الاصل والفرع الا في شي واحد وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعي وجود الاصل وأما وجود الاصل فلا يستدعي وجود الفرع فبقاء الاصل بالفرع ووجود الفرع بالاصل فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والاصل فلا يستغني احدهما عن الآخر وان كان احدهما في رتبة الاصل والآخر في رتبة التابع وعلوم المعاملة اذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فان هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما اوردناه من الاخبار في كتاب العلم

(بيان أن وجوب التوبة عام في الاشخاص والاحوال فلا ينفك عنها احد البتة)

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا اذ قال تعالى وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون فعمم الخطاب ونور البصيرة أيضا يرشد اليه اذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب الى الشيطان ولا يتصور ذلك الا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل الا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان الى اغواء الانسان اذ كمال العقل انما يكون عند مقاربة الاربعين وأصله انما يتم عند مراهقة البلوغ ومباديه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فاذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة اذ لا يثبت احدهما للآخر لانهما ضدان فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب احدهما ازعج الآخر بالضرورة واذا كانت الشهوات تكمل في الصبي والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به انس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من ايدي اعدائه شيأ فشيأ على التدريج فان لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعوده حيث قال لاحتنكن ذريته الا قليلا وان كمل العقل وقوي كان اول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر الى العبادات ولا معنى للتوبة الا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان الى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدمي الا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة فكان الرجوع عما سبق اليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل انسان نبيا كان اوغبيا فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام وقد قيل

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها ❊ سجية نفس كل غانية هند

بل هو حكم ازلي مكتوب على جنس الانس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الالهية التي لا مطمع في تبدلها فاذا كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فاذا بلغ مسلما تبعا لابويه غافلا عن حقيقة اسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الاسلام فانه لا يغني عنه اسلام ابويه شيأ ما لم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه

الرجوع عن عادته والفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع الى قالب حدود الله في المنع والاطلاق والانفكاك والاسترسال وهو من اشق ابواب التوبة وفيه هلك الاكثرون اذ عجزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصوّر أن يستغني عنها احد من البشر كما لم يستغن آدم فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلا وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال وهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه اذ لم يخل عنه الانبياء كما ورد في القرآن والاخبار من خطايا الانبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فان خلا في بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهمّ بالذنوب بالقلب فان خلا في بعض الاحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرّقة المذهلة عن ذكر الله فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب وترك اسبابه بالتشاغل باضدادها رجوع عن طريق الى ضدّه والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصوّر الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص وانما يتفاوتون في المقادير فأما الاصل فلا بدّ منه ولهذا قال عليه السلام انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة الحديث ولذلك اكرمه الله تعالى بأن قال ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره فان قلت لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص وأن الكمال في الخلو عنه وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص وانه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وأن الانتقال الى الكمال من اسباب النقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد اطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه الامور ليست بواجبة اذ ادراك الكمال غير واجب في الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال فاعلم انه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدا خلقته من اتباع الشهوات اصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك ما مضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة فان تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة اذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لا بدّ من محو تلك الاريان التي انطبعت في القلب كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الانفاس والبخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الاريان وكما يرتفع الى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة واليه الاشارة بقوله عليه السلام أتبع السيئة الحسنة تمحها فاذا لا يستغني العبد في حال من احواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات هذا في قلب حصل

اولا صفاؤه وجلاؤه ثم اظلم بأسباب عارضة فأما التصقيل الاول ففيه تطويل الصقل
اذ ليس شغل الصقل في ازالة الصدأ عن المرآة كشغله في عمل اصل المرآة فهذه أشغال
طويلة لا ينقطع اصلا وكل ذلك يرجع الى التوبة فأما قولك ان هذا لا يسمى واجبا بل هو
فضل وطلب كمال فاعلم أن الواجب له معنيان احدهما ما يدخل في فتوى الشرع
ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم فلو كلف
الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية ثم يؤدي
ذلك الى بطلان التقوى بالكلية فانه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ احد للتقوى بل
شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج اليه فجميع
هذه الدرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول
به الى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود من الصديقين والتوبة عن جميع
ما ذكرناه واجبة في الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن
يريدها فانه لا يتوصل اليها الا بها فأما من رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة
التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لاجلها كما يقال العين والاذن واليد والرجل شرط
في وجود الانسان يعني انه شرط لمن يريد أن يكون انسانا كاملا ينتفع بانسانيته
ويتوصل بها الى درجات العلى في الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضي أن يكون كلحم
على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل فأصل
الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل الا الى اصل النجاة واصل النجاة كأصل
الحياة وما وراء اصل النجاة من السعادات التي بها تنتهي الحياة يجري مجرى الاعضاء
والآلات التي بها تتهيأ الحياة وفيه سعي الانبياء والاولياء والعلماء والامثل فالامثل
وعليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ولاجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية حتى
انتهى عيسى عليه السلام الى أن توسد حجرا في منامه فجاء اليه الشيطان وقال اما كنت
تركت الدنيا للآخرة فقال نعم وما الذي حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم
لا تضع رأسك على الارض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الارض
وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع
الرأس على الارض لا يسمى واجبا في فتاوى العامة افترى أن نبينا محمدا صلى الله عليه
وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزعه وشغله شراك نعله الذي
جدده حتى اعاد الشراك الخلق لم يعلم أن ذلك ليس واجبا في شرعه الذي شرعه لكافة
عباده فاذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك الا لانه رآه مؤثرا في قلبه اثرا يمنعه
عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به افترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب
اللبن وعلم انه على غير وجهه ادخل اصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه
ما علم من الفقه هذا القدر وهو أن ما اكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى
الفقه اخراجه فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب امكانه بتخلية المعدة عنه وهل
كان ذلك الا لسر وقر في صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وأن

خطر

خطر طريق الآخرة لا يعرفه الا الصديقون وتأمل احوال هؤلاء الذين هم اعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله واياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا واياك ثم اياك الف الف مرة أن يغرك بالله الغرور فهذه أسرار من استنشق مبادى روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك طريق الله تعالى فى كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وان ذلك واجب على الفور من غير مهلة ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره الا على تفويت ما مضى منه فى غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله وانما قال هذا لان العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لامحالة وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها اشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لان توصلك الى سعادة الابد وتنقذك من شقاوة الابد وأى جوهر أنفس من هذا فاذا ضيعتها فى الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً وان صرفتها الى معصية فقد هلكت هلاكاً فاحشاً فان كنت لا تبكى على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك اعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها انه صاحب مصيبة فان نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته وقد رفع الناس عن التدارك قال بعض العارفين ان ملك الموت عليه السلام اذا ظهر للعبد اعلمه انه قد بقى من عمرك ساعة وانك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الاسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد اليه سبيلا وهو أول ما يظهر من معانى قوله تعالى وحيل بينهم وبين ما يشتهون واليه الاشارة بقوله تعالى من قبل أن يأتى احدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكون من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء اجلها فقيل الاجل القريب الذى يطلبه معناه انه يقول عند كشف الغطاء للعبد ياملك الموت اخرنى يوما اعتذر فيه الى ربى وأتوب وأتزود صالحا لنفسى فيقول فنيت الايام فلا يوم فيقول فأخرنى ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه فى شراسيفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب اصل ايمانه فى صدمات تلك الاحوال فاذا زهقت نفسه فان كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وان سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ولمثل هذا يقال وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن وقوله انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يندم عليها ويمحو اثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل

المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أتبع السيئة الحسنة تمحها ولذلك قال لقمان لابنه يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو الثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الخبر أن أكثر صياح أهل النار من التسويف فما هلك من هلك إلا بالتسويف فيكون تسويده القلب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر قال بعض العارفين إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني والثاني عند خروج روحه يقول عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب وإليه الإشارة بقوله تعالى أوفوا بعهدي أوف بعهدكم وبقوله تعالى والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون

(بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة)

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى وعلموا أن القلب خلق سليما في الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فإنما عليك التزكية والتطهير وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له وهو المسمى فلاحا في قوله قد أفلح من زكاها ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه

فى غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ومن جهل نفسه فهو بغيره اجهل واعنى به قلبه اذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول الا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب اصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به فهذا حال امتناع اصل التوبه وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والاخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقد قال تعالى وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وقال تعالى غافر الذنب وقابل التوب الى غير ذلك من الآيات وقال صلى الله عليه وسلم لله افرح بتوبة أحدكم الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة وقال صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسىء الليل الى النهار ولمسىء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب الا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم وقال ايضا ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة فقيل كيف ذلك يا رسول الله قال يكون نصب عينه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة وقال صلى الله عليه وسلم كفارة الذنب الندامة وقال صلى الله عليه وسلم التائب من الذنب كمن لا ذنب له ويروى ان حبشيا قال يا رسول الله انى كنت اعمل الفواحش فهل لى من توبة قال نعم فولى ثم رجع فقال يا رسول الله اكان يرانى وانا اعملها قال نعم فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه ويروى ان الله عز وجل لما لعن ابليس سأله النظرة فانظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا حجبت عنه التوبة مادام فيه الروح وقال صلى الله عليه وسلم ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ والاخبار فى هذا لا تحصى (وأما الآثار) فقد قال سعيد بن المسيب انزل قوله تعالى انه كان للاوابين غفورا فى الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال الفضيل قال الله تعالى بشر المذنبين بأنهم ان تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين انى ان وضعت عليهم عدلى عذبتهم وقال طلق بن حبيب ان حقوق الله اعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه فى ام الكتاب ويروى ان نبيا من انبياء بنى اسرائيل اذنب فاوحى الله تعالى اليه وعزتى لئن عدت لاعذبنك فقال يا رب أنت أنت وأنا أنا وعزتك

ان لم تعصمني لاعودن فعصمه الله تعالى وقال بعضهم ان العبد ليذنب الذنب ولا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول ابليس ليتني لم اوقعه في الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول اما اني قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له وروى ان رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت اليه فرأى عينيه تذرفان فقال له ان للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق الا باب التوبة فان عليه ملكا موكلا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس وقال عبد الرحمن بن ابي القاسم تذاكرنا مع عبد الرحمن توبة الكافر وقول الله تعالى ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف فقال اني لارجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا ولقد بلغني أن توبة المسلم كاسلام بعد اسلام وقال عبد الله بن سلام لا احدثكم الا عن نبي مرسل أو كتاب منزل ان العبد اذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه اسرع من طرفة عين وقال عمر رضي الله عنه اجلسوا الى التوابين فانهم ارق افئدة وقال بعضهم انا اعلم متى يغفر الله لي قيل ومتى قال اذا تاب علي وقال آخر انا من أن احرم التوبة اخوف من أن احرم المغفرة أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة وروى انه كان في بني اسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال الهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت اليك اتقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا احببتنا فاحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فأمهلناك وان رجعت الينا قبلناك وقال ذو النون المصري رحمه الله ان لله عبادا نصبوا اشجار الخطايا نصب روامق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عي ولا بكم وانهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولهت قلوبهم في الملكوت وجالت افكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرؤا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا الى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلام وسرحت ارواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة واقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لا محالة فان قلت افتقول ما قالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله فأقول لا اعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله الا ما يريده القائل بقوله ان الثوب اذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ وان العطشان اذا شرب الماء وجب زوال العطش وانه اذا منع الماء مدة وجب العطش وانه اذا دام العطش وجب الموت وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالايجاب على الله تعالى بل اقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء

مزيلا

مزيلا للعطش والقدرة متسعة بخلافه لوسبقت به المشيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ماسبقت به ارادته الازلية فواجب كونه لا محالة فان قلت فما من تائب الا وهو شاك فى قبول توبته والشارب للماء لا يشك فى زوال عطشه فلم يشك فيه فاقول شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائط الصحة فان للتوبة اركانا وشروطا دقيقة كما سيأتى وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذى يشك فى دواء شربه للاسهال فى أنه هل يسهل وذلك لشكه فى حصول شروط الاسهال فى الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وادويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك فى قبولها لا محالة على ماسيأتى فى شروطها ان شاء الله تعالى

(الركن الثانى فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها)

اعلم أن التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشئ الا بعد معرفته واذا كانت التوبة واجبة كان مالا يتوصل اليها الا به واجبا فمعرفة الذنوب اذا واجبة والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لامر الله تعالى فى ترك اوفعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من اولها الى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكنا نشير الى مجامعها وروابط أقسامها والله الموفق للصواب برحمته

(بيان أقسام الذنوب بالاضافة الى صفات العبد)

اعلم أن للانسان اوصافا وأخلاقا كثيرة على ماعرف شرحه فى كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مثارات الذنوب فى اربع صفات صفات ربوبية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لان طينة الانسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الاخلاط فى المعجون منه اثرا من الآثار كما تقتضى السكر والخل والزعفران فى السكنجبين آثارا مختلفة * فأما مايقتضى النزوع الى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الاعلى وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهى المهلكات العظيمة التى هى كالامهات لاكثر المعاصى كما استقصيناه فى ربع المهلكات * الثانية هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والامر بالفساد والمكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة الى البدع والضلال * الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة واكل مال الايتام وجمع الحطام لاجل الشهوات * الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الاموال ويتفرع عنها جمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدريج فى الفطرة فالصفة البهيمية هى التى تغلب اولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ثم اذا اجتمعا استعملا العقل فى الخداع والمكر والحيلة وهى الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهى الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق

فصل امهات الذنوب ومنابعها بمجمع الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فمنها في الملب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على النطق والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا حاجة الى بيان تفصيل ذلك فانه واضح (قسمة ثانية) اعلم أن الذنوب تنقسم الى ما بين العبد وبين الله تعالى والى ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة وقتل النفس وغصب الاموال وشتم الاعراض وكل متناول من حق الغير فاما نفس أو طرف او مال او عرض اودين اوجاه وتناول الدين بالاغواء والدعاء الى البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج اسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالامر فيه اغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى اذا لم يكن شركا فالعفو فيه ارجى واقرب وقد جاء في الخبر الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى وأما الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد اي لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها (قسمة ثالثة) اعلم أن الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف اذ قال تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما وقال تعالى الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم وقال صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة يكفرن ما بينهن ان اجتنبت الكبائر وفي لفظ آخر كفارات لما بينهن الا الكبائر وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من اربع الى سبع الى احدى عشرة فما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن اربع وقال ابن عمر هن سبع وقال عبد الله بن عمرو هن تسع وكان ابن عباس اذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هن الى سبعين اقرب منها الى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره كل ما اوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف كل ما اوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة وقيل انها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة وقال ابن مسعود لما سئل عنها اقرأ من اول سورة النساء الى رأس ثلاثين آية منها عند قوله ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة الى هنا فهو كبيرة وقال ابو طالب المكي الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الاخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم اربعة في القلب وهي الشرك بالله والاصرار على معصيته والقنوط من رحمته والامن من مكره واربع في اللسان وهي شهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس وهي التي يحق بها باطلا او يبطل بها حقا وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلا

ولو سواكا من أراك وسميت غموسا لانها تغمس صاحبها في النار والسحر وهو كل
كلام يغير الانسان وسائر الاجسام عن موضوعات الخلقة * وثلاث في البطن وهي
شرب الخمر والمسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يعلم * واثنتان
في الفرج وهما الزنا واللواط * واثنتان في اليدين وهما القتل والسرقة * وواحدة
في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة
في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين * قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق
فلا يبر قسمهما وان سألاه حاجة فلا يعطيهما وان يسباه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما
هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء اذ يمكن الزيادة عليه
والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهي جناية على الاموال
ولم يذكر في كبائر النفوس الا القتل فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من
تعذيب المسلمين بالضرب وانواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع
اطرافه لا شك في انه اكبر من أكل ماله كيف وفي الخبر من الكبائر السبتان بالسبة
ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض اخيه المسلم وهذا زائد على قذف المحصن وقال
أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة انكم لتعملون أعمالا هي أدق في اعينكم من الشعر
كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر وقالت طائفة كل عمد
كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة
أهي كبيرة ام لا لا يصح مالم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام ام لا
لا مطمع في تعريفه الا بعد تقرير معنى الحرام اولا ثم البحث عن وجوده في السرقة
فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع وذلك
لان الكبير والصغير من المضافات ومامن ذنب الا وهو كبير بالاضافة الى مادونه
وصغير بالاضافة الى مافوقه فالمضاجعة مع الاجنبية كبيرة بالاضافة الى النظرة
صغيرة بالاضافة الى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة الى ضربه صغيرة بالاضافة
الى قتله نعم للانسان أن يطلق على ما يوعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ونعني
بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق على ما اوجب الحد عليه مصيرا
الى أن ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب
النهي عنه فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ثم يكون عظيما وكبيرة
لا محالة بالاضافة اذ منصوصات القرآن أيضا تتفاوت درجاتها فهذه الاطلاقات
لا حرج فيها وما نقل من الفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها على شئ
من هذه الاحتمالات نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ان تجتنبوا كبائر
ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات
كفارات لما بينهن الا الكبائر فان هذا اثبات حكم الكبائر والحق في ذلك أن الذنوب
منقسمة في نظر الشرع الى ما يعلم استعظامه اياها والى ما يعلم انها معدودة في الصغائر
والى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه فالطمع في معرفة حد حاصر او عدد جامع مانع طلب

لما لا يمكن فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول إني أردت بالكبائر عشراً أو خمساً ويفصلها فإن لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ ثلاث من الكبائر وفي بعضها سبع من الكبائر ثم ورد أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ونعرف أيضاً أكبر الكبائر فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله وإليه الإشارة بقوله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون أي ليكونوا عبيداً لي ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا وهو المعني بقوله عليه السلام الدنيا مزرعة الآخرة فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين لأنه وسيلة إليه والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان النفوس والأموال فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه ما يسد باب حياة النفوس ويليه ما يسد باب المعايش التي بها حياة النفوس فهذه ثلاث مراتب فحفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن تختلف فيها الملل فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبياً يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب الأولى ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبعده بقدر جهله ويتلو الجهل الذي يسمى كفراً الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته فإن هذا أيضاً عين الجهل فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمناً ولا أن يكون آيساً ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشد من بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع * المرتبة الثانية النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف

وكل

وكل مايفضى الى الهلاك حتى الضرب وبعضها اكبر من بعض ويقع فى هذه الرتبة تحريم الربا واللواط لانه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور فى قضاء الشهوات انقطع النسل ودفع الموجود قريب من قطع الوجود وأما الزنا فانه لا يفوت اصل الوجود ولكن يشوش الانساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الامور التى لا ينتظم العيش الا بها بل كيف يتم النظام مع اباحة الزنا ولا ينتظم امور البهائم مالم يتميز الفحل منها باناث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى اصل شرع قصد به الاصلاح وينبغى أن يكون الزنا فى الرتبة دون القتل لانه ليس يفوّت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوّت تمييز الانساب ويحرك من الاسباب ما يكاد يفضى الى التقاتل وينبغى أن يكون اشدّ من اللواط لان الشهوة داعية اليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم اثر الضرر بكثرته المرتبة الثالثة الاموال فانها معايش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاؤا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما بل ينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس الا أن الاموال اذا اخذت أمكن استردادها وان أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الامر فيها نعم اذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق احدها الخفية وهى السرقة فانه اذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك الثانى أكل مال اليتيم وهذا أيضا من الخفية واعنى به فى حق الولى والقيم فانه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الامر فيه واجب بخلاف الغصب فانه ظاهر يعرف وبخلاف الخيانة فى الوديعة فان المودع خصم فيه ينتصف لنفسه الثالث تفويتها بشهادة الزور والرابع أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فان هذه طرق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا وبعضها أشدّ من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس وهذه الاربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وان لم يوجب الشرع الحدّ فى بعضها ولكن اكثر الوعيد عليها وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها وأما أكل الربا فليس فيه الا أكل مال الغير بالتراضى مع الاخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع فى مثله واذا لم يجعل الغصب الذى هو اكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضى الشرع من الكبائر فأكل الربا اكل برضى المالك ولكن دون رضى الشرع وان عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم ايضا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة والمصير الى ان اكل دانق بالخيانة او الغصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع فى مظنة الشك واكثر ميل الظن الى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغى ان تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا فى الدين فيبقى مما ذكره ابوطالب المكى القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين اما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا لان العقل محفوظ كما ان النفس محفوظة بل لا خير فى النفس دون العقل فازالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجرى فى قطرة من الخمر فلا شك فى انه لو شرب ماء فيه قطرة

من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وانما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها في محل الشك وايجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم امره فيعد ذلك من الكبائر بالشرع وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع اسرار الشرع فان ثبت اجماع في انه كبيرة وجب الاتباع والا فللتوقف فيه مجال وأما القذف فليس فيه الا تناول الاعراض والاعراض دون الاموال في الرتبة ولتناولها مراتب واعظمها التناول بالقذف بالاضافة الى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع امره وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذي نريده بالكبيرة الآن ولكن من حيث انه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد اذا رأى انسانا يزني فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته فان لم تقبل شهادته فحد وليس ضروريا في مصالح الدنيا وان كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فاذا هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أن له أن يشهد وحده او ظن انه يساعده على الشهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر وأما السحر فان كان فيه كفر فكبيرة والا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس او مرض أو غيره وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف واذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بغصب اموالهم واخراجهم من مساكنهم وبلادهم واجلاءهم من اوطانهم ليس من الكبائر اذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو اكثر ما قيل فيه فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر فاذا رجع حاصل الامر الى أنا نعني بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم الى ما علم انه لا تكفره قطعا والى ما ينبغي أن تكفره والى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والاثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله الا نص كتاب او سنة واذا لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال فان قلت فهذا اقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده فاعلم ان كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز ان يتطرق اليه الابهام لان دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث انها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة باسمائها كالسرقة والربا وغيرهما وانما حكم الكبيرة ان الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا امر يتعلق بالآخرة والابهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرؤن على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ولكن اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة اذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر او لمس فان مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع اشد تأثيرا في تنوير قلبه من اقدامه على النظر في اظلامه فهذا معنى تكفيره فان كان عنينا

اولم

اولم يكن امتناعه الا بالضرورة للعجز اوكان قادرا ولكن امتنع لخوف امر آخر فهذا لا يصلح للتكفير اصلا وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والاوتار نعم من يشتهي الخمر وسماع الاوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت اليه من معصية السماع فكل هذه أحكام اخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها الا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفات فقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة الى الصلاة كفارة ورمضان الى رمضان كفارة الا من ثلاث اشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة قيل ماترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله فهذا وأمثاله من الالفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لا محالة مبهما فان قلت الشهادة لا تقبل الا ممن يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطا في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في اواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته ولم يذهب احد الى أن هذه الامور من الكبائر وقال الشافعي رضي الله عنه اذا شرب الحنفي النبيذ حددته ولم ارد شهادته فقد جعله كبيرة بايجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة نفيا واثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدح في العدالة الا ما لا يخلو الانسان عنه غالبا بضرورة مجاري العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الاقوال وسماع الغيبة وترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأكل الشبهات وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على حد المصلحة واكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الاهل والولد جميع ما يحتاجون اليه في امر الدين فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها او كثيرها الا بأن يعتزل الناس ويتجرد لامور الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل الا قول مثله لعز وجوده وبطلت الاحكام والشهادات وليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالاجنبيات وامثال هذه الصغائر من هذا القبيل فالى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها لا الى الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لاثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر

(بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا)

اعلم ان الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت واعني بالدنيا

حالتك قبل الموت وبالآخرة حالتك بعد الموت فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك
يسمى القريب الداني منها دنيا والمتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة فإنا
الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت
ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ولذلك قال تعالى وتلك
الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم
الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وما سيكون
في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير فكذلك
ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كسوة الأمثال وأعني بكسوة
الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة فقد جاء رجل إلى
ابن سيرين فقال رأيت كأن في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال
إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت
كأني أصب الزيت في الزيتون فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها
فإنها أمك سبيت في صغرك لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل فنظر فإذا
جاريته كانت أمه وقد سبيت في صغره وقال له آخر رأيت كأني أقلد الدر في أعناق
الخنازير فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال والتعبير من أوله إلى آخره أمثال
تعرفك طريق ضرب الأمثال وإنما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه
وجده صادقا وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به
على الفروج رآه كاذبا فإنه لم يختم به قط وإن نظر إلى معناه وجده صادقا إذ صدر منه روح
الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب
الأمثال لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم أنهم في النوم
والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق ولذلك
قال صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن وهو من المثال الذي
لا يعقله إلا العالمون وأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى
تأويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وإصبعا
تعالى الله عن قوله علوا كبيرا وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم إن الله خلق آدم
على صورته فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك
تعالى الله عن قوله علوا كبيرا ومن ههنا زل من زل في صفات الإلهية حتى في الكلام
وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد في أمر
الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجموده ونظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله
صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح فيثور الملحد
الأحمق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول يا سبحان الله الموت عرض
والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا إلا محال ولكن الله تعالى عزل
هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال وما يعقلها إلا العالمون ولا يدري المسكين أن

من قال رأيت فى منامى أنه جىء بكبش وقيل هذا هو الوباء الذى فى البلد وذبح فقال المعبر صدقت والامر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط لان المذبوح وقع اليأس منه فاذن المعبر صادق فى تصديقه وهو صادق فى رؤيته وترجع حقيقة ذلك الى أن الملك الموكل بالرؤيا وهو الذى يطلع الارواح عند النوم على ما فى اللوح المحفوظ عرّفه بما فى اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لان النائم انما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا انما يكلمون الناس فى الدنيا وهى بالاضافة الى الآخرة نوم فيوصلون المعانى الى أفهامهم بالامثلة حكمة من الله ولطفا بعباده وتيسيرا لادراك ما يعجزون عن ادراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت فى صورة كبش املح مثال ضربه ليوصل الى الافهام حصول اليأس من الموت وقد جبلت القلوب على التأثر بالامثلة وثبوت المعانى فيها بواسطتها ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن عن سرعة التقليب وقد أشرنا الى حكمة ذلك فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات فلنرجع الآن الى الغرض فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن الا بضرب المثال فلتفهم من المثل الذى نضربه معناه لا صورته فنقول الناس فى الآخرة ينقسمون اصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا فى سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة الدنيا فى هذا المعنى اصلا البتة فان مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن ارادته الازلية مطردة لا تبديل لها الا انا ان عجزنا عن احصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن احصاء الاجناس فنقول الناس ينقسمون فى الآخرة بالضرورة الى اربعة اقسام هالكين ومعذبين وناجين وفائزين ومثاله فى الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على اقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ويخلى بعضهم فهم الناجون ويخلع على بعضهم فهم الفائزون فان كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك الا باستحقاق فلا يقتل الا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له فى اصل الدولة ولا يعذب الا من قصر فى خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يخلى الا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع الا على من ابلى عمره فى الخدمة والنصرة ثم ينبغى أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم فى الخدمة واهلاك الهالكين اما تحقيقا بحز الرقبة او تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم فى المعاندة وتعذيب المعذبين فى الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب الى درجات لا تحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم أن الناس فى الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحل فى دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون الى من يحلون فى جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس والمعذبون ينقسمون الى من يعذب قليلا والى من يعذب ألف سنة الى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من

يخرج من النار كما ورد في الخبر وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تعالى تتفاوت دركاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزعها عليها (الرتبة الاولى) وهي رتبة الهالكين ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى اذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضى الملك واكرامه فلا تغفل عن معاني المثال وهذه الدرجة لا تكون الا للجاحدين والمعرضين المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه فان السعادة الاخروية في القرب من الله والنظر الى وجهه وذلك لا ينال اصلا الا بالمعرفة التي نعبر عنها بالايمان والتصديق والجاحدون هم المنكرون والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبانبيائه المرسلين انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا مع نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وانما مطالبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم أن يعبده لطلب جنته او لخوف ناره بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب الا ذاته فقط فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتقيها اذ نار الفراق اذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للاجسام فان نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة ونار جهنم لا شغل لها الا مع الاجسام وألم الاجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ولذلك قيل

وفي فؤاد المحب نار جوى * أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة اذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا فقد رؤى من غلب عليه الوجد فعدا على النار وعلى اصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لان الغضب نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضب قطعة من النار واحتراق الفؤاد اشد من احتراق الاجساد والاشد يبطل الاحساس بالاضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف الا من حيث انه يفرق بين جزئين يرتبط احدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الاجسام فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد احكاما من تأليف الاجسام فهو اشد ايلاما ان كنت من ارباب البصائر وارباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الالم ويستحقره بالاضافة الى ألم الجسم فالصبي لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو في الميدان مع الصولجان احب الي من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل تقهر به الاعداء ويفرح به الاصدقاء لآثر الهريسة والحلواء وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذا وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي

لا يناسبها ولا يلذها الا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها الا البعد والحجاب وكما لا يكون الذوق الا في اللسان والسمع الا في الآذان فلا تكون هذه الصفة الا في القلب فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الالحان وحسن الصور والالوان وليس لكل انسان قلب ولو كان لما صح قوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ولست اعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر بل اعني به السر الذي هو من عالم الامر وهو اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه وسائر الاعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والامر جميعا ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه قل الروح من امر ربي هو الامير والملك لان بين عالم الامر وعالم الخلق ترتيبا وعالم الامر امير على عالم الخلق وهو اللطيفة التي اذا صلحت صلح لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادي روائح المعنى المطوي تحت قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته ونظر بعين الرحمة الى الحاملين على ظاهر لفظه والى المتعسفين في طريق تأويله وان كانت رحمته للحاملين على اللفظ اكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل لان الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة اولئك اكثر وان اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الامر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكمته يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ولنعد الى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس في امر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس الا للجهال المكذبين وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نورده *(الرتبة الثانية)* رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الايمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه فان رأس الايمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد الا الله ومن اتبع هواه فقد اتخذ الهه هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة بل معنى قولك لا اله الا الله معنى قوله تعالى قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهو أن تذر بالكلية غير الله ومعنى قوله تعالى الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد الا بالاستقامة عليه ادق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في امر يسير اذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضي لا محالة نقصانا في درجات القرب ومع كل نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة انما يكون بسبب امرين احدهما قوة الايمان وضعفه والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته واذ لا يخلو بشر في غالب الامر عن واحد من الامرين قال الله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا

ولذلك قال الخائفون من السلف إنما نخاف لأنا أيقنا بالورود على النار وشككنا
في النجاة ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي
يا حنان يا منان قال الحسن يا ليتني كنت ذلك الرجل واعلم أن في الأخبار ما يدل على
أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة
وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها
لبث وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع
والشهر وسائر المدد وإن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة
في الحساب كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم
يعفو وقد يضرب بالسياط وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ويتطرق إلى العذاب
اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة
المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب
والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب
الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة
الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها
وأما كثرته فبكثرتها وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف
هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعني بقوله تعالى وما ربك
بظلام للعبيد وبقوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وبقوله تعالى وأن ليس
للإنسان إلا ما سعى وبقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة
شرا يره إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على
الأعمال وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح إذ قال تعالى فيما أخبر
عنه نبينا صلى الله عليه وسلم سبقت رحمتي غضبي وقال تعالى وإن تك حسنة
يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما فإذا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات
والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة فأما التفصيل
فلا يعرف إلا ظنا ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار
بعين الاعتبار فنقول كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن
جميع الفرائض أعني الأركان الخمسة ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها فيشبه
أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته
إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن وكذلك
اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر وأقل درجات التكفير أن يدفع
العذاب إن لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغي أن يكون بعد
ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية نعم التحاقه بأصحاب
اليمين أو بالمقربين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى فكذلك يتبع أصناف
الإيمان لأن الإيمان إيمانان تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يسمعون ويستمرون

عليه وايمان كشفي يحصل بانشراح الصدور بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ماهو عليه فيتضح أن الكل الى الله مرجعه ومصيره اذليس فى الوجود الا الله تعالى وصفاته وافعاله فهذا الصنف هم المقربون النازلون فى الفردوس الاعلى وهم على غاية القرب من الملأ الاعلى وهم أيضا على اصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات العارفين فى المعرفة بالله تعالى لا تنحصر اذ الاحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وانما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وبقدر ماسبق لهم من الله تعالى فى الازل فالطريق الى الله تعالى لانهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لانهاية لدرجاتهم وأما المؤمن ايمانا تقليديا فهو من اصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين وهم ايضا على درجات فالاعلى من درجات اصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الادنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها اعنى الاركان الخمسة التى هى النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج فأما من ارتكب كبيرة اوكبائر أو أهمل بعض اركان الاسلام فان تاب توبة نصوحا قبل قرب الاجل التحق بمن لم يرتكب لان التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذى لم يتوسخ اصلا وان مات قبل التوبة فهذا امر مخطر عند الموت اذ ربما يكون موته على الاصرار سببا لتزلزل ايمانه فيختم له بسوء الخاتمة لاسيما اذا كان ايمانه تقليديا فان التقليد وان كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما ان ماتا على الايمان يعذبان الا أن يعفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة فى الحساب وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الاصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف اصناف السيئات وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون فى درجات اصحاب اليمين والعارفون المستبصرون فى اعلى عليين ففى الخبر آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لاطراف الاجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين اوعشرة بعشرين فان هذا جهل بطريق ضرب الامثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملا واعطاه عشرة أمثاله وكان الجمل يساوى عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار فان لم يفهم من المثل الا المثل فى الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت فى كفة الميزان والجمل فى الكفة الاخرى عشر عشيره بل هو موازنة معانى الاجسام وأرواحها دون اشخاصها وهياكلها فان الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة بل لو اعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة امثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه الا الجوهريون فان روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة اخرى وراء البصر فلذلك يكذب به الصبي بل القروى والبدوى ويقول ماهذه الجوهرة الا حجر وزنه

مثقال ووزن الجمل الف الف مثقال فقد كذب فى قوله انى اعطيته عشرة امثاله والكاذب بالحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل الى تحقيق ذلك عنده الا بان ينتظر به البلوغ والكمال وان يحصل فى قلبه النور الذى يدرك به ارواح الجواهر وسائر الاموال فعند ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الموازنة اذ قول صلى الله عليه وسلم الجنة فى السموات كما ورد فى الاخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة امثال الدنيا فى الدنيا وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبى تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوى وكما ان الجوهرى مرحوم اذا ابتلى بالبدوى والقروى فى تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم اذا ابتلى بالبليد الابله فى فهم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال وغنى قوم افتقر وعزيز قوم ذل والانبياء مرحومون من الامة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الامة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الازلى وهو المعنى بقوله عليه السلام البلاء موكل بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل فلا تظن ان البلاء بلاء ايوب عليه السلام وهو الذى ينزل بالبدن فان بلاء نوح عليه السلام ايضا من البلاء العظيم اذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه الى الله الا فرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال رحم الله اخى موسى لقد اوذى باكثر من هذا فصبر فاذا لا تخلو الانبياء عن الابتلاء بالجاحدين ولا تخلو الاولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلما ينفك الاولياء عن ضروب من الايذاء وانواع البلاء بالاخراج من البلاد والسعاية بهم الى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب ان يكون اهل المعرفة عند اهل الجهل من الكافرين كما يجب ان يكون المغتاص عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين فاذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه السلام انه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات واياك ان تقصر تصديقك على ما تدركه البصر والحواس فقط فتكون حمارا برجلين لان الحمار يشاركك فى الحواس الخمس وامانات معارف الحمار بسر الهى عرض على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنه واشفقن منه فادراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف الا فى عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم فمن ذهل عن ذلك وعطله واهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى اهلك نفسه بتعطيله او نسيها بالاعراض عنها فلا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم فكل من لم يعرف الا المدرك بالحواس فقد نسى الله اذ ليس ذات الله مدركا فى هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسى الله انساه الله لا محالة نفسه ونزل الى رتبة البهائم وترك الترقى الى الافق الاعلى وخان فى الامانة التى اودعه الله تعالى وانعم عليه كافرا لانعمه ومتعرضا لنقمته الا انه اسوأ حالا من البهيمة فان البهيمة تخلص بالموت واما هذا فعنده امانة سيرجع لا محالة الى مودعها فاليه مرجع الامانة ومصيرها وتلك الامانة كالشمس الزاهرة وانما هبطت الى هذا العالم

الفانى

الفاني وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود الى باريها وخالقها اما مظلمة منكسفة واما زاهرة مشرقة والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلمة أيضا راجعة الى الحضرة اذ المرجع والمصير للكل اليه الا انها ناكسة رأسها عن جهة اعلى عليين الى جهة اسفل سافلين ولذلك قال تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم فبين انهم عند ربهم الا انهم منكوسون قد انقلبت وجوههم الى اقفيتهم وانتكست روسهم عن جهة فوق الى جهة اسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه فنعوذ بالله من الضلال والنزول الى منازل الجهال فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة امثال الدنيا او اكثر ولا يخرج من النار الا موحد ولست اعني بالتوحيد أن يقول بلسانه لا اله الا الله فان اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع الا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وايدي الغانمين عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان وانما ينفع الصدق في التوحيد وكمال التوحيد أن لا يرى الامور كلها الا من الله وعلامته أن لا يغضب على احد من الخلق بما يجري عليه اذ لا يرى الوسايط وانما يرى مسبب الاسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة فمن في قلبه مثقال دينار من ايمان فهو أول من يخرج من النار وفي الخبر يقال أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من ايمان وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من ايمان وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكر في الموازنة بين اعيان الاموال وبين النقود واكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير اليها ففي الآثار ان العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات امثال الجبال لو سلمت له لكان من اهل الجنة فيقوم اصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضي من حسناته حتى لا تبقى له حسنة فتقول الملائكة يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقي طالبون كثير فيقول الله تعالى ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا الى النار وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم اذ ينقل اليه عوضا عما ظلم به * وقد حكي عن ابن الجلاء أن بعض اخوانه اغتابه ثم ارسل اليه يستحله فقال لا افعل ليس في صحيفتي حسنة افضل منها فكيف امحوها وقال هو وغيره ذنوب اخواني من حسناتي اريد أن ازين بها صحيفتي فهذا ما اردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر اسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بانه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين فان ذلك ظن يصيب في اكثر الاحوال ولكن قد تتوق الى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر

الطب وقد يساق الى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من
أسرار الله تعالى الخفية في ارواح الاحياء وغموض الاسباب التي بها مسبب الاسباب
بقدر معلوم اذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لها
اسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها نعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي الى
النجاة بالعفو والرضا وعما يفضي الى الهلاك بالغضب والانتقام ووراء ذلك سر المشيئة
الالهية الازلية التي لا يطلع الخلق عليها فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي
وان كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وان كثرت طاعاته الظاهرة فان الاعتماد
على التقوى والتقوى في القلب وهو اغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره
ولكن قد انكشف لارباب القلوب انه لا عفو عن عبد الا بسبب خفي فيه يقتضي العفو
ولا غضب الا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب
جزاء على الاعمال والاوصاف ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله
تعالى وما ربك بظلام للعبيد ولا قوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح
فليس للانسان الا ما سعى وسعيه هو الذي يرى وكل نفس بما كسبت رهينة ولما زاغوا
أزاغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى ان الله لا يغير
ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وهذا كله قد انكشف لارباب القلوب انكشافا أوضح
من المشاهدة بالبصر اذ البصر يمكن الغلط فيه اذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا
ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها وانما الشأن في انفتاح بصيرة القلب والا فما يرى بها
بعد الانفتاح ولا يتصور فيه الكذب واليه الاشارة بقوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى
(الرتبة الثالثة) رتبة الناجين واعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم
لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان
من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم
المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية
تبعدهم فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام
بين المقامين عبر الشرع عنه بالاعراف وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم بقياس
الآيات والاخبار ومن انوار الاعتبار فأما الحكم على العين كالحكم مثلا بأن الصبيان
منهم فهذا مظنون وليس مستيقن والاطلاع عليه تحقيقا في عالم النبوة ويبعد أن يرتقي
اليه رتبة الاولياء والعلماء والاخبار في حق الصبيان أيضا متعارضة حتى قالت عائشة
رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقال وما يدريك فاذا الاشكال والاشتباه اغلب في هذا المقام
*(الرتبة الرابعة) رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين وهم المقربون السابقون
فان المقلد وان كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم
المقربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد
بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى فلا تعلم

نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وقوله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم * وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلي والاساور فانهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون الا لذة النظر الى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادات ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها كيف رغبتك في الجنة فقالت الجار ثم الدار فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها بل عن كل شئ سواه حتى عن انفسهم ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر الى وجهه والفكر فيه فانه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فني عن نفسه ومعناه انه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت اليه لا نفسه ولا غير نفسه وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة الى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صورة الالوان والالحان على قلب الاصم والاكمه الا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعا انه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق وبرفعه ينكشف الغطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات والله الموفق بلطفه

(بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب)

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الاصرار والمواظبة ولذلك قيل لا صغيرة مع اصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها ارجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الاعمال ادومها وان قل والاشياء تستبان باضدادها وان كان النافع من العمل هو الدائم وان قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره وكذلك القليل من السيئات اذا دام عظم تأثيره في اظلام القلب الا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق اليها عود ربما كان العفو فيها ارجى من صغيرة واظب الانسان عليها عمره ومنها أن يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لان استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به واستصغاره يصدر عن الالف به وذلك يوجب شدة الاثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده

بالسيئات ولذلك لا تؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة
وقد جاء في الخبر المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه
كذباب مر على أنفه فأطاره وقال بعضهم الذنب الذي لا يغفر قول العبد ليت كل
ذنب عملته مثل هذا وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله فإذا نظر إلى عظم
من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تنظر إلى قلة
الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من
واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لا صغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة
وكذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين إنكم لتعملون أعمالا هي في أعينكم
أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات
إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله
تعالى من الكبائر وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز
عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة
المخالف ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة
والغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت
الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة
فرحه بمقارفته إياه كما يقول أما رأيتني كيف مزقت عرضه ويقول المناظر في مناظرته
أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى خجلته وكيف استخففت به وكيف
لبست عليه ويقول المعامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف
خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن
الذنوب مهلكات وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن
يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى فالمريض
الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه
ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أنه إنما يمهل
مقتا ليزداد بالإمهال إثما فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به فيكون
ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله كما قال تعالى ويقولون في أنفسهم
لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ومنها أن يأتي الذنب
ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله
الذي سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان
انضمتا إلى جنايته فتغلظت به فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة
الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر وفي الخبر كل الناس معافى إلا المجاهرين
يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه
وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر فالإظهار
كفران لهذه النعمة وقال بعضهم لا تذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب

ذنبين ولذلك قال تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف وقال بعض السلف ما انتهك المرء من اخيه حرمة اعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الابريسم وركوبه مراكب الذهب وأخذه مال الشبهة من اموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته اياهم بترك الانكار عليهم واطلاق اللسان فى الاعراض وتعديه باللسان فى المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه الا الجاه كالعلم بالجدل والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا فى العالم آمادا متطاولة فطوبى لمن اذا مات ماتت ذنوبه معه وفى الخبر من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من اوزارهم شيئا قال تعالى ونكتب ما قدموا وآثارهم والآثار ما يلحق من الاعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس ويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس ويذهبون بها فى الآفاق وقال بعضهم مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق وتغرق اهلها وفى الاسرائيليات ان عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم ادركته توبة فعمل فى الاصلاح دهرا فأوحى الله تعالى الى نبيهم قل له ان ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن اضللت من عبادى فأدخلتهم النار فبهذا يتضح أن امر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان احداهما ترك الذنب والاخرى اخفاؤه وكما تتضاعف اوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات اذا اتبعوا فاذا ترك التجمل والميل الى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام ويكون له مثل ثوابهم وان مال الى التجمل مالت طباع من دونه الى التشبه به ولا يقدرون على التجمل الا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب فى جميع ذلك فحركات العلماء فى طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها اما بالربح واما بالخسران وهذا القدر كاف فى تفاصيل الذنوب التى التوبة توبة عنها

(الركن الثالث) فى تمام التوبة وشروطها ودوامها الى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا وذلك الندم اورثه العلم بكون المعاصى حائلا بينه وبين محبوبه ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شروط فلا بد من بيانها *(أما العلم)* فالنظر فيه نظر فى سبب التوبة وسيأتى *(وأما الندم)* فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض اعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة اشد من النار وأى سبب ادل على نزول العقوبة من المعاصى وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ولو حدثه انسان واحد يسمى طبيبا أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال فى الحال حزنه فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا اصدق

من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها إلى النار فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة وفي الإسرائيليات أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه فإن قلت فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها فأقول من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا فإن قلت لا فهو جحد للمشاهدة والضرورة بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضا لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم إلى الموت وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنى بل من مخالفته أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب (وأما القصد الذي ينبعث منه) وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن آخرها فإن شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدي ما علم بغالب الظن أنه في ذمته فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب

الشافعي رحمه الله تعالى فيقضي جميع ذلك فان ذلك لا يجزيه اصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه الى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء وأما الحج فان كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج فان لم يقدر مع الافلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد فان لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف اليه من الزكوات والصدقات ما يحج به فانه ان مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانيا والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها وأما المعاصي فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع ايامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر الى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنه بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها بل من قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر مس المصحف محدثا باكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله وبأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه واحب اليه وعد جميع المعاصي غير ممكن وانما المقصود سلوك الطريق المتضاده فان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلب بمعصية فلا يمحوها الا نور يرتفع اليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فان البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبروده وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء له اصدق والثقة به اكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وان كان ذلك ايضا مؤثرا في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى ويدل على أن الشئ يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين اليها فلا جرم كان كل اذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له اذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم من الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهموم وفي لفظ آخر الا الهم بطلب المعيشة وفي حديث عائشة رضي الله عنها اذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها ادخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه ويقال ان الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب والهم بها شعور القلب

بوقعه الحساب وهول المطلع فان فات هم الانسان عالما عاله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة فاعلم أن الحب له خطيئه والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام فى السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكئيب فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال فماله عند الله قال اجر مائة شهيد فاذن الهموم ايضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى وأما مظالم العباد ففيها ايضا معصية وجناية على حق الله تعالى فان الله تعالى نهى عن ظلم العباد ايضا فما يتعلق منه بحق الله تعالى يتداركه بالندم والتحسر وترك مثله فى المستقبل والاتيان بالحسنات التى هى اضدادها فيقابل ايذاءه الناس بالاحسان اليهم ويكفر غصب اموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على اهل الدين واظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وامثاله ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لان ذلك احياء اذ العبد معدوم لنفسه موجود لسيده والاعتاق ايجاد لا يقدر الانسان على اكثر منه فيقابل الاعدام بالايجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع حيث كفر القتل باعتاق رقبة ثم اذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد اما فى النفوس او الاموال او الاعراض او القلوب اعنى به الايذاء المحض أما النفوس فان جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها الى المستحق اما منه او من عاقلته وهو فى عهدة ذلك قبل الوصول وان كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص فان لم يعرف فيجب عليه أن يعرف عند ولى الدم ويحكمه فى روحه فان شاء عفا عنه وان شاء قتله ولا يسقط عهدته الا بهذا ولا يجوز له الاخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب او سرق او قطع الطريق او باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بانواع المجاهدة والتعذيب فالعفو فى محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فان رفع امره هذا الى الوالى حتى اقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى أن ماعز بن مالك اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى قد ظلمت نفسى وزنيت وانى اريد أن تطهرنى فرده فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله انى قد زنيت فرده الثانية فلما كان فى الثالثة امر به فحفر له حفرة ثم امر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقائل يقول لقد هلك لقد احاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة اصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد تاب توبة لو قسمت بين امة لوسعتهم وجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله انى قد زنيت فطهرنى فردها فلما كان من الغد قالت يا رسول الله لم ترددنى لعلك أن تردنى كما رددت ماعزا فوالله انى لحبلى فقال صلى الله عليه وسلم أما الآن فاذهبى حتى تضعى فلما ولدت اتت بالصبى فى خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبى فارضعيه حتى تفطميه فلما فطمته اتت بالصبى وفى يده

كسرة خبز فقالت يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي الى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه اياها فقال مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها وصلى عليها ودفنت (وأما القصاص وحد القذف فلا بد من تحكيم صاحبه المستحق فيه وان كان المتناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من أول مدة وجوده فان ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي اخراجه بعد البلوغ ان كان الولي قد قصر فيه فان لم يفعل كان ظالما مطالبا به اذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته الى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه فاذا حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فانهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فان عجز فلا يبقى له طريق الا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فانه ان لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات ولو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الاجل قريبا فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الاوقات هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته أما أمواله الحاضرة فليرد الى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به فان اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام (وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوءهم أو يعيبهم في الغيبة فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك الا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا في القيامة وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي وربما لو عرف ذلك وتعديه عليه لم تطب نفسه بالاحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فان كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان الى عيب من خفايا عيوبه يعظم اذاه مهما شوفه به فقد اشتد عليه طريق

الاستحلال فليس له الا أن يستحل من مهاتم ستى له مطلمة فليحبرها بالحسنات كما يحبر مظلمة الميت والغائب وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فان هذا حقه فعليه أن يتلطف به ويسعى فى مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاحلال فان أبى الا الاصرار فيكون تلطفه به واعتذاره اليه من جملة حسناته التى يمكن أن يجبر بها فى القيامة جنايته ولكن قدر سعيه فى فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه فى اذاه حتى اذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضا فى القيامة بحكم الله به عليه كمن اتلف فى الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الابراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض عنه شاء أم أبى وكذلك يحكم فى صعيد القيامة احكم الحاكمين واعدل المقسطين وفى المتفق عليه من الصحيحين عن ابى سعيد الخدرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن اعلم أهل الارض فدل على راهب فأتاه فقال انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من تو قال لا فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن اعلم اهل الارض فدل على رجل عالم فقال له انه قتل مائة نفس فهل له من توبة قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق الى ارض كذا وكذا فان بها اناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع الى أرضك فانها ارض سوء فانطلق حتى اذا نصف الطريق اتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله وقالت ملائكة العذاب انه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا ما بين الارضين فالى ايتهما كان ادنى فهو له فقاسوا فوجدوه ادنى الى الارض التى اراد فقبضته ملائكة الرحمة وفى رواية فكان الى القرية الصالحة اقرب منها بشبر فجعل من اهلها وفى روايه فأوحى الله تعالى الى هذه أن تباعدى والى هذه أن تقربى وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه الى هذه اقرب بشبر فغفر له فهذا تعرف انه لا خلاص الا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضى وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود الى تلك الذنوب ولا الى امثالها كالذى يعلم فى مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزما جزما أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فان هذا العزم يتأكد فى الحال وان كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال ولكن لا يكون تائبا ما لم يتأكد عزمه فى الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى اول امره الا بالعزلة والصمت وقلة الاكل والنوم واحراز قوت حلال فان كان له مال موروث حلال او كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه فان رأس المعاصى اكل الحرام فكيف يكون تائبا مع الاصرار عليه ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات

من لا تقدر

من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات وقد قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد اليه ابدا ومن مهمات التائب اذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وان لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة الا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذي يتوب عن الشرب والزنى والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس ان هذه التوبة لا تصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل بل نقول لمن قال لا تصح ان عنيت به ان تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلا بل وجوده كعدمه فما اعظم خطأك فانا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته ونقول لمن قال تصح ان اردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل الى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله فان قال من ذهب الى انها لا تصح اني اردت به أن التوبة عبارة عن الندم وانما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لا لكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنى ان كان توجعه لاجل المعصية فان العلة شاملة لهما اذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لان توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنى فكيف يتوجع على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث انها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر فان استحال ذلك من حيث ان المعصية في الخمرين واحدة وانما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الامر واحدة فاذا معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لا تنال الا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات فهو كالملك المرتب على الايجاب والقبول فانه اذا لم يتم الايجاب والقبول نقول ان العقد لا يصح أي لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمرة الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم الا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو اما ان تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لانه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله واجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب الى تطرق العفو اليها فلا يستحيل أن يتوب عن الاعظم ويندم عليه كالذي يجني على أهل الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خائفا من الجناية على الاهل مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر

الماضون في الاعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعي التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا او يحذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعر معه انه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وان كانا جميعا بحكم شهوته ندم على اكل العسل دون السكر * الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو اليه فهذا أيضا ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر لان الكبائر أيضا متفاوتة في انفسها وفي اعتقاد مرتكبها ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنى مثلا اذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وانه اذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فيحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك في المستقبل وندما على الماضي * الثالث أن يتوب عن صغيرة او صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم انها كبيرة كالذي يتوب عن الغيبة او عن النظر الى غير المحرم او ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر فهو ايضا ممكن ووجه امكانه انه ما من مؤمن الا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندما اما ضعيفا واما قويا ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية اقوى من ألم قلبه في الخوف منها لاسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه فان سلم عن شهوة أقوى منه بل لم تعارضه الا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها واوجب ذلك ترك المعصية وقد يشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه ويكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر الى غير المحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه هذا الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه ان قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي ان أخلع العذار وارخي العنان بالكلية بل اجاهده في بعض المعاصي فعساني اغلبه ويكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي ولولم يتصور هذا لما تصور من الفاسق ان يصلي ويصوم ولقيل له ان كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وان كانت لله فاترك الفسق لله فان امر الله فيه واحد فلا يتصور ان تقصد بصلاتك التقرب الى الله تعالى ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بل يقول لله تعالى علي امران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان وانا ملي في احدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فانا اقهره فيما اقدر عليه وارجو بمجاهدتي فيه ان يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم اذ لا مسلم الا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له الا هذا واذا فهم هذا فهم ان غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها والخوف اذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الندم توبة ولم يشترط الندم على كل ذنب

وقال

وقال التائب من الذنب كمن لا ذنب له ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل ان التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لانها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرض الى سخط الله تعالى نعم يجوز ان يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط و يتوب عن الكثير دون القليل لان لكثرة الذنوب تأثيرا في كثرة العقوبة فيساعد العقوبة بالشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة فانه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا انه لا يمكن ان يتوب عن شئ ولا يتوب عن مثله بل لا بدّ وان يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقي عليه اما في شدّة المعصية واما في غلبة الشهوة واذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصوّر اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصوّر اختلاف حاله في الترك وندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وان لم يكن قد اطاع الله في جميع الاوامر والنواهي فان قلت هل تصح توبة العنين من الزنى الذي فارقه قبل طريان العنة فأقول لا لان التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه اياه ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنى الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فاني ارجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته اذ لا خلاف في انه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وان لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر اسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنى لو ظهر قصده فاذا لا يستحيل أن تبلغ قوّة الندم في حق العنين هذا المبلغ الا انه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيئا يقدّر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا كله ترجع الى أن ظلمة المعصية تمحى عن القلب بشيئين احدهما حرقة الندم والآخر شدّة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا ان التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدّة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا فان قلت اذا فرضنا تائبين احدهما سكنت نفسه عن النزوع الى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع اليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه فقال احمد بن ابي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني ان المجاهد أفضل لان له مع التوبة فضل الجهاد وقال علماء البصرة ذلك الآخر أفضل لانه لو فتر في توبته كان اقرب الى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان * احداهما أن يكون انقطاع نزوعه اليها

يعتوري نفس الشهوة فقط فالمجاهد أفضل من هذا اذ ترك ما يجاهده قد دل على قوة
نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين واعني
بقوة الدين قوة الارادة التي تنبعث باشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة باشارة
الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا وقول القائل ان هذا اسلم اذ لو فتر
لا يعود الى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الافضل فيه خطأ وهو كقول القائل
العنين أفضل من الفحل لانه في أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ لانه اسلم
والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لاعدائه لان المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب
عليه مرة وان غلب مرات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم
بأن العز في الاخطار وأن العلو بشرطه اقتحام الاغرار بل هو كقول القائل الصياد الذي
ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب
والفرس لانه آمن من أن يجمح به فرسه فيكسر أعضاؤه عند السقوط على الارض
وآمن من أن يعضه الكلب ويتعدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب
اذا كان قويا عالما بالتطريق تأديبهما أعلى رتبة واحرى بدرك سعادة الصيد *(الحالة
الثالثة)* أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة اذ بلغ
مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع ولا تهيج الا بالاشارة من الدين وقد
سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة
وقمعها وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الاحاطة بمقصود الجهاد فان الجهاد
ليس مقصودا لعينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك الى شهواته وان عجز
عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت
ومادمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر ومثاله كمال من قهر العدو واسترقه
بالاضافة الى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله ايضا
مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما باقيان عنده بعد ترك الكلب الضراوة
والفرس الجماح بالاضافة الى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ولقد زل في هذا فريق
فظنوا ان الجهاد هو المقصود الاقصى ولم يعلموا ان ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق
وظن آخرون ان قمع الشهوات واماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز
عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الاباحة واسترسل في اتباع
الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع
المهلكات فان قلت فما قولك في تائبين احدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه
والآخر جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه فأيهما افضل فاعلم
ان هذا ايضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة ان تنصب ذنبك بين عينيك
وقال آخر حقيقة التوبة ان تنسى ذنبك وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن
بالاضافة الى حالين وكلام المتصوفة ابدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم ان يخبر
عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الاجوبة لاختلاف الاحوال وهذا

نقصان بالاضافة الى درجة العلم فان معرفة الاشياء على ما هي عليه أفضل وأعلى ولكنه كمال بالاضافة الى الهمة والارادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه امر غيره اذ طريقه الى الله نفسه ومنازله احواله وقد يكون طريق العبد الى الله العلم فالطرق الى الله تعالى كثيرة وان كانت مختلفة في القرب والبعد والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا مع الاشتراك في أصل الهداية فأقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبتدئ المريد لانه اذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى ارادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولان ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع الى مثله فهو بالاضافة الى الغافل كمال ولكنه بالاضافة الى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي ان لا يعرج على غير السلوك فان ظهر له مبادي الوصول وانكشفت له انوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات الى ما سبق من احواله وهو الكمال بل لو عاق المسافر عن الطريق الى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث انه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره يبكي متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع نعم ان لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلا فتعذر السلوك اوكان على طريقه انهار وهو يخاف على نفسه ان يمر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على ان لا يعود الى مثله فان حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه انه لا يعود الى مثله فسلوك الطريق اولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه الا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك وقد أشرنا الى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربع المهلكات بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة ليزيد رغبته ولكن ان كان شابا فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر الى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدي أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الانبياء قياس في غاية الاعوجاج لانهم قد ينزلون في اقوالهم وافعالهم الى الدرجات اللائقة بأممهم فانهم ما بعثوا الا لارشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع اممهم بمشاهدته وان كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة الا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلا للامر على المريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اما اني لا انسى ولكني انسى لأشرع وفي لفظ انما اسهو لاسن ولا تعجب من هذا فان الامم في كنف شفقة الانبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشي في كنف الرعاة اما ترى الاب اذا اراد أن يستنطق ولده الصبي

كيف يترك الى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن كخ كخ لما اخذ تمرة
من تمر الصدقة ووضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة
فانها حرام ولكنه لما علم انه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل الى لكنته بل الذي يعلم
شاة او طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر تلطفا في تعليمه فاياك أن تغفل
عن امثال هذه الدقائق فانها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين نسأل الله حسن
التوفيق بلطفه وكرمه

﴿بيان أقسام العباد في دوام التوبة﴾

اعلم أن طبقات التائبين في التوبة على اربع طبقات * الطبقة الاولى أن يتوب العاصي
و يستقيم على التوبة الى آخر عمره فيتدارك مافرط من امره ولا يحدث نفسه بالعود الى
ذنوبه الا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو
الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات
واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي
ترجع الى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين اليهم الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم
سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم اوزارهم فوردوا القيامة
خفافا فان فيه اشارة الى انهم كانوا تحت اوزار وضعها الذكر عنهم وأهل هذه الطبقة على
رتب من حيث النزوع الى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة وفتر
نزاعها ولم يشغله عن السلوك صراعها والى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملي
بمجاهدتها وردها ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة
وباختلاف الانواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريبا من
توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت
استقامته وكثرت حسناته وحال هذا اعلى وأفضل اذ كل سيئة فانما تمحوها حسنة حتى
قال بعض العلماء انما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع
صدق الشهوة ثم يصبر عنه و يكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وان
كان لا ينكر عظم اثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فيهيج
الشهوة وتحضر الاسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكفاف فانه لا يؤمن خروج عنان
الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته بل طريقه الفرار من ابتداء
اسبابه الميسرة له حتى يسد طريقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته فما يقدر
عليه منه يسلم توبته في الابتداء * (الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة
في امهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها الا انه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه
لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجارى احواله من غير أن يقدم عزما على
الاقدام عليها ولكنه كلما اقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر
للاحتراز من اسبابها التي تعرضه لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة
اذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الاحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد

وهذه

وهذه أيضا رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى وهي اغلب احوال التائبين لان الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وانما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فاما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى اذ قال تعالى الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة فكل المام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه قال تعالى والذين اذا فعلوا فاحشة اوظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم فأثنى عليهم مع ظلمهم لانفسهم لتندمهم ولومهم انفسهم عليه والى مثل هذه الرتبة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه خياركم كل مفتن تواب وفي خبر آخر المؤمن كالسنبلة يفيء احيانا ويميل أحيانا وفي الخبر لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة أي الحين بعد الحين فكل ذلك ادلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والاطعمة الحارة مرة بعد اخرى من غير مداومة واستمرار وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في اوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي صلى الله عليه وسلم كل بني آدم خطاؤن وخير الخطائين التوابون المستغفرون وقال أيضا المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعة أي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة فما وصفهم بعدم السيئة أصلا (الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة الا انه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وانما قهرته هذه الشهوة الواحدة او الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها هذا امنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم افعله وسأتوب عنه واجاهد نفسي في قهره لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد اخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره فربما يختطف قبل التوبة ويقع امره في المشيئة فان تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وان غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الازل لانه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على انه سبق له في الازل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه واذا

يسرت له اسباب المواظبة على التحصيل دل على انه سبق له في الازل أن يكون من العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم مسبب الاسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الاغذية والادوية وارتباط حصول فقه النفس الذي به يستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على الفقه فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم الا نفس صارت الفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للتقرب من رب العالمين الا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق في الازل تدبير رب الارباب ولذلك قال تعالى ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها وقع الفتى في ذنب فسار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس انه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها فاذا الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ماذا ولذا يمكن أن يكون الموت متصلا به فليراقب الانفاس والا وقع في المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر (الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب او الذنوب من غير ان يحدث نفسه بالتوبة ومن غير ان يأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هي النفس الامارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة وامره في الله فان ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وان ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل ان يشمله عموم العفو بسبب خفي لا يطلع عليه كما لا يستحيل أن يدخل الانسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده وأن يجلس في البيت ليعلمه الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الانبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الاعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليس من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى ولست من صام وصلى غفر له فالناس كلهم محرومون الا العالمون والعالمون كلهم محرومون الا العاملون والعاملون كلهم محرومون الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم انه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الارض في بيته الخرب يعد عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين وان كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند ارباب القلوب من المعتوهين والتعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حمقه في صيغة حسنة اذ يقول ان الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الاوعار في طلب دينار واذا قيل له ان الله كريم ودنانير

حزائنه

خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول ما هذا الهوس السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وانما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره مسبب الاسباب واجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعا وانه قد اخبر اذ قال وأن ليس للانسان الا ما سعى فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم وان ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة وهو يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الامر في الدنيا ونسي قوله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا الا انتكاس على ام الراس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا أي ابصرنا انك صدقت اذ قلت وأن ليس للانسان الا ما سعى فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة الى سوء المنقلب والمآب .

(بيان ما ينبغي أن يبادر اليه التائب ان جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة او عن المام بحكم الاتفاق)

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضادها كما ذكرنا طريقه فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو ان يدرأ بالحسنة السيئة فيمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيئات اما بالقلب واما باللسان واما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها . فأما بالقلب فليكفره بالتضرع الى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات . وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوأ فاغفر لي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما اوردناه في كتاب الدعوات والاذكار . وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وانواع العبادات وفي الآثار ما يدل على أن الذنب اذا اتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة والعزم على التوبة وحب الاقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهو أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم يوما وفي بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد

وصلى ركعتين وفي بعض الاخبار صلى اربع ركعات وفي الخبر اذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار وفي الخبر الصحيح ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني عالجت امرأة فأصبت منها كل شئ الا المسيس فاقض علي بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم اوما صليت معنا صلاة الغداة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم ان الحسنات يذهبن السيئات وهذا يدل على أن مادون الزنى من معالجة النساء صغيرة اذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس كفارات لما بينهن الا الكبائر فعلى الاحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار وفي الخبر المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولي أستغفر الله وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين وقالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير فاعلم انه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها في كتاب الاذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب احدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فان ذهب هلكنا فنقول الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول اذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما اذا انضاف اليه تضرع القلب الى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لان تدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل الاخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب وللتوبة والاستغفار درجات واوائلها لا تخلو عن الفائدة وان لم تنته الى أواخرها ولذلك قال سهل لا بد للعبد في كل حال من مولاه فأحسن احواله ان يرجع اليه في كل شئ فان عصى قال يارب استر علي فاذا فرغ من المعصية قال يارب تب علي فاذا تاب قال يارب ارزقني العصمة واذا عمل قال يارب تقبل مني وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال اول الاستغفار الاجابة ثم الانابة ثم التوبة فالاستغفار اعمال الجوارح والانابة اعمال القلوب والتوبة اقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه من الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم النقل الى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله اليه فيرفعه الى العرش فيكون مقامه مقام

حملة العرش وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله فقال انما يكون حبيبا اذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى التائبون العابدون الآية وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه والمقصود أن للتوبة ثمرتين احداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات فبعضه محو لاصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حل عقدة الاصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن نظن أن وجودها كعدمها بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره صدق وانه لا تخلو ذرة من خير عن اثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن اثر ولو خلت الشعيرة الاولى عن اثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير الى أن يثقل فترفع كفة السيئات فاياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بانها لا تقدر في كل ساعة الا على خيط واحد وتقول أي غناء يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة اذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم او فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة الى السكوت عنه وانما يكون نقصا بالاضافة الى عمل القلب ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي ان لساني في بعض الاحوال يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل فقال اشكر الله اذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول وما ذكره حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار اذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه الى ما تعوده فقال أستغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه الى قول ما أحمقك وما أقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة اذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله واذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصي في احدى الكلمتين ويسلم في الاخرى وسلامته اثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى ان الله لا يضيع أجر المحسنين ومعاني قوله تعالى وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما فانظر كيف ضاعفها اذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول هذا تضعيف في الدنيا لادنى الطاعات وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون فاياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات فان هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل اليهم انهم أرباب البصائر واهل التفطن للخفايا

والسر اثر فأي خير في ذكر باللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق في هذه المكيدة الى ثلاثة اقسام ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات. أما السابق فقال صدقت يا ملعون ولكن هي كلمة حق اردت بها باطلا فلا جرم اعذبك مرتين وارغم انفك من وجهين فاضيف الى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه. وأما الظالم المغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الاخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل: وافق شن طبقه. وافقه فاعتنقه. وأما المقتصد فلم يقدر على ارغامه باشراك القلب في العمل وفطن لنقصان حركة اللسان بالاضافة الى القلب ولكن اهتدى الى كماله بالاضافة الى السكوت والاعراض فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذي ذم حياكته فتركها واصبح كاتبا والظالم المخلف كالذي ترك الحياكة أصلا واصبح كناسا والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال لا انكر مذمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالاضافة الى الكاتب لا بالاضافة الى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا اترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير فلا تظن انها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكر الله بل تذم غفلة القلب فهو محتاج الى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج الى الاستغفارين لا الى استغفار واحد فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد والا جهلت معنى ما قال القائل الصادق حسنات الابرار سيئات المقربين فان هذه امور تثبت بالاضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير اضافة بل ينبغي أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي ولذلك قال جعفر الصادق ان الله تعالى خبأ ثلاثا في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيأ فلعل رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيأ فلعل غضبه فيه وخبأ ولايته في عباده فلا تحقروا منهم أحدا فلعله ولي الله تعالى وزاد وخبأ اجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الاجابة فيه

(الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار)

اعلم أن الناس قسمان: شاب لا صبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجب ربك من شاب ليست له صبوة وهذا عزيز نادر. والقسم الثاني هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون الى مصرين والى تائبين وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الاصرار ونذكر الدواء فيه فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل الا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء اذ لا معنى للدواء الا مناقضة اسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وابطاله ولا يبطل الشيء الا بضده ولا سبب للاصرار الا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة الا العلم ولا يضاد الشهوة الا الصبر على قطع الاسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى وأولئك هم الغافلون لا جرم انهم في الآخرة هم الخاسرون فلا دواء

اذن للتوبة الا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل واحد منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقمع الاسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الاصرار فاذن لهذا الدواء اصلان أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بدّ من بيانهما فان قلت أينفع كل علم لحل الاصرار أم لا بدّ من علم مخصوص فاعلم أن كل العلوم بجملتها ادوية لامراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع في علاج الامراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الاصرار فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الابدان ليكون اقرب الى الفهم فنقول يحتاج المريض الى التصديق بأمور (الاوّل) أن يصدّق على الجملة بأن للمرض والصحة اسبابا يتوصل اليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الاسباب وهذا هو الايمان بأصل الطب فان من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الايمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المعصية وهذا هو الايمان بأصل الشرائع وهذا لا بدّ من حصوله اما عن تحقيق اوتقليد وكلاهما من جملة الايمان *(الثاني)* انه لا بدّ أن يعتقد المريض في طبيب معين انه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان ايمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الايمان ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف *(الثالث)* انه لا بدّ أن يصغي الى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والاسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدّة الخوف باعثة له على الاحتماء ووزانه من الدين الاصغاء الى الآيات والاخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلقى الى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوّي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج (الرابع) أن يصغي الى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرفه اوّلا تفصيل ما يضره من افعاله واحواله ومأكوله ومشروبه فليس على كل واحد الاحتماء عن كل شئ ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصية علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يبتلي بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص اوذنوب مخصوصة وانما حاجته في الحال مرهقة الى العلم بأنها ذنوب ثم الى العلم بآفاتها وقدر ضررها ثم الى العلم بكيفية التوصل الى الصبر عنها ثم الى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء فالعاصي ان علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وان كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك وذلك بأن يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد او مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغي أن يصبر الى أن يسأل عنه بل ينبغي أن يتصدّى لدعوة الناس الى نفسه فانهم

ورثة الانبياء والانبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم فى مجامعهم
ويدورون على ابواب دورهم فى الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى
القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذى ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف
مرضه ما لم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن
يرتبوا فى كل قرية وفى كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لا يولدون
الا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة اليهم فى الاصل والفرع والدنيا دار المرضى اذ ليس
فى بطن الارض الا ميت ولا على ظهرها الا سقيم ومرضى القلوب اكثر من مرضى
الابدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى فكل مريض لم يقبل العلاج
بمداواة العالم يسلم الى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذى لا يحتمى
او الذى غلب عليه الجنون الى القيم ليقيده بالسلاسل والاغلال ويكف شره عن
نفسه وعن سائر الناس وانما صار مرض القلوب اكثر من مرض الابدان لثلاث علل *
احداها أن المريض به لا يدرى انه مريض * والثانية أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا
العالم بخلاف مرض البدن فان عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد الموت
غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد فى هذا العالم فقلت النفرة
عن الذنوب وان علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ويجتهد
فى علاج مرض البدن من غير اتكال على دواء * والثالثة وهو الداء العضال فقد الطبيب
فان الاطباء هم العلماء وقد مرضوا فى هذه الاعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه
وصارت لهم سلوة فى عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا الى اغواء الخلق
والاشارة عليهم بما يزيدهم مرضا لان الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا
الداء على الاطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم فما بالكم
تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء
وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الاطباء بل اشتغل الاطباء بفنون الاغواء فليتهم اذ
لم ينصحوا لم يغشوا واذ لم يصلحوا لم يفسدوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فانهم اذا تكلموا
لم يهمهم فى مواعظهم الا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون الى ذلك
الا بالارجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لان ذلك ألذ فى الاسماع وأخف
على الطباع فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصى
ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا او خائنا اهلك بالدواء حيث يضعه
فى غير موضعه فالرجاء والخوف دواآن ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذى غلب
عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه
بالكلية فتكسر سورة اسرافه فى الخوف بذكر اسباب الرجاء ليعود الى الاعتدال وكذلك
المصر على الذنوب المشتهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه
التى سبقت يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع فى قبول التوبة فيتوب فأما معالجة
المغرور المسترسل فى المعاصى بذكر اسباب الرجاء فيضاهى معالجة المحرور بالعسل طلبا

للشفاء وذلك من دأب الجهال والاغبياء فاذا فساد الاطباء هي المعضلة للداء التي لا تقبل الدواء أصلا فان قلت فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه نعم نشير الى الانواع النافعة في حل عقدة الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي اربعة انواع *الاول أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذلك ما ورد من الاخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول احدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ويقول الآخر يا ليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فيقول الآخر يا ليتهم اذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا وفي بعض الروايات ليتهم تجالسوا فتذاكروا ما عملوا ويقول الآخر يا ليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا عما عملوا وقال بعض السلف اذا اذنب العبد امر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبها عليه وان لم يستغفر كتبها وقال بعض السلف ما من عبد يعصي الا استأذن مكانه من الارض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا فيقول الله تعالى للارض والسماء كفا عن عبدي وأمهلاه فانكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب الي فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الطابع معلق بقائمة العرش فاذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها وفي حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة كلما اذنب العبد ذنبا انقبضت اصبع حتى تنقبض الاصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو القفل وقال الحسن ان بين العبد وبين الله حدا من المعاصي معلوما اذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير والاخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها ان كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه ما خلف دينارا ولا درهما انما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه *(النوع الثاني)* حكايات الانبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من الاخراج من الجنة حتى روى انه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته فاستحيى التاج والاكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الاكليل عن جبينه ونودي من فوق العرش اهبطا من جواري فانه لا يجاورني من عصاني قال فالتفت آدم الى حواء باكيا وقال هذا اول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب وروى ان سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لاجل التمثال الذي عبد في داره اربعين يوما وقيل لان المرأة سألته أن يحكم لابيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل احب بقلبه أن يكون الحكم لابيها على خصمه لمكانها منه فسلب

ملكه أربعين يوماً فهرب بأهله على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطعموني
فإني سليمان بن داود شج وطرد وضرب وحكي أنه استطعم من بيت لامرأة فطردته
وبصقت في وجهه وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج
الله له الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين يوماً أيام العقوبة قال فجاءت
الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر
إليه بعض من كان جنى عليه فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم في عذركم
الآن إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه وروي في الإسرائيليات أن رجلاً تزوج
امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته عن نفسه وطالبته بها فجاهدها
واستعصم قال فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبياً في بني إسرائيل وفي قصص موسى عليه
السلام أنه قال للخضر عليه السلام بم أطلعك الله على علم الغيب قال بتركي المعاصي
لأجل الله تعالى وروي أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه
نظرة وكان جديداً فكأنه أعجبه قال فوضعته الريح فقال لم فعلت هذا ولم آمرك قالت
إنما نطيعك إذا أطعت الله وروي أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدري
لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف قال لا قال لقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم
عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترجني ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي
له وتدري لم رددته عليك قال لا قال لأنك رجوتني وقلت عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً
وبما قلت اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا وكذلك لما قال يوسف لصاحب
الملك اذكرني عند ربك قال الله تعالى فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع
سنين وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسمار
بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم
في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار نعم كانت سعادتهم في أن
عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ولأن عذاب
الآخرة أشد وأكبر فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فإنه
نافع في تحريك دواعي التوبة *(النوع الثالث)* أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة
في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته
ورب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله
فينبغي أن يخوف به فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر كما حكي
في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه
وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه قال صلى الله عليه وسلم إن العبد
ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقال ابن مسعود إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب
يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً وقال بعض
السلف ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصاً في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب
إلا وقعت في مثله أو شر منه وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير

ويسر له

و يسرله الشر فقد أبعد والحرمان عن رزق التوفيق اعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر و يتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين انه كان يمشي فى وسط الوحل جامعا ثيابه محترزا عن زلقة وحله حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشي فى وسط الوحل ويبكى ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع فى ذنب وذنبين فعندها يخوض فى الذنوب خوضا وهو اشارة الى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار الى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ما انكرت من تغير الزمان وجفاء الاخوان فذنوبك ورثتك ذلك وقال بعضهم انى لاعرف عقوبة ذنبى فى سوء خلق حمارى وقال آخر أعرف العقوبة حتى فى فأر بيتى وقال بعض الصوفية بالشام نظرت الى غلام نصرانى حسن الوجه فوقفت انظر اليه فمر بى ابن الجلاء الدمشقى فأخذ بيدى فاستحييت منه فقلت يا أبا عبد الله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار فغمز يدى وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة وقال ابو سليمان الدارانى الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت احدا صلاة جماعة الا بذنب يذنبه وفى الخبر ما انكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم وفى الخبر يقول الله تعالى ان ادنى ما اصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتى ان احرمه لذيذ مناجاتى . وحكى عن ابى عمرو بن علوان فى قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائما ذات يوم اصلى فخامر قلبى هوى طاولته بفكرتى حتى تولد منه شهوة الرجال فوقعت الى الارض واسود جسدى كله فاستترت فى البيت فلم اخرج ثلاثة ايام وكنت اعالج غسله فى الحمام بالصابون فلا يزداد الا سوادا حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد وكان قد وجه الى فأشخصنى من الرقة فلما أتيته قال لى اما استحييت من الله تعالى كنت قائما بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك واخرجتك من بين يدى الله تعالى فلولا انى دعوت الله لك وتبت اليه عنك للقيت الله بذلك اللون قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وانا بالرقة واعلم انه لا يذنب العبد ذنبا الا و يسود وجه قلبه فان كان سعيدا اظهر السواد على ظاهره لينزجر وان كان شقيا اخفى عنه حتى ينهمك و يستوجب النار و لاخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنب فى الدنيا على الجملة ان يكسب ما بعده صفته فان ابتلى بشئ كان عقوبة له و يحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وان اصابته نعمة كانت استدراجا له و يحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه واما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته و يوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة فى درجاته . (النوع الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد وكل ذلك مما لا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء فى غير موضعه بل ينبغى أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل اوّلا بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها فليستدل

بقرائن الاحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وصى عليه اقتداء برسول الله صلى الله
عليه وسلم حيث قال له واحد أوصني يا رسول الله ولا تكثر علي قال لا تغضب وقال له
آخر أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما في ايدي الناس فان ذلك
هو الغنى واياك والطمع فانه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع واياك وما يعتذر منه وقال
رجل لمحمد بن واسع اوصني فقال اوصيك ان تكون ملكا في الدنيا والآخرة قال وكيف لي
بذلك قال الزم الزهد في الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الاول مخايل
الغضب فنهاه عنه وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الامل وتخيل محمد
ابن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصني فقال كن رحيما
اكن لك بالجنة زعيما فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة وقال رجل لابراهيم
ابن ادهم اوصني فقال اياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فان الناس هم
الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي النسناس وما اراهم بالناس بل
غمسوا في ماء الياس فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة واخبر عما كان هو الغالب على حاله
في وقته وكان الغالب اذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل اولى من أن يكون
بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله الى عائشة رضي الله عنها أن اكتبي لي كتابا
توصيني فيه ولا تكثري فكتبت اليه من عائشة الى معاوية سلام عليك اما بعد فاني
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله
مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضى الناس وكله الله الى الناس والسلام عليك
فانظر الى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة بصددها وهو مراعاة الناس
وطلب مرضاتهم وكتبت مرة اخرى اما بعد فاتق الله فانك اذا اتقيت الله كفاك الله
الناس واذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام فاذا على كل ناصح ان تكون
عنايته مصروفة الى تفرس الصفات الخفية وتوسم الاحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم
حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن
عن الوعظ فيه تضييع زمان فان قلت فان كان الواعظ يتكلم في جمع اوسأله من
لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك
كافة الخلق في الحاجة اليه اما على العموم واما على الاكثر فان في علوم الشرع اغذية
وادوية فالاغذية للكافة والادوية لارباب العلل ومثاله ما روى ان رجلا قال لابي سعيد
الخدري اوصني قال عليك بتقوى الله عز وجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه
رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك في اهل الارض وذكر في اهل السماء
وعليك بالصمت الا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان وقال رجل للحسن اوصني فقال
اعز امر الله يعزك الله وقال لقمان لابنه يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك
وخذ من الدنيا بلاغك وانفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض
فتكون عيالا وعلى اعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر
بصلاتك فان الصلاة افضل من الصوم ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين وقال

ايضا الابنه يابنى لاتضحك من غير عجب ولاتمش فى غير ارب ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ماقدّمت ومال غيرك ماتركت يابنى ان من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لايملك لسانه يندم * وقال رجل لابى حازم أوصنى فقال كل مالوجاءك الموت عليه ورأيته غنيمة فالزمه وكل مالوجاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصنى فقال كن بساما ولاتكن غضابا وكن نفاعا ولاتكن ضرارا وانزع عن اللجاجة ولاتمش فى غير حاجة ولاتضحك من غير عجب ولاتعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك ياابن عمران * وقال رجل لمحمد بن كرام أوصنى فقال اجتهد فى رضى خالقك بقدر ماتجتهد فى رضى نفسك وقال رجل لحامد اللفاف أوصنى فقال اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات قال وماغلاف الدين قال ترك طلب الدنيا الامالابدّ منه وترك كثرة الكلام الافيمالابدّ منه وترك مخالطة الناس الافيمالابدّ منه وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى أمابعد فخف مما خوّفك الله واحذر مما حذرك الله وحذ مما فى يديك لما بين يديك فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام وكتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن يسأله أن يعظه فكتب اليه أمابعد فان الهول الاعظم والامور المفظعات أمامك ولا بدّلك من مشاهدة ذلك امابالنجاة واما بالعطب واعلم انه من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر فى العواقب نجا ومن اطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن ابصر فهم ومن فهم علم فاذا زللت فارجع واذا ندمت فأقلع واذا جهلت فاسأل واذا غضبت فأمسك * وكتب مطرف بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أمابعد فان الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لاعقل له وبها يغتر من لاعلم عنده فكن فيها ياامير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدّة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الى عدى بن ارطاه أمابعد فان الدنيا عدوّة اولياء الله وعدوّة اعداء الله فأما اولياؤه فغمتهم وأما اعداؤه فغرتهم وكتب ايضا الى بعض عماله أمابعد فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فاذا هممت بظلم احد فاذكر قدرة الله عليك واعلم انك لاتأتى الى الناس شيئا الاكان زائلا عنهم باقيا عليك واعلم ان الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام فهكذا ينبغى ان يكون وعظ العامّة و وعظ من لا يدرى خصوص واقعته فهذه المواعظ مثل الاغذية التى يشترك الكافة فى الانتفاع بها ولاجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصى واستسرى الفساد وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون أبياتا ويتكلفون ذكر ماليس فى سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامّة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل الى القلب بل القائل متصلف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف واذا كان طلب الطبيب اول علاج المرضى فطلب العلماء اول علاج العاصين فهذا احد أركان العلاج واصوله *(الاصل الثانى الصبر) ووجه الحاجة اليه ان المريض

اما اذا طول مرضه لتناوله ما يضره واما يتناول ذلك اما لعلة عن مضرته واما لشدة علة شهوته وله سببان بما ذكرناه هو علاج العلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس وحاصله أن المريض اذا اشتدت ضراوته بالأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب اليه مما في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الالم الذي يناله في تركه فلابد على كل حال من مرارة الصبر وكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشاب مثلا اذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه او حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي ان يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرئ المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا اشتد خوفه تباعد من الاسباب المهيجة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر اليه وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول لذائذ الاطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم الا بصبر ولا يصبر الا عن خوف ولا يخاف الا عن علم ولا يعلم الا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد فأول الامر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من ذلك بحر جرد عن سائر الشواغل مصروف الى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه واذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك فمن اعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الانبياء الا شرح طرق الهدى وان علينا للآخرة والاولى فان قلت فقد رجع الامر كله الى الايمان لان ترك الذنب لا يمكن الا بالصبر عنه والصبر لا يمكن الا بمعرفة الخوف والخوف لا يكون الا بالعلم والعلم لا يحصل الا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الايمان فكان من أصر على الذنب لم يصر الا لانه غير مؤمن فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الايمان بل يكون لضعف الايمان اذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب امور احدها أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالاضافة الى تأثرها بالحاضر الثاني أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق وقد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والالف والعادة طبيعة خامسة والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقال عز وجل بل تؤثرون الحيوة الدنيا وقد عبر عن شدة الامر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر اليها فنظر اليها فقال وعزتك لا يسمع بها احد فيدخلها فحفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر

اليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى احد الا دخلها وحلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها احد الا دخلها فحفها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر اليها فنظر اليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها احد فاذا كون الشهوة مرهقة فى الحال وكون العقاب متأخرا الى المآل سببان ظاهران فى الاسترسال مع حصول اصل الايمان فليس كل من يشرب فى مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر فى حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الالم المنتظر * الثالث انه مامن مذنب مؤمن الا وهو فى الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره الا أن طول الامل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الايمان * الرابع انه مامن مؤمن موقن الا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة ايجابا لا يمكن العفو عنها فهو يذنب و ينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه اسباب اربعة موجبة للاصرار على الذنب مع بقاء اصل الايمان نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح فى اصل ايمانه وهو كونه شاكا فى صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذى يحذره الطبيب عن تناول ما يضره فى المرض فان كان المحذر ممن لا يعتقد فيه انه عالم بالطب فيكذبه او يشك فيه فلا يبالى به فهذا هو الكفر فان قلت فما علاج الاسباب الخمسة فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه فى السبب الاول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب الى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب والمتأخر اذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه انه أبدا فى دنياه يتعب فى الحال لخوف امر فى الاستقبال اذ يركب البحار ويقاسى الاسفار لاجل الربح الذى يظن انه قد يحتاج اليه فى ثانى الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصرانى بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه الى الموت وكان الماء البارد ألذ الاشياء عنده تركه مع أن الموت ألمه لحظة اذا لم يخف ما بعده ومفارقته للدنيا لا بد منها فكم نسبة وجوده فى الدنيا الى عدمه أزلا وابدا فلينظر كيف يبادر الى ترك ملاذه بقول ذمى لم تقم معجزة على طبه فيقول كيف يليق بعقلى ان يكون قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات عنده دون قول نصرانى طبيب يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له الاعوام الخلق وكيف يكون عذاب النار عندى اخف من عذاب المرض وكل يوم فى الآخرة بمقدار خمسين الف سنة من ايام الدنيا وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه و يكلف نفسه تركها و يقول اذا كنت لا اقدر على ترك لذاتى أيام العمر وهى ايام قلائل فكيف اقدر على ذلك ابد الآباد واذا كنت لا اطيق ألم الصبر فكيف اطيق ألم النار واذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف اصبر عن نعيم الآخرة وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر فى أن أكثر صياح اهل النار من التسويف لان المسوف يبنى الامر على ما ليس اليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وان بقى فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم فليت

شعري هل عمر في الحال الا العلمة الشهوة والشهوة لست بمفارقة عدابل بمضاعف اد بتأكد بالاعتياد فليست الشهوة التي أكدها الانسان بالعادة كالتي لم يؤكدها وعن هذا هلك المسوفون لانهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الايام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها ابدا شاق ومامثال المسوف الا مثال من احتاج الى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع الا بمشقة شديدة فقال اؤخرها سنة ثم اعود اليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا اعظم من حماقته اذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه اذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف وأما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في ارض خربة فان امكان العفو عن الذنب مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلدة وترك ذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفنها واخفائها فلم يفعل وقال أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة او عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ الى داري او اذا انتهى الى داري مات على باب الدار فان الموت ممكن والغفلة ممكنة وقد حكي في الاسمار أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل اذ قد لا يمكن ولا يكون وأما الخامس وهو الشك فهذا كفر وعلاجه الاسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له ما قاله الانبياء المؤيدون بالمعجزات على صدقه هل هو ممكن او تقول أعلم انه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فان قال أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكانه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وان قال انا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة انه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وان كان ألذ الاطعمة فيقول أتركه لا محالة لاني اقول ان كذب فلا يفوتني الا هذا الطعام والصبر عنه وان كان شديدا فهو قريب وان صدق فتفوتني الحيوة والموت بالاضافة الى ألم الصبر عن الطعام واضاعته شديد فيقال له يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الانبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الاولياء والعلماء والحكماء بل جميع اصناف العقلاء واستاعني بهم جهال العوام بل ذوي الالباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس في العقلاء الا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وان اختلفوا في كيفيته فان صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى ابد الآباد وان كذبوا فلا يفوتك الا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف ان كان عاقلا مع هذا الفكر اذ لا نسبة لمدة العمر الى ابد الآباد بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائرا يلتقط في كل الف الف سنة حبة واحدة من تلك الذرة ولم ينقص ابد الآباد شيئا فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لاجل سعادة تبقى ابد الآباد ولذلك قال ابو العلاء احمد بن سليمان التنوخي

المعـرّى

قال المنجم والطبيب كلاهما * لا تبعث الاموات قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر * اوصح قولي فالخسار عليكما

ولذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الامور وكان شاكا ان صح ماقلت فقد تخلصنا جميعا والا فقد تخلصت وهلكت اى العاقل يسلك طريق الامن في جميع الاحوال فان قلت هذه الامور جلية ولكنها ليست تنال الا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته وما علاج القلوب لردها الى الفكر لاسيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله فاعلم أن المانع من الفكر امران أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في امور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة والثاني أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات ومامن انسان الا وله في كل حالة من احواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذته في طلب الحيلة فيه اوفي مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك وأما علاج هذين المانعين فهو أن يقول لقلبه ما اشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألما بذكره مع استحقار ألم مواقعته فكيف تصبر على مقاساته اذا وقع وانت عاجز عن الصبر على تقدير الموت ومابعده ومتألم به وأما الثاني وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة اشد واعظم فانها لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر وكيف وفي التوبة عن المعاصي والاقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الانس به ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله الا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الانس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا وكيف بما ينضاف اليه من نعيم الآخرة نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعدما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة ما عودتها تتعود والخير عادة والشر لجاجة فاذن هذه الافكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الافكار وعظ الوعاظ وتنبهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب اليه ويعبر عن السبب الذي اوقع المرافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق اذ التوفيق هو التأليف بين الارادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقد روى في حديث طويل انه قام عمار بن ياسر فقال يا امير المؤمنين لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه اخبرنا عن الكفر على ماذا بني فقال علي رضي الله عنه بني على اربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة والشك فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمي نسي الذكر ومن غفل حاد عن الرشد ومن شك غرته الاماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله مالم يكن يحتسب فما ذكرناه بيان

لبعض آفات العقلة عن التفكر وهذا القدر في التوبه كاف واذا كان الصبر ركنا من
اركان دوام التوبه فلا بد من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد ان شاء الله تعالى

(كتاب الصبر والشكر وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله اهل الحمد والثناء* المنفرد برداء الكبرياء* المتوحد بصفات المجد والعلاء* المؤيد صفوة الاولياء* بقوة الصبر على السراء والضراء* والشكر على البلاء والنعماء* والصلاة على محمد سيد الانبياء * وعلى اصحابه سادة الاصفياء * وعلى آله قادة البررة الاتقياء* صلاة محروسة بالدوام عن الفناء* ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء* (أما بعد) فان الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر كما وردت به الآثار وشهدت له الاخبار وهما أيضا وصفان من اوصاف الله تعالى واسمان من اسمائه الحسنى اذ سمى نفسه صبورا وشكورا فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الايمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل الى الوصول الى القرب من الله تعالى الا بالايمان وكيف يتصور سلوك سبيل الايمان دون معرفة ما به الايمان ومن به الايمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الايمان وعن ادراك ما به الايمان فما احوج كلا الشطرين الى الايضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط احدهما بالآخر ان شاء الله تعالى

(الشطر الاول) في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الايمان وبيان اختلاف اساميه باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة الى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه وهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده ان شاء الله تعالى

(بيان فضيلة الصبر)

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا وأضاف اكثر الدرجات والخيرات الى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وقال تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا وقال تعالى ولنجزين الذين صبروا اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وقال تعالى أولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فما من قربة الا وأجرها بتقدير وحساب الا الصبر ولاجل كون الصوم من الصبر فانه نصف الصبر قال الله تعالى الصوم لي وانا اجزي به فأضافه الى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى واصبروا ان الله مع الصابرين وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون

فالهدى

فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول * (وأما الاخبار) * فقد قال صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان على ماسيأتي وجه كونه نصفا وقال صلى الله عليه وسلم من اقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن اعطى حظه منهما لم يبال مافاته من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على ما انتم عليه احب الي من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني اخاف أن تفتح الدنيا عليكم بعدي فينكر بعضكم بعضا وينكركم اهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ماعندكم ينفد وماعند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم الآية وروى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال الصبر والسماحة وقال ايضا الصبر كنز من كنوز الجنة وسئل مرة ما الايمان فقال الصبر وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة معناه معظم الحج عرفة وقال أيضا صلى الله عليه وسلم افضل الاعمال ما اكرهت عليه النفوس وقيل اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام تخلق باخلاقي وان من اخلاقي اني انا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانصار فقال امؤمنون انتم فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله قال وما علامة ايمانكم قالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة وقال صلى الله عليه وسلم في الصبر على ماتكره خير كثير وقال صلى الله عليه وسلم انكم لاتدركون ماتحبون الابصبركم على ماتكرهون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين والاخبار في هذا لاتحصى * (واما الآثار) فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعري عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران احدهما افضل من الآخر الصبر في المصيبات حسن وافضل منه الصبر عما حرم الله تعالى واعلم أن الصبر ملاك الايمان وذلك بأن التقوى افضل البر والتقوى بالصبر وقال علي كرم الله وجهه بني الايمان على اربع دعائم اليقين والصبر والجهاد والعدل وقال أيضا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا ايمان لمن لا صبر له وكان عمر رضي الله عنه يقول نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين يعني بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى والعلاوة مايحمل فوق العدلين على البعير واشار به الى قوله تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون وكان حبيب بن ابي حبيب اذا قرأ هذه الآية انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب بكى وقال واعجباه أعطى وأثنى أي هو المعطي للصبر وهو المثني وقال ابو الدرداء ذروة الايمان الصبر للحكم والرضاء بالقدر وهذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه الابعد فهم حقيقة الصبر ومعناه اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق

(بيان حقيقة الصبر ومعناه)

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات
الدين انما تنتظم من ثلاثة امور معارف واحوال وأعمال فالمعارف هي الاصول وهي تورث
الاحوال والاحوال تثمر الاعمال فالمعارف كالاشجار والاحوال كالاغصان والاعمال
كالثمار وهذا مطرد في جميع منازل السالكين الى الله تعالى واسم الايمان تارة
يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه في اختلاف اسم الايمان والاسلام
في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم الا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة فالصبر على
التحقيق عبارة عنها والعمل صبر هو كالثمرة يصدر عنها ولا يعرف هذا الا بمعرفة كيفية
الترتيب بين الملائكة والانس والبهائم فان الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك
في البهائم والملائكة أما في البهائم فلنقصانها وأما في الملائكة فلكمالها وبيانه أن البهائم
سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون الا
الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة
في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا وأما الملائكة عليهم السلام فانهم جردوا للشوق الى
حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها
حتى تحتاج الى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف وأما
الانسان فانه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه الا شهوة الغذاء الذي
هو محتاج اليه ثم يظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له
قوة الصبر البتة اذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما
لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبي الا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى
بفضله وسعة جوده اكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال
شخصه بمقاربة البلوغ ملكين احدهما يهديه والآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن
البهائم واختص بصفتين احداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح
المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي اليه الهداية والتعريف فالبهيمة
لا معرفة لها ولا هداية الى مصلحة العواقب بل الى مقتضى شهواتها في الحال فقط فلذلك
لا تطلب الا اللذيذ وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه فصار
الانسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن
لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه
الانسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر الى قدرة وقوة يدفع
بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى
به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند
الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى وذلك بحسب امداد الله تعالى عبده
بالتأييد كما أن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي
بها فارق الانسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات
بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب

بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لاعداء الله تعالى فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وان تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق بأتباع الشياطين فاذا ترك الافعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لاسباب السعادات فى الدنيا والآخرة فاذا قوى يقينه أعنى المعرفة التى تسمى ايمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين واذا قوى ثباته تمت الافعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين باذن الله تعالى وتسخيره اياهما وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين واذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى لم يخف عليك أن جانب اليمين الذى هو أشرف الجانبين من جنبتى الدست ينبغى أن يكون مسلما له فهو اذا صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال وللعبد طوران فى الغفلة والفكر وفى الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسىء اليه فيكتب اعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب اقباله له حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسىء اليه فيثبت عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات باثباتهما فلذلك سميا كراما كاتبين أما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما ولان الملائكة كلهم كرام بررة وأما الكاتبين فلاثباتهما الحسنات والسيئات وانما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه فى هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة وكل شئ من عالم الملكوت لا تدركه الابصار فى هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة فى القيامة الصغرى ومرة فى القيامة الكبرى وأعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت اذ قال صلى الله عليه وسلم من مات فقد قامت قيامته وفى هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وفيها يقال كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا أما فى القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملاء من الخلق وفيها يساق المتقون الى الجنة والمجرمون الى النار زمرا لا آحادا والهول الاول هو هول القيامة الصغرى وجميع أهوال القيامة الكبرى نظير فى القيامة الصغرى مثل زلزلة الارض مثلا فان أرضك الخاصة بك تزلزل فى الموت فانك تعلم أن الزلزلة اذا

زلزلت بلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تتزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل
مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع
الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان
واعلم أنك أرضي مخلوق من التراب وحظك الخاص من التراب بدنك فقط فأما بدن
غيرك فليس بحظك والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان
وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تخشاه
إذ ليس يتزلزل به بدنك فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط فهي أرضك وترابك
الخاص بك وعظامك جبال أرضك ورأسك سماء أرضك وقلبك شمس أرضك وسمعك
وبصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ومغيض العرق من بدنك بحر أرضك وشعورك
نبات أرضك وأطرافك أشجار أرضك وهكذا إلى جميع أجزائك فإذا انهدم بالموت
أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت
الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا فإذا أظلم
قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك
فقد انكدرت النجوم انكدارا فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا
فإذا انفجر من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا فإذا التفت إحدى
ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلا فإذا فارقت الروح الجسد
فقد حملت الأرض فمدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ولست أطول بجميع موازنة
الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى
ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك فإن بقاء الكواكب
في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب
والأعمى يستوي عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت
في حقه دفعة واحدة وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ومن انشق رأسه
فقد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماء له
فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى والخوف بعد أشغل والهول
بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض
ونسفت الجبال وتمت الأهوال واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا في وصفها فإنا لم نذكر
عشر عشير أوصافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى
الولادة الكبرى فإن للإنسان ولادتين إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى
مستودع الأرحام فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم وله في سلوكه إلى الكمال
منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى
فضاء العالم فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة
فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى

سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا الى الرحم بل اوسع وأعظم فقس الآخرة
بالاولى فما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وما النشأة الثانية الا على قياس
لنشأة الاولى بل أعداد النشآت ليست محصورة فى اثنتين واليه الاشارة بقوله تعالى
وننشئكم فيما لا تعلمون فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك
والملكوت والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء الى احد
العالمين وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالاعور الدجال فما أعظم غفلتك
يا مسكين وكلنا ذلك المسكين وبين يديك هذه الاهوال فان كنت لا تؤمن بالقيامة
الكبرى بالجهل والضلال افلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى اوما سمعت قول سيد
الانبياء كفى بالموت واعظا اوما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى
الله عليه وسلم اللهم هوّن على محمد سكرات الموت اوما تستحيي من استبطائك هجوم
الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون
فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من الموت
فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم
من رسول الا كانوا به يستهزؤن افيظنون انهم فى الدنيا خالدون اولم يروا كم اهلكنا
قبلهم من القرون انهم اليهم لا يرجعون ام يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم
معدومون كلا ان كل لما جميع لدينا محضرون ولكن ما تأتيهم من آية من آيات ربهم
الا كانوا عنها معرضين وذلك لانا جعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم
فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون ولنرجع الى الغرض
فان هذه تلويحات تشير الى امور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول قد ظهر أن الصبر
عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة
الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين
اذ قد ذكرنا أن الحسنة فى الاقبال على الاستفادة منهما والسيئة فى الاعراض عنهما وما
للصبيان والمجانين سبيل الى الاستفادة فلا يتصوّر منهما اقبال واعراض وهما لا يكتبان
الا الاقبال والاعراض من القادر على الاقبال والاعراض ولعمرى انه قد تظهر
مبادى اشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج الى سن البلوغ كما يبدو
نور الصبح الى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد الى مضار الآخرة
بل الى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها
فى الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر فى الآخرة بل على القيم العدل
والولى البر الشفيق ان كان من الابرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة
الاخيار أن يكتب على الصبى سيئته وحسنته على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ
ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولى هذا سمته فى حق الصبى فقد
ورث أخلاق الملائكة واستعملها فى حق الصبى فينال بها درجة القرب من رب العالمين
كما ناله الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين واليه الاشارة بقوله صلى الله

عليه وسلم أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار إلى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم

(بيان كون الصبر نصف الإيمان)

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يخص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين (أحدهما) أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا فيكون للإيمان ركنان أحدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث إلى آخره (الاعتبار الثاني) أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار الصوم نصف الصبر لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان فهكذا ينبغي أن يفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة

(بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر)

اعلم أن الصبر ضربان أحدهما ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا عن شهوة البطن

والفرج سمي عفة وان كان عن احتمال مكروه اختلفت اساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر فان كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو اطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها وان كان فى احتمال الغنى سمي ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر وان كان فى حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن وان كان فى كظم الغيظ والغضب سمي حلما ويضاده التزمر وان كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وان كان فى اخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوما وان كان عن فضول العيش سمي زهدا ويضاده الحرص وان كان صبرا على قدر يسير من الحظوط سمي قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الايمان داخل فى الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال هو الصبر لانه أكثر أعماله وأعزها كما قال الحج عرفة وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى والصابرين فى البأساء أى المصيبة والضراء أى الفقر وحين البأس أى المحاربة اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون فاذا هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعانى من الاسامى يظن أن هذه الاحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث رأى الاسامى مختلفة والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعانى اولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الاسامى فانها وضعت دالة على المعانى فالمعانى هى الاصول والالفاظ هى التوابع ومن يطلب الاصول من التوابع لا بد وأن يزل والى الفريقين الاشارة بقوله تعالى أفمن يمشى مكبا على وجهه اهدى امن يمشى سويا على صراط مستقيم فان الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه لا بمثل هذه الانعكاسات نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه

(بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف)

اعلم أن باعث الدين بالاضافة الى باعث الهوى له ثلاثة احوال (احدها) أن يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل اليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون الى هذه الرتبة هم الاقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين واياهم ينادى المنادى يا ايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية *(الحالة الثانية)* أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه الى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة وهؤلاء هم الغافلون وهم الاكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله واليهم الاشارة بقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين وهؤلاء هم الذين اشتروا الحيوة

الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد ارشادهم فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالاماني وهو غاية الحمق كما قال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وصاحب هذه الحالة اذا وعظ قال أنا مشتاق الى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست اطمع فيها ولم يكن مشتاقا الى التوبة ولكن قال ان الله غفور رحيم كريم فلا حاجة الى توبتي وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل عقله الا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل الى قضاء شهوته فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم اسير في ايدي الكفار وهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه الى الكفار ويجعله أسيرا عندهم لانه بفاحش جنايته سلطه انه سخرما كان حقه أن لا يستسخر وسلط من حقه أن يتسلط عليه وانما استحق المسلم أن يكون مسلطا لما فيه من معرفة الدين وباعث الدين وانما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه اوجب من حق غيره عليه فمهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن ارق مسلما لكافر بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه الى أبغض اعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته لان الهوى أبغض اله عبد في الارض عند الله تعالى والعقل اعز موجود خلق على وجه الارض (الحالة الثالثة) أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يعد لا من الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ عسى الله أن يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق اليه أيضا ثلاثة احوال باعتبار عدد ما يصرعه فانه اما أن يغلب جميع الشهوات او لا يغلب شيأ منها او يغلب بعضها دون بعض ومن يل قوله تعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض اولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالانعام بل هم أضل سبيلا اذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ولذلك قيل ولم أرفي عيوب الناس شيأ كنقص القادرين على التمام ويقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر الى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه الا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا والى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر واذا دامت التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره فان الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وايسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعته اعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر ولا يقوى على أن يصرع

الا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما اندفعت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى و تيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضاء كما سيأتي في كتاب الرضاء فالرضاء أعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اعبد الله على الرضاء فان لم تستطع ففي الصبر على ماتكره خير كثير وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاث مقامات. أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين. والثانية الرضاء بالمقدور وهذه درجة الزاهدين * والثالثة المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصدّيقين. وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة اعلى من مقام الرضاء كما أن مقام الرضاء اعلى من مقام الصبر وكأن هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا. واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرّم * فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكاره نفل والصبر على الاذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن اظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر فكون الصبر نصف الايمان لا ينبغي أن يخيل اليك أن جميعه محمود بل المراد به انواع من الصبر مخصوصة

* (بيان مظان الحاجة الى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الاحوال) .

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين أحدهما هو الذي يوافق هواه والآخر هو الذي لا يوافقه بل يكرهه وهو محتاج الى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الاحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما فهو اذا لا يستغني قط عن الصبر. (النوع الاول): ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الاسباب وكثرة الاتباع والانصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد الى الصبر على هذه الامور فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون اليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك الى البطر والطغيان فان الانسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي لا يصبر عليها الا الصدّيق وقال سهل الصبر على العافية أشدّ من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا وابتلينا بفتنة السرّاء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله وقال عز وجل ان من ازواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم وقال صلى الله عليه وسلم الولد مبخلة مجبنة محزنة ولما نظر عليه السلام الى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله انما اموالكم واولادكم فتنة اني لما رأيت ابني يتعثر لم املك نفسي ان أخذته ففي ذلك عبرة لاولي الابصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر

عليها أن لا يركن اليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها ولا ينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالانفاق وفى بدنه ببذل المعونة للخلق وفى لسانه ببذل الصدق وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم الا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى وانما كان الصبر على السراء أشد لانه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر والصبر على الحجامة والفصد اذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه اذا حضرته الاطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء *(النوع الثانى)* ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو اما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى ازالته كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام *(القسم الاول)* ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان *(الضرب الاول)* الطاعة والعبد يحتاج الى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لان النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهى الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس الا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله أنا ربكم الاعلى ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره اذ استخف قومه فأطاعوه وما من أحد الا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وان كان ممتنعا من اظهاره فان امتعاضه وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر الا عن اضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء فاذا العبودية شاقة على النفس مطلقا ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ويحتاج المطيع الى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال الاولى قبل الطاعة وذلك فى تصحيح النية والاخلاص والصبر على شوائب الرياء ودواعى الآفات وعقد العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس وقد نبه عليه صلوات الله عليه اذ قال انما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى وقال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ولهذا المعنى قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى الا الذين صبروا وعملوا الصالحات *الحالة الثانية* حالة العمل كى لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الادب الى آخر العمل الاخير فيلازم الصبر عن دواعى الفتور الى الفراغ وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى نعم أجر العاملين الذين صبروا أى صبروا الى تمام العمل *الحالة الثالثة* بعد الفراغ من العمل اذ يحتاج الى الصبر عن افشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر اليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى ولا تبطلوا أعمالكم وكما قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والاذى فقد أبطل

عمله * والطاعات تنقسم الى فرض ونفل وهو محتاج الى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى فى قوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى فالعدل هو الفرض والاحسان هو النفل وايتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم وكل ذلك يحتاج الى صبر (الضرب الثانى) المعاصى فما أحوج العبد الى الصبر عنها وقد جمع الله تعالى انواع المعاصى فى قوله تعالى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وقال صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه والمعاصى مقتضى باعث الهوى وأشد أنواع الصبر عن المعاصى الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة فان العادة طبيعة خامسة فاذا انضافت العادة الى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعهما ثم ان كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه اثقل على النفس كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا وأنواع المزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التى يقصد بها الازراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفى علومهم وسيرهم ومناصبهم فان ذلك فى ظاهره غيبة وفى باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان احداهما نفى الغير والاخرى اثبات نفسه وبها تتم له الربوبية التى هى فى طبعه وهى ضد ما امر به من العبودية ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا فى المحاورات يعسر الصبر عنها وهى أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الانس بها فترى الانسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار فى أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد فى الخبر من أن الغيبة أشد من الزنى ومن لم يملك لسانه فى المحاورات ولم يقدر على الصبر على ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر فى آحاد المعاصى باختلاف داعية تلك المعصية فى قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس فلا جرم يبقى حديث النفس فى العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا الا بأن يغلب على القلب هم آخر فى الدين يستغرقه كمن اصبح وهمومه هم واحد والا فان لم يستعمل الفكر فى شئ معين لم يتصور فتور الوسواس عنه * (القسم الثانى) ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار فى دفعه كما لو أوذى بفعل أو قول وجنى عليه فى نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم ما كنا نعد ايمان الرجل ايمانا اذا لم يصبر على الاذى وقال تعالى ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا فقال بعض الاعراب من المسلمين هذه قسمة ما اريد بها وجه الله فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال يرحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر وقال تعالى ودع اذاهم وتوكل على الله وقال تعالى واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا وقال تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك

الآية وقال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور أى تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم فى القصاص وغيره فقال تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقال صلى الله عليه وسلم صل من قطعك واعط من حرمك واعف عمن ظلمك ورأيت فى الانجيل قال عيسى بن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من قبل ان السن بالسن والانف بالانف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الايمن فحوّل اليه الخد الايسر ومن اخذ رداءك فأعطه ازارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك أمر بالصبر على الاذى فالصبر على اذى الناس من أعلى مراتب الصبر لانه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا *(القسم الثالث)* مالا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الاعزة وهلاك الاموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الاعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من اعلى مقامات الصبر قال ابن عباس رضى الله عنهما الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر على المصيبة عند الصدمة الاولى فله تسعمائة درجة وانما فضلت هذه الرتبة مع انها من الفضائل على ماقبلها وهى من الفرائض لأنّ كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه الا الانبياء لانه بضاعة الصدّيقين فان ذلك شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أسألك من اليقين ماتهوّن علىّ به مصائب الدنيا فهذا صبر مستنده حسن اليقين وقال أبو سليمان والله مانصبر على مانحب فكيف نصبر على مانكره وقال النبى صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه اوماله اوولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة ان انصب له ميزانا أوانشر له ديوانا وقال صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج بالصبر عبادة وقال صلى الله عليه وسلم مامن عبد مؤمن اصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى انا لله وانا اليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واعقبنى خيرا منها الا فعل الله به ذلك وقال أنس حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قال ياجبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانك لاعلم لنا الا ماعلمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود فى دارى والنظر الى وجهى وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل اذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكنى الى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فاذا ابرأته ابرأته ولا ذنب له وان توفيته فالى رحمتى وقال داود عليه السلام يارب ماجزاء الحزين الذى يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الايمان فلا أنزعه عنه أبدا وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى خطبته ماانعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر الا كان ماعوّضه منه أفضل مما انتزع منه وقرأ انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وسئل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله قيل وكيف

ذلك قال الراضي لا يتمنى فوق منزلته وقيل حبس الشبلي رحمه الله في المارستان فدخل عليه جماعة فقال من انتم قالوا احباؤك جاؤك زائرين فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لو كنتم احبائى لصبرتم على بلائى وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها فاصبر لحكم ربك فانك باعيننا ويقال ان امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها اما تجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابه ازال عن قلبي مرارة وجعه وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضاء فيما قدنال وحسن الصبر فيما قدفات وقال نبينا صلى الله عليه وسلم من اجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك ويروى عن بعض الصالحين انه خرج يوما وفى كمه صرة فافتقدها فاذا هى قد اخذت من كمه فقال بارك الله له فيها لعله احوج اليها منى وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له اسقيك ماء فقال جرّني قليلا الى العدوّ واجعل الماء في الترس فانى صائم فان عشت الى الليل شربته فهكذا كان صبر سالكى طريق الآخرة على بلاء الله تعالى فان قلت فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الامر الى اختياره فهو مضطر شاء أم أبى فان كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في الاختيار فاعلم انه انما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى واظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم وهذه الامور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضاء بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى عن الرميصاء ام سليم رحمها الله انها قالت توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له افطاره فجعل يأكل فقال كيف الصبى فقلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تصنعت له أحسن ما كنت اتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال مالهم قلت اعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بئس ماصنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وان الله قبضه اليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال اللهم بارك لهما في ليلتهما قال الراوى فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرؤا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتنى دخلت الجنة فاذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة وقد قيل الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ولا يخرجه عن حدّ الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع اذ يكون من جميع الحاضرين لاجل الموت سواء ولان البكاء توجع القلب على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان الى الموت ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له أما نهيتنا عن هذا فقال ان هذه رحمة وانما يرحم الله من عباده الرحماء بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضاء فالمقدم على الحجامة والفصد راض

به وهو ومتألم بسببه لا محالة وقد يعمى عن عيبه اذا عظم ألمه وسيأتي ذلك في كتاب الرضاء ان شاء الله تعالى وكتب ابن أبي نجيح يعزي بعض الخلفاء ان احق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما ابقاه له واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك واعلم أن اجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فاذا دفع الكراهة بالشكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصيبات وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والاوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الاحوال والافعال فان الذي كفي الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لا يسكن واكثر جولان الخواطر انما يكون في فائت لا تدارك له او في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر فهو كيفما كان تضييع زمان وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به انسا بالله تعالى او عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون هذا ان كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات اذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره او من يتوهم انه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه بل يقدر المخالفة من اخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفته ولا يزال في شغل دائم فللشيطان جندان جند يطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار وهذا لان الشيطان خلق من النار وخلق الانسان من صلصال كالفخار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال خلقتني من نار وخلقته من طين فاذا حيث لم يسجد الملعون لابينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لاولاده ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد اظهر انقياده واذعانه وانقياده بالاذعان سجود منه فهو روح السجود وانما وضع الجبهة على الارض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولو جعل وضع الجبهة على الارض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة فلا ينبغي أن يذهب صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس الى يوم الدين الا أن تصبح وهمومك هم واحد فتشغل

قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين ولا تظن انه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء في القدح فانك ان اردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء او بغيره فقد طمعت في غير مطمع بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة وكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين يخلو عن جولان الشيطان والا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين الا الشيطان ولذلك قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يبغض الشاب الفارغ وهذا لان الشاب اذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزدوج أفراخه أيضا ويبيض مرة اخرى ويفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا اسرع من توالد سائر الحيوانات لان طبعه من النار واذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسري شيئا فشيئا على الاتصال فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا تبقى النار اذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال اذا لم تكن شهوة فاذا اذا تأملت علمت أن اعدى عدوك شهوتك وهي صفة نفسك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ما هو فقال هي نفسك ان لم تشغلها اشغلتك فاذا حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة وحركة الباطن اولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا يقطعه الا الموت نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

(بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه)

اعلم أن الذي انزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء فالصبر وان كان شاقا أو ممتنعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل فالعلم والعمل هما الاخلاط التي منها تركب الادوية لامراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض الى علم آخر وعمل آخر وكما أن اقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة واذا اختلفت العلل اختلف العلاج اذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك مما يطول ولكنا نعرف الطريق في بعض الامثلة فنقول اذا افتقر الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه اذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والاعمال الصالحة فنقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل مصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه الا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة امور أحدها أن تنظر الى مادة قوتها وهي الاغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد

من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصار عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والاطعمة المهيجة للشهوة الثاني قطع اسبابه المهيجة له في الحال فانه انما يهيج بالنظر الى مظان الشهوة اذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم النظرة سهم مسموم من سهام ابليس وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه الا تغميض الاجفان او الهرب من صوب رميه فانه انما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فاذا انقلب عن صوب الصور لم يصبك سهمه الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح فان كل ما يشتهيه الطبع في المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الانفع في حق الاكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الاعمال ثم قد لا يقمع الشهوة في حق اكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء فهذه ثلاثة اسباب فالعلاج الاول وهو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته والثاني يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها والثالث يضاهي تسليتها بشئ قليل مما يميل اليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب *وأما تقوية باعث الدين فانما يكون بطريقين * احدهما اطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره في الاخبار التي اوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الاثر ان ثواب الصبر على المصيبة اكثر مما فات وانه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة اذ فاته ما لا يبقى معه الا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ومن اسلم خسيسا في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال وهذا من باب المعارف وهو من الايمان فتارة يضعف وتارة يقوى فان قوي قوي باعث الدين وهيجه تهييجا شديدا وان ضعف ضعفه وانما قوة الايمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر وأقل ما اوتي الناس الصبر وعزيمة اليقين * والثاني أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرئ عليها وتقوى منه في مصارعتها فان الاعتياد والممارسة للاعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الاعمال ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين وبالجملة فقوة الممارسين للاعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين وذلك لان قواهم لم تتأكد بالممارسة فالعلاج الاول يضاهي اطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند اغرائه اياهم بموسى حيث قال وانكم اذا لمن المقربين والثاني يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة اسباب ذلك منذ الصبى حتى يأنس به ويستجرئ عليه وتقوى فيه منته فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وان ضعفت ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها

مهما

مهما أراد فهذا منهاج العلاج في جميع انواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه وانما اشدّها كف الباطن عن حديث النفس وانما يشتدّ ذلك على من تفرغ له بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر فان الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب الى جانب وهذا لا علاج له ألبتة الا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الاهل والولد والمال والجاه والرفقاء والاصدقاء ثم الاعتزال الى زاوية بعد احراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ثم كل ذلك لا يكفي مالم تصر الهموم هما واحدا وهو الله تعالى ثم اذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك مالم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السموات والارض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى اذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وان لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه الا الاوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من القراءة والاذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك الى تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الاوراد الظاهرة ثم اذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الاوقات الا بعضها اذ لا يخلو في جميع اوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وايذاء من انسان وطغيان من مخالط اذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض اسباب المعيشة فهذا احد الانواع الشاغلة. وأما النوع الثاني فهو ضروري اشد ضرورة من الاول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس واسباب المعاش فان تهيئة ذلك أيضا تحوج الى شغل ان تولاه بنفسه وان تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الاوقات ان لم تهجم به ملمة او واقعة وفي تلك الاوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والارض مالا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق والانتهاء الى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الاحوال والاعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقد يقل الجهد ويجل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمعوّل وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فانها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد نعم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المجذوب الى اسفل سافلين لا ينجذب الى اعلى عليين وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب اليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ان لربكم في ايام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها وذلك لان تلك النفحات والجذبات لها اسباب سماوية اذ قال الله تعالى في السماء رزقكم وما توعدون وهذا من اعلى انواع الرزق والامور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى ييسر الله تعالى اسباب الرزق فما علينا الا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب اجله كالذي يصلح الارض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه الا بمطر ولا يدري متى يقدّر الله اسباب المطر الا انه يثق بفضل الله تعالى ورحمته انه لا يخلي سنة عن مطر

وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن حدثة من الحدثات وتحفة من النفحات فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الارادة والاخلاص وعرضه لهبات رياح الرحمة وكما يقوى انتظار الامطار في اوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الاوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان فان الهمم والانفاس اسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى تستدر بها الامطار في اوقات الاستسقاء وهي لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت اشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من اقطار الجبال والبحار بل الاحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك وانما انت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها فلا تحتاج الا الى ان تكسر الشهوة وترفع الحجاب فتشرق انوار المعارف من باطن القلب واظهار ماء الارض بحفر القنى اسهل واقرب من استنزال الماء اليها من مكان بعيد منخفض عنها ولكونه حاضرا في القلب ومنسيا بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الايمان تذكرا فقال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون وقال تعالى وليتذكر أولوا الالباب وقال تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وانما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا الى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد والسير من النفس الى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله اشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه فان لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع اغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا يكون اغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لامور الربوبية وعنه العبارة بقوله تعالى قل الروح من امر ربي وليس القلب مذموما على حب ذلك وانما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الامر لحسده على كونه من عالم الامر فأضله وأغواه وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس يطلب الا بقاء لا فناء فيه وعزا لا ذل فيه وأمنا لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمالا لا نقصان فيه وهذه كلها من اوصاف الربوبية وليس مذموما على طلب ذلك بل حق كل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة ولكن الملك ملكان ملك مشوب بأنواع الآلام ومحقوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الانسان عجولا راغبا في العاجلة فجاء الشيطان وتوسل اليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل اليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم والاحمق من أتبع نفسه هواها

وتمنى على الله الاماني فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عزالدنيا وملكها على قدر امكانه ولم يتدل الموفق بحبل غروره اذعلم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فعبر عن المخذولين بقوله تعالى كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقال تعالى ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا وقال تعالى فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق ارسل الله الملائكة الى الرسل وأوحى اليهم ماتم على الخلق من اهلاك العدو واغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق الى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا اصل له ان سلم ولا دوام له اصلا فنادوا فيهم يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحيوة الدنيا من الآخرة فما متاع الحيوة الدنيا في الآخرة الا قليل فالتوراة والانجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وابراهيم وكل كتاب منزل ما انزل الا لدعوة الخلق الى الملك الدائم المخلد والمراد منهم أن يكونوا ملوكا في الدنيا ملوكا في الآخرة أما ملك الدنيا فالزهد فيها والقناعة باليسير منها وأما ملك الآخرة فما القرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعزا لا ذل فيه وقرة عين اخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم الى ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به اذ الدنيا والآخرة ضرتان ولعلمه بأن الدنيا لا تسلم له أيضا ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه ثم مهما تسلم وتم الاسباب ينقضي العمر حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاصرا حسده الشيطان عليه فصده عنه ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين واشارة الايمان وهذا ملك بالاستحقاق اذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقه الى حيث يريد ويهوى فما اعظم اغترار الانسان اذ ظن انه ينال الملك بأن يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا ومثل هذا هل يكون الا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة قال كيف اطلب منك حاجة وملكي اعظم من ملكك قال كيف قال من انت عبده فهو عبد لي فقال كيف ذلك قال انت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لي فهذا اذا هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق الى الملك في الآخرة فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا فاذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه يسهل

عليك النزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته اذ يصير تركه ملكا في الحال وترجو به ملكا في الآخرة ومن كوشف بهذه الامور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخ فيه بالعادة مباشرة اسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف بل لابد وأن يضيف اليه العمل وعمله في ثلاثة امور * احدها أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الاسباب كما يهرب من غلبته الشهوة عن مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الارض اذ قال تعالى الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها * الثاني أن يكلف نفسه في أعماله افعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالبذل وزي الحشمة بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه فينبغي أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده فلا معنى للمعالجة الا المضادة * الثالث أن يراعي في ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة الى الطرف الاقصى من التبدل فان الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه الا بالتدريج فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض ثم اذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض الى أن يقنع بالبقية وهكذا يفعل شيئا فشيئا الى أن تقمع تلك الصفات التي رسخت فيه والى هذا التدريج الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى واليه الاشارة بقوله عليه السلام لا تشادوا هذا الدين فان من يشاده يغلبه فاذا ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أصفه الى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات واتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الاقسام التي فصلناها من قبل فان تفصيل الآحاد تطول ومن راعى التدريج ترقى به الصبر الى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه فتنعكس اموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مشربا هنيئا لا نصبر عنه وهذا لا يعرف الا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات فان الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهرا فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم حتى اذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الامر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب والى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين انه سأل الشبلي عن الصبر أيه اشد فقال الصبر في الله تعالى فقال لا فقال الصبر لله فقال لا فقال الصبر مع الله فقال لا قال فايش قال الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف وقد قيل في معنى قوله تعالى اصبروا وصابروا ورابطوا اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله عناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل في معناه

والصبر عنك فمذموم عواقبه * والصبر في سائر الاشياء محمود

وقيل أيضا

الصبر

الصبر يجمل في المواطن كلها ❊ الا عليك فانه لا يجمل

هـذا آخر ما اردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره

(الشطر الثاني) من الكتاب في الشكر وله ثلاثة اركان (الاول) في فضيلة الشكر وحقيقته واقسامه واحكامه (الثاني) في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة (الثالث) في بيان الافضل من الشكر والصبر

(الركن الاول في نفس الشكر)

(بيان فضيلة الشكر)

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع انه قال ولذكر الله اكبر فقال تعالى فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون وقال تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقال تعالى وسنجزي الشاكرين وقال عز وجل اخبارا عن ابليس اللعين لاقعدن لهم صراطك المستقيم قيل هو الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال ولا تجد اكثرهم شاكرين وقال تعالى وقليل من عبادي الشكور وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى لئن شكرتم لازيدنكم واستثنى في خمسة اشياء في الاغناء والاجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء وقال فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وقال ويرزق من يشاء بغير حساب وقال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من أخلاق الربوبية اذ قال تعالى والله شكور حليم وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام اهل الجنة فقال تعالى وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وقال وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (وأما الاخبار) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وروى عن عطاء انه قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت اخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت وأي شأنه لم يكن عجبا أتاني ليلة فدخل معي في فراشي او قالت في لحافي حتى مس جلدي جلده ثم قال يا ابنة ابي بكر ذريني اتعبد لربي قالت قلت اني احب قربك لكني اوثر هواك فأذنت له فقام الى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال افلا اكون عبدا شكورا ولم لا افعل ذلك وقد أنزل الله تعالى علي ان في خلق السموات والارض الآية وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدا والى هذا السر يشير ما روى انه مر بعض الانبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى وقودها الناس والحجارة فأنا ابكي من خوفه وسأله أن يجيره من النار فأجاره ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكي الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة او أشد قسوة ولا تزول قسوته الا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال

ينادي يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمادون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال وفي لفظ آخر الذين يشكرون الله على السراء والضراء وقال صلى الله عليه وسلم الحمد رداء الرحمن وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي في كلام طويل وأوحى الله تعالى إليه أيضا في صفة الصابرين أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر إلي أزيدهم ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه أي المال نتخذ فقال عليه السلام ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال وقال ابن مسعود الشكر نصف الإيمان

(بيان حد الشكر وحقيقته)

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه (فالأصل الأول) العلم وهو علم بثلاثة أمور بعين النعمة ووجه كونها نعمة في حقه وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه فإنه لا بد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة فهذه الأمور لا بد من معرفتها هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم والوسائط مسخرون من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وقال ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك

به فى النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا فى حق الملك نعم لا ينقص من توحيده فى حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة اليه بتوقيعه الذى كتبه بقلمه وبالكاغد الذى كتبه عليه فانه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما لانه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن ايضا مضطران من جهة الملك فى الايصال وانه لورد الامر اليه ولم يكن من جهة الملك ارهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم اليه شيئا فاذا عرف ذلك كان نظره الى الخازن الموصل كنظره الى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا فى توحيده من اضافة النعمة الى الملك وكذلك من عرف الله تعالى وعرف افعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا فى يد الكاتب وأن الحيوانات التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها فان الله تعالى هو المسلط للدواعى عليها ليفعل شاءت أم ابت كالخازن المضطر الذى لا يجد سبيلا الى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما اعطاك ذرة مما فى يده فكل من وصل اليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر اذ سلط الله عليه الارادة وهيج عليه الدواعى وألقى فى نفسه أن خيره فى الدنيا والآخرة فى أن يعطيك ما اعطاك وأن غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لا يحصل الا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا الى تركه فهو اذا انما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه فى العطاء لما اعطاك ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك فهو اذا انما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعما عليك بل اتخذك وسيلة الى نعمة اخرى هو يرجوها وانما الذى انعم عليك هو الذى سخره لك وألقى فى قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا الى الايصال اليك فان عرفت الامور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته الهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك فقال الله عز وجل علم أن كل ذلك منى فكانت معرفته شكرا فاذا لا تشكر الا بأن تعرف أن الكل منه فان خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الاصل *(الاصل الثانى)* الحال المستمدة من اصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضا فى نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن انما يكون شكرا اذا كان حاويا شرطه وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالانعام ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا فنقول الملك الذى يريد الخروج الى سفر فأنعم بفرس على انسان يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة اوجه * احدها أن يفرح بالفرس من حيث انه فرس وانه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وانه جواد نفيس وهذا فرح من لا حظ له فى الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده

في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح * الوجه الثاني أن يفرح به لا من حيث
انه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى
لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائه عن
الفرس او استحقاره له بالاضافة الى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك * الوجه الثالث
أن يفرح به ليركبه فيخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة
القرب منه وربما يرتقي الى درجة الوزارة من حيث انه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب
الملك أن يعطيه فرسا ويعتني به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك
بشيء من ماله على أحد الا بواسطته ثم انه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا بل يريد
مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون
القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن
نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي وهذا حال كل من فرح
بنعمة من حيث انها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر والثانية داخلة
في معنى الشكر من حيث انه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة
عنايته التي تستحثه على الانعام في المستقبل وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله
ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وانما الشكر التام في الفرح الثالث وهو أن
يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث انه يقدر بها على التوصل الى القرب منه
تعالى والنزول في جواره والنظر الى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا وأمارته أن
لا يفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه
عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما لم يرد صاحب
الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج بل من حيث انه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم
مشاهدته له وقربه منه ولذلك قال الشبلي رحمه الله الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة
وقال الخواص رحمه الله شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب وشكر الخاصة
على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن
والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب
لا يلتذ في حال الصحة الا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وانما يلتذ بغيره اذا مرض
بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء
الحلوة ويستحلي الأشياء المرة كما قيل

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

فاذا هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى فان لم يكن اهل فمعرى فان لم يكن هذا فالدرجة
الثانية أما الأولى فخارجة عن حساب الشكر بالكلية فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس
ومن يريد الفرس للملك لينال بها اليه * (الأصل الثالث) العمل بموجب الفرح الحاصل
من معرفة المنعم وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد
الخير واضماره لكافة الخلق وأما باللسان فاظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة

عليه

عليه وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته حتى ان شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الاذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الاعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضاء عن الله تعالى وهو مأمور به فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف اصبحت قال بخير فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذي اردت منك وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين ان يشكر او يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شئ الى عبد مملوك لا يقدر على شئ فالاحرى بالعبد ان لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف الى الشكوى أن تكون شكواه الى الله تعالى فهو المبلي والقادر على ازالة البلاء وذل العبد لمولاه عز والشكوى الى غيره ذل واظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح قال الله تعالى ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له وقال تعالى ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فالشكر باللسان من جملة الشكر وقد روي أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر فقال يا أمير المؤمنين لو كان الامر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك فقال تكلم فقال لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة أما الرغبة فقد أوصلها الينا فضلك وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك وانما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف فهذه هي اصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته فأما قول من قال ان الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر الى فعل اللسان مع بعض احوال القلب وقول من قال ان الشكر هو الثناء على المحسن بذكر احسانه نظر الى مجرد عمل اللسان وقول القائل ان الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة جامع لاكثر معاني الشكر لا يشذ منه الا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة ان ترى نفسك في الشكر طفيليا اشارة الى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيد الشكر أن لا ترى نفسك اهلا للنعمة اشارة الى حال من احوال القلب على الخصوص وهؤلاء اقوالهم تعرب عن احوالهم فلذلك تختلف اجوبتهم ولا تتفق ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لانهم لا يتكلمون الا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج اليه واعراضا عما لا يحتاج اليه فلا ينبغي أن تظن ان ما ذكرناه طعن عليهم وانه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك بعاقل اصلا الا ان تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني ام يتناول بعضها مقصودا وبقية

المعاني تكون من توابعه ولوازمه ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات
فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء والله الموفق برحمته

(بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى)

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر فإنا نشكر
الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم
وجاههم أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثول بين أيديهم في صورة
الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء
من ذلك وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين * أحدهما أن الله تعالى منزه عن
الحظوظ والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة وعن نشر الجاه والحشمة
بالثناء والإطراء وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعا سجدا فشكرنا إياه على ما لا
حظ له فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نسجد أو نركع إذ لا حظ
للملك فيه وهو غائب لا علم له ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها * الوجه الثاني أن كل
ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا
وداعيتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته
فكيف نشكر نعمة بنعمة ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه أو
أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثاني شكرا للأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر
كما يحتاج الأول ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر
محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشك في الأمرين جميعا والشرع قد
ورد به فكيف السبيل إلى الجمع فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك
لموسى عليه السلام فقال يا رب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة
ثانية من نعمك وفي لفظ آخر وشكري لك نعمة أخرى منك توجب علي الشكر لك
فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعم
مني رضيت منك بذلك شكرا فإن قلت فقد فهمت السؤال وفهمي قاصر عن إدراك
معنى ما أوحي إليهم فإني أعلم استحالة الشكر لله تعالى فأما كون العلم باستحالة الشكر
شكرا فلا أفهمه فإن هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكأن الحاصل يرجع
إلى أن من لم يشكر فقد شكر وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى
والفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه فاعلم
أن هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم المعاملة ولكنا نشير منها إلى ملامح
فنقول ههنا نظران * نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر
وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن
كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلا وأبدا لأن الغير هو الذي يتصور
أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ الموجود المحقق هو
القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود

بغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت الى غيره لم يكن له وجود البتة وانما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقى موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم الا واحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذا ليس فى الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد فان نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره واليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن ابى حبيب حيث قرأ انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب فقال واعجباه اعطى واثنى اشارة الى انه اذا اثنى على اعطائه فعلى نفسه اثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن ههنا نظر الشيخ ابو سعيد الميهنى حيث قرئ بين يديه يحبهم و يحبونه فقال لعمرى يحبهم ودعه يحبهم محبوبه فبحق يحبهم لانه انما يحب نفسه اشار به الى انه المحب وانه المحبوب وهذه رتبة عالية لا تفهمها الا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك أن المصنف اذا احب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع اذا أحب صنعته فقد أحب نفسه والوالد اذا أحب ولده من حيث انه ولده فقد أحب نفسه وكل ما فى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعته فان احبه فما احب الا نفسه واذا لم يحب الا نفسه فبحق احب ما احب وهذا كله نظر بعين التوحيد وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أى فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير الا الله تعالى فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم و يقول كيف فنى وطول ظله اربعة اذرع ولعله يأكل فى كل يوم ارطالا من الخبز فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعانى كلامهم وصرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين واليه الاشارة بقوله تعالى ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فاكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما ارسلوا عليهم حافظين ثم بين أن ضحك العارفين عليهم عدا اعظم اذ قال تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الارائك ينظرون وكذلك امة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة فقال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فهذا أحد النظرين ، النظر الثانى نظر من لم يبلغ الى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان قسم لم يثبتوا الا وجود أنفسهم وانكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم فى كلتى العينين لانهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذى هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ولم يقتصروا على هذا حتى اثبتوا انفسهم ولو عرفوا لعلموا انهم من حيث هم هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وانما وجودهم من حيث اوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الموجود و بين الموجد وليس فى الوجود الا موجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان واذا كان كل من عليها فان فلا يبقى الا وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، الفريق الثانى ليس بهم عمى ولكنهم عور لانهم يبصرون باحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه والعين الاخرى ان تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق فأثبت موجودا آخر

مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما أن الذي قبله جاحد تحقيقا فإن جاوز حد العمى
إلى العمش أدرك تفاوتا بين الموجودين فأثبت عبدا وربا فبهذا القدر من إثبات
التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد ثم إن كحل بصره بما يزيد
في أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى
فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان إلى المحو فيمحي عن رؤية ما سوى
الله فلا يرى إلا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك نقصان في وجود
ما سوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فبهذا تتفاوت درجات
الموحدين وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار
والأنبياء هم الكحالون وقد جاؤا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلا الله
ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون والجاحدون
والمشركون أيضا قليلون وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد إذ عبدة
الأوثان قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد
دخولا ضعيفا والمتوسطون هم الأكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال
فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك
ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز

لكل إلى شأو العلا حركات ◦ ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب فقال له اسجد واقترب قال في
سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي
ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فقوله صلى الله عليه وسلم أعوذ بعفوك من عقابك
كلام عن مشاهدة فعل الله فقط وكأنه لم ير إلا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله
ثم اقترب ففني عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال
أعوذ برضاك من سخطك وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصانا في التوحيد فاقترب وترقى من
مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال أعوذ بك منك وهذا فرار منه إليه من
غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فارا منه إليه ومستعيذا ومثنيا ففني عن
مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على
نفسك فقوله صلى الله عليه وسلم لا أحصي خبر عن فناء نفسه وخروجه عن مشاهدتها
وقوله أنت كما أثنيت على نفسك بيان أنه المثني والمثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود
وأن كل شيء هالك إلا وجهه فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن
لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله فيستعيذ بفعل من فعل فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذ انتهى
إلى الواحد حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ولقد كان صلى الله
عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدا بالإضافة إلى الثانية فكان
يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصانا في سلوكه وتقصيرا في مقامه وإليه الإشارة
بقوله صلى الله عليه وسلم إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة

فكان

فكان ذلك لترقيه الى سبعين مقاما بعضها فوق البعض اولها وان كان مجاوزا اقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانا بالاضافة الى آخرها فكان استغفاره لذلك ولما قالت عائشة رضي الله عنها أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد قال افلا اكون عبدا شكورا معناه افلا اكون طالبا لمزيد في المقامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى لئن شكرتم لازيدنكم واذ تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان ولنرجع الى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول الانبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق الى كمال التوحيد الذي وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول اليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وانما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام وبالاضافة الى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور ولا يعرف ذلك الا بمثال فأقول يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك ارسل الى عبد قد بعد منه مركوبا وملبوسا ونقدا لاجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان احداهما أن يكون قصده من وصول العبد الى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته والثانية أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به اليه بل حضوره لا يزيد في ملكه لانه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء وغيبته لا تنقص من ملكه فيكون قصده من الانعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به فنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الاولى فان الاولى محال على الله تعالى والثانية غير محال ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرا في الحالة الاولى بمجرد الركوب والوصول الى حضرته ما لم يقم بخدمته التي ارادها الملك منه وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج الى الخدمة اصلا ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرا او كافرا ويكون شكره بأن يستعمل ما انفذه اليه مولاه فيما احبه لاجله لا لاجل نفسه وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله او يستعمله فيما يزيد في بعده منه فمهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد الا في الطريق فقد شكر مولاه اذا استعمل نعمته في محبته أي فيما احبه لعبده لا لنفسه وان ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه وان جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضا نعمته اذ أهملها وعطلها وان كان هذا دون ما لو بعد منه وكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون الى استعمال الشهوات لتكمل بها ذواتهم فيبعدون بها عن حضرته وانما سعادتهم في القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى اذ قال لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا الآية فاذا نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن اسفل السافلين خلقها الله تعالى لاجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غني عنه قرب أم بعد والعبد

فيهما بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية وان عطلها ولم يستعملها في طاعته ولا معصيته فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع وكل ما خلق في الدنيا انما خلق آلة للعبد يتوصل به الى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الاسباب التى استعملها في الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال او عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جاحد عن محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذى منع من افشائه وقد انحل بهذا الاشكال الاول وهو أنه اذا لم يكن للشكور حظ وكيف يكون الشكر وبهذا أيضا ينحل الثانى فانا لم نعن بالشكر الا انصراف نعمة الله فى جهة محبة الله فاذا انصرفت النعمة فى جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث انت محل فقد اثنى عليك وثناؤه نعمة اخرى منه اليك فهو الذى اعطى وهو الذى اثنى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثانى الى جهة محبته فله الشكر على كل حال وانت موصوف بأنك شاكر بمعنى انك محل المعنى الذى الشكر عبارة عنه لا بمعنى انك موجد له كما انك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى انك خالق للعلم وموجده ولكن بمعنى انك محل له وقد وجد بالقدرة الازلية فيك فوصفك بأنك شاكر اثبات شيئية لك وانت شئ اذ جعلك خالق الاشياء شيئا وانما انت لا شئ اذا كنت انت انت فاما مع غيرك فانت شئ اى بالنظر الى الذى جعل الاشياء اشياء فأنت شئ اذ جعلك شيئا فان قطع النظر عن جعله كنت لا شئ تحقيقا والى هذا اشار صلى الله عليه وسلم حيث قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له لما قيل له يا رسول الله ففيم العمل اذا كانت الاشياء قد فرغ منها من قبل فبين ان الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل افعاله وان كانوا هم ايضا من افعاله ولكن بعض افعاله محل للبعض وقوله اعملوا وان كان جاريا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع وعلمهم فعل من افعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة الى الحركة والطاعة وانبعاث الداعية أيضا من افعال الله تعالى وهو سبب لحركة الاعضاء وهى أيضا من افعال الله تعالى ولكن بعض افعاله سبب للبعض أى الاول شرط للثانى كما كان خلق الجسم شرطا لخلق العرض اذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الارادة والكل من افعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض أى هو شرط ومعنى كونه شرطا انه لا يستعد لقبول فعل الحياة الا جوهر ولا يستعد لقبول العلم الا ذو حياة ولا لقبول الارادة الا ذو علم فيكون بعض افعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض افعاله موجد لغيره بل يمهد شرط الحصول لغيره وهذا اذا حقق ارتقى الى درجة التوحيد الذى ذكرناه فان قلت فلم قال الله تعالى اعملوا والا فانتم معاقبون مذمومون على العصيان وما الذنب لنا فكيف نذم وانما الكل

الى

الى الله تعالى فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقادفينا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور وذلك سبب للوصول الى جوار الله والله تعالى مسبب الاسباب ومرتبها فمن سبق له في الازل السعادة يسر له هذه الاسباب حتى تقوده بسلسلتها الى الجنة ويعبر عن مثله بأن كل ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فاذا لم يسمع لم يعلم واذا لم يعلم لم يخف واذا لم يخف لم يترك الركون الى الدنيا واذا لم يترك الركون الى الدنيا بقي في حزب الشيطان وان جهنم لموعدهم اجمعين فاذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل فما من أحد الا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الاسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من مخذول الا وهو مقود الى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والامن والغرور عليه فالمتقون يساقون الى الجنة قهرا والمجرمون يقادون الى النار قهرا ولا قاهر الا الله الواحد القهار ولا قادر الا الملك الجبار واذا انكشف الغطاء عن اعين الغافلين فشاهدوا الامر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك على الخصوص ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء الا ذلك اليوم فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الاحوال حيث لا ينفعهم الكشف فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فانه أصل اسباب الهلاك

(بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه)

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم الا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه اذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك اما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه ولتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان احدهما السمع ومستنده الآيات والاخبار والثاني بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الاخير عسير وهو لاجل ذلك عزيز فلذلك ارسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تبتني على معرفة جميع أحكام الشرع في افعال العباد فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع افعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا وأما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو ادراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه اذ ما خلق شيئا في العالم الا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة الى جلية وخفية أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الابصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل فيها حكم اخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الامطار وذلك لانشقاق الارض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للانعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحتملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه اذ قال تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا الآية وأما الحكمة في سائر

الكواكب السيارة منها والثوابت فحكمة لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذي يحتمله
فهم الخلق انها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر اليها واشار اليه قوله تعالى انا زينا السماء
الدنيا بزينة الكواكب فجميع اجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله
ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من
حكمة واحدة الى عشرة الى ألف الى عشرة آلاف وكذا اعضاء الحيوان تنقسم الى ما يعرف
حكمتها كالعلم بأن العين للابصار لا للبطش واليد للبطش لا للمشي والرجل للمشي لا للشم
فأما الاعضاء الباطنة من الامعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والاعصاب
والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ
وسائر الصفات فلا تعرف الحكمة فيها سائر الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها
الا قدرا يسيرا بالاضافة الى ما في علم الله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فاذا كل من
استعمل شيئا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي اريد به فقد كفر فيه
نعمة الله تعالى فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد اذ خلقت له اليد ليدفع بها عن
نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ومن نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر
نعمة العين ونعمة الشمس اذ الابصار يتم بهما وانما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه
ويتقي بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما اريدتا به وهذا لأن المراد من خلق الخلق
وخلق الدنيا واسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول الى الله تعالى ولا وصول اليه
الا بمحبته والانس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ولا انس الا بدوام الذكر ولا محبة
الا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر الا بدوام البدن
ولا يبقى البدن الا بالغذاء ولا يتم الغذاء الا بالارض والماء والهواء ولا يتم ذلك الا بخلق
السماء والارض وخلق سائر الاعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لاجل البدن والبدن
مطية النفس والراجع الى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة فلذلك
قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق الآية فكل
من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الاسباب التي لا بد منها
لاقدامه على تلك المعصية ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء
حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول من نعم الله تعالى خلق
الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطر الخلق
اليهما من حيث ان كل انسان محتاج الى اعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته
وقد يعجز عما يحتاج اليه ويملك ما يستغني عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج الى
جمل يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج الى الزعفران فلا بد بينهما من
معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير اذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من
الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن والصورة
وكذا من يشتري دارا بثياب أو عبدا بخف أو دقيقا بحمار فهذه الاشياء لا تناسب فيها
فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جدا فافتقرت هذه الاعيان

المتنافرة المتباعدة الى متوسط بينهما يحكم فيهما بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى اذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الاموال حتى تقدر الاموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى مائة دينار وهذا القدر من الزعفران ان يسوى مائة فهما من حيث انهما مساويان بشئ واحد اذا متساويان وانما امكن التعديل بالنقدين اذ لا غرض فى اعيانهما ولو كان فى اعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض فى حق صاحب الغرض ترجيحا ولم يقتض ذلك فى حق من لا غرض له فلا ينتظم الامر فاذا خلقهما الله تعالى لتتداولهما الايدى ويكونا حاكمين بين الاموال بالعدل ولحكمة اخرى وهى التوسل بهما الى سائر الاشياء لانهما عزيزان فى انفسهما ولا غرض فى اعيانهما ونسبتهما الى سائر الاموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شئ لا كمن ملك ثوبا فانه لم يملك الا الثوب فلو احتاج الى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام فى الثوب لان غرضه فى دابة مثلا فاحتيج الى شئ هو فى صورته كأنه ليس بشئ وهو فى معناه كأنه كل الاشياء والشئ انما تستوى نسبته الى المختلفات اذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها كالمرآة لا لون لها وتحكى كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة الى كل غرض وكالحرف لا معنى له فى نفسه وتظهر به المعانى فى غيره فهذه هى الحكمة الثانية وفيهما ايضا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذا من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين فى سجن يمتنع عليه الحكم بسببه لانه اذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة اذ لا غرض للآحاد فى اعيانهما فانهما حجران وانما خلقا لتتداولهما الايدى فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة المقادير مقوّمة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الاسطر الالهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط الهى لا حرف فيه ولا صوت الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل اليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن ادراكه فقال تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كنز لان مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكة والمكس والاعمال التى يقوم بها اخساء الناس والحبس أهون منه وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن أن تتبدد وانما الاوانى لحفظ المائعات ولا يكفى الخزف والحديد فى المقصود الذى اريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الالهية وقيل له من شرب فى آنية من ذهب او فضة فكأنما يجرجر فى بطنه نار جهنم وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لانهما خلقا لغيرهما

لا لعينهما اذ لا غرض في عينهما فاذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً على خلاف
وضع الحكمة اذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على
أن يشتري به طعاما ودابة اذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور في بيعه بنقد
آخر ليحصل النقد فيتوصل به الى مقصوده فانهما وسيلتان الى الغير لا غرض في أعيانهما
وموقعهما في الاموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون ان الحرف هو الذي جاء
لمعنى في غيره وكموقع المرآة من الالوان فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ
التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز وتقييد الحاكم
والبريد الموصل الى الغير ظلم كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد الا اتخاذ النقد
مقصودا للادخار وهو ظلم فان قلت فلم جاز بيع احد النقدين بالآخر ولم جاز بيع الدرهم
بمثله فاعلم أن احد النقدين يخالف الآخر في مقصود التوسل اذ قد يتيسر التوصل باحدهما
من حيث كثرته كالدراهم تتفرق في الحاجات قليلا قليلا ففي المنع منه ما يشوش
المقصود الخاص به وهو تيسر التوسل به الى غيره وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز
من حيث ان ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجري
مجرى وضع الدرهم على الارض وأخذه بعينه ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا
أوقاتهم الى وضع الدرهم على الارض وأخذه بعينه فلا نمنع مما لا تتشوق النفوس اليه
الا أن يكون احدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لا يتصور جريانه اذ صاحب الجيد
لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد وان طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده
فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدهما ورديئهما سواء لان الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر
اليهما فيما يقصد في عينه وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر الى مصافات دقيقة
في صفاته وانما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت
مقصودة في أعيانها وحقها أن لا تقصد وأما اذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فانما لم يجز
ذلك لانه لا يقدم على هذا الا مسامح قاصد للاحسان في القرض وهو مكرمة مندوحة
عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر فهو أيضا
ظلم لانه اضاعة خصوص المسامحة واخراجها في معرض المعاوضة وكذلك الاطعمة
خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها فان فتح باب المعاملة
فيها يوجب تقييدها في الايدي ويؤخر عنها الاكل الذي أريدت له فما خلق الطعام
الا ليؤكل والحاجة الى الاطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها الى المحتاج
ولا يعامل على الاطعمة الا مستغن عنها اذ من معه طعام فلم لا يأكله ان كان محتاجا
ولم يجعله بضاعة تجارة وان جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام
يكون محتاجا اليه فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه ولهذا ورد
في الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب نعم
بائع البر بالتمر معذور اذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في الغرض وبائع صاع من البر
بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج الى منع لان النفوس لا تسمح به الا عند

التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الردىء لا يرضى بهما صاحب الجيد وأما جيد بردئين فقد يقصد ولكن لما كانت الاطعمة من الضروريات والجيد يساوي الردىء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التنعم اسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فنّ الفقه فلنلحق هذا بفنّ الفقهيات فانه اقوى من جميع ما اوردناه في الخلافيات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالاطعمة دون المكيلات اذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب اولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله اقوم المذاهب فيه اذ خصصه بالاقوات ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بدّ وأن يضبط بحدّ وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم احرى لكل ما هو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط باطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحدّ لتحير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالاحوال والاشخاص فعين المعنى بكمال قوّته يختلف باختلاف الاحوال والاشخاص فيكون الحدّ ضروريا فلذلك قال تعالى ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه ولان اصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وانما تختلف في وجوه التحديد كما يحدّ شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حدّه شرعنا بكونه من جنس المسكر لان قليله يدعو الى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الحس كما دخل أصل المعنى بالجملة الاصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم المقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها ولا يعرف هذا الا من قد عرف الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين بل لا يتذكر الا اولوا الالباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء واذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك وكل فعل صادر منك فانه اما شكر واما كفر اذ لا يتصوّر أن ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي ينطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر وأقول مثلا لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين اذ خلق الله لك اليدين وجعل احداهما اقوى من الاخرى فاستحق الاقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر الا بالعدل ثم احوجك من اعطاك اليدين الى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف وبعضها خسيس كازالة النجاسة فاذا اخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك اذا بصقت مثلا في جهة القبلة واستقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لانه خلق الجهات لتكون متسعك في حركاتك وقسم

الجهات الى ما لم تشرفها والى ما شرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه الى نفسه استمالة لقلبك
اليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار اذا
عبدت ربك وكذلك انقسمت أفعالك الى ما هي شريفة كالطاعات والى ما هي خسيسة
ككنس الحاجة ورمي البصاق فاذا رميت بصاقك الى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة
الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك وكذلك اذا لبست خفك
فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لان الخف وقاية للرجل فللرجل فيه حظ والبداءة في الحظوظ
ينبغي أن تكون بالاشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف
والرجل وهذا عند العارفين كبيرة وان سماه الفقيه مكروها حتى ان بعضهم كان قد جمع
أكرارا من الحنطة وكان يتصدق بها فسئل عن سببه فقال لبست المداس مرة فابتدأت
بالرجل اليسرى سهوا فأريد أن أكفره بالصدقة نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الامر في هذه
الامور لانه مسكين بلي باصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الانعام وهم
منغمسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالاضافة اليها
فقبيح أن يقال الذي شرب الخمر وأخذ القدح بيساره فقد تعدى من وجهين أحدهما
الشرب والآخر الاخذ باليسار ومن باع خمرا في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال
خان من وجهين أحدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته
في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الادب في قضاء الحاجة من حيث
انه لم يجعل القبلة عن يمينه فالمعاصي كلها ظلمات وبعضها فوق بعض فيمحق بعضها
في جنب البعض فالسيد قد يعاقب عبده اذا استعمل سكينه بغير اذنه ولكن لو قتل
بتلك السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذن حكم ونكاية في نفسه
وكل ما راعاه الانبياء والاولياء من الآداب وتساهلنا فيه في الفقه مع العوام فسببه
هذه الضرورة والا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن
الدرجة المبلغة للعبد الى درجات القرب نعم بعضها يؤثر في البعد بنقصان القرب وانحطاط
المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب الى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين
وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير غرض صحيح فقد
كفر نعمة الله تعالى في خلق الاشجار وخلق اليد أما اليد فانها لم تخلق للعبث بل للطاعة
والاعمال المعينة على الطاعة وأما الشجر فانما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق
اليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده فكسره قبل
منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل
فان كان له غرض صحيح فله ذلك اذ الشجر والحيوان جعلا فداء لاغراض الانسان فانهما
جميعا فانيان هالكان فافناء الاخس في بقاء الاشرف مدة ما أقرب الى العدل من
تضييعهما جميعا واليه الاشارة بقوله تعالى وسخر لكم ما في السموات وما في الارض
جميعا منه نعم اذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وان كان محتاجا لان كل شجرة
بعينها فلا تفي بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة ولو خصص واحد بها من

غير

غير رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذى حصل البذر ووضعه
فى الارض وساق اليه الماء وقام بالتعهد فهو اولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك فان
ندت ذلك فى موات الارض لا يسعى آدمى اختص بغرسه او بغرسه فلابد من طلب
اختصاص آخر وهو السبق الى أخذه فللسابق خاصية السبق فالعدل هو أن يكون
اولى به وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك وهو مجاز محض اذ لا ملك الا ملك الملوك
الذى له ما فى السموات والارض وكيف يكون العبد مالكا وهو فى نفسه ليس يملك نفسه
بل هو ملك غيره نعم الخلق عباد الله والارض مائدة الله وقد أذن لهم فى الاكل من
مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعبيده فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها
براجمه فجاء عبد آخر واراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لا لان اللقمة صارت ملكا له
بالاخذ باليد فان اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ولكن اذا كانت لقمة بعينها لا تفى
بحاجة كل العبيد فالعدل فى التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص
والاخذ اختصاص ينفرد به العبد فمنع من لا يدلى بذلك الاختصاص عن مزاحمته
فهكذا ينبغى أن تفهم أمر الله فى عباده ولذلك نقول من أخذ من اموال الدنيا أكثر
من حاجته وكنزه وأمسكه وفى عباد الله من يحتاج اليه فهو ظالم وهو من الذين
يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله وانما سبيل الله طاعته وزاد الخلق
فى طاعته أموال الدنيا اذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم نعم لا يدخل هذا فى حد
فتاوى الفقه لان مقادير الحاجات خفية والنفوس فى استشعار الفقر فى الاستقبال
مختلفة وأواخر الاعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان
الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم وهم بحكم نقصانهم لا يطيقونه فتركنا
الاعتراض عليهم فى اللعب واللهو واباحتنا ذلك اياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق
وكذلك اباحتنا العوام حفظ الاموال والاقتصاد فى الانفاق على قدر الزكاة لضرورة
ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على انه غاية الحق وقد أشار القرآن اليه اذ قال تعالى
ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا بل الحق الذى لا كدورة فيه والعدل الذى لا ظلم فيه أن
لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله الا بقدر زاد الراكب فكل عباد الله ركاب لمطايا
الابدان الى حضرة الملك الديان فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج اليه
فهو ظالم تارك للعدول وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن
والرسول والعقل وسائر الاسباب التى بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه
فى الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى فى جميع انواع الموجودات قدر على القيام
بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات ثم لا تفى الا بالقليل وانما اوردنا هذا
القدر ليعلم علة الصدق فى قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور وفرح ابليس لعنه الله
بقوله ولا تجد أكثرهم شاكرين فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف هذا كله واموراً
أخر وراء هذا تنقضى الاعمار دون الاستقصاء مباديها فأما تفسير الآية ومعنى لفظها
فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير فان قلت فقد

يرجع حاصل هذا الكلام الى أن لله تعالى حكمة فى كل شئ وانه جعل بعض أفعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة وبلوغها غايته المرادة منها وجعل بعض أفعالهم مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة الى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الاسباب من أن تنساق الى الغاية المرادة فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الاشكال باق وهو أن فعل العبد المنقسم الى ما يتمم الحكمة والى ما يرفعها هو أيضا من فعل الله تعالى فأين العبد فى البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا اخرى فاعلم أن تمام التحقيق فى هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق الى تلويحات بمباديها ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير ويجحدها من عجز عن الايضاع فى السير فضلا عن أن يجول فى جو الملكوت جولان الطير فنقول ان لله عز وجل فى جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها فى العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعى اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم الى مبادى اشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض فى نور الشمس ولكن لضعف فى أبصار الخفافيش فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها الى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هى القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم فى الوجود الى أقسام وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الاقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة اخرى استعير لها بمثل الضرورة التى سبقت عبارة المشيئة فهى توهم منها أمرا مجملا عند المتناطقين باللغات التى هى حروف واصوات المتفاهمين بها وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الافعال الصادرة من القدرة الى ما ينساق الى المنتهى الذى هو غاية حكمها والى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة الى صفة المشيئة لرجوعها الى الاختصاصات التى بها تتم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة وقيل انهما جميعا داخلان فى وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية اخرى فى النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما امرا مجملا عند طالبى الفهم من الالفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه الى من سبقت له المشيئة الازلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرا فى حقهم بتسليط الدواعى والبواعث عليهم والى من سبقت لهم فى الازل أن يستعملهم لسياقة حكمته الى غايتها فى بعض الامور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة الى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين فى اتمام الحكمة بهم

عبارة

عبارة الرضاء واستعير للذين استوقف بهم اسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب فظهر على من غضب عليه فى الازل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران واردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة فى النكال وظهر على من ارتضاه فى الازل فعل انساقت بسببه الحكمة الى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء والاطراء زيادة فى الرضاء والقبول والاقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى وأعطى النكال ثم قمع وأردى وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن اوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فاذا تم زينته قال يا جميل ما أجمل واجمل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال وكأنه لم يثن من حيث المعنى الا على نفسه وانما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الامور فى أزل الازل وهكذا تتسلسل الاسباب والمسببات بتقدير رب الارباب ومسبب الاسباب ولم يكن ذلك عن اتفاق وبحث بل عن ارادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل انه كلمح بالبصر اوهو اقرب ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بازاء الامر الواحد الكلى ولفظ القدر بازاء التفصيل المتمادى الى غير نهاية وقيل ان شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الامر والاحتواء على مجامعه فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى فى السموات والارض وكان زيتهم اولا صافيا يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار فمسته نار فاشتعل نورا على نور فأشرقت اقطار الملكوت بين ايديهم بنور ربها فأدركوا الامور كلها كما هى عليه فقيل لهم تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا واذا ذكر القدر فأمسكوا فان للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الابصار فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لابصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا الى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب فى جنح الليل فيحيى به حياة يحتملها شخصه وحاله وان كان لا يحيى به حياة المترددين فى كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم

شربنا شرابا طيبا عند طيب ❊ كذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الارض فضله ❊ وللارض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان اول هذا الامر وآخره ولا تفهمه الا اذا كنت أهلا له واذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج الى قائد يقودك والاعمى يمكن أن يقاد ولكن الى حد ما

فاذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستعبر وراءه آدمي واذا دق المحال ولطف لطف الماء مسلا ولم يمكن العبور الا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستحمل وراءه آخر فهذه امور نسبة السير عليها الى السير على ما هو محال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء الى المشي على الارض والسباحة يمكن أن تتعلم وأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعلم بل ينال بقوة اليقين ولذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ان عيسى عليه السلام يقال انه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقينا لمشى على الهواء فهذه رموز واشارات الى معنى الكراهة والمحبة والرضاء والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا الى افهام الخلق اذا عرف انه ما خلق الجن والانس الا ليعبدوه فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والامين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ويبغض الآخر واسمه ابليس وهو اللعين المنظر الى يوم الدين ثم احال الارشاد الى جبريل فقال تعالى قل نزله روح القدس من ربك بالحق وقال تعالى يلقي الروح من امره على من يشاء من عباده واحال الاغواء على ابليس فقال تعالى ليضلهم عن سبيله والاغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبه الى العبد الذي غضب عليه والارشاد سياقه لهم الى الغاية فانظر كيف نسبه الى العبد الذي أحبه وعندك في العادة مثلا فالملك اذا كان محتاجا الى من يسقيه الشراب والى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف الا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب الا الى أحسنهما وأكملهما وأحبهما اليه ولا ينبغي أن تقول هذا فعلي ولم يكون فعله دون فعلي فانك اخطأت اذ أضفت ذلك الى نفسك بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب انما هو بالعدل فان عدله تارة يتم بامور لا مدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضا من افعاله وداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعيين فعله الذي رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الافعال المعتدلة الا انك لا ترى الا نفسك فتظن أن ما ظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه الى نفسك وانما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلا الى لعب المشعبذ الذي يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بانفسها وانما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورؤسها في يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد وأما العقلاء فانهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذي الامر اليه والجاذبة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة الى العلماء ينظرون الى هذه الاشخاص

فيظنون

فيظنون انها المتحركة فيحيلون عليها والعلماء يعلمون انهم محركون الا انهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الاكثرون الا العارفون والعلماء الراسخون فانهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل ادق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الاطراف بأشخاص أهل الارض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الابصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤس تلك الخيوط فى مناطات لها هى معلقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هى فى ايدى الملائكة المحركين للسموات وشاهدوا أيضا ملائكة السموات مصروفة الى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الامر من حضرة الربوبية كى لا يعصوا الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات فى القرآن فقيل وفى السماء رزقكم وما توعدون وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل اليهم من القدر والامر فقيل خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن ينزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما وهذه امور لا يعلم تأويلها الا الله والراسخون فى العلم وعبر ابن عباس رضى الله عنهما عن اختصاص الراسخين فى العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى ينزل الامر بينهن فقال لو ذكرت ما اعرفه من معنى هذه الآية لرجمتمونى وفى لفظ آخر لقلتم انه كافر ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه فلنرجع الى مقاصد الشكر فنقول اذا رجع حقيقة الشكر الى كون العبد مستعملا فى اتمام حكمة الله تعالى فأشكر العباد أحبهم الى الله وأقربهم اليه وأقربهم الى الله الملائكة ولهم أيضا ترتيب وما منهم الا وله مقام معلوم وأعلاهم فى رتبة القرب ملك اسمه اسرافيل عليه السلام وانما علو درجتهم لانهم فى انفسهم كرام بررة وقد أصلح الله تعالى بهم الانبياء عليهم السلام وهم أشرف مخلوق على وجه الارض وتلى درجتهم درجة الانبياء فانهم فى انفسهم اخيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته واعلاهم رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم اذ اكمل الله به الدين وختم به النبيين ويليهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء فانهم فى انفسهم صالحون وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لانهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولاجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الانبياء فانه اكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الانبياء ثم يلى العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة بهم بل فيهم ومن عداهؤلاء فهمج رعاع واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغى أن يستحقر وان كان ظالما فاسقا قال عمرو بن العاص رحمه الله امام غشوم خير من فتنة تدوم وقال النبى صلى الله عليه وسلم سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون و يفسدون وما يصلح الله بهم اكثر فان احسنوا فلهم الاجر وعليكم الشكر وان أساؤا فعليهم الوزر وعليكم الصبر. وقال سهل من انكر امامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان

فلم يجب فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل وسئل أي الناس خير فقال السلطان فقيل كان أن شر الناس السلطان فقال مهلا ان الله تعالى كل يوم نظرتين نظرة الى سلامة أموال المسلمين ونظره الى سلامة أبدانهم فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول الحسنات السود المعلقة على أبوابهم خير من سعين قاصا يقصون *(الركن الثاني من أركان الشكر ما عليه الشكر)* وهو النعمة فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم فان احصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فنقدم أمورا كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ثم نشتغل بذكر الآحاد والله الموفق للصواب

(بيان حقيقة النعمة وأقسامها)

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الاخروية وتسمية ما سواها نعمة وسعادة أما غلط وأما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة فان ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ولكن يكون اطلاقه على السعادة الاخروية أصدق فكل سبب يوصل الى سعادة الآخرة ويعين عليها اما بواسطة واحدة أو بوسائط فان تسميته نعمة صحيحة وصدق لاجل أنه يفضي الى النعمة الحقيقية والاسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات *(القسمة الاولى)* أن الامور كلها بالاضافة الينا تنقسم الى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق والى ما هو ضار فيهما جميعا كالجهل وسوء الخلق والى ما ينفع في الحال ويضر في المآل كالتلذذ باتباع الشهوات والى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوي البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع اذا وجد عسلا فيه سم فانه يعده نعمة ان كان جاهلا واذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق اليه والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الالباب بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه الا أنه شاف من الامراض والاسقام وجالب للصحة والسلامة فالصبي الجاهل اذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه اليه ويقربه منه ويهيئ له أسبابه فلذلك تمنع الام ولدها من الحجامة والاب يدعوه اليها فان الاب لكمال عقله يلمح العاقبة والام لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال والصبي لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ويأنس اليها والى شفقتها ويقدر الاب عدوا له ولو عقل لعلم أن الام عدو باطنا في صورة صديق لان منعها اياه من الحجامة يسوقه الى أمراض وآلام أشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل انسان فانه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل ولذلك تعمل به ما لا يعمل به العدو *(قسمة ثانية)* اعلم ان

الاسباب

الاسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها فقلما يصفو خيرها كالمال والاهل والولد والاقارب والجاه وسائر الاسباب ولكن تنقسم الى ما نفعا اكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الاسباب والى ما ضره اكثر من نفعه فى حق اكثر الاشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع والى ما يكافئ ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالاشخاص فرب انسان صالح ينتفع بالمال الصالح وان كثر فينفقه فى سبيل الله ويصرفه الى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة فى حقه ورب انسان يستضر بالقليل أيضا اذ لا يزال مستصغراله شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه * (قسمة ثالثة) . اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم الى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره والى مؤثر لغيره والى مؤثر لذاته ولغيره * فالاول ما يؤثر لذاته لا لغيره كلذة النظر الى وجه الله تعالى وسعادة لقائه وبالجملة سعادة الاخرى التى لا انقضاء لها فانها لا تطلب ليتوصل بها الى غاية اخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها * الثانى ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته كالدراهم والدنانير فان الحاجة لو كانت لا تنقضى بها لكانت هى والحصاء بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة الى اللذات سريعة الايصال اليها صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنوا أنها مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ثم ينسى فى محبة الرسول محبة الاصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده وهو غاية الجهل والضلال * الثالث ما يقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين الى لقاء الله تعالى أو ليتوصل بها الى استيفاء لذات الدنيا وتقصد أيضا لذاتها فان الانسان وان استغنى عن الشئ الذى تراد سلامة الرجل لاجله فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث انها سلامة فاذا المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الاول فأما ما لا يؤثر الا لغيره كالنقدين فلا يوصفان فى انفسهما من حيث انهما جوهران بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة فى حق من يقصد أمرا ليس يمكنه أن يتوصل اليه الا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التى هى ضرورة حياته استوى عنده الذهب والمدر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء فى حقه ولا يكونان نعمة * (قسمة رابعة) * اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم الى نافع ولذيذ وجميل فاللذيذ هو الذى تدرك راحته فى الحال والنافع هو الذى يفيد فى المآل والجميل هو الذى يستحسن فى سائر الاحوال والشرور أيضا تنقسم الى ضار وقبيح ومؤلم وكل واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيد * فالمطلق هو الذى اجتمع فيه الاوصاف الثلاثة * أما فى الخير فكالعلم والحكمة فانها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة وأما فى الشر فكالجهل فانه ضار وقبيح ومؤلم وانما يحس الجاهل بألم جهله اذا عرف انه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك ألم النقص

فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه فانه ان ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان وان اشتغل بالعلم تألم بترك الشهوات او بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة * والضرب الثاني مفيد وهو الذي جمع بعض هذه الاوصاف دون بعض فرب نافع مؤلم كقطع الاصبع الزائدة والسلعة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحمق فانه بالاضافة الى بعض الاحوال نافع فقد قيل استراح من لا عقل له فانه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال الى أن يجيء وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كالقاء المال في البحر عند خوف الغرق فانه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها والنافع قسمان ضروري كالايمان وحسن الخلق في الايصال الى سعادة الآخرة واعني بهما العلم والعمل اذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما والى ما لا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا في تسكين الصفراء فانه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه *(قسمة خامسة)* اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ واللذات بالاضافة الى الانسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة انواع عقلية وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات أما العقلية فكلذة العلم والحكمة اذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج وانما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذه أقل اللذات وجودا وهي اشرفها أما قلتها فلان العلم لا يستلذه الا عالم والحكمة لا يستلذها الا حكيم وما أقل أهل العلم والحكمة وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسمهم وأما شرفها فلانها لازمة لا تزول أبدا لا في الدنيا ولا في الآخرة ودائمة لا تمل والطعام يشبع منه فيمل وشهوة الوقاع يفرغ منها فيستثقل والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستثقل ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد اذا رضي بالخسيس الفاني في اقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وادباره وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج الى اعوان وحفظة بخلاف المال اذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص بالانفاق والمال يسرق والولاية يعزل عنها والعلم لا تمتد اليه ايدي السراق بالاخذ ولا ايدي السلاطين بالعزل فيكون صاحبه في روح الامن أبدا وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبدا ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال أبدا والمال تارة يجذب الى الهلاك وتارة يجذب الى النجاة ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وان سماه خيرا في مواضع وأما قصور اكثر الخلق عن ادراك لذة العلم فاما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق اذ الشوق فرع الذوق واما لفساد امزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرا واما القصور فطنتهم اذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور والسمان ولا يستلذ الا اللبن وذلك لا يدل على انها ليست لذيذة ولا استطابته اللبن تدل على انه ألذ الاشياء فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة اما من

لم يحي باطنه كالطفل واما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات واما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى فى قلوبهم مرض اشارة الى مرض العقول وقوله عزوجل لينذر من كان حيا اشارة الى من لم يحي حياة باطنة وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وان كان عند الجهال من الاحياء لذلك كان الشهداء احياء عند ربهم يرزقون فرحين وان كانوا موتى بالابدان. الثانية لذة يشارك الانسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود فى الاسد والنمر وبعض الحيوانات : الثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج وهذه اكثرها وجودا وهى اخسها ولذلك اشترك فيها كل ما دب ودرج حتى الديدان والحشرات من جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة وهى اشدها التصاقا بالمتغافلين فان جاوز ذلك ارتقى الى الثالثة فصار اغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة لا سيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصديقين ولا ينال تمامها الا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها الا الصديقون فأما قمعها بالكلية حتى لا يقع بها الاحساس على الدوام وفى اختلاف الاحوال يشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى فى احوال لا يقع معها الاحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود اليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا تنقسم القلوب الى اربعة اقسام قلب لا يحب الا الله تعالى ولا يستريح الا بزيادة المعرفة به والفكر فيه وقلب لا يدرى ما لذة المعرفة وما معنى الانس بالله وانما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب احواله الانس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر ولكن قد يعتريه فى بعض الاحوال الرجوع الى اوصاف البشرية وقلب اغلب احواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه فى بعض الاحوال تلذذ بالعلم والمعرفة أما الاول فان كان ممكنا فى الوجود فهو فى غاية البعد وأما الثانى فالدنيا طافحة به واما الثالث والرابع فموجودان ولكن على غاية الندور ولا يتصور أن يكون ذلك الا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت فى القلة والكثرة وانما تكون كثرته فى اعصار القريبة من اعصار الانبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة الى أن تقرب الساعة ويقضى الله أمرا كان مفعولا وانما وجب أن يكون هذا نادرا لانه مبادئ ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرون فكما لا يكون الفائق فى الملك والجمال الا نادرا واكثر الناس من دونهم فكذا فى ملك الآخرة فان الدنيا مرآة الآخرة فانها عبارة عن عالم الشهادة والآخرة عبارة عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة فى المرآة تابعة لصورة الناظر فى المرآة والصورة فى المرآة وان كانت هى الثانية فى رتبة الوجود فانها اولى فى حق رؤيتك فانك لا ترى نفسك وترى صورتك فى المرآة اولا

فتعرف بها صورتك التي هي قاعدتك ثانياً على سبيل المحاكاة فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق المعرفة وانقلب المتأخر متقدماً وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت فمن الناس من تيسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك الا ويعبر به الى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الخلق به فقال فاعتبروا يا أولي الابصار ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتح الى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الافئدة الا أن بينه وبين ادراك ألمها حجابا فاذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدركه وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم يدرك مرة بادراك يسمى علم اليقين ومرة بادراك آخر يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون الا في الآخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فلذلك قال الله تعالى كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم أي في الدنيا ثم لترونها عين اليقين أي في الآخرة فاذا قد ظهر أن الملك الصالح لملك الآخرة لا يكون الا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا ﴿ وسمة سادسة ﴾ حاوية لمجامع النعم اعلم أن النعم تنقسم الى ما هي غاية مطلوبة لذاتها والى ما هي مطلوبة لاجل الغاية أما الغاية فانها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها الى أربعة أمور بقاء لا فناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر بعده وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عيش الا عيش الآخرة وقال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في شدة الضر وقال ذلك مرة في السرور منعا للنفس من الركون الى سرور الدنيا وذلك عند احداق الناس به في حجة الوداع وقال رجل اللهم اني أسألك تمام النعمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم وهل تعلم ما تمام النعمة قال لا قال تمام النعمة دخول الجنة وأما الوسائل فتنقسم الى الاقرب الاخص كفضائل النفس والى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني والى ما يليه في القرب ويجاوز الى غير البدن كالاسباب المطيفة بالبدن من المال والاهل والعشيرة والى ما يجمع بين هذه الاسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهي اذا أربعة أنواع ﴿ النوع الاول وهو الاخص ﴾ الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها الى الايمان وحسن الخلق وينقسم الايمان الى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله والى علوم المعاملة وحسن الخلق ينقسم الى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والاقدام حتى لا يمتنع أصلا ولا يقدم كيف شاء بل يكون اقدامه واحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم اذ قال تعالى أن لا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة والامن من الآفات أو ترك الاكل حتى ضعف عن العبادة والذكر

والفكر فقد اخسر الميزان ومن انهمك فى شهوة البطن والفرج فقد طغى فى الميزان وانما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعدل به كفتا الميزان فاذا الفضائل الخاصة بالنفس المقربة الى الله تعالى اربعة علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا فى غالب الامر الا بالنوع الثانى وهو الفضائل البدنية وهى اربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولا تتهيأ هذه الامور الاربعة الا بالنوع الثالث وهى النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهى أربعة المال والاهل والجاه وكرم العشيرة ولا ينتفع بشئ من هذه الاسباب الخارجة والبدنية الا بالنوع الرابع وهى الاسباب التى يجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهى أربعة هداية الله ورشده وتسديده وتأييده فمجموع هذه النعم ست عشرة اذ قسمناها الى اربعة وقسمنا كل واحدة من الاربعة الى اربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها الى البعض اما حاجة ضرورية فكحاجة سعادة الآخرة الى الايمان وحسن الخلق اذ لا سبيل الى الوصول الى سعادة الآخرة البتة الا بهما فليس للانسان الا ما سعى وليس لاحد فى الآخرة الا ما تزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية بكسب هذه العلوم وتهذيب الاخلاق الى صحة البدن ضرورى وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية الى النعم الخارجة مثل المال والعز والاهل فان ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل الى بعض النعم الداخلة فان قلت فما وجه الحاجة لطريق الآخرة الى النعم الخارجة من المال والاهل والجاه والعشيرة فاعلم أن هذه الاسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود أما المال فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس له كفاية كساع الى الهيجا بغير سلاح وكبازى يروم الصيد ولا يصطاد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم نعم المال الصالح للرجل الصالح وقال صلى الله عليه وسلم نعم العون على تقوى الله المال وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الاوقات فى طلب الاقوات وفى تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لانواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع الا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وافاضة الخيرات وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعم فقال الغنى فانى رأيت الفقير لا عيش له قيل زدنا قال الامن فانى رأيت الخائف لا عيش له قيل زدنا قال العافية فانى رأيت المريض لا عيش له قيل زدنا قال الشباب فانى رأيت الهرم لا عيش له وكان ما ذكره اشارة الى نعيم الدنيا ولكن من حيث انه معين على الآخرة فهو نعمة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من اصبح معافى فى بدنه امنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وأما الاهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة اليهما اذ قال صلى الله عليه وسلم نعم العون على الدين المرأة الصالحة وقال صلى الله عليه وسلم فى الولد اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث ولد صالح يدعو له الحديث وقد ذكرنا فوائد الاهل والولد فى كتاب النكاح * وأما الاقارب فمهما كثر اولاد الرجل واقاربه كانوا مثل الاعين والايدى فيتيسر له بسببهم من الامور الدنيوية المهمة فى دينه ما لو انفرد به لطال شغله

وكل ما تفرع منه من ضرورات الدنيا فهو معين على الدين فهو اذاً نعمة وأما العز
والجاه فبه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضيم ولا يستغني عنه مسلم فانه لا ينفك
عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله
وانما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان قال تعالى
ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولا معنى للجاه الا ملك القلوب كما
لا معنى للغنى الا ملك الدراهم ومن ملك الدراهم تسخرت له ارباب القلوب لدفع الأذى
عنه فكما يحتاج الانسان الى سقف يدفع عنه المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع
الذئب عن ماشيته فيحتاج أيضاً الى من يدفع الشر عن نفسه وعلى هذا القصد كان
الانبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه
وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنهم والاستئثار والاستكثار
في الدنيا باتباعهم ولا تظنن أن نعمة الله تعالى على رسوله حيث نصره وأكمل دينه
وأظهره على جميع أعدائه ومكن في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل
من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر الى الهرب والهجرة فان قلت
كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا فأقول نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم الأئمة من قريش ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة في نسب
آدم عليه السلام وقال صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم الأكفاء وقال صلى الله
عليه وسلم اياكم وخضراء الدمن فقيل وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء في المنبت
السوء فهذا أيضاً من النعم ولست أعني به الانتساب الى الظلمة وارباب الدنيا بل الانتساب
الى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أئمة العلماء والى الصالحين والابرار المتوسمين
بالعلم والعمل فان قلت فما معنى الفضائل البدنية فأقول لا خفاء بشدة الحاجة الى الصحة
والقوة والى طول العمر اذ لا يتم علم وعمل الا بهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أفضل
السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى وانما يستحقر من جملتها أمر الجمال فيقال يكفي
أن يكون البدن سليماً من الامراض الشاغلة عن تحري الخيرات ولعمري الجمال قليل
الغناء ولكنه من الخيرات أيضاً أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها وأما في الآخرة فمن
وجهين أحدهما أن القبح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل الى الاجابة أقرب
وجاهه في الصدور أوسع فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه اذ هو نوع
قدرة اذ يقدر الجميل الوجه على تنجز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء
حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها والثاني أن الجمال في الاكثر يدل على
فضيلة النفس لان نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن فالمنظر والمخبر كثيراً ما
يتلازمان ولذلك عول اصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيآت البدن
وقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ولذلك يظهر فيه اثر الغضب والسرور والغم ولذلك قيل
طلاقة الوجه عنوان ما في النفس وقيل ما في الارض قبيح الا ووجهه أحسن ما فيه
واستعرض المأمون جيشاً فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألكن فأسقط اسمه

من الديوان وقال الروح اذا اشرقت على الظاهر فصباحة اوعلى الباطن ففصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن وقد قال صلى الله عليه وسلم اطلبوا الخير عند صباح الوجوه وقال عمر رضى الله تعالى عنه اذا بعثتم رسولا فاطلبوا احسن الوجه حسن الاسم وقال الفقهاء اذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالامامة وقال تعالى ممتنا بذلك وزاده بسطة فى العلم والجسم ولسنا نعنى بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك انوثة وانما نعنى به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال فى اللحم وتناسب الاعضاء وتناصف خلقه الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه * فان قلت فقد دخلت المال والجاه والنسب والاهل والولد فى حيز النعم وقد ذم الله تعالى المال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا العلماء قال تعالى ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال عزوجل انما اموالكم واولادكم فتنة وقال على كرم الله وجهه فى ذم النسب الناس ابناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه وقيل المرء بنفسه لا بأبيه فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا فاعلم أن من يأخذ العلوم من الالفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى الى ادراك العلوم على ما هى عليه ثم تنزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص اخرى فهذه نعم معينة على امر الآخرة لا سبيل الى جحدها الا أن فيها فتنا ومخاوف فمثال المال مثال الحية التى فيها ترياق نافع وسم ناقع فان اصابها المعزم الذى يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة وان اصابها السوادى الغر فهى عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذى تحته اصناف الجواهر واللآلى فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه وان خاضه جاهلا بذلك فقد هلك فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم العون على تقوى الله تعالى المال وكذلك مدح الجاه والعز اذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن اظهره على الدين كله وحببه فى قلوب الخلق وهو المعنى بالجاه ولكن المنقول فى مدحهما قليل والمنقول فى ذم المال والجاه كثير وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه اذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ومعنى الجاه ملك القلوب وانما كثر هذا وقل ذاك لان الناس اكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص فى بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم المال قبل الوصول الى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانا فى اعيانهما مذمومين بالاضافة الى كل أحد لما تصور أن ينضاف الى النبوة الملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولا أن يضاف اليهما الغنى كما كان لسليمان عليه السلام فالناس كلهم صبيان والاموال حيات والانبياء والعارفون معزمون فقد يضر الصبى ما لا يضر المعزم نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم انه لو اخذها لاجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية اذا رآها ليلعب بها فيهلك فله غرض فى الترياق وله غرض فى حفظ الولد فواجب عليه

أن يرى عرصه في الترياق تعرضه في حفظ الولد فاذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ولو احدها لاحدها الصبي ويعظم ضرره مهلا كه فواجب عليه أن يهرب عن الحية اذا راها ويشير على الصبي بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويعرفه أن فيها سما قاتلا لا يحوم حوله أحد ولا يحدثه أصلا عما فيها من نفع الترياق فان ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفه وكذلك الغواص اذا علم انه لو غاص في البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر فان كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه فكذلك الامة في حجر الانبياء عليهم السلام كالصبيان الاغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم مثل الوالد لولده وقال صلى الله عليه وسلم انكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وانا آخذ بحجزكم وحظكم الاوفر في حفظ اولادهم عن المهالك فانهم لم يبعثوا الا لذلك وليس لهم في المال حظ الا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه فان الانفاق فيه الترياق وفي الامساك السم ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا الى سم الامساك ورغبوا عن ترياق الانفاق فلذلك قبحت الاموال والمعنى به تقبيح امساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون الى الدنيا ولذاتها فاما اخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل الى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل الا بقدر زاده في السفر اذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله فأما اذا سمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقا فلا بأس بالاستكثار وقوله عليه السلام ليكن بلاغ احدكم من الدنيا كزاد الراكب معناه لانفسكم خاصة والا فقد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاغنياء يدخلون الجنة بعد استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه فاذن له فنزل جبريل عليه السلام وقال مره بأن يطعم المسكين ويكسو العاري ويقري الضيف الحديث فاذا النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها فمن وثق بصبره وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها ومن لا يثق بها فليبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الاخطار فلا تعدل بالسلامة شيئا في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم الا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه ٭ فان قلت فما معنى النعم التوفيقية الراجعة الى الهداية والرشد والتأييد والتسديد فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الالحاد عبارة عن الميل فخصص بمن مال الى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة الى التوفيق ولذلك

قيل

قيل

اذا لم يكن عون من الله للفتى ٭ فأ كثر ما يجنى عليه اجتهاده

فاما الهداية فلا سبيل لاحد الى طلب السعادة الا بها لان داعية الانسان قد تكون مائلة الى ما فيه صلاح آخرته ولكن اذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن اين ينفعه مجرد الارادة فلا فائدة فى الارادة والقدرة والاسباب الا بعد الهداية ولذلك قال تعالى ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقال تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء وقال صلى الله عليه وسلم مامن أحد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى أى بهدايته فقيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا وللهداية ثلاث منازل الاولى معرفة طريق الخير والشر المشار اليه بقوله تعالى وهديناه النجدين وقد انعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل وكذلك قال تعالى وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فاسباب الهدى هى الكتب والرسل وبصائر العقول وهى مبذولة ولا يمنع منها الا الحسد والكبر وحب الدنيا والاسباب التى تعمى القلوب وان كانت لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ومن جملة المعميات الالف والعادة وحب استصحابهما وعنه العبارة بقوله تعالى انا وجدنا آباءنا على امة الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وقوله تعالى ابشرا منا واحدا نتبعه فهذه المعميات هى التى منعت الاهتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهى التى يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهى ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وهو المراد بقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى والهداية الثالثة وراء الثانية وهى النور الذى يشرق فى عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدى بها الى ما لا يهتدى اليه بالعقل الذى يحصل به التكليف وامكان تعلم العلوم وهو الهدى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو الذى شرفه الله تعالى بتخصيص الاضافة اليه وان كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى قل ان هدى الله هو الهدى وهو المسمى حياة فى قوله تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس والمعنى بقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ٭ وأما الرشد فنعنى به العناية الالهية التى تعين الانسان عند توجهه الى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين فالرشد عبارة عن هداية باعثة الى جهة السعادة محركة اليها فالصبى اذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيدا لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يعلم انه يضره فقد اعطى الهداية وميز بها عن الجاهل الذى لا يدرى انه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد بهذا الاعتبار اكمل من مجرد الهداية الى وجوه الاعمال وهى نعمة عظيمة ٭ وأما التسديد فهو توجيه حركاته

الى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليستدّ فى صوب الصواب فى اسرع وقت فان الهداية
بمجردها لا يكفى بل لابدّ من هدايه محركة للداعيه وهى الرشد والرشد لا يكفى بل لابدّ
من تيسر الحركات بمساعدة الاعضاء والآلات حتى يتم المراد بما انبعثت الداعية اليه
فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعيه لتستيقظ وتتحرك والتسديد اعانة
ونصره بتحريك الاعضاء فى صوب السداد واما التأييد فكأنه جامع للكل وهو عبارة
عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الاسباب من خارج وهو
المراد بقوله عزوجل اذ أيدتك بروح القدس ويقرب منه العصمة وهى عبارة عن وجود
الهى يسبح فى الباطن يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع
من باطنه غير محسوس واياه عنى بقوله تعالى ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان
ربه فهذه هى مجامع النعم ولن يثبت الا لما يخوله الله من الفهم الصافى الثاقب والسمع
الواعى والقلب البصير المتواضع المراعى والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن
المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذى يصونه عن سفه السفهاء
وظلم الاعداء ويستدعى كل واحد من هذه الاسباب الستة عشر اسبابا وتستدعى
تلك الاسباب اسبابا الى أن تنتهى بالآخرة الى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك
رب الارباب ومسبب الاسباب واذا كانت تلك الاسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا
الكتاب استقصاءها فلنذكر منها انموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى وان تعدّوا نعمة الله
لا تحصوها وبالله التوفيق

(بيان وجه الانموذج فى كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والاحصاء)

اعلم أنا جمعنا النعم فى ستة عشر ضربا وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة فى الرتبة
المتأخرة فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الاسباب التى بها تمت هذه النعمة
لم نقدر عليها ولكن الاكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الاسباب التى بها
تتم نعمة الاكل فلا يخفى ان الاكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة
لابدّ لها من جسم متحرك هو آلتها ولابدّ لها من قدرة على الحركة ولابدّ من ارادة للحركة
ولابدّ من علم بالمراد وادراك له ولابدّ للاكل من مأكول ولابدّ للمأكول من أصل منه
يحصل ولابدّ له من صانع يصلحه فلنذكر أسباب الادراك ثم أسباب الارادات
ثم أسباب القدرة ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء

(الطرف الاول فى نعم الله تعالى فى خلق اسباب الادراك) اعلم أن الله تعالى خلق
النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التى لا تنمى
ولا تغتذى فان النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء الى نفسه من جهة أصله وعروقه
التى فى الارض وهى له آلات فيها يجتذب الغذاء وهى العروق الدقيقة التى تراها فى كل
ورقة ثم تغلظ اصولها ثم تتشعب ولا تزال تستدق وتتشعب الى عروق شعرية تنبسط
فى اجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر الا أن النبات مع هذا الكمال ناقص فانه اذا اعوزه
غذاء يساق اليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر

فان الطلب انما يكون بمعرفة المطلوب و بالانتقال اليه والنبات عاجز عن ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الاحساس وآلة الحركة فى طلب الغذاء فانظر الى ترتيب حكمة الله تعالى فى خلق الحواس الخمس التى هى آلة الادراك فأولها حاسة اللمس وانما خلقت لك حتى اذا مستك نار محرقة اوسيف جارح تحس به فتهرب منه وهذا اول حس يخلق للحيوان ولا يتصور حيوان الا ويكون له هذا الحس لانه ان لم يحس أصلا فليس بحيوان وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ويماسه فان الاحساس بما يبعد منه احساس اتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل حيوان حتى الدودة فى الطين فانها اذا غرز فيها ابرة انقبضت للهرب لا كالنبات فان النبات يقطع فلا ينقبض اذلا يحس بالقطع الا انك لولم يخلق لك الا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه الى نفسك فقط فافتقرت الى حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم الا انك تدرك به الرائحة ولا تدرى انها جاءت من أى ناحية فتحتاج الى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذى شممت ريحه وربما لم تعثر فتكون فى غاية النقصان لولم يخلق لك الا هذا فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها الا انه لولم يخلق لك الا هذا لكنت ناقصا اذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدارات والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره وقد لا ينكشف الحجاب الا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الاصوات من وراء الجدارات والحجب عند جريان الحركات لانك لا تدرك بالبصر الا شيئا حاضرا وأما الغائب فلا يمكنك معرفته الا بكلام ينتظم من حروف واصوات تدرك بحس السمع فاشتدت اليه حاجتك فخلق لك ذلك وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يغنيك لولم يكن لك حس الذوق اذ يصل الغذاء اليك فلا تدرك انه موافق لك او مخالف فتأكله فتهلك كالشجرة تصب فى أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لولم يخلق فى مقدمة دماغك ادراك آخر يسمى حسا مشتركا تتأدى اليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولاه لطال الامر عليك فانك اذا أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرا مخالفا لك فتركته فاذا رأيته مرة اخرى فلا تعرف انه مر مضر ما لم تذقه ثانيا لولا الحس المشترك اذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا حتى اذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر فتمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات اذ للشاة هذه الحواس كلها فلولم يكن لك الا هذا لكنت ناقصا فان البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص اذا قيدت وقد تلقى نفسها فى بئر ولا تدرى أن ذلك يهلكها ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه فى الحال ويضرها فى ثانى الحال فتمرض وتموت اذ ليس لها الا الاحساس بالحاضر فأما ادراك العواقب فلا فميزك الله تعالى وأكرمك

نصفه اخرى هي أشرف من الكل وهو العقل فيه تدرك مضرة الاطعمة ومنفعتها في الحال والمآل وبه تدرك كيفية طبخ الاطعمة وتأليفها واعداد أسبابها فتنتفع بعقلك في الاكل الذى هو سبب حياتك وهو أخس فوائد العقل وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة افعاله ومعرفة الحكمة في عالمه وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس في حقك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الاخبار الموكلين بنواحي المملكة وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به فواحدة منها بأخبار الالوان والاخرى بأخبار الاصوات والاخرى بأخبار الروائح والاخرى بأخبار الطعام والاخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الاخبار من اقطار المملكة ويسلمونها الى الحس المشترك والحس المشترك قاعد في مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة ويسلمها اذليس له الا اخذها وجمعها وحفظها فأما معرفة حقائق مافيها فلا ولكن اذا صادف القلب العاقل الذى هو الامير والملك سلم الانهاء اليه مختومة فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب مايلوح له من الاحكام والمصالح يحرك الجنود وهي الاعضاء مرة في الطلب ومرة في الهرب ومرة في اتمام التدبيرات التي تعن له فهذه سياقة نعمة الله عليك في الادراكات ولا تظن أنا استوفيناها فان الحواس الظاهرة هي بعض الادراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها اغشية وبعض الاغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد ولكل واحدة من الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الاطباء والكحالون كلهم فهذا في حس واحد فقس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع أن جملته لا تزيد على جوزة صغيرة فكيف بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه فهذه مرامز الى نعم الله تعالى بخلق الادراكات *(الطرف الثاني في اصناف النعم في خلق الارادات)* اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق اليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الاشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والادراك معطلا في حقه فاضطررت الى أن يكون لك ميل الى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضي الذى يضطرك الى التناول حتى تتناول وتغتذي فتبقى بالغذاء وهذا مما يشارك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن

اذا أخذت مقدار الحاجة اسرفت وأهلكت نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الاكل بها لا كالزرع فانه لا يزال يجتذب الماء اذا انصب فى أسفله حتى يفسد فيحتاج الى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء اخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الوقاع حتى تجامع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى فى خلق الرحم وخلق دم الحيض وتأليف الجنين من المنى ودم الحيض وكيفية خلق الانثيين والعروق السالكة اليهما من الفقار الذى هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم الى قوالب تقع النطفة فى بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع فى بعضها فتتشكل بشكل الاناث وكيفية ادارتها فى اطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة أجزائها الى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الاعضاء لقضيت من انواع نعم الله تعالى عليك فى مبدا خلقك كل العجب فضلا عما تراه الآن ولكنا لسنا نريد أن نتعرض الالنعم الله تعالى فى الاكل وحده كى لا يطول الكلام فاذا شهوة الطعام أحد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأتيك المهلكات من الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولا خذ منك كل ما حصلته من الغذاء فان كل واحد يشتهى ما فى يديك فتحتاج الى داعية فى دفعه ومقاتلته وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك اذ الشهوة والغضب لا يدعوان الا الى ما يضر وينفع فى الحال وأما فى المآل فلا يكفى فيه هذه الارادة فخلق الله تعالى لك ارادة اخرى مسخرة تحت اشارة العقل المعرف للعواقب كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت ادراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل اذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك فى الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل الى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة افردت بها عن البهائم اكراما لبنى آدم كما افردت بمعرفة العواقب وقد سميناها هذه الارادة باعثا دينيا وفصلناه فى كتاب الصبر تفصيلا اوفى من هذا

(الطرف الثالث فى نعم الله تعالى فى خلق القدرة وآلات الحركة) اعلم أن الحس لا يفيد الا الادراك والارادة لا معنى لها الا الميل الى الطلب والهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب فكم من مريض مشتاق الى شئ بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشى اليه لفقد رجله او لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده او لفلج وخدر فيهما فلا بد من آلات للحركة وقدرة فى تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا فلذلك خلق الله تعالى لك الاعضاء التى تنظر الى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمنها ما هو للطلب والهرب كالرجل للانسان والجناح للطير والقوائم للدواب ومنها ما هو للدفع كالاسلحة للانسان والقرون للحيوان وفى هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر اعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج الى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ومنها ما خلق له اربع قوائم ومنها ما له رجلان

ومنها ما يذب وذكر ذلك يطول فلنذكر الاعضاء التى بها يتم الاكل فقط ليقاس عليها
غيرها فنقول رؤيتك الطعام من بعد وحركتك اليه لاتكفى مالم تتمكن من أن تأخذه
فافتقرت الى آلة باطشة فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان الى
الاشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك فى الجهات فتمتد وتنثنى اليك فلا تكون
كخشبة منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة
اقسام هى الاصابع وجعلها فى صفين بحيث يكون الابهام فى جانب ويدور على الاربعة
الباقية ولو كانت مجتمعة او متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعا ان بسطتها
كانت لك مجرفة وان ضممتها كانت لك مغرفة وان جمعتها كانت لك آلة للضرب وان
نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة فى القبض ثم خلق لها اظفارا وأسند اليها رؤس الاصابع
حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الاشياء الدقيقة التى لاتحويها الاصابع فتأخذها رؤس
اظفارك ثم هب انك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا مالم يصل الى المعدة
وهى فى الباطن فلا بدّ وأن يكون من الظاهر دهليز اليها حتى يدخل الطعام منه فجعل
الفم منفذا الى المعدة مع مافيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام الى المعدة
ثم ان وضعت الطعام فى الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج الى طاحونة
تطحن بها الطعام فخلق لك اللحيين من عظمين وركب فيهما الاسنان وطبق الاضراس
من العليا على السفلى لتطحن بها الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج الى الكسر وتارة الى
القطع ثم يحتاج الى طحن بعد ذلك فقسم الاسنان الى عريضة طواحين كالاضراس والى
حادة قواطع كالرباعيات والى ما يصلح للكسر كالانياب ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلا
بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحى ولولا ذلك
لما تيسر الا ضرب احدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن
فجعل اللحى الاسفل متحركا حركة دورية واللحى الاعلى ثابتا لا يتحرك فانظر الى عجيب
صنع الله تعالى فان كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الاسفل ويدور الاعلى الا هذا
الرحى الذى صنعه الله تعالى اذ يدور منه الاسفل على الاعلى فسبحانه ما أعظم شانه
وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب انك وضعت الطعام فى فضاء الفم فكيف
يتحرك الطعام الى ماتحت الاسنان او كيف تستجره الاسنان الى نفسها او كيف يتصرف
باليد فى داخل الفم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فانه يطوف فى جوانب الفم
ويرد الطعام من الوسط الى الاسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التى ترد الطعام الى الرحى
هذا مع مافيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق والحكم التى لسنا نطنب بذكرها
ثم هب انك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع الا بأن يزلق الى
الحلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها
وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الامر فانك ترى
الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب اشداقك والطعام
بعد بعيد عنك ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله الى المعدة وهو فى الفم ولا تقدر

على أن تدفعه باليد ولا في المعدة حتى تمد فتجذب الطعام فانظر كيف هيأ الله تعالى المريء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوي الى المعدة في دهليز المريء فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لان يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لا بد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوي عليه وتغلق عليه الابواب فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الاعضاء الباطنة اذ من جانبها الايمن الكبد ومن الايسر الطحال ومن قدام الترائب ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة اليها من تسخين هذه الاعضاء من الجوانب حتى يطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه اجزائه ورقته وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهي الى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في اجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولي عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الاعضاء الا أنّ حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ احداهما شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط السوداوي والاخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الاعضاء فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا الى الكبد داخلا في تجويفه فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوي فيبقى الدم صافيا ليس فيه الا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية ولولا هاله انتشر في تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعدا الى الاعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا الى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقها ليس داخلا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من جذبة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد اذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق فاذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نقيا من كل ما يفسد الغذاء ثم ان الله تعالى اطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع أقساما وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق الى القدم ظاهرا وباطنا فيجري الدم الصافي فيها ويصل الى سائر الاعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الاوراق والاشجار بحيث لا تدرك بالابصار فيصل منها الغذاء بالرشح الى سائر الاعضاء ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الامراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة وان حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوي حدثت الامراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها وان لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه

الاستسقاء وغيره ثم انظر الى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة أما المرارة فانها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر الى الامعاء ليحصل له في ثقل الطعام رطوبة مزلقة ويحدث في الامعاء لذع يحركها فتنضغط حتى يندفع الثقل وينزلق وتكون صفرته لذلك وأما الطحال فانه يحيل تلك الفضلة احالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها في كل يوم شيئا الى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل وأما الكلية فانها تغتذى بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي الى المثانة ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الاسباب التي أعدت للاكل ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد الى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الاعضاء الرئيسة الى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب الى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد الى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركب الاعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام وكل ذلك محتاج اليه للاكل ولامور أخر سواه بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والاعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شئ منها الا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع الى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن لهلكت يا مسكين فانظر الى نعمة الله تعالى عليك أولا لتقوى بعدها على الشكر فانك لا تعرف من نعمة الله سبحانه الا الاكل وهو أخسها ثم لا تعرف منها الا انك تجوع فتأكل والحمار أيضا يعلم انه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح فاذا لم تعرف أنت من نفسك الا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذي رمزنا اليه على الايجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط فقس على الاجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالاضافة الى ما لم نعرفه ومن نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر الا أن من علم شيئا من هذا أدرك شمة من معاني قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الاعضاء وقوام منافعها وادراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الاخلاط الاربعة ومستقره القلب ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهي الى جزء من أجزاء البدن الا ويحدث عند وصوله في تلك الاجزاء ما يحتاج اليه من قوة حس وادراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل الى جزء الا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سببا له بحكمته وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الاطباء الروح ومحله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة والدم الاسود الذي في باطن القلب له كالفتيلة والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكما أن السراج اذا انقطع زيته انطفأ

فسراج

فسراج الروح أيضا ينطفئ مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء فانه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به وكما أن السراج تارة يطفئ بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت او بفساد الفتيلة او بريح عاصف او باطفاء انسان لا يكون الا باسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك احله الذى اجل له في أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن السراج اذا انطفأ اظلم البيت كله فالروح اذا انطفأ اظلم البدن كله وفارقته انواره التي كان يستفيدها من الروح وهي انوار الاحساسات والقدر والارادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة فهذا ايضا رمز وجيز الى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي عز وجل فتعسا لمن كفر بالله تعسا وسحقا لمن كفر نعمته سحقا فان قلت فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الروح فلم يزد على أن قال قل الروح من امر ربي فلم يصفه لهم على هذا الوجه فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح فان الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطول بذكرها ونحن انما وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الاطباء روحا وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الاعضاء وكيفية حصول الاحساس والقوى في الاعضاء به حتى اذا خدر بعض الاعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الاعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه ينفذ في شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب الى سائر الاعضاء وما يرتقي اليه معرفة الاطباء فأمره سهل نازل وأما الروح التي هي الاصل وهي التي اذا فسدت فسد لها سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم يصفه ولا رخصة في وصفه الا بأن يقال هو أمر رباني كما قال تعالى قل الروح من أمر ربي والامور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تتحير فيها عقول اكثر الخلق وأما الاوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن ادراك الاصوات وتتزلزل في ذكر مبادئ وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة في مضيقها فلا يدرك بالعقل شئ من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية نسبته الى العقل نسبة العقل الى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق اطوارا فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لان ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ماوراءها لان ذلك طور لم يبلغه بعد وأنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الايمان واليقين وذلك المشرب اعز من أن يكون شريعة لكل

لكل وارد بل لا يطلع عليه الا واحد بعد واحد والحجاب الحق صدور فى مقدمة السدر مجال وميدان رحب وعلى اول الميدان عتبة هى مستقر ذلك الامر الربانى * فمن لم يكن له على هذه العتبة جوار ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل الميدان فكيف بالانتهاء الى ماوراءه من المشاهدات العالية ولذلك قيل من يعرف نفسه لم يعرف ربه وأنى يصادف هذا فى خزانه الاطباء ومن اين للطبيب أن يلاحظه بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب بالاضافة الى هذا الامر الربانى * كالكرة التى يحركها صولجان الملك بالاضافة الى الملك فمن عرف الروح الطبى فظن انه ادرك الامر الربانى كان كمن رأى الكرة التى يحركها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك ولا يشك فى أن خطأه فاحش وهذا الخطأ افحش منه جدا ولما كانت العقول التى بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الامر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى فى كتابه من حقيقة هذا الامر شيئا لكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته أما نسبته ففى قوله تعالى من أمر ربى وأما فعله تعالى فقد ذكر فى قوله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ولنرجع الآن الى الغرض فان المقصود ذكر نعم الله تعالى فى الاكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى فى آلات الاكل (الطرف الرابع فى نعم الله تعالى فى الاصول التى يحصل منها الاطعمة وتصير صالحة لان يصلحها الآدمى * بعد ذلك بصنعته) اعلم أن الاطعمة كثيرة ولله تعالى فى خلقها عجائب كثيرة لا تحصى واسباب متواليه لا تتناهى وذكر ذلك فى كل طعام مما يطول فان الاطعمة اما ادوية واما فواكه واما اغذية فلنأخذ الاغذية فانها الاصل ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الاغذية فنقول اذا وجدت حبة او حبات فلو اكلتها فنيت و بقيت جائعا فما احوجك الى أن تنمو الحبة فى نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفى بتمام حاجتك فخلق الله تعالى فى حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك فان النبات انما يفارقك فى الحس والحركة ولا يخالفك فى الاغتذاء لانه يغتذى بالماء ويجتذب الى باطنه بواسطة العروق كما تغتذى انت وتجتذب ولسنا نطنب فى ذكر آلات النبات فى اجتذاب الغذاء الى نفسه ولكن نشير الى غذائه فنقول كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج الى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تغتذى بكل شئ بل تحتاج الى شئ مخصوص بدليل لو انك تركتها فى البيت لم ترد لانه ليس يحيط بها الا هواء ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها فى الماء لم ترد ولو تركتها فى ارض لا ماء فيها لم ترد بل لا بد من ارض فيها ماء يمتزج ماؤها بالارض فيصير طينا واليه الاشارة بقوله تعالى فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ثم لا يكفى الماء والتراب اذ لو ترك فى ارض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج الى تركها فى أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء اليها * الهواء لا يتحرك اليها بنفسه فيحتاج الى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على

الارض حتى ينفذ فيها واليه الاشارة بقوله تعالى وأرسلنا الرياح لواقح وانما القاحها في ايقاع الازدواج بين الهواء والماء والارض ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات فتحتاج الى حرارة الربيع والصيف فقد بان احتياج غذائه الى هذه الاربعة فانظر الى ماذا يحتاج كل واحد اذ يحتاج الماء لينساق الى ارض الزراعة من البحار والعيون والانهار والسواقي فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون واجرى منها الانهار ثم الارض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع اليها فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه الى اقطار الارض وهي سحب ثقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الاراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والامطار لا يمكن احصاؤها وأما الحرارة فانها لا تحصل بين الماء والارض وكلاهما باردان فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الارض مسخنة للارض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة الى البرد والحر عند الحاجة الى الحر فهذه احدى حكم الشمس والحكم فيها اكثر من أن تحصى ثم النبات اذا ارتفع عن الارض كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر الى رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الاشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى ان الشجرة الصغيرة تفسد اذا ظللتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه بل نقول كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر باحصائها ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا وقوله عز وجل وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين وكما انه ليس في اعضاء بدنك عضو الا لفائدة فليس في اعضاء بدن العالم عضو الا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد اجسامه كالاعضاء له وهي متعاونة تعاون اعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي أن تظن أن الايمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في امور جعلت اسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم بل المنهي عنه في النجوم امران * احدهما أن تصدق بانها فاعلة لآثارها مستقلة بها وانها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر * والثاني تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها لانهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الانبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق الا ما هو مختلط

لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب اسبابا لآثار تحصل بخلق الله
تعالى في الارض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق ولكن دعوى
العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين ولذلك اذا كان معك ثوب
غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت
وحمي النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الانكار عليه بحوالة حمي الهواء على
طلوع الشمس واذا سألت عن تغير وجه الانسان فقال قرعتني الشمس في الطريق
فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار الا أن الآثار بعضها
معلوم وبعضها مجهول فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بعضه معلوم للناس
كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام
بشروق القمر فاذا الكواكب ما خلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر
رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السماء وقرأ قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك
فقنا عذاب النار ثم قال صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته
ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون
السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي
مسح بها سبلته فلله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والانفس والحيوانات
عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فان من احب عالما فلا يزال مشغولا بطلب
تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له فكذلك الامر في عجائب صنع الله
تعالى فان العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنعه بواسطة
قلوب عباده فان تعجبت من تصنيف فلا تعجب من المصنف بل من الذي سخر المصنف
لتصنيفه بما انعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه كما اذا رأيت لعب المشعوذ ترقص
وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فانها خرق محركة لا متحركة ولكن
تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الابصار فاذا المقصود أن
غذاء النبات لا يتم الا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك الا بالافلاك
التي هي مركوزة فيها ولا تتم الافلاك الا بحركاتها ولا تتم حركاتها الا بملائكة سماوية
يحركونها وكذلك يتمادى ذلك الى اسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه
على ما اهملناه ولنقتصر على هذا من ذكر اسباب غذاء النبات ❊ (الطرف الخامس
في نعم الله تعالى في الاسباب الموصلة للاطعمة اليك) اعلم أن هذه الاطعمة كلها لا توجد
في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لاجلها توجد في بعض الاماكن دون بعض
والناس منتشرون على وجه الارض وقد تبعد عنهم الاطعمة ويحول بينهم وبينها البحار
والبراري فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح
مع انهم لا يغنيهم في غالب الامر شيء بل يجمعون فاما أن تغرق بها السفن او ينهبها قطاع
الطريق او يموتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن احوالهم أن يأخذها
ورثتهم وهم اشد أعدائهم لو عرفوا فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى

يقاسوا

يقاسوا الشدائد في طلب الربح ويركبوا الاخطار ويغرروا بالارواح في ركوب البحر فيحملون الاطعمة وانواع الحوائج من اقصى الشرق والغرب اليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل في البراري وانظر الى الابل كيف خلقت والى الفرس كيف امدت بسرعة الحركة والى الحمار كيف جعل صبورا على التعب والى الجمال كيف تقطع البراري وتطوي المراحل تحت الاعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا اليك الاطعمة وسائر الحوائج وتأمل مايحتاج اليه الحيوانات من اسبابها وأدواتها وعلفها وما تحتاج اليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك الى حد الحاجة وفوق الحاجة واحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك الى امور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للايجاز *(الطرف السادس في اصلاح الاطعمة)* اعلم أن الذي ينبت في الارض من النبات ومايخلق من الحيوانات لايمكن أن يقضم ويؤكل وهو كذلك بل لا بد في كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بالقاء البعض وابقاء البعض الى امور أخر لا تحصى واستقصاء ذلك في كل طعام يطول فلنعين رغيفا واحدا ولننظر الى مايحتاج اليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للاكل من بعد القاء البذر في الارض فأول مايحتاج اليه الحراث ليزرع ويصلح الارض ثم الثور الذي يثير الارض والفدان وجميع اسبابه ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدة ثم تنقية الارض من الحشيش ثم الحصاد ثم الفرك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتأمل عدد هذه الافعال التي ذكرناها ومالم نذكره وعدد الاشخاص القائمين بها وعدد الآلات التي يحتاج اليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر الى أعمال الصناع في اصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرهما وانظر الى حاجة الحداد الى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والاحجار والمعادن وكيف جعل الارض قطعا متجاورات مختلفة فان فتشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لاكلك يا مسكين مالم يعمل عليه اكثر من ألف صانع فابتدئ من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء الى آخر الاعمال من جهة الملائكة حتى تنتهي النوبة الى عمل الانسان فاذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع اصل من اصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق ثم تأمل كثرة أعمال الانسان في تلك الآلات حتى ان الابرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تكمل صورتها من حديدة تصلح للابرة الا بعد أن تمر على يد الابري خمسا وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملا فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت الى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه افلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة لان يعمل هذه الاعمال العجيبة والصنائع الغريبة فانظر الى المقراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق احدهما على الآخر فيتناولان الشيء معا ويقطعانه بسرعة ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا

وافتقرنا الى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم الى استخراج الحديد من الحجر والى تحصيل
الآلات التي بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتي أكمل العقول لقصر عمره
عن استنباط الطريق في اصلاح هذه الآلة وحدها فضلا عن غيرها فسبحان من
ألحق ذوي الابصار بالعميان وسبحان من منع التنبيه مع هذا البيان فانظر الآن
لو خلا بلدك عن الطحان مثلا وعن الحداد أو عن الحجام الذي هو أخس الاعمال او عن
الحائك او عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الاذى وكيف تضطرب عليك
امورك كلها فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به
حكمته ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضا فان الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء
(الطرف السابع في اصلاح المصلحين) اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين للاطعمة
وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا
ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض
واحد فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الانس والمحبة عليهم ولو أنفقت
ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم فلاجل الائتلاف وتعارف
الارواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة
ورتبوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول احصاؤه ثم هذه المحبة تزول
بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ففي جبلة الانسان الغيظ والحسد والمنافسة
وذلك مما يؤدي الى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم
بالقوة والعدة والاسباب وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى اذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف
هدى السلاطين الى طريق اصلاح البلاد حتى رتبوا اجزاء البلد كأنها اجزاء شخص واحد
تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض ورتبوا الرؤساء والقضاة والسجن
وزعماء الاسواق واضطروا الخلق الى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون حتى
صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد وصار الحجام
ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم
وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما تتعاون جميع اعضاء البدن وينتفع بعضها
ببعض وانظر كيف بعث الانبياء عليهم السلام حتى اصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا
وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم
وكشفوا من أحكام الامامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتدوا به الى اصلاح الدنيا
فضلا عما ارشدوهم اليه من اصلاح الدين وانظر كيف اصلح الله تعالى الانبياء بالملائكة
وكيف اصلح الملائكة بعضهم ببعض الى أن ينتهي الى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه
وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد
والحداد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع ارباب الصناعات
المصلحين لآلات الاطعمة والسلطان يصلح الصناع والانبياء يصلحون العلماء الذين هم
ورثتهم والعلماء يصلحون السلاطين والملائكة يصلحون الانبياء الى أن ينتهي الى حضرة

الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف وكل ذلك نعم من رب الارباب ومسبب الاسباب ولولا فضله وكرمه اذ قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا لما اهتدينا الى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله ايانا عن أن نطمح بعين الطمع الى الاحاطة بكنه نعمه لتشوّفنا الى طلب الاحاطة والاستقصاء ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها فان تكلمنا فباذنه انبسطنا وان سكتنا فبقهره انقبضنا اذ لا معطى لما منع ولا مانع لما اعطى لانا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الاعمار. (الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام). ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة باصلاح الانبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي اليهم ولا تظنن انهم مقتصرون في افعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات الملائكة الارضية والسماوية وحملة العرش فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع الى الاكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما واعلم أن كل جزء من اجزاء بدنك بل من اجزاء النبات لا يغتذي الا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله الى عشرة الى مائة الى ما وراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف وذلك الغذاء يصير دما في آخر الامر ثم يصير لحما وعظما واذا صار لحما وعظما تم اغتذاؤك والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في اطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحينا ثم عجينا ثم خبزا مستديرا مخبوزا الا بصناع وكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما وعظما وعروقا وعصبا الا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم اهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة فأقول لا بدّ من ملك يجذب الغذاء الى جوار اللحم والعظم فان الغذاء لا يتحرك بنفسه ولا بدّ من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ولا بدّ من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بدّ من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق والعظم ولا بدّ من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بدّ من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولا بدّ من سابع يرعى المقادير في الالصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالمجوّف ما لا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على انف الصبيّ ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوّهت صورته وخلقته بل ينبغي أن يسوق الى الاجفان مع رقتها والى الحدقة مع صفائها والى الافخاذ مع غلظها والى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل والا بطلت الصورة وربا بعض المواضع وضعف بعض المواضع بل لو لم يراع

هذا الملك العدل في القسمة والمقسط فساق الى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء
ما يحتاج اليه الى احدى الرجلين مثلا لقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع
البدن فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كانها رجل صبي فلا ينتفع
بنفسه البتة فراعاه هذه الهندسة في هذه القسمة مفوّضة الى ملك من الملائكة ولا تظن
أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الامور على الطبع جاهل لا يدري
ما يقول فهذه هي الملائكة الارضية وقد شغلوا بك وانت في النوم تستريح وفي الغفلة
تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك
الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الاجزاء كالعين والقلب الى أكثر من مائة ملك تركنا
تفصيل ذلك للاختصار والملائكة الارضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب
معلوم لا يحيط بكنهه الا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم
على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت
والعزة والجبروت جبار السموات والارض مالك الملك ذو الجلال والاكرام والاخبار
الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والارض واجزاء النبات والحيوانات حتى كل
قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب الى جانب اكثر من أن تحصى فلذلك تركنا
الاستشهاد به وان قلت فهلا فوّضت هذه الافعال الى ملك واحد ولم افتقر الى سبعة
املاك والحنطة أيضا تحتاج الى من يطحن اولا ثم الى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة
ثانيا ثم الى من يصب الماء عليه ثالثا ثم الى من يعجن رابعا ثم الى من يقطعه كرات مدوّرة
خامسا ثم الى من يرقها رغفا عريضة سادسا ثم الى من يلصقها بالتنور سابعا ولكن
قد يتولى جميع ذلك رجل واحد ويستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال
الانس ظاهرا فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الانس ومامن واحد منهم الا وهو
وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم الا فعل واحد
واليه الاشارة بقوله تعالى ومامنا الا له مقام معلوم فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل
بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس فان البصر
لا يزاحم السمع في ادراك الاصوات ولا الشم يزاحمهما ولا هما ينازعان الشم وليس كاليد
والرجل فانك قد تبطش أصابع الرجل بطشا ضعيفا فيزاحم به اليد وقد تضرب غيرك
رأسك فيزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذي يتولى بنفسه
الطحن والعجن والخبز فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف
صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل
ولذلك ترى الانسان يطيع الله مرة ويعصيه اخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير
ممكن في طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقهم فلا جرم
لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون والراكع
منهم راكع ابدا والساجد منهم ساجد أبدا والقائم قائم أبدا الا اختلاف في افعالهم
ولا فتور ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال

للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة اطرافك لك فانك مهما جزمت الارادة بفتح الاجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك اخرى بل كانه منتظر لامرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا باشارتك فهذا يشبهه من وجه لكن يخالفه من وجه اذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحا واطباقا والملائكة احياء عالمون بما يعملون فاذا هذه نعمة الله عليك في الملائكة الارضية والسماوية وحاجتك اليهما في غرض الاكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها وهذه طبقة اخرى من طبقات النعم ومجامع الطعمات لا يمكن احصاؤها فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات فاذا قد اسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال وذروا ظاهر الاثم وباطنه فترك باطن الاثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة واضمار الشر للناس الى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الاثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة بل اقول كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والارض وما بينهما فان كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والارض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وان انتفع غيره أيضا به فان لله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن اذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها اوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الاعلى وارتفاع الجفن الاسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله تعالى في سوادها انها تجمع ضوء العين اذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله في ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للهوام من الدبيب الى باطن العين ومتشبثا للاقذاء التي تتناثر في الهواء وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين اصلها ومع اللين قوام نصبها وله في اشتباك الاهداب نعمة اعظم من الكل وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر فيجمع الاجفان مقدار ما تتشابك الاهداب فينظر من وراء شباك الشعر فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم ان اصاب الحدقة غبار فقد خلق اطراف الاجفان حادة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرة او مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الاقذاء الى زوايا العين والاجفان والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار واذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره الى تطويل يزيد على اصل هذا الكتاب ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه ان امهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى فلنرجع الى غرضنا فنقول من نظر الى غير محرم قد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الاجفان ولا تقوم الاجفان الا بعين ولا العين الا برأس ولا الرأس الا بجميع البدن ولا البدن الا بالغذاء ولا الغذاء الا بالماء والارض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر ولا يقوم شئ من ذلك الا بالسموات ولا السموات الا بالملائكة فان الكل كالشئ الواحد يرتبط

النعمة منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض فإذا فقد كل نعمة في الوجود
من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد
إلا ويلعنه ولذلك ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا
أو تستغفر لهم وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر وأن الملائكة
يلعنون العصاة في ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي
بطريفة واحدة جنى على جميع ما في الملك والملكوت وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع
السيئة بحسنة تمحوها فيتبدل اللعن بالاستغفار فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز
عنه وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام يا أيوب ما من عبد لي من الآدميين
إلا ومعه ملكان فإذا شكرني على نعمائي قال الملكان اللهم زده نعماً على نعم فإنك
أهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريباً فكفى بالشاكرين علواً ورتبة عندي
أني أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكي عليهم
وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعماً كثيرة فاعلم أن في كل نفس ينبسط وينقبض
نعمتين إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك وبانقباضه يجمع
روح الهواء إلى القلب ولو سدّ متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبروده عنه
وهلك واليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس
وكل نفس قريب من عشر لحظات فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء
من أجزاء بدنك بل في كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصوّر إحصاء ذلك أم لا ولما
انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها قال إلهي
كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان أن لينت أصلها وأن طمست
رأسها وكذا ورد في الآثار من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر
عذابه وجميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعتبر ما سواه من النعم به فإن البصير
لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه
فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع في غير مطمع

(بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر)

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة فإنهم منعوا بالجهل والغفلة
عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا
أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن
يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع
من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان أما الغفلة
عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدّون ما يعم الخلق ويسلم
لهم في جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة
للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به فلا يعده
نعمة ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء

عنهم ما توا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غما فان ابتلي واحد منهم بشئ من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها وهذا غاية الجهل اذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الاحوال والنعمة في جميع الاحوال اولى بأن تشكر في بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره الى أن تعمى عينه فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم في جميع الاحوال فلم يعده الجاهل نعمة وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائما حتى اذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر وصار الناس لا يشكرون الا المال الذي يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكا بعضهم فقره الى بعض ارباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له ايسرك انك اعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال ايسرك انك اخرس ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال ايسرك انك اقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا فقال لا فقال ايسرك انك مجنون ولك عشرة آلاف فقال لا فقال اما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا وحكي أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام كأن قائلا يقول له تود انا انسيناك من القرءان سورة الانعام وان لك ألف دينار قال لا قال فسورة هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فعدد عليه سورا ثم قال فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سري عنه ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه فقال له عظني فقال لو لم تعط هذه الشربة الا ببذل جميع اموالك والا بقيت عطشانا فهل كنت تعطيه قال نعم فقال لو لم تعط الا بملكك كله فهل كنت تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يسوى شربة ماء فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش اعظم من ملك الارض كلها واذا كانت الطباع مائلة الى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر اشارة وجيزة الى النعم الخاصة فنقول ما من عبد الا ولو أمعن النظر في احواله رأى من الله نعمة او نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها احد وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة امور في العقل والخلق والعلم أما العقل فما من عبد لله تعالى الا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه اعقل الناس وقلما يسأل الله العقل وان من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به فاذا كان اعتقاده انه اعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لانه ان كان كذلك فالشكر واجب عليه وان لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه فمن وضع كنزا تحت الارض فهو يفرح به ويشكر عليه فان أخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لانه في حقه كالباقي وأما الخلق فما من عبد الا ويرى من غيره عيوبا يكرهها واخلاقا يذمها وانما يذمها من حيث يرى نفسه بريئا عنها فاذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى

ان احسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء وأما العلم فما من احد الا ويعرف من بواطن اموره نفسه وخفايا افكاره ماهو منفرد به ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه احد من الخلق لافتضح فكيف لو اطلع الناس كافة فاذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي ارسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح واخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد اما مطلقا واما في بعض الامور فلينزل عن هذه الطبقة الى طبقة اخرى اعم منها قليلا فيقول ما من عبد الا وقد رزقه الله تعالى في صورته او شخصه او اخلاقه او صفاته او أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده او رفيقه أو أقاربه او عزه او جاهه أو في سائر محابه امورا لو سلب ذلك منه وأعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا جمادا وانسانا لا بهيمة وذكرا لا انثى وصحيحا لا مريضا وسليما لا معيبا فان كل هذه خصائص وان كان فيها عموم أيضا فان هذه الاحوال لو بدل باضدادها لم يرض به بل له امور لا يبدلها بأحوال الآدمي أيضا وذلك اما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق اولا يبدله بما خص به الاكثر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله أحسن من حال غيره واذا كان لا يعرف شخصا يرتضي لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه اما على الجملة واما في أمر خاص فاذا لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه وان كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر الى عدد المغبوطين عنده فانه لا محالة يراهم أقل بالاضافة الى غيرهم فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير ممن هو فوقه فما باله ينظر الى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر الى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوي دنياه بدينه أليس اذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر اليها بأن في الفساق كثرة فينظر أبدا في الدين الى من دونه لا الى من فوقه فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك فاذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيرا منه وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من نظر في الدنيا الى من هو دونه ونظر في الدين الى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا ومن نظر في الدنيا الى من هو فوقه وفي الدين الى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا فاذا كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة لا سيما من خص بالسنة والايمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والامن وغير ذلك ولذلك قيل

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به ... في دينه ثم في دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه ورعا ... ولينظرن الى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم من لم يستغن بآيات الله فلا اغناه الله وهذا اشارة الى نعمة العلم وقال عليه السلام ان القرآن هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه وقال عليه السلام من آتاه الله القرآن فظن ان أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله وقال صلى

الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال عليه السلام كفى باليقين غنى وقال بعض السلف يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة ان عبدا اغنيته عن ثلاثة لقد اتممت عليه نعمتى عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما فى يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال

اذا ما القوت يأتيك * كذا الصحة والامن
وأصبحت اخا حزن * فلا فارقك الحزن

بل ارشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال من اصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من امور وراء هذه الثلاث مع انها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله فى هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى الايمان الذى به وصولهم الى النعيم المقيم والملك العظيم بل البصير ينبغى أن لا يفرح الا بالمعرفة واليقين والايمان بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الارض من المشرق الى المغرب من اموال وأتباع وانصار وقيل له خذها عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم يأخذه وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضى به الى قرب الله تعالى فى الآخرة بل لو قيل لك مالك فى الآخرة ما ترجوه بكماله فخذ هذه اللذات فى الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم فى الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وانها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفى مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها هكذا كانت الى الآن وهكذا تكون ما بقى الزمان اذ ما خلقت لذات الدنيا الا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع حتى اذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغنى حتى اذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها فى تعب قائم وعناء دائم وكل ذلك باغتراره بلذة النظر اليها فى لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقعت ارباب الدنيا فى شباك الدنيا وحبائلها ولا ينبغى أن تقول ان المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فان المقبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتألم المعرض يفضى الى لذة فى الآخرة وتألم المقبل يفضى الى الألم فى الآخرة فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ولا تهنوا فى ابتغاء القوم أن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون فاذا انما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة * فان قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا اليه من اصناف نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة الا اذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها فسبيله أن ينظر أبدا الى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية اذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر

والمواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه نعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمه الأمن ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا أما من عصى الله فليتدارك وأما من أطاع فليزيد في طاعته فإن يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبني إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات وأما العاصي فغبنه ظاهر فإذا شاهد المقابر وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر وقد كان الربيع ابن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيدا للمعرفة فكان قد حفر في داره قبرا فكان يضع غلا في عنقه وينام في لحده ثم يقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحا ثم يقوم ويقول يا ربيع قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدوها بالشكر وفي الخبر ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فهذا تمام هذا الركن *

(الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك به الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر)*

(بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد)

لعلك تقول ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن لله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا فما معنى الصبر إذا وإن كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألما والشكر يستدعي فرحا وهما يتضادان وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه أما في الآخرة فكسعادة

العبد بالنزول فى جوار الله تعالى وأما فى الدنيا فكالايمان وحسن الخلق ومايعين عليهما والى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذى يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم الى مطلق ومقيد أما المطلق فى الآخرة فالبعد من الله تعالى اما مدة واما ابدا وأما فى الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهى التى تفضى الى البلاء المطلق وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التى لا تكون بلاء فى الدين بل فى الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة أما البلاء المطلق فى الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لان الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصى نعم الكافر قد لا يعرف انه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية او غيرها فلا صبر عليه والعاصى يعرف انه عاص فعليه ترك المعصية بل كل بلاء يقدر الانسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الانسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يأمر بالصبر عليه بل يؤمر بازالة الالم وانما الصبر على ألم ليس الى العبد ازالته فاذا رجع الصبر فى الدنيا الى ماليس ببلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور ان يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فان الغنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الانسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل اولاده والصحة أيضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية الا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالاضافة اليه وكذلك مامن بلاء الا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالاضافة الى حاله فرب عبد تكون الخيرة له فى الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى قال الله تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض وقال تعالى كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وقال صلى الله عليه وسلم ان الله ليحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمى احدكم مريضه وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ماذكرناه فى الاقسام الستة عشر من النعم سوى الايمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء فى حق بعض الناس فتكون اضدادها نعما فى حقهم اذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد فى بعض الامور بلاء ويكون فقدها نعمة مثاله جهل الانسان بأجله فانه نعمة عليه اذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه اذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه اذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه فى الدنيا والآخرة بل جهله بالخصال المحمودة فى غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر الى ايذائه واهانته ولو عرف ذلك وآذى كان اثمه لا محالة أعظم فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف ومنها ابهام الله تعالى أمر القيامة وابهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وابهامه بعض الكبائر فكل ذلك نعمة لان هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى فى الجهل فكيف فى العلم وحيث قلنا ان لله تعالى فى كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد فى حق كل أحد ولا يستثنى عنه

بالطبق الا الا لام التى يخلقها فى بعض الناس وهى أيضا قد يكون نعمة فى حق المتألم بها فان لم تكن نعمة فى حقه كالالم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووسمه بشربه فانه يتألم به وهو عاص به وألم الكفار فى النار فهو أيضا نعمة ولكن فى حق غيرهم من العباد لا فى حقهم لان مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا ان الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولا كثر فرحهم بها وفرح أهل الجنة انما يتضاعف اذا تفكروا فى آلام أهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم اليها من حيث انها عامة مبذولة ولا يشتد فرحهم بالنظر الى زينة السماء وهى أحسن من كل بستان لهم فى الارض يجتهدون فى عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذا قد صح ماذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا الا وفيه حكمة ولا خلق شيئا الا وفيه نعمة اما على جميع عباده او على بعضهم فاذا فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا اما على المبتلى او على غير المبتلى فاذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا فان قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان اذ لا صبر الا على غم ولا شكر الا على فرح فاعلم أن الشئ الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح وفى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة امور ينبغى أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها احدها أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها اذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه فليشكر اذ لم تكن اعظم منها فى الدنيا الثانى انه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه دخل اللص بيتى وأخذ متاعى فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام فى دعائه اذ قال اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ما ابتليت ببلاء الا كان لله تعالى على فيه اربع نعم اذ لم يكن فى دينى واذ لم يكن أعظم منه واذ لم أحرم الرضا به واذ أرجو الثواب عليه وكان لبعض ارباب القلوب صديق فحبسه السلطان فأرسل اليه يعلمه ويشكو اليه فقال له اشكر الله فضرب فأرسل اليه يعلمه ويشكو اليه فقال اشكر الله فجئ بمجوسى فحبس عنده وكان مبطونا فقيد وجعل حلقة من قيده فى رجله وحلقة فى رجل المجوسى فأرسل اليه فقال اشكر الله فكان المجوسى يحتاج الى ان يقوم مرات وهو يحتاج أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته فكتب اليه بذلك فقال اشكر الله فقال الى متى هذا وأى بلاء أعظم من هذا فقال لو جعل الزنار الذى فى وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذا ما من انسان قد اصيب ببلاء الا ولو تأمل حق التأمل فى سوء ادبه ظاهرا او باطنا فى حق مولاه لكان يرى انه يستحق أكثر مما اصيب به عاجلا وآجلا ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك احداهما فهو مستحق للشكر ولذلك مر بعض

الشيوخ فى شارع فصب على رأسه طشت من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر فقيل له ماهذه السجدة فقال كنت انتظر أن تصب على النار فالاقتصار على الرماد نعمة وقيل لبعضهم الا تخرج الى الاستسقاء فقد احتبست الامطار فقال أنتم تستبطئون المطر وأنا استبطئ الحجر فان قلت كيف افرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتى ولم يصابوا بما اصبت به حتى الكفار فاعلم أن الكافر قد خبئ له ما هو أكثر وانما امهل حتى يستكثر من الاثم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما وأما العاصى فمن أين تعلم أن فى العالم من هو اعصى منه ورب خاطر بسوء أدب فى حق الله تعالى وفى صفاته أعظم واطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ولذلك قال تعالى فى مثله وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم فمن أين تعلم أن غيرك اعصى منك ثم لعله قد اخرت عقوبته الى الآخرة وعجلت عقوبتك فى الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا هو الوجه الثالث فى الشكر وهو أنه ما من عقوبة الا وكان يتصور أن تؤخر الى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وان لم تدم فلا سبيل الى تخفيفها بالتسلى اذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الآخرة عن المعذبين ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا اذ قال رسول الله عليه وسلم ان العبد اذا اذنب ذنبا فأصابته شدة او بلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا الرابع أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه فى ام الكتاب وكان لابد من وصولها اليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها او من جميعها فهذه نعمة الخامس أن ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة من وجهين احدهما الوجه الذى يكون به الدواء الكريه نعمة فى حق المريض ويكون المنع من اسباب اللعب نعمة فى حق الصبى فانه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والادب فكان يخسر جميع عمره وكذلك المال والاهل والاقارب والاعضاء حتى العين التى هى اعز الاشياء قد تكون سببا لهلاك الانسان فى بعض الاحوال بل العقل الذى هو أعز الامور قد يكون سببا لهلاكه فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين اوصبيانا ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله تعالى فما من شئ من هذه الاسباب يوجد من العبد الا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فان حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلايا اذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبى بعد العقل والبلوغ استاذه وأباه على ضربه وتأديبه اذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالاولاد فقد روى ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اوصنى قال لا تتهم الله فى شئ قضاه عليك ونظر صلى الله عليه وسلم الى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن ان قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وان قضى له بالضراء رضى وكان خيرا له .. الوجه الثانى أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ورأس اسباب النجاة التجافى بالقلب عن دار الغرور

ومؤاتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب الى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته واذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن اليها ولم يأنس بها وصارت سجنا عليه وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد الا الحياة الدنيا ورضي بها واطمأن اليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين الى الخروج منها والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي وبقدر حب الدنيا في القلب يسري فيه الشرك الخفي بل الموحد المطلق هو الذي لا يحب الا الواحد الحق فاذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة الى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا أو يسقيك دواء نافعا بشعا وهو مجان فانك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء في الامور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل بل من دخل دار ملك للنظارة وعلم انه يخرج منها لا محالة فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لانه يورثه الانس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق انسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع انسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لان الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بان ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة وحكي أن اعرابيا عزى ابن عباس على ابيه فقال

اصبر نكن بك صابرين فانما ∗ صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده ∗ والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس ما عزاني أحد أحسن من تعزيته والاخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يصب منه وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى اذا وجهت الى عبدي مصيبة في بدنه أو ماله او ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة ان انصب له ميزانا او انشر له ديوانا وقال عليه السلام ما من عبد اصيب بمصيبة فقال كما امره الله تعالى انا لله وانا اليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واعقبني خيرا منها الا فعل الله ذلك به وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى من سلبت كريمتيه فجزاؤه الخلود في داري والنظر الى وجهي وروي ان رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال صلى الله عليه وسلم لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ان الله اذا احب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك وعن خباب بن الارت قال اتينا

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه فى ظل الكعبة فشكونا اليه فقلنا يارسول الله ألا تدعوا الله تستنصره لنا فجلس محمرا لونه ثم قال ان من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له فى الارض حفيرة و يجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه وعن على كرّم الله وجهه قال أيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد وان ضربه فمات فهو شهيد وقال عليه السلام من اجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك وقال ابوالدرداء رضى الله تعالى عنه تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على ما يفنى وتذرون ما يبقى ألا حبذا المكروهات الثلاث الفقر والمرض والموت وعن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا فاذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف وان دعاه ثانيا فقال يارب قال الله تعالى لبيك عبدى وسعديك لا تسألنى شيئا الا اعطيتك اودفعت عنك ماهو خير وادخرت لك عندى ماهو افضل منه فاذا كان يوم القيامة جيئ بأهل الاعمال فوفوا اعمالهم بالميزان اهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الاجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا فيود أهل العافية فى الدنيا لو أنهم كانت تقرض اجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب فذلك قوله تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال شكا نبى من الانبياء عليهم السلام الى ربه فقال يارب العبد المؤمن يطيعك و يجتنب معاصيك تروى عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك و يجترئ عليك وعلى معاصيك تروى عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى اليه ان العباد لى والبلاء لى وكل يسبح بحمدى فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوى عنه البلاء فاجزيه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فاجزيه بسيئاته وروى انه لما نزل قوله تعالى من يعمل سوءا يجز به قال ابوبكر الصديق رضى الله عنه كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبابكر ألست تمرض ألست يصيبك الاذى ألست تحزن فهذا مما تجزون به يعنى ان جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك وعن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا ان ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ يعنى لما تركوا ما امروا به فتحنا عليهم ابواب الخير حتى اذا فرحوا بما اوتوا أى بما اعطوا من الخير اخذناهم بغتة وعن الحسن البصرى رحمه الله ان رجلا من الصحابة رضى الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت اليها وهو يمشى فصدمه حائط فاثر فى وجهه فاتى النبى صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال

صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا وقال على كرم الله وجهه الا أخبركم بأرجى آية فى القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير فالمصائب فى الدنيا بكسب الاوزار فاذا عاقبه الله فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا وان عفا عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما تجرع عبد قط جرعتين أحب الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت قطرة أحب الى الله من قطرة دم اهريقت فى سبيل الله أو قطرة دمع فى سواد الليل وهو ساجد ولا يراه الا الله وما خطا عبد خطوتين أحب الى الله تعالى من خطوة الى صلاة الفريضة وخطوة الى صلة الرحم وعن أبى الدرداء قال توفى ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فجثيا بين يديه فى زى الخصوم فقال احدهما بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفسده فقال للآخر ما تقول فقال احدث الجادة فأتيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فاذا الطريق عليه فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق أما علمت أن لابد للناس من الطريق قال فلم تحزن على ولدك أما علمت أن الموت سبيل الآخرة فتاب سليمان الى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض فقال يا بنى لان تكون فى ميزانى أحب الى من أن أكون فى ميزانك فقال يا أبت لأن يكون ما تحب أحب الى من أن يكون ما أحب وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه نعى اليه ابنه له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى ومؤنة كفاها الله وأجر ساقه الله ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال قد صنعنا ما أمر الله تعالى قال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وعن ابن المبارك انه مات له ابن فعزاه مجوسى يعرفه فقال له ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة ايام فقال ابن المبارك اكتبوا عنه هذه وقال بعض العلماء ان الله ليبتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الارض وماله ذنب وقال الفضيل ان الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير وقال حاتم الاصم ان الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة انفس على اربعة اجناس على الاغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد بيوسف وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بنى اسرائيل واختفى فى الشجرة فعرفوا ذلك فجئ بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار الى رأس زكريا فأن منه أنة فأوحى الله تعالى اليه يا زكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لامحونك من ديوان النبوة فعض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع شطرين وقال ابن مسعود البلخى من اصيب بمصيبة فمزق ثوبا وضرب صدرا فكأنما اخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل وقال لقمان رحمه الله لابنه يا بنى ان الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فاذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضاء ومن سخط فله السخط وقال الاحنف بن قيس اصبحت يوما اشتكى ضرسى فقلت لعمى ما نمت

البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا فقال لقد أكثرت من ضرسك فى ليلة واحدة وقد ذهبت عينى هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها احد واوحى الله تعالى الى عزير عليه السلام اذا نزلت بك بلية فلا تشكنى الى خلقى واشك الى كما لا اشكوك الى ملائكتى اذا صعدت مساويك وفضائحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل فى الدنيا والآخرة

(بيان فضل النعمة على البلاء)

لعلك تقول هذه الاخبار تدل على أن البلاء خير فى الدنيا من النعم فهل لنا ان نسأل الله البلاء فأقول لا وجه لذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة وكان يقول هو والانبياء عليهم السلام ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وكانوا يستعيذون من شماتة الاعداء وغيرها وقال على كرم الله وجهه اللهم انى اسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فاسأله العافية وروى الصديق رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال سلوا الله العافية فما اعطى أحد أفضل من العافية الا اليقين واشار باليقين الى عافية القلب عن مرض الجهل والشك فعافية القلب أعلى من عافية البدن وقال الحسن رحمه الله الخير الذى لا شر فيه العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر وقال مطرف بن عبد الله لان اعافى فاشكر احب الى من ان ابتلى فاصبر وقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه وعافيتك أحب الى وهذا أظهر من أن يحتاج فيه الى دليل واستشهاد وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما بالاضافة الى ما هو اكثر منه اما فى الدنيا أو فى الدين والآخرة بالاضافة الى ما يرجى من الثواب فينبغى أن يسأل الله تمام النعمة فى الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء ويسأله الثواب فى الآخرة على الشكر على نعمته فانه قادر على ان يعطى على الشكر ما لا يعطيه على الصبر فان قلت فقد قال بعضهم اوداً أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون انا فى النار وقال سمنون رحمه الله تعالى

وليس لى فى سواك حظ * فكيف ما شئت فاختبرنى

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء فاعلم انه حكى عن سمنون المحب رحمه الله انه بلى بعد هذا البيت بعلة الحصر فكان بعد ذلك يدور على ابواب المكاتب ويقول للصبيان ادعوا لعمكم الكذاب وأما محبة الانسان ليكون هو فى النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه حبا لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبة سكر ومن سكر توسع فى الكلام ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين افرط حبهم وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه كما حكى ان فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه فقال ما الذى يمنعك عنى ولو أردت أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهر البطن لفعلته لاجلك فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال يا نبى الله كلام العشاق

لا يحكى وهو كما قال وقال الشاعر

اريد وصاله ويريد هجرى * فأترك ما اريد لما يريد

وهو ايضا محال ومعناه انى اريد ما لا يريد لان من اراد الوصال ما أراد الهجر فكيف اراد الهجر الذى لم يرده بل لا يصدق هذا الكلام الا بتأويلين احدهما ان يكون ذلك فى بعض الاحوال حتى يكتسب به رضاه الذى يوصل به الى مراد الوصال فى الاستقبال فيكون الهجران وسيلة الرضاء والرضاء وسيلة الوصال الى المحبوب والوسيلة الى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال اذا اسلم درهما فى درهمين فهو يحب الدرهم من ترك الدرهم فى الحال والثانى أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث انه رضاه فقط ويكون له لذة فى استشعاره رضى محبوبه منه بريد تلك اللذة على لذته فى مشاهدته مع كراهته فعند ذلك يتصور ان يريد ما فيه الرضى فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين الى ان صار لذتهم فى البلاء مع استشعارهم رضى الله عنهم اكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور بالرضاء فهؤلاء اذا قدروا رضاه فى البلاء صار البلاء احب اليهم من العافية وهذه حالة لا تبعد وقوعها فى غلبات الحب ولكنها لا تثبت وان ثبتت مثلا فهل هى حالة صحيحة ام حالة اقتضتها حالة اخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر ونذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق ان العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المنان بفضله على جميع خلقه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين

(بيان الافضل من الصبر والشكر)

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون الشكر افضل وقال آخرون هما سيان وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الاحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلا معنى للتطويل بالنقل بل المبادرة الى اظهار الحق اولى فنقول فى بيان ذلك مقامات *(المقام الاول)* البيان على سبيل التساهل وهو ان ينظر الى ظاهر الامر ولا يطلب بالتفتيش حقيقته وهو البيان الذى ينبغى ان يخاطب به عوام الخلق لقصور افهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى ان يعتمده الوعاظ اذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام اصلاحهم والظئر المشفقة لا ينبغى ان تهيج الصبى الطفل بالطيور السمان وصنوف الحلاوات بل باللبن اللطيف وعليها أن تؤخر عنه اطايب الاطعمة الى أن يصير محتملا لها بالقوة ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بنيته فنقول هذا المقام فى البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر الى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفضيل الصبر فان الشكر وان وردت اخبار كثيرة فى فضله فاذا اضيف اليه ما ورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر اكثر بل فيه ألفاظ صريحة فى التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم من أفضل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر وفى الخبر يؤتى بأشكر أهل الارض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الارض فيقال له أما ترضى أن

نجزيك كاجر بناهـذا الشاكر فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى كما أنعمت عليك فشكرت وابتليتك فصبرت لاضعفن لك الاجر فيعطى اضعاف جزاء الشاكرين وقد قال الله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وأما قوله الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر فهو دليل على أن الفضيلة فى الصبر اذ ذكر ذلك فى معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا انه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان الحاق الشكر به مبالغة فى الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل وكقوله صلى الله عليه وسلم شارب الخمر كعابد الوثن واذا المشبه به ينبغى أن يكون أعلى رتبة وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان لايدل على أن الشكر مثله وهو كقوله عليه السلام الصوم نصف الصبر فان كل ماينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا وان كان بينهما تفاوت كما يقال الايمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الايمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوى العلم وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم آخر الانبياء دخولا الى الجنة سليمان ابن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه وفى خبر آخر يدخل سليمان بعد الانبياء بأربعين خريفا وفى الخبر أبواب الجنة كلها مصراعان الا باب الصبر فانه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء امامهم أيوب عليه السلام وكل ماورد فى فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لان الصبر حال الفقير والشكر حال الغنى فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ويكفيهم فى الوعظ اللائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم. (المقام الثانى) هو البيان الذى نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الامور بطريق الكشف والايضاح فنقول فيه كل أمرين مبهمين لاتمكن الموازنة بينهما مع الابهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على أقسام لاتمكن الموازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما فى الرجحان والنقصان مع الاجمال فنقول قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة علوم واحوال واعمال والشكر والصبر وسائر المقامات هى كذلك وهذه الثلاثة اذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين فى الظواهر أن العلوم تراد للاحوال والاحوال تراد للاعمال والاعمال هى الافضل وأما ارباب البصائر فالامر عندهم بالعكس من ذلك فان الاعمال تراد للاحوال والاحوال تراد للعلوم فالافضل العلوم ثم الاحوال ثم الاعمال لان كل مراد لغيره فذلك الغير لامحالة أفضل منه وأما آحاد هذه الثلاثة فالاعمال قد تتساوى وقد تتفاوت اذا اضيف بعضها الى بعض وكذا آحاد الاحوال اذا اضيف بعضها الى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهى أرفع من علوم المعاملة بل علوم المعاملة دون المعاملة لانها تراد للمعاملة ففائدتها اصلاح العمل وانما فضل العالم بالمعاملة على العابد اذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالاضافة الى عمل خاص أفضل والا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر فنقول فائدة

اصلاح العمل اصلاح حال القلب وفائدة اصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية التي تطلب لذاتها فان السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وانما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالاضافة اليها فانها انما تراد لاجلها ولما كانت مرادة لاجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الافضاء الى معرفة الله تعالى فان بعض المعارف يفضي الى بعض اما بواسطة أو بوسائط كثيرة فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل وأما الاحوال فنعني بها احوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى اذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق فاذا فضائل الاحوال تقدر بتأثيرها في اصلاح القلب وتطهيره واعداده لان تحصل له علوم المكاشفة وكما أن تصقيل المرآة يحتاج الى أن يتقدم على تمامه احوال للمرآة بعضها اقرب الى الصقالة من بعض فكذلك احوال القلب فالحالة القريبة او المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الاعمال فان تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الاحوال اليه وكل عمل فاما أن يجلب اليه حالة مانعة من المكاشفة مؤدية لظلمة القلب جاذبة الى زخارف الدنيا واما أن يجلب اليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة صفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الاول المعصية واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الاحوال وذلك ان القول المطلق ربما يقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة وان الحج أفضل من الصدقة وان قيام الليل أفضل من غيره ولكن التحقيق فيه أن الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على امساكه فاخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام ايام لان الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها او منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفيته بالجوع فأما هذا المبذر اذا لم تكن حالته هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله الى حال غيره وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن اذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه والبخل المطاع من جملة المهلكات ولا يزيله صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة بل لا يزيله الا اخراج المال فعليه أن يتصدق بما معه وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع اليه فاذا باعتبار هذه الاحوال يختلف وعند ذلك يعرف اليسير أن الجواب المطلق فيه خطأ اذ لو قال لنا قائل الخبز أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حق الا أن الخبز للجائع أفضل والماء للعطشان افضل فان اجتمعا فلينظر الى الاغلب فان كان العطش هو الاغلب فالماء أفضل وان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل فان تساويا فهما متساويان

وكذا

وكذا اذا قيل السكنجبين أفضل ام شراب الليموفرلم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا نعم لو قيل لنا السكنجبين أفضل ام عدم الصفراء فنقول عدم الصفراء لان السكنجبين مراد له ومايراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة فاذا في بذل المال عمل وهو الانفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه فالافضل المعرفة ودونها الحال ودونها العمل فان قلت فقد حث الشرع على الاعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا وقال تعالى ويأخذ الصدقات فكيف لا يكون الفعل والانفاق هو الافضل فاعلم أن الطبيب اذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه أو على انه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الاعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلب مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه فانه لا يشعر به ولو ذكر له لا يصدق به والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا ان كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم انه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال انه محفوظ ولا حاجة بي الى تكرار ودراسة لانه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم وربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وانه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الامر فيقول ما بالي قد استخدمت لاجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به وأعلم انه لا نقصان لابي بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدري وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الاباحة وقالوا ان الله تعالى غني عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا فأي معنى لقوله من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ولو شاء الله اطعام المساكين اطعمهم فلا حاجة بنا الى صرف اموالنا اليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه وقالوا أيضا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من اذا شاء اهلك بالصدق واذا شاء أسعد بالجهل يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا فهؤلاء لما ظنوا انهم استخدموا لاجل المساكين والفقراء ولاجل الله تعالى ثم قالوا لا حظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي اموالنا سواء انفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لاجل العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده

فى قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته فى الدنيا وانما كان ذلك من الوالد تلطفا به
فى استجراره الى مافيه سعادته فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق
فاذا المسكين الا ٓخذ للمال يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من
باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة
من باطنك فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بأن
يكون له غرض فى أن يصنع شيأ بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن
ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها
وانتهى عنها كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس وشرف أهل بيته
بالصيانة عنها والمقصود أن الاعمال مؤثرات فى القلب كما سبق فى ربع المهلكات والقلب
بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلى والقانون
الاصلى الذى ينبغى أن يرجع اليه فى معرفة فضائل الاعمال والاحوال والمعارف ولنرجع
الا ٓن الى خصوص مانحن فيه من الصبر والشكر فنقول فى كل واحد منهما معرفة وحال
وعمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة فى أحدهما بالحال أو العمل فى الا ٓخر بل تقابل كل واحد
منهما بنظيره حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل ومهما قوبلت معرفة
الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا الى معرفة واحدة اذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة
العينين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان
متلازمتان متساويتان هذا ان اعتبرنا فى البلاء والمصائب وقدبينا أن الصبر قد
يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما تتحد الصبر والشكر لان الصبر على الطاعة هو عين
شكر الطاعة لان الشكر يرجع الى صرف نعمة الله تعالى الى ماهو المقصود منها بالحكمة
والصبر يرجع الى ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر فيه اسمان
لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا
بالاضافة الى باعث الهوى ويسمى شكرا بالاضافة الى باعث الدين اذ باعث الدين انما
خلق لهذه الحكمة وهو أن يصرع به باعث الشهوة وقد صرفه الى مقصود الحكمة فهما
عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشئ على نفسه فاذا مجارى الصبر ثلاثة الطاعة
والمعصية والبلاء وقد ظهر حكمهما فى الطاعة والمعصية وأما البلاء فهو عبارة عن فقد
نعمة والنعمة اما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا واما أن تقع فى محل الحاجة كالزيادة
على قدر الكفاية من المال أما العينان فصبر الاعمى عنهما أن لا يظهر الشكوى ويظهر
الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى فى بعض المعاصى وشكر البصير عليهما
من حيث العمل بأمرين أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية والا ٓخر أن يستعملهما
فى الطاعة وكل واحد من الامرين لا يخلو عن الصبر فان الاعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة
لانه لا يراها والبصير اذا وقع نظره على جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين وان اتبع
النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر فى شكره وكذا اذا استعان بالعينين على الطاعة
ولابد فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرهما بالنظر الى عجائب صنع الله تعالى

ليتوصل

ليتوصل به الى معرفة الله تعالى سبحانه فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الانبياء فوق رتبة موسى عليهما السلام وغيره من الانبياء لانه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر ولكان الكمال فى أن يسلب الانسان الاطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جدا لان كل واحد من هذه الاعضاء آلة فى الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيما هى آلة فيه من الدين وذلك لا يكون الا بصبر واما ما يقع فى محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فانه اذا لم يؤت الاقدر الضرورة وهو محتاج الى ما وراءه ففى الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف الى الخيرات او أن لا تستعمل فى المعصية فان اضيف الصبر الى الشكر الذى هو صرف الى الطاعة فالشكر أفضل لانه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله تعالى وفيه احتمال ألم فى صرفه الى الفقراء وترك صرفه الى التنعم المباح وكأن الحاصل يرجع الى أن شيئين افضل من شئ واحد وأن الجملة اعلى رتبة من البعض وهذا فيه خلل اذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها وأما اذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه الى التنعم المباح فالصبر ههنا افضل من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغنى الممسك ماله الصارف اياه الى المباحات لا من الغنى الصارف ماله الى الخيرات لان الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضاء على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعى لا محالة قوة والغنى اتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح والمباح فيه مندوحة عن الحرام ولكن لابد من قوة فى الصبر عن الحرام ايضا الا أن القوة التى عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التى يصدر عنها الاقتصار فى التنعم على المباح والشرف لتلك القوة التى يدل العمل عليها فان الاعمال لا تراد الا لاحوال القلوب وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والايمان فما دل على زيادة قوة فى الايمان فهو أفضل لا محالة وجميع ما ورد من تفضيل اجر الصبر على اجر الشكر فى الآيات والاخبار انما اريد به هذه الرتبة على الخصوص لان السابق الى أفهام الناس من النعمة الاموال والغنى بها والسابق الى الافهام من الشكر أن يقول الانسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية الا أن يصرفها الى الطاعة فاذا الصبر أفضل من الشكر أى الصبر الذى تفهمه العامة أفضل من الشكر الذى تفهمه العامة والى هذا المعنى على الخصوص اشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر ايهما افضل فقال ليس مدح الغنى بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم وانما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما فشرط الغنى يصحبه فيما عليه اشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها والفقير يصحبه فيما عليه اشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها فاذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذى آلم صفته وأزعجها اتم حالا ممن متع صفته ونعمها والامر على ما قاله وهو صحيح من جملة اقسام الصبر والشكر فى القسم الاخير الذى ذكرناه وهو لم يرد سواه ويقال كان ابو العباس بن عطاء قد خالفه فى ذلك وقال

الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من
قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد
أصابتني ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي
ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال فرب فقير صابر
أفضل من غني شاكر كما سبق ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر وذلك هو الغني
الذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه
إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين وإنما ينتظر حاجة
تسنح حتى يصرف إليها ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة بل أداء لحق
الله تعالى في تفقد عباده فهذا أفضل من الفقير الصابر فإن قلت فهذا لا يثقل على النفس
والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر فإن كان
يتألم بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق فاعلم أن الذي نراه أن من
ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقطعه عن
نفسه قهراً وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة فإيلام النفس ليس مطلوباً
لعينه بل لتأديبها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المتأدب أكمل من الكلب
المحتاج إلى الضرب وإن كان صابراً على الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة
في البداية ولا يحتاج إليهما في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذيذاً عنده
كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذاً وقد كان مؤلماً له أولاً ولكن لما كان الناس كلهم
إلا الأقلين في البداية بل قبل البداية بكثير كالصبيان أطلق الجنيد القول بأن الذي
يؤلم صعبه أفضل وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق فإذاً إذا كنت لا تفصل
الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى
السابق إلى الأفهام فإذا أردت التحقيق ففصل فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى
مع الكراهية ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء
الرضا إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن فيما لا ألم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن إلا على
محبوب مفروح به وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل في جملتها أمور
دونها فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر
والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر والاعتراف
بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم
الله وموهبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر
إذ قال عليه السلام من لم يشكر الناس لم يشكر الله وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب
أسرار الزكاة وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر وتلقي النعم بحسن
القبول واستعظام صغيرها شكر وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر
والصبر لا تنحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما
على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص بلفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار

وقد

وقد روى عن بعضهم انه قال رايت فى بعض الاسفار شيخا كبيرا قد طعن فى السن فسألته عن حاله فقال انى كنت فى ابتداء عمرى اهوى ابنة عم لى وهى كذلك كانت تهوانى فاتفق انها زوجت منى فليلة زفافها قلت تعالى حتى نحيى هذه الليلة شكرا لله تعالى على ما جمعنا فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ احدنا الى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلينا طول الليل فمند سبعين او ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة أليس كذلك يا فلانة قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر اليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما وانسب صبر الفرقة الى شكر الوصال على هذا الوجه فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فاذا الاوقوف على حقائق المفصلات الا بتفصيل كما سبق والله اعلم

(كتاب الخوف والرجاء وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه * المخوف مكره وعقابه * الذى عمر قلوب اوليائه بروح رجائه * حتى ساقهم بلطائف آلائه * الى النزول بفنائه * والعدول عن دار بلائه * التى هى مستقر اعدائه * وضرب بسياط التخويف * وزجره العنيف * وجوه المعرضين عن حضرته * الى دار ثوابه وكرامته * وصدهم عن التعرض للائمة * والتهدف لسخطه ونقمته * قودا لاصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف الى جنته * والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته * وعلى آله وأصحابه وعترته * (اما بعد) فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود * ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود * فلا يقود الى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الارجاء ثقيل الاعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والاعضاء الا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الاليم مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات الا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد اذا من بيان حقائقهما وفضيلتهما وسبيل التوصل الى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما ونحن نجمع ذكرهما فى كتاب واحد يشتمل على شطرين * الشطر الاول فى الرجاء والشطر الثانى فى الخوف (اما الشطر الاول) فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذى يجتلب به الرجاء

(بيان حقيقة الرجاء)

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين واحوال الطالبين وانما يسمى الوصف مقاما اذا ثبت وأقام وانما يسمى حالا اذا كان عارضا سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم الى ثابتة كصفرة الذهب والى سريعة الزوال كصفرة الوجل والى ما هو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الاقسام فالذى هو غير ثابت يسمى حالا لانه يحول على القرب وهذا جار فى كل وصف من أوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء ايضا يتم من حال وعلم وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضى

العمل وكأن الرجاء اسم للحال من جملة الثلاثة وبيانه أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم الى موجود في الحال والى موجود فيما مضى والى منتظر في الاستقبال فاذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكرا وتذكرا وان كان ما خطر بقلبك موجودا في الحال سمي وجدا وذوقا وادراكا وانما سمي وجدا لانها حالة تجدها من نفسك وان كان قد خطر ببالك وجود شئ في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظارا وتوقعا فان كان المنتظر مكروها حصل منه ألم في القلب سمي خوفا واشفاقا وان كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به واخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب فان كان انتظاره لاجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق وان كان ذلك انتظارا مع انخرام اسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء وان لم تكن الاسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني اصدق على انتظاره لانه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف الا على ما يتردد فيه أما ما يقطع به فلا اذ لا يقال ارجو طلوع الشمس وقت الطلوع واخاف غروبها وقت الغروب لان ذلك مقطوع به نعم يقال ارجو نزول المطر وأخاف انقطاعه وقد علم ارباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالارض والايمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تقليب الارض وتطهيرها ومجرى حفر الانهار وسياقة الماء اليها والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالارض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد الا ما زرع ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان وقلما ينفع ايمان مع خبث القلب وسوء اخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب ارضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج اليه وهو سوق الماء اليه في أوقاته ثم نقى الشوك عن الارض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمي انتظاره رجاء وان بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه سمي انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء وان بث البذر في ارض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الامطار ولا تمتنع ايضا سمي انتظاره تمنيا لا رجاء فاذا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع اسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن شوك الاخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى اسباب الايمان في اتمام اسباب المغفرة الى الموت وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء

الطاعات

الطاعات اوترك القلب مشحونا برذائل الاخلاق وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور وقال صلى الله عليه وسلم الاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا * وذم الله تعالى صاحب البستان اذ دخل جنته وقال ما اظن أن تبيد هذه أبدا وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا فاذا العبد المجتهد فى الطاعات المجتنب للمعاصى حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة وأما العاصى فاذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة اذا كان كارها للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق اليها فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لان كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى الى التوبة وانما الرجاء بعد تأكد الاسباب ولذلك قال تعالى ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما اراد به تخصيص وجود الرجاء لان غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية * قال يحيى بن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بالمعاصى وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الافراط

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليبس

فاذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت انها حالة اثمرها العلم بجريان اكثر الاسباب وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الاسباب على حسب الامكان فان من حسن بذره وطابت ارضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الارض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلا الى وقت الحصاد وهذا لان الرجاء يضاده اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف أن الارض سبخة وأن الماء مغور وأن البذر لا ينبت فيترك لا محالة تفقد الارض والتعب فى تعهدها والرجاء محمود لانه باعث واليأس مذموم وهو ضده لانه صارف عن العمل والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما ان الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالاعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الاحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له فان هذه الاحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك اوشخصا من الاشخاص فكيف لا يظهر ذلك فى حق

الله تعالى فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والدخول
في حضيض الغرور والتمني فهذا هو البيان لحال الرجا ولما أثمره من العلم ولما استثمره
من العمل ويدل على اثماره لهذه الاعمال حديث زيد الخيل اذ قال لرسول الله صلى الله
عليه وسلم جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف
اصبحت قال أصبحت احب الخير وأهله واذا قدرت على شئ منه سارعت اليه وأيقنت
بثوابه واذا فاتني منه شئ حزنت عليه وحننت اليه فقال هذه علامة الله فيمن يريد ولو
ارادك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي اودية هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم
علامة من اريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات
فهو مغرور

(بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه)

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد الى الله تعالى احبهم له
والحب يغلب بالرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم احدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء
لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيما في وقت الموت قال تعالى
لا تقنطوا من رحمة الله فحرم اصل اليأس وفي اخبار يعقوب عليه السلام ان الله تعالى
اوحى اليه اتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لأنك قلت اخاف أن يأكله الذئب وانتم
عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجني ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي له
وقال صلى الله عليه وسلم لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى وقال صلى الله
عليه وسلم يقول الله عز وجل انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ودخل صلى الله
عليه وسلم على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك فقال اجدني اخاف ذنوبي وأرجو
رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن الا اعطاه الله
ما رجا وامنه مما يخاف وقال علي رضي الله عنه لرجل اخرجه الخوف الى القنوط لكثرة
ذنوبه ياهذا ايأسك من رحمة الله اعظم من ذنوبك وقال سفيان من أذنب ذنبا فعلم أن
الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه قال لأن الله عز وجل عير قوما فقال
وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ارداكم وقال تعالى وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا
وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك اذ رأيت المنكر
أن تنكره فإن لقنه الله حجته قال رب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى
قد غفرته لك وفي الخبر الصحيح ان رجلا كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز
عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيرا قط فقال الله عز وجل من احق بذلك منا فعفا عنه
لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع افلاسه عن الطاعات وقال تعالى ان الذين يتلون
كتاب الله واقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ولما
قال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى
الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون الى ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال ان ربك
يقول لك لم تقنط عبادي فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم وفي الخبر ان الله تعالى أوحى الى

داود

داود عليه السلام احبني واحب من يحبني وحببني الى الخلق فقال يارب كيف احببك الى خلقك قال اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلاءي واحساني وذكرهم ذلك فانهم لا يعرفون مني الا الجميل ورئي ابان بن ابي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال اوقفني الله تعالى بين يديه فقال ما الذي حملك على ذلك فقلت اردت أن احببك الى خلقك فقال قد غفرت لك ورئي يحيى بن اكثم بعد موته في النوم فقيل له ما فعل الله بك فقال اوقفني الله بين يديه وقال يا شيخ السوء فعلت وفعلت قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يارب ما هكذا احدثت عنك فقال وما حدثت عني فقلت حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن انس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام انك قلت انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء وكنت اظن بك أن لا تعذبني فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبيي وصدق انس وصدق الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فألبست ومشى بين يدي الولدان الى الجنة فقلت يا لها من فرحة * وفي الخبر ان رجلا من بني اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال فيقول له الله تعالى يوم القيامة اليوم اويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها وقال صلى الله عليه وسلم ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان فيقول الله تعالى لجبريل اذهب فائتني بعبدي قال فيجيء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى له كيف وجدت مكانك فيقول شر مكان قال فيقول ردوه الى مكانه قال فيمشي ويلتفت الى ورائه فيقول الله عز وجل الى اي شئ تلتفت فيقول لقد رجوت أن لا تعيدني اليها بعد اذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا به الى الجنة فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

(بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب)

اعلم أن هذا الدواء يحتاج اليه أحد رجلين اما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة واما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال الى طرفي الافراط والتفريط فيحتاجان الى علاج يردهما الى الاعتدال فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل المغرور لا يستعمل في حقه الا ادوية الخوف والاسباب المهيجة له فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا الى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والاخلاق كلها وخير الامور أوساطها فاذا جاوز الوسط الى أحد الطرفين عولج بما يرده الى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق اسباب الرجاء بل المبالغة في التخويف أيضا تكاد لا تردهم الى جادة الحق وسنن الصواب فأما ذكر اسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ولكنها

لما كانت أخف على القلوب وأبعد العقوبات ولم يكن غرض الوعاظ الا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا الى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد المنهمكون في طغيانهم تماديا قال علي كرم الله وجهه انما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله ونحن نذكر اسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو من غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فانهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا لانهما جامعان لاسباب الشفاء في حق اصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الانبياء بحسب الحاجة واستعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الاخرق الذي يظن أن كل شئ من الادوية صالح لكل مريض كيفما كان ❊ وحال الرجاء يغلب بشيئين أحدهما الاعتبار والآخر استقراء الآيات والاخبار والآثار أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في اصناف النعم من كتاب الشكر حتى اذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الانسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج اليه كالاصابع والاظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود وانما كان يفوت به مزية جمال فالعناية الالهية اذا لم تقصر عن عباده في امثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم الى الهلاك المؤبد بل اذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيئ له اسباب السعادة في الدنيا حتى انه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وان اخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلا ولا يحشر أصلا فليست كراهتهم للعدم الا لان اسباب النعم أغلب لا محالة وانما الذي يتمنى الموت نادر ثم لا يتمناه الا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة فاذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة وسنة الله لا تجد لها تبديلا فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لان مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا اذا تؤمل حق التأمل قوى به اسباب الرجا ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من اقوى اسباب الرجاء فقيل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل من رزقه فانظر كيف انزل الله تعالى فيه اطول آية ليهدي عبده الى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه ❊ (الفن الثاني استقراء الآيات والاخبار) ❊ فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالي انه هو الغفور الرحيم وقال تعالى والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض وأخبر تعالى ان النار أعدها لاعدائه وانما خوف

بها الاولياء فقال لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده
وقال تعالى واتقوا النار التى اعدت للكافرين وقال تعالى فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها
الا الاشقى الذى كذب وتولى وقال عز وجل وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ويقال
ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى امته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك
هذه الآية وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وفى تفسير قوله تعالى ولسوف
يعطيك ربك فترضى قال لا يرضى محمد وأحد من امته فى النار وكان أبو جعفر محمد بن على
يقول أنتم أهل العراق تقولون ارجى آية فى كتاب الله عز وجل قوله قل يا عبادى الذين
اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآيه ونحن أهل البيت نقول ارجى آية
فى كتاب الله تعالى قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى * وأما الاخبار فقد روى
أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال امتى أمة مرحومة لا عذاب عليها فى الآخرة
عجل الله عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن فاذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من
امتى رجلا من أهل الكتاب فقيل هذا فداؤك من النار وفى لفظ آخر يؤتى كل رجل
من هذه الامة بيهودى أو نصرانى الى جهنم فيقول هذا فداءى من النار فيلقى فيها
وقال صلى الله عليه وسلم الحمى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار وروى فى تفسير
قوله تعالى يوم لا يخزى الله النبى والذين امنوا معه أن الله تعالى أوحى الى نبيه عليه
الصلاة والسلام انى أجعل حساب أمتك اليك قال لا يارب أنت خير لهم منى فقال اذا
لا نخزيك فيهم وروى عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب
امته فقال يارب اجعل حسابهم الى لئلا يطلع على مساويهم غيرى فأوحى الله تعالى
اليه هم أمتك وهم عبادى وأنا أرحم بهم منك لا اجعل حسابهم الى غيرى لئلا تنظر الى
مساويهم أنت ولا غيرك وقال صلى الله عليه وسلم حياتى خير لكم وموتى خير لكم
أما حياتى فأسن لكم السنن واشرع لكم الشرائع وأما موتى فان أعمالكم تعرض على
فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم
وقال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو فقال جبريل عليه السلام اتدرى ما تفسير
يا كريم العفو هو ان عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه وسمع النبى صلى
الله عليه وسلم رجلا يقول اللهم انى اسألك تمام النعمة فقال هل تدرى ما تمام النعمة
قال لا قال دخول الجنة قال العلماء قد أتم الله علينا نعمته برضاه الاسلام لنا اذ قال
تعالى وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا وفى الخبر اذا أذنب العبد
ذنبا فاستغفر الله يقول الله عز وجل لملائكته انظروا الى عبدى اذنب ذنبا فعلم
أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم انى قد غفرت له وفى الخبر لو أذنب العبد
حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرنى ورجانى وفى الخبر لو لقينى
عبدى بقراب الارض ذنوبا لقيته بقراب الارض مغفرة وفى الحديث ان الملك ليرفع
القلم عن العبد اذا أذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه والا كتبها
شيئة وفى لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب

الشمال وهو أمير عليه ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات فيلقى عنه السيئة وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال اذا اذنب العبد لم اكتب عليه فقال أعرابي وان تاب عنه قال محي عنه قال فان عاد قال النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الاعرابي فان تاب قال محي من صحيفته قال الى متى قال الى أن يستغفر ويتوب الى الله عز وجل ان الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار واذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها فان عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه الى سبعمائة ضعف واذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فاذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني لا أصوم الا الشهر لا ازيد عليه ولا اصلي الا الخمس لا اريد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع أين انا اذا مت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم معي اذا حفظت قلبك من اثنتين الغل والحسد ولسانك من اثنتين الغيبة والكذب وعينيك من اثنتين النظر الى ما حرم الله وأن تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي هاتين وفي الحديث الطويل لانس ان الاعرابي قال يا رسول الله من يلي حساب الخلق فقال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه قال نعم فتبسم الاعرابي فقال صلى الله عليه وسلم مم ضحكت يا اعرابي فقال ان الكريم اذا قدر عفى واذا حاسب سامح فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الاعرابي الا لا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الاكرمين ثم قال فقه الاعرابي ومنه أن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من اولياء الله تعالى قال الاعرابي ومن أولياء الله تعالى قال المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أما سمعت قول الله عز وجل الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور وفي بعض الاخبار المؤمن أفضل من الكعبة والمؤمن طيب طاهر والمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة وفي الخبر خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده الى الجنة وفي خبر آخر يقول الله عز وجل انما خلقت الخلق ليربحوا علي ولم أخلقهم لاربح عليهم وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خلق الله تعالى شيئا الا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه وفي الخبر المشهور ان الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق ان رحمتي تغلب غضبي وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك انه صلى الله عليه وسلم قال من قال لا اله الا الله دخل الجنة ومن كان آخر كلامه لا اله الا الله لم تمسه النار ومن لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار ولا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من ايمان وفي خبر آخر لو علم الكافر سعة رحمة الله ما يئس من جنته أحد ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ان زلزلة الساعة شيء عظيم قال اتدرون أي يوم هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام قم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة قال فابلس القوم وجعلوا يبكون وعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج

عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مالكم لا تعملون فقالوا ومن يشتغل بعمل بعدما حدثتنا بهذا فقال كم أنتم فى الامم أين تاويل وتاريس ومنسك ويأجوج ومأجوج أمم لا يحصيها الا الله تعالى انما أنتم فى سائر الامم كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الاسود وكالرقمة فى ذراع الدابة فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمّة الرجاء الى الله تعالى اذساقهم بسياط الخوف اولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال الى افراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردّهم الى الاعتدال والقصد والآخر لم يكن مناقضا للاول ولكن ذكر فى الاول ماراه سببا للشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا الى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الامر فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف فى استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة وان لم يراع ذلك كان مايفسده بوعظه أكثر مما يصلحه وفى الخبر لولم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم وفى لفظ آخر لذهب بكم وجاء بخلق اخر يذنبون فيغفر لهم انه هو الغفور الرحيم وفى الخبر لولم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو شر من الذنوب قيل وماهو قال العجب وقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لله ارحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها وفى الخبر ليغفرنّ الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت على قلب أحد حتى ان ابليس ليتطاول رجاء أن تصيبه وفى الخبر ان لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعا وتسعين رحمة وأظهر منها فى الدنيا رحمة واحدة فبها يتراحم الخلق فتحنّ الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها فاذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة الى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والارض قال فلا يهلك على الله يومئذ الا هالك وفى الخبر مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته وقال عليه أفضل الصلاة والسلام اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لم ينجه عمله وقال صلى الله عليه وسلم انى اختبأت شفاعتى لاهل الكبائر من امّتى أترونها للمطيعين المتقين بل هى للمتلوّثين المخاطين وقال عليه الصلاة والسلام بعثت بالحنيفية السمحة السهلة وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى أحب أن يعلم أهل الكتابين أن فى ديننا سماحة ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين فى قولهم ولا تحمل علينا اصرا وقال تعالى ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم وروى محمد بن الحنفية عن على رضى الله تعالى عنهما انه قال لما نزل قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال ياجبريل وما الصفح الجميل قال عليه السلام اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه فقال ياجبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه فبكى جبريل وبكى النبى صلى الله عليه وسلم فبعث الله تعالى اليهما ميكائيل عليه السلام وقال ان ربكما يقرئكما السلام ويقول كيف اعاتب من عفوت عنه هذا مالا يشبه كرمى . والاخبار الواردة فى اسباب الرجاء أكثر من أن تحصى (وأما الآثار) . فقد قال على كرّم الله وجهه من أذنب ذنبا فستره الله عليه فى الدنيا فالله أكرم أن يكشف ستره فى الآخرة ومن اذنب ذنبا فعوقب عليه فى الدنيا فالله تعالى

أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة وقال الثوري ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما وقال بعض السلف المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه وكتب محمد بن مصعب إلى أسود بن سالم يخطه أن العبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول يا رب حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى إذا قال الرابعة يا رب قال الله تعالى حتى متى تحجبون عني صوت عبدي قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر الذنوب غيري اشهدكم أني قد غفرت له وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت يا رب اعصمني حتى لا أعصيك أبدا فهتف بي هاتف من البيت يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون ذلك فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر وكان الحسن يقول لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب وقال الحسن رحمه الله تعالى إن ذنب عبد من الكرم إلحاقت المسيئين بالمحسنين ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له كم تحدث الناس بالرخص فقال يا أبا يحيى إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح وفي حديث ربعي بن حراش عن أخيه وكان من خيار التابعين وهو ممن تكلم بعد الموت قال لما مات أخي سجي بثوبه وألقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا وقال إني لقيت ربي عز وجل فحياني بروح وريحان ورب غير غضبان وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تغتروا وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم قال ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طست فحملناه ودفناه وفي الحديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى فكان أحدهما أسرف على نفسه وكان الآخر عابدا وكان يعظه ويزجره فكان يقول دعني وربي أبعثت علي رقيبا حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال لا يغفر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيامة أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي اذهب أنت فقد غفرت لك ثم يقول للعابد وأنت فقد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته وروي أيضا أن لصا كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثا قال فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيما للحواري ويقول في نفسه مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد قال وأحس الحواري به فقال في نفسه هذا يمشي إلى جانبي فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام فمشى بجنبه فبقي اللص خلفه فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما أما الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حوارييه وروي عن مسروق أن نبيا من الأنبياء

كان ساجدا فوطئ عنقه بعض العصاة حتى الزق الحصى بجبهته قال فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال اذهب فلن يغفر الله لك فأوحى الله تعالى اليه تتألى على في عبادي اني قد غفرت له ويقرب من هذا ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته فنزل عليه قوله تعالى ليس لك من الامر شئ الآية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة اولئك للاسلام وروى في الاثر ان رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال فاذا أدخلا الجنة رفع احدهما في الدرجات العلا على صاحبه فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته على في عليين فيقول الله سبحانه انه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلا وأنت كنت تسألني النجاة من النار وأعطيت كل عبد سؤله وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل لان المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لانعامه واكرامه ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم سلوا الله الدرجات العلا فانما تسألون كريما وقال اذا سألتموا الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الاعلى فان الله تعالى لا يتعاظمه شئ وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على مالك بن انس في العشية التي قبض فيها فقلنا يا أبا عبد الله كيف تجدك قال لا ادري ما أقول لكم الا انكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب ثم ما برحنا حتى اغمضناه وقال يحيى بن معاذ في مناجاته يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي اياك مع الاعمال لاني اعتمد في الاعمال على الاخلاص وكيف احرزها وأنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف وقيل ان مجوسيا استضاف ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال ان اسلمت اضفتك فمر المجوسي فاوحى الله تعالى اليه يا ابراهيم لم تطعمه الا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلو اضفته ليلة ماذا كان عليك فمر ابراهيم يسعى خلف المجوسي فرده واضافه فقال له المجوسي ما السبب فيما بدا لك فذكر له فقال له المجوسي هكذا يعاملني ثم قال اعرض على الاسلام فأسلم ورأى الاستاذ أبو سهل الصعلوكي أبا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الابد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الامر أهون مما توهمنا ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف فقال له يا استاذ بم نلت هذا فقال بحسن ظني بربي وحكى أن أبا العباس بن شريح رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه كأن القيامة قد قامت واذا الجبار سبحانه يقول اين العلماء قال فجاؤا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم قال فقلنا يارب قصرنا واسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب واراد جوابا غيره فقلت اما انا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت ان تغفر ما دونه فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلاث ليال وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع الى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئا من الفواكه للمجلس

ثم العلام باب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول من دفع اليه اربعة دراهم دعوت له اربع دعوات قال فدفع الغلام اليه الدراهم فقال منصور ما الذى تريد أن ادعو لك فقال لى سيد أريد أن اتخلص منه فدعا منصور وقال الاخرى فقال أن يخلف الله على دراهمى فدعا ثم قال الاخرى قال أن يتوب الله على سيدى فدعا ثم قال الاخرى فقال أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام فقال له سيده لم ابطأت فقص عليه القصة قال وبم دعا فقال سألت لنفسى العتق فقال له اذهب فانت حر قال وايش الثانى قال أن يخلف الله على الدراهم قال لك اربعة آلاف درهم وايش الثالث قال أن يتوب الله عليك قال تبت الى الله تعالى قال وايش الرابع قال أن يغفر الله لى ولك وللقوم وللمذكر قال هذا الواحد ليس الى فلما بات تلك الليلة رأى فى المنام كأن قائلا يقول له انت فعلت ما كان اليك افترى انى لا افعل ما الى قد غفرت لك وللغلام وللمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين اجمعين وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبنا الى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت فقلت للمرأة من كان هذا الميت منك قالت ابنى قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صغروا امره قلت وايش كان هذا قالت مخنث قال فرحمتها وذهبت بها الى منزلى واعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فرأيت تلك الليلة كأنه اتانى آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرنى فقلت من انت فقال المخنث الذى دفنتمونى اليوم رحمنى ربى باحتقار الناس اياى وقال ابراهيم الاطروش كنا قعودا ببغداد مع معروف الكرخى على دجلة اذ مر احداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا للمعروف اما تراهم يعصون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال الهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة فقال القوم انما سألناك ان تدعو عليهم فقال اذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم وكان بعض السلف يقول فى دعائه يارب وأى اهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارا سبحانك ما احلمك وعزتك انك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى كأنك يا ربنا لا تغضب فهذه هى الاسباب التى بها يجلب روح الرجاء الى قلوب الخائفين والآيسين فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغى أن يسمعوا أشياء من ذلك بل يسمعون ما سنورده فى اسباب الخوف فان اكثر الناس لا يصلح الا على الخوف كالعبد السوء والصبى العرم لا يستقيم الا بالسوط والعصا واظهار الخشونة فى الكلام واما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح فى الدين والدنيا

(الشطر الثانى من الكتاب) فى الخوف وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان اقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الافضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان احوال الخائفين من الانبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ونسأل الله حسن التوفيق

(بيان حقيقة الخوف)

اعلم ان الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ومن انس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات الى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله اعلى من الخوف والرجاء فانهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج الى رعوناتها والى هذا اشار الواسطى حيث قال الخوف حجاب بين الله وبين العبد وقال ايضا اذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف وبالجملة فالمحب اذا شغل قلبه فى مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا فى الشهود وانما دوام الشهود غاية المقامات ولكنا الآن انما نتكلم فى اوائل المقامات فنقول حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل .. أما العلم فهو العلم بالسبب المفضى الى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع فى يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والافلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالاسباب المفضية الى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك فى نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع اليه فى حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الاسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الاسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذى وقع فى مخالب سبع فانه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهى حرصه وسطوته على الافتراس غالبا وان كان افتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه كخوف من وقع فى مجرى سيل او جوار حريق فان الماء يخاف لانه بطبعه مجبول على السيلان والاغراق وكذا النار على الاحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتألمه وذلك الاحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وانه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وانه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه اعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم انا اخوفكم لله وكذلك قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ثم اذا كملت المعرفة اورثت جلال الخوف واحتراق القلب ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما فى البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء وقد تنشق به المرارة فيفضى الى الموت او يصعد الى الدماغ فيفسد العقل او يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما فى الجوارح فبكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ولذلك قيل ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه وقال ابو القاسم الحكيم من خاف شيئا هرب منه ومن خاف الله هرب اليه وقيل لذى النون متى يكون العبد خائفا قال اذا نزل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام . وأما فى الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدر

قمر العلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول من دفع اليه اربعة دراهم دعوت له اربع دعوات قال فدفع العلام اليه الدراهم فقال ما صورها الذى تريد أن ادعولك فقال لى سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الاخرى فقال أن يخلف الله على دراهمى فدعا ثم قال الاخرى قال أن يتوب الله على سيدى فدعا ثم قال الاخرى فقال أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم فدعا منصور فرجع العلام فقال له سيده لم ابطأت فقص عليه القصة قال وبم دعا فقال سألت لنفسى العتق فقال له اذهب فأنت حر قال والثانى قال أن يخلف الله على الدراهم قال لك اربعة آلاف درهم والثالث قال أن يتوب الله عليك قال تبت الى الله تعالى قال والرابع قال أن يغفر الله لى ولك وللقوم وللمذكر قال هذا الواحد ليس الى فلما بات تلك الليلة رأى فى المنام كأن قائلا يقول له انت فعلت ما كان اليك افترى انى لا افعل ما الى قد غفرت لك وللعلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين اجمعين وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبنا الى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت فقلت للمرأة من كان هذا الميت منك قالت ابنى قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صغروا امره قلت واىش كان هذا قالت مخنث قال فرحمتها وذهبت بها الى منزلى واعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فنمت تلك الليلة كأنه اتانى آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرنى فقلت من انت فقال المخنث الذى دفنتمونى اليوم رحمنى ربى باحتقار الناس اياى وقال ابراهيم الاطروش كنا قعودا ببغداد مع معروف الكرخى على دجلة اذ مر احداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا للمعروف اما تراهم يعصون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال الهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة فقال القوم انما سألناك ان تدعو عليهم فقال اذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم وكان بعض السلف يقول فى دعائه يارب وأى اهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارا سبحانك ما احلمك وعزتك انك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى كأنك يا ربنا لا تغضب فهذه هى الاسباب التى بها يجلب روح الرجاء الى قلوب الخائفين والآيسين فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغى أن يسمعوا أشياء من ذلك بل يسمعون ما سنورده فى اسباب الخوف فان اكثر الناس لا يصلح الا على الخوف كالعبد السوء والصبى العرم لا يستقيم الا بالسوط والعصا واظهار الخشونة فى الكلام واما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح فى الدين والدنيا

(الشطر الثانى من الكتاب) فى الخوف وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان اقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الافضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان احوال الخائفين من الانبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ونسأل الله حسن التوفيق

«(بيان حقيقة الخوف)»

اعلم ان الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال وقد ظهر هذا فى بيان حقيقة الرجاء ومن انس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات الى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله اعلى من الخوف والرجاء فانهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج الى رعوناتها والى هذا اشار الواسطى حيث قال الخوف حجاب بين الله و بين العبد وقال ايضا اذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف و بالجملة فالمحب اذا شغل قلبه فى مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا فى الشهود وانما دوام الشهود غاية المقامات ولكنا الآن انما نتكلم فى اوائل المقامات فنقول حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل .. أما العلم فهو العلم بالسبب المفضى الى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع فى يده فيخاف القتل مثلا و يجوّز العفو والافلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوّة علمه بالاسباب المفضية الى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك فى نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع اليه فى حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الاسباب سبب لقوّة الخوف وشدّة تألم القلب و بحسب ضعف هذه الاسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذى وقع فى مخالب سبع فانه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهى حرصه وسطوته على الافتراس غالبا وان كان افتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه كخوف من وقع فى مجرى سيل او جوار حريق فان الماء يخاف لانه بطبعه مجبول على السيلان والاغراق وكذا النار على الاحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتألمه وذلك الاحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وانه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى وتارة يكون بهما جميعا و بحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وانه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوّة خوفه فأخوف الناس لربه اعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أنا اخوفكم لله وكذلك قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ثم اذا كملت المعرفة اورثت جلال الخوف واحتراق القلب ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات .. أما فى البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء وقد تنشق به المرارة فيفضى الى الموت او يصعد الى الدماغ فيفسد العقل او يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما فى الجوارح فبكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ولذلك قيل ليس الخائف من يبكى و يمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه وقال ابو القاسم الحكيم من خاف شيئا هرب منه ومن خاف الله هرب اليه وقيل لذى النون متى يكون العبد خائفا قال اذا نزل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام . وأما فى الصفات فبأن يقمع الشهوات و يكدر

اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف ان فيه سما فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل الا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالانفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري انه يغفل عنه فيفلت او يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وافعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الاخطار والاهوال وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الاعمال أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا فان زادت قوته كف عما يتطرق اليه امكان التحريم فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى اذ التقوى أن يترك ما يريبه الى ما لا يريبه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى فاذا انضم اليه التجرد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت الى دنيا يعلم انها تفارقه ولا يصرف الى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا ويدخل في الصدق التقوى ويدخل في التقوى الورع ويدخل في الورع العفة فانها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة فاذا الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والاقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فانه اعم لانه كف عن كل محظور وأعلى منه التقوى فانه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا ووراءه اسم الصديق والمقرب وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الاخص من الاعم فاذا ذكرت الاخص فقد ذكرت الكل كانك تقول الانسان اما عربي واما عجمي والعربي اما قرشي او غيره والقرشي اما هاشمي او غيره والهاشمي اما علوي او غيره والعلوي اما حسني او حسيني فاذا ذكرت انه حسني مثلا فقد وصفته بالجميع وان وصفته بانه علوي وصفته بما هو فوقه بما هو أعم منه فكذلك اذا قلت صديق فقد قلت انه تقي وورع وعفيف فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الاسامي تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب المعاني من الالفاظ ولم يتبع الالفاظ المعاني فهذه اشارة الى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالاعمال الصادرة منه كفا واقداما

(بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف)

اعلم أن الخوف محمود وربما يظن أن كل ما هو محمود فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده الى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما

رتبة القرب من الله تعالى والاصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك
لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمودة وكذلك الخوف له قصور وله افراط وله اعتدال
والمحمود هو الاعتدال والوسط فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر
بالبال عند سماع آية من القرآن فتورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة
سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة فهذا خوف قاصر
قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها
ألما مبرحا فلا يسوقها الى المقصد ولا يصلح لرياضتها وهكذا خوف الناس كلهم
الا العارفين والعلماء ولست اعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين باسمائهم
فانهم ابعد الناس عن الخوف بل اعني العلماء بالله وبأيامه وافعاله وذلك مما قد عز
وجوده الان ولذلك قال الفضيل بن عياض اذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك ان
قلت لا كفرت وان قلت نعم كذبت واشار به الى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن
المعاصي ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر
لا يستحق أن يسمى خوفا وأما المفرط فانه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج
الى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضا لانه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضا الى
المرض والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل فالمراد من الخوف ما هو المراد من
السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالا لانه بالحقيقة نقصان لان منشأه
الجهل والعجز أما الجهل فانه ليس يدري عاقبة امره ولو عرف لم يكن خائفا لان المخوف هو
الذي يتردد فيه وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه فاذا هو محمود
بالاضافة الى نقص الادمي وانما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن
يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله به فليس بكمال في ذاته وانما يصير محمودا
بالاضافة الى نقص هو اعظم منه كما يكون احتمال الم الدواء محمودا لانه اهون من ألم
المرض والموت فما يخرج الى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضا الى المرض
والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل وقد يخرج الى الموت وكل ذلك مذموم وهو
كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة او يمرضها او يكسر عضوا من
أعضائها وانما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم اسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به
صدمة الخوف المفرط المفضي الى القنوط او أحد هذه الامور فكل ما يراد لامر فالمحمود
منه ما يفضي الى المراد المقصود منه وما يقصر عنه او يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف
الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الاسباب الموصلة الى
الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يقدح في هذه
الاسباب فهو مذموم فان قلت من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون
حاله مذموما فاعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها
لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالاضافة اليه فضيلة فأما بالاضافة الى تقدير
بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل للسالك الى الله تعالى

بظر في الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد من الشهداء ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل او مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبته في أو ولي يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالاضافة الى امور وان كان بعض أقسامها فضيلة بالاضافة الى امور أخركما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة الى ما دونها لا بالاضافة الى درجة المتقين والصديقين فاذن الخوف ان لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة وان أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فان لم يحمل الا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فاذا اثمر الورع فهو أعلى وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع وهذا أقصى ما يحمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا الى ازالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه ان قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه باسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع اياما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل

(بيان أقسام الخوف بالاضافة الى ما يخاف منه)

اعلم أن الخوف لا يتحقق الا بانتظار مكروه والمكروه اما أن يكون مكروها في ذاته كالنار واما أن يكون مكروها لانه يفضي الى المكروه كما يكره المعاصي لادائها الى مكروه في الآخرة كما يكره المريض الفواكه المضرة لادائها الى الموت فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروه من احد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة أو خوف الميل عن الاستقامة أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى الى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدوله من الله ما لم يكن يحتسب أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش واضمار السوء أو خوف ما لا يدري انه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التي سبقت له في الازل فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي الى المخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة والذي يخاف من اطلاع الله تعالى

على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس وهكذا الى بقية الاقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة فان الامر فيه مخطر وأعلى الاقسام وادلها على كمال المعرفة خوف السابقة لان الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء في ام الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة الى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة اليه ولم يصل التوقيع اليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وانه عماذا يظهر ويرتبط قلب الآخر بحال توقيع الملك وكيفيته وانه ماالذى خطر له في حال التوقيع من رحمة أوغضب وهذا التفات الى السبب فهو أعلى من الالتفات الى ماهو فرع وكذلك الالتفات الى القضاء الازلي الذي جرى بتوقيعه القلم اعلى من الالتفات الى ما يظهر في الابد واليه اشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى وقال هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقي من شقي بقضاء الله والاعمال بالخواتيم وهذا كانقسام الخائفين الى من يخاف معصيته وجنايته والى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لامحالة فهذا اعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وان كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرضة الغرور والامن ان واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بأن يخاف من غير جناية بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له اسبابها فان تيسير اسباب المعصية ابعاد ولم يسبق قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه اسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضي عليه بالمعصية شاء ام أبى وكذا المطيع فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم الى اعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع اباجهل في اسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله فان من اطاع الله اطاع بأن سلط عليه ارادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الارادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذى عصى عصى لانه سلط عليه ارادة قوية جازمة وآتاه الاسباب والقدرة فكان الفعل بعد الارادة والقدرة ضروريا فليت شعري ماالذي أوجب اكرام هذا وتخصيصه بتسليط ارادة الطاعات عليه وماالذي اوجب اهانة

الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن فهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال ولولا إذن الشرع لم يتجرأ على ذكره ذو بصيرة فقد جاء في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يا داود خفني كما تخاف السبع الضاري فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقفك على سببه فإن الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك إلا لأهله والحاصل أن السبع يخاف لا لجناية سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي فإن قتلك لم يرق قلبه ولم يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ولله المثل الأعلى ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة * (الطبقة الثانية من الخائفين) أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه وذلك مثل سكرات الموت وشدته أو سؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو هول المطلع أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك خوف العابدين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يستشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتعجب منه في نفسه وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد وإلا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه

* (بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه) *

اعلم أن فضيلة الخوف تارة تعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار * أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى

فى الآخرة اذلا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد الا فى لقاء مولاه والقرب منه فكل ما اعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد ظهر أنه لا وصول الى سعادة لقاء الله فى الآخرة الا بتحصيل محبته والانس به فى الدنيا ولا تحصل المحبة الا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة الا بدوام الفكر ولا يحصل الانس الا بالمحبة ودوام الذكر ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر الا بانقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك الا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتهيات الا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشئ كما تنقمع بنار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فان فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة وبقدر ما يكف عن المعاصى ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهى الاعمال الفاضلة المحمودة التى تقرب الى الله زلفى * وأما بطريق الاقتباس من الآيات والاخبار فما ورد فى فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وصفهم بالعلم لخشيتهم وقال عز وجل رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لان الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء فى خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فان لهم الرفيق الاعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف افردهم بمرافقة الرفيق الاعلى وذلك لانهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الانبياء لانهم ورثة الانبياء ومرافقة الرفيق الاعلى للانبياء ومن يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته بين البقاء فى الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول اسألك الرفيق الاعلى فاذن ان نظر الى مثمره فهو العلم وان نظر الى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ما ورد فى فضائلهما حتى ان العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وآله اجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالاضافة الى نفسه فقال تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وانما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى ان اكرمكم عند الله اتقاكم ولذلك أوصى الله تعالى الاولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله وقال عز وجل وخافون ان كنتم مؤمنين فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وان ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وايمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فضيلة التقوى اذا جمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم فاذاهم بصوت يسمع اقصاهم كما يسمع ادناهم فيقول يأيها الناس انى قد أنصت لكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا فأنصتوا الى اليوم انما هى أعمالكم

يرد عليكم أيها الناس إني قد جعلت نسبا وجعلتم نسبا فوضعتم نسبي ورفعتم
وقلت إن أكرمكم عند الله أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من
فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتقون فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم
منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب وقال عليه الصلاة والسلام رأس الحكمة مخافة
الله وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف
بعدي وقال الفضيل من خاف الله دله الخوف على كل خير وقال الشبلي رحمه الله ما خفت
الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط وقال يحيى بن معاذ ما من
مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين أسدين
وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب
وفتشت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحيي منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب والورع
والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه
الأسامي وكذلك ما ورد في فضائل الذكر لا يحصى وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين
فقال سيذكر من يخشى وقال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقال صلى الله عليه
وسلم قال الله عز وجل وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فإن أمنني
في الدنيا أخفته يوم القيامة وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة وقال صلى الله عليه
وسلم من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء وقال
صلى الله عليه وسلم أتمكم عقلا أشدكم خوفا لله تعالى وأحسنكم فيما أمر الله تعالى
ونهى عنه نظرا وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما
يخاف الفقر دخل الجنة وقال ذو النون رحمه الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه
واشتد لله حبه وصح له لبه وقال ذو النون أيضا ينبغي أن يكون الخوف أغلب من الرجاء
فإذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان أبو الحسين الضرير يقول علامة السعادة خوف
الشقاوة لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين
وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا فقال أشدهم خوفا اليوم وقال سهل رحمه الله
لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال وقيل للحسن يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالس أقوام
يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك
أمن خير لك من أن تصحب قوما يؤمنونك حتى يدركك الخوف وقال أبو سليمان الداراني
رحمه الله ما فارق الخوف قلبا إلا خرب وقالت عائشة رضي الله عنها قلت يا رسول الله
الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الرجل يسرق ويزني قال لا بل الرجل يصوم ويصلي
ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه
لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه وضد
الخوف الأمن كما أن ضد الرجاء اليأس وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء
فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول كل ما ورد في فضل الرجاء
فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان فإن كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف

فوته

فوته فان كان لا يخاف فوته فهو اذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك احدهما عن الآخر نعم يجوز أن يغلب احدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت الى الآخر في الحال لغفلته عنه وهذا الان من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه اذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لا محالة اذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه نعم احد طرفي الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الاسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة احدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوي الرجاء وخفي الخوف بالاضافة اليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى ويدعوننا رغبا ورهبا وقال عزوجل يدعون ربهم خوفا وطمعا ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا أي لا تخافون وكثيرا ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما اذ عادة العرب التعبير عن الشئ بما يلازمه بل اقول كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو اظهار لفضيلة الخشية فان البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا وقال تعالى يبكون ويزيدهم خشوعا وقال عزوجل افمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وانتم سامدون وقال صلى الله عليه وسلم ما من عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة وان كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حر وجهه الا حرمه الله على النار وقال صلى الله عليه وسلم اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها وقال صلى الله عليه وسلم لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع وقال عقبة ابن عامر ما النجاة يا رسول الله قال امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك وقالت عائشة رضي الله عنها قلت يا رسول الله أيدخل احد من امتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى وقال صلى الله عليه وسلم ما من قطرة احب الى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى او قطرة دم اهريقت في سبيل الله سبحانه وقال صلى الله عليه وسلم اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان بذروف الدمع قبل ان تصير الدموع دما والاضراس جمرا وقال صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه من استطاع ان يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتباك وكان محمد بن المنكدر رحمه الله اذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول بلغني ان النار لا تأكل موضعا مسته الدموع وقال عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر ظهره وقال ابو سليمان الداراني رحمه الله ما تغرغرت عين بمائها الا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيامة فان سالت دموعه اطفأت

تأول قطرة منها بحارا من النيران ولو أن رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق وقال كعب الأحبار رضي الله عنه والذي نفسي بيده لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي أحب إلي من أن أتصدق بجبل من ذهب وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بألف دينار وروي عن حنظلة قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فدنت مني المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي قد نافقت حيث تحول عني ما كنت فيه من الخوف والرقة فخرجت وجعلت أنادي نافق حنظلة فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال كلا لم ينافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافق حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا لم ينافق حنظلة فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم يا حنظلة لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة في الطرق وعلى فراشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة فإذا كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب

(بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما)

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليهما فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهي قول القائل الخبز أفضل أم الماء وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل وإن استويا فهما متساويان وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين إذ يعالج بالخبز مرض الجوع وبالسكنجبين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصي والاغترار على الخلق أغلب وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف

والرحمة

والرحمة كانت المحبة عليه اغلب وليس وراء المحبة مقام واما الخوف فستمده الالتفات
الى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء وعلى الجملة فما يراد
لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الاصلح لا لفظ الافضل فنقول أكثر الخلق الخوف لهم
أصلح من الرجاء وذلك لاجل غلبة المعاصى فأما التقى الذى ترك ظاهر الاثم وباطنه
وخفيه وجليه فالاصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن
ورجاؤه لاعتدلا وروى أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده يا بنى خف الله خوفا
ترى انك لو أتيته بحسنات اهل الارض لم يتقبلها منك وارج الله رجاء ترى انك لو أتيته
بسيئات أهل الارض غفرها لك ولذلك قال عمر رضى الله عنه لو نودى ليدخل النار
كل الناس الا رجلا واحدا لرجوت أن أكون انا ذلك الرجل ولو نودى ليدخل الجنة
كل الناس الا رجلا واحدا لخشيت ان أكون انا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف
والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوى فمثل عمر
رضى الله عنه ينبغى ان يستوى خوفه ورجاؤه فأما العاصى اذا ظن انه الرجل الذى
استثنى من الذين امروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره فان قلت مثل عمر رضى
الله عنه لم ينبغى ان يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغى ان يغلب رجاؤه كما سبق فى أول
كتاب الرجاء وان قوته ينبغى ان تكون بحسب قوة اسبابه كما مثل بالزرع والبذر ومعلوم
ان من بث البذر الصحيح فى ارض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها
غلب على قلبه رجاء الادراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه فهكذا ينبغى ان تكون
احوال المتقين فاعلم أن من يأخذ المعارف من الالفاظ والامثلة يكثر زلله وذلك وان
اوردناه مثالا فليس يضاهى ما نحن فيه من كل وجه لان سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل
بالتجربة اذ علم بالتجربة صحة الارض ونقاؤها وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق
المهلكة فى تلك البقاع وغيرها وانما مثال مسألتنا بذر لم يجرب جنسه وقد بث فى ارض
غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها وهى فى بلاد ليس يدرى اتكثر الصواعق فيها ام لا
فمثل هذا الزارع وان ادى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه
والبذر فى مسألتنا هو الايمان وشروط صحته دقيقة والارض القلب وخفايا خبثه
وصفاته من الشرك الخفى والنفاق والرياء وخفايا الاخلاق فيه غامضة والآفات هى
الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب اليها فى مستقبل الزمان وان سلم فى الحال
وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة اذ قد يعرض من الاسباب ما لا يطاق مخالفته
ولم يجرب مثله والصواعق هى اهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك
مما لم يجرب مثله ثم الحصاد والادراك عند المنصرف من القيامة الى الجنة وذلك لم يجرب
فمن عرف حقائق هذه الامور فان كان ضعيف القلب جبانا فى نفسه غلب خوفه على
رجائه لا محالة كما سيحكى فى احوال الخائفين من الصحابة والتابعين وان كان قوى القلب
ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فأما ان يغلب رجاؤه فلا ولقد كان عمر
رضى الله عنه يبالغ فى تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضى الله عنه انه هل يعرف

فيه من آثار النفاق شيئاً إذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة وقد قال صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر وفي رواية إلا قدر فواق ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملاً بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فإذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وقال عز وجل ويدعوننا رغباً ورهباً وأين مثل عمر رضي الله عنه فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادكار وقال مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فإذاً لا بد من الجمع بين هذه الأمور وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محباً للقاء الله تعالى فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة فإن المصير إليه والقدوم بالموت عليه ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له

عن المحبوب فالدنيا اذا سجنه لان السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاستراوح الى محابه فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من افلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما اعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه اذن ولا خطر على قلب بشر وفضلا عما اعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا اليها من الانكال والسلاسل والاغلال وضروب الخزى والنكال فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع فى اجابة هذا الدعاء الا باكتساب حب الله تعالى ولا سبيل اليه الا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن فالاولى أن ندعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم اذ قال اللهم ارزقنى حبك وحب من احبك وحب ما يقربنى الى حبك واجعل حبك احب الى من الماء البارد والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت اصلح لانه اجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت اصلح لانه احرق لنار الشهوات وقمع لمحبة الدنيا عن القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بربه وقال تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء ولما حضرت سليمان التيمى الوفاة قال لابنه يا بنى حدثنى بالرخص واذكر لى الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثورى الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه وقال احمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه عند الموت اذكر لى الاخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى الى نفسه ولذلك أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام أن حببنى الى عبادى فقال بماذا قال بأن تذكرهم آلائى ونعمائى فاذا غاية السعادة أن يموت محبا لله تعالى وانما تحصل المحبة بالمعرفة وباخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الدارانى فى المنام وهو يطير فسأله فقال الآن أفلت فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له انه مات البارحة

(بيان الدواء الذى به يستجلب حال الخوف)

اعلم ان ما ذكرناه فى دواء الصبر وشرحناه فى كتاب الصبر والشكر هو كاف فى هذا الغرض لان الصبر لا يمكن الا بعد حصول الخوف والرجاء لان اول مقامات الدين اليقين الذى هو عبارة عن قوة الايمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر فان الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها الا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها الا بقوة الخوف ولذلك قال على كرم الله وجهه من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن اشفق من النار رجع عن المحرمات ثم يؤدى مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء الى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على

الدوام ويؤدى دوام الذكر الى الانس ودوام الفكر الى كمال المعرفة ويؤدى كمال المعرفة والانس الى المحبة ويتبعها مقام الرضى والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب فى سلوك منازل الدين وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدهما مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق الا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة الا المحبة والانس ومن ضرورة المحبة الرضى بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل فاذا فيما ذكرناه فى علاج الصبر كفاية ولكنا نفرد الخوف بكلام جملى فنقول الخوف يحصل بطريقين مختلفين احدهما اعلى من الآخر ومثاله أن الصبى اذا كان فى بيت فدخل عليه سبع او حية ربما كان لا يخاف وربما مد اليد الى الحية ليأخذها ويلعب بها ولكن اذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها فاذا نظر الصبى الى أبيه وهو ترتعد فرائصه ويحتال فى الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه فى الهرب فخوف الاب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته وأما خوف الابن فايمان بمجرد التقليد لانه يحسن الظن بأبيه ويعلم انه لا يخاف الا من سبب مخوف فى نفسه فيعلم ان السبع مخوف ولا يعرف وجهه واذا عرفت هذا المثال فاعلم ان الخوف من الله تعالى على مقامين احدهما الخوف من عذابه والثانى الخوف من ذاته فاما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضى الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ويحذركم الله نفسه وقوله عز وجل اتقوا الله حق تقاته وأما الاول فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الايمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وبسبب ضعف الايمان وانما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر فى اهوال يوم القيامة واصناف العذاب فى الآخرة ويزول أيضا بالنظر الى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم فان فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير وأما الثانى وهو الاعلى فأن يكون الله هو المخوف اعنى أن يخاف البعد والحجاب عنه ويرجو القرب منه قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت فى بحر لجى وهذه خشية العلماء حيث قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد يضاهى خوف الصبى من الحية تقليدا لابيه وذلك لا يستند الى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب حتى ان الصبى ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر اليه ويغتر به فيتجرأ على اخذها تقليدا له كما احترز من اخذها تقليدا لابيه والعبادات التقليدية ضعيفة فى الغالب الا اذا قويت بمشاهدة اسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات واجتناب المعاصى مدة طويلة على الاستمرار فاذا من ارتقى الى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج الى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعا فى مخالبه لا يحتاج الى علاج لجلب الخوف الى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء ام أبى

ولذلك أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام خفني كما تخاف السبع الضاري
ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري الا معرفة السبع ومعرفة الوقوع
في مخالبه فلا يحتاج الى حيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف انه يفعل ما يشاء ولا يبالي
ويحكم ما يريد ولا يخاف قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة وأبعد ابليس من غير جريمة
سالفة بل صفته ما ترجمه قوله هؤلاء في الجنة ولا ابالي وهؤلاء في النار ولا ابالي وان خطر
ببالك أنه لا يعاقب الا على معصية ولا يثيب الا على طاعة فتأمل انه لم يمد المطيع
باسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبي ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء أم
أبي فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها
بالضرورة فان كان ابعده لانه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى
يتسلسل الى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه
في الازل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم اذ قال احتج آدم وموسى عليهما السلام
والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى انت آدم الذي خلقك الله
بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته واسكنك جنته ثم اهبطت الناس
بخطيئتك الى الارض فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه
وأعطاك الالواح فيها تبيان كل شئ وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل
أن اخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال
نعم قال افتلومني على ان عملت عملا كتبه الله علي قبل ان اعمله وقبل ان يخلقني بأربعين
سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى فمن عرف السبب في هذا الامر معرفة
صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ومن سمع هذا
فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين
خوف فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع
والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق
ولذلك الاتفاق اسباب مرتبة بقدر معلوم لكن اذا اضيف الى من لا يعرفه سمي اتفاقا
وان اضيف الى علم الله لم يجز ان يسمى اتفاقا والواقع في مخالب السبع لو كملت معرفته
لكان لا يخاف السبع لان السبع مسخر ان سلط عليه الجوع افترس وان سلط عليه
الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلست اقول مثال الخوف من
الله تعالى الخوف من السبع بل اذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين
الخوف من الله لان المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم ان سباع الآخرة مثل سباع
الدنيا وان الله تعالى خلق اسباب العذاب واسباب الثواب وخلق لكل واحد اهلا
يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الازلي الى ما خلق له فخلق الجنة وخلق لها اهلا
سخر والاسبابها شاؤا أم أبوا وخلق النار وخلق لها اهلا سخر والاسبابها شاؤا أم ابوا
ولا يرى احد نفسه في ملتطم امواج القدر الا غلبه الخوف بالضرورة فهذه مخاوف
العارفين بسر القدر فمن قعد به القصور عن الارتقاء الى مقام الاستبصار فسبيله ان يعالج

منه سماع الاخبار والآثار فيطالع احوال الخائفين العارفين واقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب الراجين المغرورين فلا يمارى فى ان الاقتداء بهم اولى لانهم الانبياء والاولياء والعلماء واما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والاغبياء اما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الاولين والآخرين وكان اشد الناس خوفا حتى روى انه كان يصلى على طفل وفى رواية انه سمع فى دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار وفى رواية ثانية انه سمع قائلا يقول هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ما يدريك انه كذلك والله انى رسول الله وما ادرى ما يصنع بى ان الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال ذلك ايضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الاولين لما قالت ام سلمة هنيأ لك الجنة فكانت تقول ام سلمة بعد ذلك والله لا اركى احدا بعد عثمان وقال محمد بن خولة الحنفية والله لا اركى احدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ابى الذى ولدنى قال فثارت الشيعة عليه فاخذ يذكر من فضائل على ومناقبه وروى فى حديث آخر ان رجلا من اهل الصفة استشهد فقالت امه هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت فى سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره وفى حديث آخر انه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض اصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيأ لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتألية على الله تعالى فقال المريض هى امى يا رسول الله فقال وما يدريك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول شيبتنى هود واخواتها سورة الواقعة واذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الابعاد كقوله تعالى ألا بعدا لعاد قوم هود ألا بعدا لثمود ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود مع علمه صلى الله عليه وسلم بانه لو شاء الله ما اشركوا اذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفى سورة الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة اما خافضة قوما كانوا مرفوعين فى الدنيا واما رافعة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا وفى سورة التكوير اهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله تعالى واذا الجحيم سعرت واذا الجنة ازلفت علمت نفس ما احضرت وفى عم يتساءلون يوم ينظر المرء ما قدمت يداه الآية وقوله تعالى لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا والقرآن من اوله الى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه الا قوله تعالى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى لكان كافيا اذ علق المغفرة على اربعة شروط يعجز العبد عن آحادها واشد منه قوله تعالى فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى ان يكون من المفلحين وقوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم وقوله تعالى سنفرغ لكم ايها الثقلان وقوله عز وجل أفأمنوا مكر الله الآية وقوله وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه اليم شديد وقوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا الآيتين

وقوله تعالى وان منكم الا واردها الآية وقوله اعملوا ما شئتم الآية وقوله من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه الآية وقوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره الآيتين وقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل الآية وكذلك قوله تعالى والعصر ان الانسان لفى خسر الى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران وانما كان خوف الانبياء مع ما فاض عليهم من التنعم لانهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون حتى روى أن النبى وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله اليهما لم تبكيان وقد أمنتكما فقالا ومن يأمن مكرك وكأنهما اذ علما أن الله هو علام الغيوب وانه لا وقوف لهما على غاية الامور لم يأمنا أن يكون قوله قد امنتكما ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما حتى ان سكن خوفهما ظهر انهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما كما أن ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع فى المجنيق قال حسبى الله وكانت هذه من الدعاوى العظام فامتحن وعورض بجبريل فى الهواء حتى قال ألك حاجة فقال اما اليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبى الله فأخبر الله تعالى عنه فقال وابراهيم الذى وفى أى بموجب قوله حسبى الله وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا اننى معكما اسمع وأرى ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى فى نفسه خيفة اذ لم يأمن مكر الله والتبس الامر عليه حتى جدد عليه الامن وقيل له لا تخف انك أنت الاعلى ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر وقال صلى الله عليه وسلم اللهم ان تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الارض أحد يعبدك فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه دع عنك مناشدتك ربك فانه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو اتم لانه لا يصدر الا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا افعاله ومعانى صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر وما لاحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الامور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له أنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك وقال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم الاية فوض الامر الى المشيئة واخرج نفسه بالكلية من البين لعلمه بأنه ليس له من الامر شئ وان الامور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس وحسبان فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين اذ الطامة الكبرى هى ارتباط امرك بمشيئة من لا يبالى بك ان اهلكك فقد اهلك امثالك ممن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الالام والامراض ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم ابد الاباد ثم يخبر عنه ويقول ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين

وقال تعالى وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم الآية فكيف لا يخاف ما حق من القول
في الأزل ولا يطمع في تداركه ولو كان الأمر أنفا لكانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه
ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقراء حق السابقة من جلي الأسباب الظاهرة على
القلب والجوارح فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت
علائقه من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة
إذ كل ميسر لما خلق له وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا
منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام
على ذلك موثوقا به ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها
من الانطفاء وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن وإن
القلب أشد تقلبا من القدر في غليانها وقد قال مقلب القلوب عز وجل إن عذاب ربهم
غير مأمون فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن ولولا أن الله لطف
بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف فأسباب
الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه إذ لو انكشف
الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب قال بعض العارفين
لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد
لأني لا أدري ما ظهر له من التقلب وقال بعضهم لو كانت الشهادة على باب الدار والموت
على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام لأني لا أدري ما يعرض لقلبي
من باب الحجرة وباب الدار وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه
عند الموت إلا سلبه وكان سهل يقول خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة
وعند كل حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال وقلوبهم وجلة ولما احتضر سفيان
جعل يبكي ويجزع فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك
فقال أو على ذنوبي أبكي لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال
الجبال من الخطايا وحكي عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال إذا حضرتني
الوفاة فاقعد عند رأسي فإن رأيتني مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزا
وسكرا وانثره على صبيان أهل البلد وقل هذا عرس المنقلب وإن مت على غير التوحيد
فأعلم الناس حتى لا يغتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة لئلا
يلحقني الرياء بعد الوفاة قال وبم أعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند
موته فاشترى السكر واللوز وفرقه وكان سهل يقول المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي
والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر وكان أبو يزيد يقول إذا توجهت إلى المسجد كأن في وسطي
زنارا أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار
فهذا لي كل يوم خمس مرات وروي عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال يا معشر
الحواريين أنتم تخافون المعاصي ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر وروي في أخبار
الأنبياء أن نبيا شكا إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف

فأوحى

فأوحى الله تعالى اليه عبدي أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال بلى قد رضيت يا رب فاعصمني من الكفر فاذا كان خوف العارفين مع رسوخ اقدامهم وقوة ايمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن لو أعلم أني بريء من النفاق كان أحب الي مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق الذي هو ضد أصل الايمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الايمان فيكون مسلما منافقا وله علامات كثيرة قال صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه فهو منافق خالص وان صلى وصام وزعم أنه مسلم وان كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان واذا خاصم فجر وفي لفظ آخر واذا عاهد غدر وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفسير لا يخلو عن شيء منه الا صديق اذ قال الحسن ان من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج ومن الذي يخلو عن هذه المعاني بل صارت هذه الامور مألوفة بين الناس معتادة ونسي كونها منكرا بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة فيكف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه ان كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا اني لاسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون انكم لتعملون أعمالا هي ادق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر وقال بعضهم علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله وأن تحب على شيء من الجور وأن تبغض على شيء من الحق وقيل من النفاق انه اذا مدح بشيء ليس فيه اعجبه ذلك وقال رجل لابن عمر رحمه الله انا ندخل على هؤلاء الامراء فنصدقهم فيما يقولون فاذا خرجنا تكلمنا فيهم فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى انه سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعد هذا النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشد من ذلك ما روى أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين واسباب النفاق وكان يقول انه يأتي على القلب ساعة يمتلئ بالايمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز ابرة ويأتي عليه ساعة يمتلئ بالنفاق حتى لا يكون للايمان فيه مغرز ابرة فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة وأن سببه امور تتقدمه منها البدع ومنها المعاصي ومنها النفاق ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك وان ظن انه قد خلا عنه فهو النفاق اذ قيل من أمن النفاق فهو منافق وقال بعضهم لبعض العارفين اني اخاف على نفسي النفاق فقال لو كنت منافقا لما خفت

المعاق فلا يزال العارف بين الالتفات الى السابقة والخاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فوالذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار والله المستعان

(بيان معنى سوء الخاتمة)

فان قلت ان أكثر هؤلاء يرجع خوفهم الى سوء الخاتمة فما معنى سوء الخاتمة فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين احداهما أعظم من الاخرى فاما الرتبة العظيمة الهائلة أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور اهواله اما الشك واما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد والثانية وهى دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من امور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه الى الدنيا وصارفا وجهه اليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومن العذاب اذ نار الله الموقدة لا تأخذ الا المحجوبين عنه فأما المؤمن السليم فانه عن حب الدنيا المصروف همه الى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لهبى فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالامر مخطر لان المرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة اخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه اذ لا تصرف فى القلوب الا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الاعمال فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع الى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تعظم الحسرة الا وأن أصل الايمان حب الله تعالى اذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالاعمال الصالحة يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت فان كان ايمانه فى القوة الى حد مثقال اخرجه من النار فى زمان اقرب وان كان اقل من ذلك طال مكثه فى النار ولو لم يكن الا مثقال حبة فلا بد وان يخرجه من النار ولو بعد حين ولو بعد آلاف سنين فان قلت فما ذكرته يقتضى أن يسرع النار اليه عقيب موته فما باله يؤخر الى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة فاعلم أن كل من انكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الايمان بل الصحيح عند ذوى الابصار ما صحت به الاخبار وهو أن القبر اما حفرة من حفر النيران او روضة من رياض الجنة وانه قد يفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم كما وردت به الاخبار فلا تفارقه روحه الا وقد نزل به البلاء ان كان قد شقى بسوء الخاتمة وانما تختلف اصناف العذاب باختلاف الاوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر والتعذيب بعده ثم المناقشة فى الحساب والافتضاح على ملأ من الاشهاد فى القيامة ثم بعد ذلك خطر الصراط وهول الزبانية الى آخر ما وردت به الاخبار فلا يزال الشقى مترددا فى جميع احواله بين اصناف العذاب وهو فى جميع الاحوال معذب الا أن يتغمده الله برحمته ولا تظن

أن محل الايمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها الى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الاجزاء المتفرقة وتعاد اليها الروح التي هي محل الايمان وقد كانت من وقت الموت الى الاعادة اما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش ان كانت سعيدة واما على حالة تضاد هذه الحال ان كانت والعياذ بالله شقية فان قلت فما السبب الذي يفضي الى سوء الخاتمة فاعلم أن اسباب هذه الامور لا يمكن احصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الاشارة الى مجامعها اما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين * أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الاعمال كالمبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وان كانت أعماله صالحة ولست أعني مذهبا فأقول انه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه بل اعني بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وافعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه اما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يغتر واما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما يكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا اذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادي سكراته منه فقد ينكشف به بعض الامور فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه انه اخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لا لتجائه فيه الى رأيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له اذ لم يكن عنده فرق بين ايمانه بالله ورسوله أو سائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود الى أصل الايمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبقوله عز وجل قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وكما انه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة اشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الامور اذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر الى الملكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتنكشف له الامور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وافعاله شيئا على خلاف ما هو به اما تقليدا واما نظرا بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجي منه الا الاعتقاد الحق والبله بمعزل عن هذا الخطر أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايمانا مجملا راسخا كالاعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالا ولا صغوا الى اصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكثر اهل الجنة البله ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه

الامور وأمروا الخلق ان يقتصروا على ان يؤمنوا بما انزل الله عز وجل جميعا وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاد نفي التشبيه ومنعوهم عن الخوض في التأويل لان الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤودة ومسالكه وعرة والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما ألقي اليها في مبدأ النشأة آلفة وبه متعلقة والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة والمأخوذة بحسن الظن من المعلمين في اول الامر ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فاذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأي والمعقول مع تفاوت الناس في قرائحهم واختلافهم في طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعي الكمال والاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين اليهم وتأكد ذلك بطول الالف فيهم فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالاعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وانه صفو الايمان ويظن ان ما وقع له من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ولتعلمن نبأه بعد حين وينشد في أن ينشد هؤلاء عند كشف الغطاء

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الامواج يرمى به موج الى موج فربما يتفق ان يلقيه الى الساحل وذلك بعيد والهلاك عليه اغلب وكل نازل على عقائد يتلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم اما مع الادلة التي حرروها في تعصباتهم أو دون الادلة فان كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وان كان واثقا به فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين الا اذا جاوز حدود المعقول الى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الاحمر واني يتيسر وانما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار وطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الاسباب المخطرة في سوء الخاتمة * واما السبب الثاني فهو ضعف الايمان في الاصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله تعالى وقوي حب الدنيا فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى الا من حيث حديث النفس ولا يظهر له اثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة الذنوب على القلب فلا يزال يطفئ ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعا ورينا فاذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب

اعنى حب الله ضعيفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهى المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث انه من الله فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب كما أن الذى يحب ولده حبا ضعيفا اذا أخذ ولده امواله التى هى احب اليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا فان اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذى يفضى الى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون اليها والفرح باسبابها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله تعالى فمن وجد فى قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وان كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء العضال وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى اذ لا يحبه الا من عرفه ولهذا قال تعالى قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بامره الآية فاذا كل من فارقته روحه فى حالة خطرة الانكار على الله تعالى بباله وظهور بغض فعل الله بقلبه فى تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما احبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق اذا قدم به على مولاه قهرا فلا يخفى ما يستحقه من الخزى والنكال وأما الذى يتوفى على الحب فانه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق الى مولاه الذى تحمل مشاق الاعمال ووعثاء الاسفار طمعا فى لقائه فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الاكرام وبدائع الانعام* (وأما الخاتمة الثانية)* التى هى دون الاولى وليست مقتضية للخلود فى النار فلها أيضا سببان احدهما كثرة المعاصى وذلك لان مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب بكثرة الالف والعادة وجميع ما ألفه الانسان فى عمره يعود ذكره الى قلبه عند موته فان كان ميله الاكثر الى الطاعات كان اكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وان كان ميله الاكثر الى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى فالذى لا يقارف الدنيا الا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر والذى لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذى غلبت عليه المعاصى وكانت اكثر من طاعاته وقلبه بها افرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم فى حقه جدا وتعرف هذا بمثال وهو أنه لا يخفى عليك أن الانسان يرى فى منامه جملة من الاحوال التى عهدها طول عمره حتى انه لا يرى الا ما يماثل مشاهداته فى اليقظة وحتى ان المراهق الذى يحتلم لا يرى صورة الوقاع اذا لم يكن قد واقع فى اليقظة ولو بقى كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ثم لا يخفى أن الذى قضى عمره فى الفقه يرى من الاحوال المتعلقة بالعلم والعلماء اكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة والتاجر

يرى من الاحوال المتعلقة بالعبارة وأسببها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه لانه انما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الالف أو بسبب آخر من الاسباب والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم ويقتضي ذلك تذكر المألوف وعوده الى القلب وأحد الاسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الالف فطول الالف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق فتكون غلبة الالف سببا لان يتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل اليها نفسه وربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سوء خاتمته وان كان أصل الايمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها وكما ان ما يخطر في اليقظة انما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى وكذلك آحاد المنامات لها اسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها كما انا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء الى ما يناسبه اما بالمشابهة واما بالمضادة واما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه أما بالمشابهة فبأن ينظر الى جميل فيتذكر جميلا آخر واما بالمضادة فبأن ينظر الى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما واما بالمقارنة فبأن ينظر الى فرس قد رآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الانسان وقد ينتقل الخاطر من شيء الى شيء ولا يدري وجه مناسبته له وانما يكون ذلك بواسطة وواسطتين مثل أن ينتقل من شيء الى شيء ثان ومنه الى شيء ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والاول مناسبة ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والاول مناسبة وكذلك لانتقالات الخواطر في المنامات اسباب من هذا الجنس وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا والعلم عند الله من كانت الخياطة أكثر أشغاله فانك تراه يومئ الى رأسه كأنه يأخذ ابرة ليخيط بها ويبل أصبعه التي لها عادة بالكستبان ويأخذ الازار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله ثم يمد يده الى المقراض ومن اراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له الا المجاهدة طول العمر في فطام نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت فانه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه ولذلك نقل عن بقال انه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول خمسة ستة اربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال الفه له قبل الموت وقال بعض العارفين من السلف العرش جوهرة تتلألأ نورا فلا يكون العبد على حال الا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فاذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى احوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة فاذا رجع سوء الخاتمة الى احوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله

والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا وان كان لطول الالف فيه تأثير فهذا اعظم خوف العارفين من سوء الخاتمة لانه لو اراد الانسان أن لا يرى في المنام الا احوال الصالحين واحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وان كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط وان كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه وأن لا يكون في قلبه انكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت لشيخي أبي القاسم الكرماني مناما لي وقلت رأيتك قلت لي كذا فقلت لم ذاك قال فهجرني شهرا ولم يكلمني وقال لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وانكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال اذ قلما يرى الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي يسمح بذكره في علم المعاملة من اسرار أمر الخاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الاشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية فان كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بدّ وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك كما سنحكيه من أحوال الانبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الاسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة ان لم تسلم في النفس الاخير الذي عليه خروج الروح وان سلامته مع اضطراب امواج الخواطر مشكلة جدّا ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول اني لا اعجب ممن هلك كيف هلك ولكني اعجب ممن نجا كيف نجا ولذلك قال حامد اللفاف اذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثوري يوما يبكي فقيل له على م تبكي فقال بكينا على الذنوب زمانا فالآن نبكي على الاسلام وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الامواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشدّ اضطرابا من السفينة وامواج الخواطر أعظم التطاما من امواج البحر وانما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب ولا يتسع فواق الناقة لاعمال توجب الشقاوة بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رأيت كأني ادخلت الجنة فرأيت ثلثمائة نبي فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا قالوا سوء الخاتمة ولاجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها وكان موت الفجاءة مكروها اما الموت فجاءة فلانه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن امثاله الا ان يدفع بالكراهة او بنور المعرفة واما الشهادة فلانها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق

في القلب سوى حب الله تعالى وحرج حب الدنيا والاهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب اذلا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت الا حبا لله وطلبا لمرضاته واتعاد بيانه الآخرته وراضيا بالبيع الذي بايعه الله به اذ قال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب ومجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد تغلب على القلب في بعض الاحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة فان من هذا حاله وان قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الاخبار واذا بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها وواظب على ذكر الله تعالى واخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة اهلها جهدك فان ذلك أيضا يؤثر في قلبك ويصرف اليه فكرك وخواطرك واياك ان تسوف وتقول سأستعد لها اذا جاءت الخاتمة فان كل نفس من أنفاسك خاتمتك اذ يمكن ان يختطف فيه روحك فراقب قلبك في كل لحظة واياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك اذ يمكن أن تختطف فيها روحك هذا ما دمت في يقظتك وأما اذا نمت فاياك أن تنام الا على طهارة الظاهر والباطن وان يغلبك النوم الا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فان حركة اللسان بمجردها ضعيفة الاثر واعلم قطعا انه لا يغلب عند النوم على قلبك الا ما كان قبل النوم غالبا عليه وانه لا يغلب في النوم الا ما كان غالبا قبل النوم ولا يبعث عن نومك الا ما غلب على قلبك في نومك والموت والبعث شبه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد الا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ الا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء الا على ما عاش عليه ولا يحشر الا على ما مات عليه وتحقق قطعا ويقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب ان لم تكن اهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك واياك أن تغفل عن الله طرفة عين فانك اذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف اذا لم تفعل والناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم واعلم ان ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي ان يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا يكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك اذ لا فرق بين ادخال الطعام في البطن واخراجه فهما ضروريان في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك واعلم انه ان كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك واذا لم يكن قصدك من الطعام الا التقوى على عبادة الله

تعالى

تعالى كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة امور من مأكولك في وقته وقدره وجنسه أما الوقت فاقله أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الاطعمة بل يقنع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مؤنة الشهوات اللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لا تأكل الا من حله فان الحلال يعزو لا يفي بجميع الشهوات وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع اخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس ان لم تكتف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا يملأ بطنه الا التراب وكذلك المسكن ان اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والارض مستقرا فان غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف اليه اكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم ان تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلا بينك وبين الابصار ومن السقف سوى كونه دافعا للامطار فاخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد رقيك منها وهكذا جميع ضرورات امورك ان اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لخاتمتك وان جاوزت حد الضرورة الى اودية الاماني تشعبت همومك ولم يبال الله في اي واد اهلكك فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج الى النصيحة منك واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فاذا دفعته يوما بيوم في تسويفك اوغفلتك اختطفت فجأة في غير وقت ارادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لا تقدر على ملازمة ما ارشدت اليه بضعف خوفك اذ لم يكن فيما وصفناه من امر الخاتمة كفاية في تخويفك فانا سنورد عليك من احوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك فانك تتحقق أن عقل الانبياء والاولياء والعلماء وعلمهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في احوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يخر ميتا الى الارض ولا غرو ان كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة او أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون

(بيان احوال الانبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف)

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق وقال تعالى وخر موسى

صعقا ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالابطح فصعق
وروى انه عليه السلام كان اذا دخل فى الصلاة يسمع لصدره ازيز كازيز المرجل وقال صلى
الله عليه وسلم ما جاءنى جبريل قط الا وهو يرعد فرقا من الجبار وقيل لما ظهر على ابليس
ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله اليهما ما لكما تبكيان
كل هذا البكاء فقالا يارب ما نأمن مكرك فقال الله تعالى هكذا كونا لا تأمنا مكرى
وعن محمد بن المنكدر قال لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من اماكنها فلما خلق
بنو آدم عادت وعن انس انه عليه السلام سأل جبريل مالى لا ارى ميكائيل يضحك
فقال جبريل ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار وقال ان لله تعالى ملائكة لم يضحك
احد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها وقال ابن عمر رضى
الله عنهما خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الانصار
فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال يا ابن عمر مالك لا تأكل فقلت يا رسول الله لا اشتهيه
فقال لكنى اشتهيه وهذا صبح رابعة لم اذق طعاما ولم اجده ولو سألت ربى لاعطانى
ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت فى قوم يخبؤن رزق سنتهم ويضعف
اليقين فى قلوبهم قال فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى نزلت وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله
يرزقها واياكم وهو السميع العليم قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم
يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات من كنز دنانير يريد بها حياة فانية فان الحياة بيد الله
الا وانى لا اكنز دينارا ولا درهما ولا اخبأ رزقا لغد وقال ابو الدرداء كان يسمع ازيز قلب
ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم اذا قام فى الصلاة من مسيرة ميل خوفا من
ربه وقال مجاهد بكى داود عليه السلام اربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى
نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فنودى يا داود أجائع انت فتطعم ام ظمآن
فتسقى ام عار فتكسى فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر خوفه ثم انزل الله تعالى
عليه التوبة والمغفرة فقال يارب اجعل خطيئتى فى كفى فصارت خطيئته فى كفه مكتوبة
فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره الا رآها فأبكته قال وكان يؤتى بالقدح
ثلثاه ماء فاذا تناوله ابصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه
ويروى عنه عليه السلام انه ما رفع رأسه الى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل
وكان يقول فى مناجاته الهى اذا ذكرت خطيئتى ضاقت على الارض برحبها واذا ذكرت
رحمتك ارتدت الى روحى سبحانك الهى أتيت اطباء عبادك ليداووا خطيئتى فكلهم
عليك يدلنى فبؤسا للقانطين من رحمتك وقال الفضيل بلغنى أن داود عليه السلام ذكر
ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضعا يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت اليه
السباع فقال ارجعوا لا اريدكم انما اريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلنى الا بالبكاء
ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء وكان يعاتب فى كثرة البكاء فيقول دعونى
ابكى قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن تؤمر بى ملائكة
غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون وقال عبد العزيز بن عمر لما

أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال الهي بح صوتي في صفاء أصوات الصديقين وروي انه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه فقال يارب أما ترحم بكائي فأوحى الله تعالى اليه ياداود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال الهي وسيدي كيف انسى ذنبي وكنت اذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلني الطير على رأسي وأنست الوحوش الى محرابي الهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فأوحى الله تعالى اليه ياداود ذاك انس الطاعة وهذه وحشة المعصية ياداود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري وشكا الي الوحدة فزوجته حواء امتي وأسكنته جنتي عصاني فطردته عن جواري عريان ذليلا ياداود اسمع مني والحق اقول اطعتنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلناك وان عدت الينا على ما كان منك قبلناك * وقال يحيى بن أبي كثير بلغنا أن داود عليه السلام كان اذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فاذا كان قبل ذلك بيوم اخرج له المنبر الى البرية فأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقري البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع فينادي فيها ألا من اراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال فتأتي الوحوش من البراري والآكام وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال وتأتي الطير من الاوكار وتأتي العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم ويأتي داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو اسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في اهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فاذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا ابتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني اسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء فبينما هو كذلك اذ ناداه بعض عباد بني اسرائيل ياداود عجلت بطلب الجزاء على ربك قال فيخر داود مغشيا عليه فاذا نظر سليمان الى ما اصابه اتى بسرير فحمله عليه ثم امر مناديا ينادي الا من كان له مع داود حميم اوقريب فليأت بسرير فليحمله فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار وكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتله ذكر النار يا من قتله خوف الله ثم اذا افاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول يا اله داود أغضبان انت على داود ولا يزال يناجي فيأتي سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول يا ابتاه تقوّ بهذا على ما تريد فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج الى بني اسرائيل فيكون بينهم * وقال يزيد الرقاشي خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم فخرج في اربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا وما رجع الا في عشرة آلاف قال وكان له جاريتان اتخذهما حتى اذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على

صدره وعلى رجليه مخافة ان تتفرق اعضاؤه ومفاصله فيموت * وقال ابن عمر رضي الله عنهما دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج فنظر الى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر الى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدوا انفسهم الى اطراف بيت المقدس فهاله ذلك فرجع الى ابويه فمر بصبيان يلعبون فقالوا له يا يحيى هلم بنا نلعب فقال انى لم أخلق للعب قال فأتى ابويه فسألهما أن يدرعاه الشعر ففعلا فرجع الى بيت المقدس وكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم اطواد الارض وغيران الشعاب فخرج ابواه فى طلبه فأدركاه على بحيرة الاردن وقد انقع رجليه فى الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك لا اذوق بارد الشراب حتى اعلم اين مكانى منك فسأله ابواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح بالبر فرده ابواه الى بيت المقدس فكان اذا قام يصلى بكى حتى يبكى معه الشجر والمدر ويبكى زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه ولم يزل يبكى حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت اضراسه للناظرين فقالت له امه يا بنى لو أذنت لى أن أتخذ لك شيئا توارى به اضراسك عن الناظرين فأذن لها فعمدت الى قطعتى لبود فألصقتهما على خديه فكان اذا قام يصلى بكى فاذا استنقعت دموعه فى القطعتين أتت اليهما امه فعصرتهما فاذا رأى دموعه تسيل على ذراعى امه قال اللهم هذه دموعى وهذه امى وانا عبدك وانت أرحم الراحمين فقال له زكريا يوما يا بنى انما سألت ربى أن يهبك لى لتقر عينى بك فقال يحيى يا ابت ان جبريل عليه السلام اخبرنى أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها الا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يا بنى فابك * وقال المسيح عليه السلام معاشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا بحق اقول لكم ان اكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل * وكان الخليل صلوات الله عليه وسلامه اذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خليله فيقول يا جبريل انى اذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى فهذه احوال الانبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فانهم اعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم اجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله ونعم الوكيل

(بيان احوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين فى شدة الخوف)

روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتنى مثلك يا طائر ولم اخلق بشرا وقال أبو ذر رضي الله عنه وددت لو أنى شجرة تعضد وكذلك قال طلحة وقال عثمان رضي الله عنه وددت انى اذا مت لم ابعث وقالت عائشة رضي الله عنها وددت انى كنت نسيا منسيا وروى أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف اذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه فكان يعاد أياما واخذ يوما تبنة من الارض فقال يا ليتنى كنت هذه التبنة

يا ليتنى

ياليتني لم اك شيأ مذكورا ياليتني كنت نسيا منسيا ياليتني لم تلدني امي وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من الدموع وقال رضي الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون ولما قرأ عمر رضي الله عنه اذا الشمس كوّرت وانتهى الى قوله تعالى واذا الصحف نشرت خرّ مغشيا عليه ومرّ يوما بدار انسان وهو يصلي ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع نزل عن حماره واستند الى حائط ومكث زمانا ورجع الى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه وقال علي كرّم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم أر اليوم شيأ يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا صفرا غبرا بين اعينهم امثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم واقدامهم فاذا اصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت اعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله فكأني بالقوم باتوا غافلين ثم قام فما رؤي بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم وقال عمران بن حصين وددت ان اكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف وقال ابو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وددت اني كبش فيذبحني اهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقي وكان علي بن الحسين رضي الله عنه اذا توضأ اصفر لونه فيقول له اهله ماهذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول اتدرون بين يدي من اريد ان اقوم وقال موسى ابن مسعود كنا اذا جلسنا الى الثوري كأن النار قد احاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقرأ مضر القاري يوما هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه فلما أفاق قال وعزتك لا عصيتك جهدي أبدا فأعني بتوفيقك على طاعتك وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيأ من القرآن لشدّة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل اياما حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فقال انا من المجرمين ولست من المتقين اعد عليّ القول أيها القاري فأعاد عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة وقرأ عند يحيى البكاء ولو ترى اذ وقفوا على ربهم فصاح صيحة مكث منها مريضا اربعة اشهر يعاد من اطراف البصرة وقال مالك بن دينار بينما انا اطوف بالبيت اذا انا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها يارب أما كان لك ادب وعقوبة الا النار وتبكي فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدي على راسي صارخا اقول ثكلت مالكا امه وروى ان الفضيل رؤي يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة حتى اذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه الى السماء وقال واسوأتاه منك وان عفرت ثم انقلب مع الناس وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف قرحة واعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا والقبر امامنا والقيامة موعدنا وعلى جهنم طريقنا وبين يدي الله ربنا موقفنا

ومر الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له الحسن يافتى هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدري الى الجنة تصير أم الى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فما رؤي ذلك الفتى بعدها ضاحكا وكان حماد بن عبد ربه اذا جلس جلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو اطمأننت فيقول تلك جلسة الآمن وانا غير آمن اذ عصيت الله تعالى وقال عمر بن عبد العزيز انما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كي لا يموتوا من خشية الله تعالى وقال مالك بن دينار لقد هممت اذا انا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي الى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق الى سيده وقال حاتم الاصم لا تغتر بموضع صالح فلا مكان اصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها مالقي ولا تغتر بكثرة العبادة فان ابليس بعد طول تعبده لقي مالقي ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الاعظم فانظر ماذا لقي ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص اكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه اقاربه واعداؤه وقال السري اني لانظر الى انفي كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهي وقال ابو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي ان الله ينظر الي نظر السخط واعمالي تدل على ذلك وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال اني اجترأت البارحة على الله سألته الجنة وقالت ام محمد ابن كعب القرظي لابنها يابني اني اعرفك صغيرا طيبا وكبيرا طيبا وكانك احدثت حدثا موبقا لما أراك تصنع في ليلك ونهارك فقال يا اماه ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع علي وانا على بعض ذنوبي فمقتني وقال وعزتي وجلالي لا غفرت لك وقال الفضيل اني لا أغبط نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة انما اغبط من لم يخلق وروي ان فتى من الانصار دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه فخر ميتا فقال صلى الله عليه وسلم جهزوا صاحبكم فان الفرق من النار فتت كبده وروي عن ابن أبي ميسرة انه كان اذا اوى الى فراشه يقول ياليت امي لم تلدني فقالت له امه يا ميسرة ان الله تعالى قد احسن اليك هداك الى الاسلام قال اجل ولكن الله قد بين لنا انا واردو النار ولم يبين لنا انا صادرون عنها وقيل لفرقد السبخي اخبرنا بأعجب شئ بلغك عن بني اسرائيل قال بلغني انه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلمي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة ابدا انما كان يسأل العفو وقيل له في مرضه ألا تشتهي شيئا فقال ان خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال انه ما رفع رأسه الى السماء ولا ضحك أربعين سنة وانه رفع رأسه يوما ففزع فسقط فانفتق في بطنه فتق وكان يمس جسده في بعض الليل مخافة ان يكون قد مسخ وكان اذا اصابتهم ريح او برق او غلاء طعام قال هذا من اجلي يصيبهم لو مات عطاء لاستراح الناس وقال عطاء خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت اقدامهم من طول القيام وغارت اعينهم في رؤسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الاوتار يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف اكرم

الله المطيعين وكيف اهان العاصين فبينماهم يمشون اذ مر أحدهم بمكان فخر مغشيا عليه فجلس اصحابه حوله يبكون فى يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا فجاؤا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن امره فقال انى ذكرت انى كنت عصيت الله فى ذلك المكان وقال صالح المرى قرأت على رجل من المتعبدين يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا فصعق ثم افاق فقال زدنى يا صالح فانى اجد غما فقرأت كلما ارادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها فخر ميتا وروى أن زرارة بن ابى اوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ فاذا نقر فى الناقور خر مغشيا عليه فحمل ميتا * ودخل يزيد الرقاشى على عمر بن عبد العزيز فقال عظنى يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين اعلم انك لست اول خليفة يموت فبكى ثم قال زدنى قال يا امير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب الا ميت فبكى ثم قال زدنى يا يزيد فقال يا امير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل فخر مغشيا عليه وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وان جهنم لموعدهم اجمعين صاح سلمان الفارسى ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة ايام لا يقدرون عليه ورأى داود الطاءى امرأة تبكى على رأس قبر ولدها وهى تقول يا ابناه ليت شعرى اى خديك بدأ به الدود أولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرض سفيان الثورى فعرض دليله على طبيب ذمى فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ما علمت أن فى الملة الحنيفية مثله وقال احمد بن حنبل رحمة الله عليه سألت الله عز وجل أن يفتح على بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلى فقلت يارب على قدر ما اطيق فسكن قلبى وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم احدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه اشار الى معنى قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وقال العمرى اجتمع اصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكى ولحيته ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة ويحكم ليس هذا زمان حديث انما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق انما هذا زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ورؤى الفضيل يوما وهو يمشى فقيل له الى اين قال لا ادرى وكان يمشى والهاه الخوف وقال ذر بن عمر لابيه عمر بن ذر ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكى احد فاذا تكلمت انت سمعت البكاء من كل جانب فقال يا بنى ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة وحكى أن قوما وقفوا بعابد وهو يبكى فقالوا ما الذى يبكيك يرحمك الله قال قرحة يجدها الخائفون فى قلوبهم قالوا وما هى قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل وكان الخواص يبكى ويقول فى مناجاته قد كبرت وضعف جسمى عن خدمتك فأعتقنى وقال صالح المرى قدم علينا ابن السماك مرة فقال أرنى شيأ من بعض عجائب عبادكم فذهبت به الى رجل فى بعض الاحياء فى خص له فاستأذنا عليه فاذا رجل يعمل خوصا فقرأت عليه اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون

فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر فدخلنا فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخر مغشيا عليه فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا فقرأت ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط في دمه حتى يبس فتركناه على حاله وخرجنا فأدرنا على ستة أنفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشيا عليه ثم أتينا إلى السابع فاستأذنا فإذا امرأة من داخل الخص تقول ادخلوا فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال ألا إن للخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقي مبهوتا فاتحا فاه شاخصا بصره يصيح بصوت ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فإنكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم فإذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا لا يؤدي فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال وكان قد حلف أنه لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل سمينا أبدا فما رؤي ضاحكا ولا مضطجعا ولا آكلا سمينا حتى مات رحمه الله وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغني أنك لم تضحك قط فقال كيف أضحك وجهنم قد سعرت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت وقال رجل للحسن يا أبا سعيد كيف أصبحت قال بخير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالي ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة على أي حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالي أشد من حالهم ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها فرقدت فاستبكت في منامها ثم انتبهت فقالت يا أمير المؤمنين إني والله رأيت عجبا قال وما ذاك قالت رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جيء بالصراط فوضع على متنها فقال هيه قالت فجيء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جيء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جيء بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيه قالت ثم جيء بك والله يا أمير المؤمنين فصاح عمر رحمه الله صيحة خر مغشيا عليه فقامت إليه فجعلت تنادي في أذنه يا أمير المؤمنين إني رأيتك والله قد نجوت إني رأيتك والله قد نجوت قال وهي تنادي وهو يصيح ويفحص برجليه. ويحكى أن أويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون * وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفراش فيضطجع ويتقلى كما تتقلى الحبة في المقلى ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم الخائفين *

وقال

وقال الحسن البصري رحمه الله يخرج من النار رجل بعد ألف عام ياليتني كنت ذلك الرجل وانما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة وروى انه ماضحك أربعين سنه قال وكنت اذا رأيته قاعدا كأنه اسير قد قدم لتضرب عنقه واذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فاذا سكت كان النار تسعر بين عينيه وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال مايؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في على بعض مايكره فمقتني فقال اذهب فلا غفرت لك فانا اعمل في غير معتمل * وعن ابن السماك قال وعظت يوما في مجلس فقام شاب من القوم فقال يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لانسمع غيرها قلت وماهي رحمك الله قال قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين اما في الجنة أو في النار ثم غاب عني ففقدته في المجلس الآخر فلم أره فسألت عنه فأخبرت انه مريض يعاد فأتيته اعوده فقلت يا أخي ماالذي أرى بك فقال يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود اما في الجنة أو في النار قال ثم مات رحمه الله فرأيته في المنام فقلت يا أخي مافعل الله بك قال غفرلي ورحمني وأدخلني الجنة قلت بماذا قال بالكلمة فهذه مخاوف الانبياء والاولياء والعلماء والصالحين ونحن اجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة والا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزعجنا فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحها ان كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا ومن العجائب انا اذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا وان أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا نجتهد في طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم اذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفرلنا وارحمنا والذي اليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا و يقول وأن ليس للانسان الا ماسعى ولا يغرنكم بالله الغرور و يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فما هذه الامحنة هائلة ان لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجبرنا فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بل نسأله أن يشوق الى التوبة سرائر قلوبنا وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل اذا سمعنا الوعظ بكينا واذا جاء وقت العمل بما سمعنا عصينا فلا علامة للخذلان أعظم من هذا فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي والكثير منه وان أفيض على القلب الغافل فلا يغني ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني وكان من خيار العباد أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من

شدة الوله ما يكاد يرقا دمعه من كثرة البكا فقال عيسى لما رأيته هالني منظره فقلت أيها الراهب أوصني بوصية احفظها عنك فقال يا أخي عمادا أوصيك ان استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فتفترسه السباع او يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل فهو في المخافة ليله وان امن المغترون وفي الحزن نهاره وان فرح البطالون ثم ولى وتركني فقلت لو زدتني شيأ عسى ينفعني فقال الظمآن يكفيه من الماء ايسره وقد صدق فان القلب الصافي يحركه ادنى مخافة والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ وما ذكره من تقديره انه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن انه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت نور البصيرة باطنك لرأيته مشحونا بالسباع وانواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك ان غفلت عنها لحظة الا انك محجوب العين عن مشاهدتها فاذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها واشكالها الموافقة لمعانيها فترى بعينك العقارب والحيات وقد احدقت بك في قبرك وانما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشف لك صورها فان أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل والا فوطن نفسك على لدغها ونهشها الصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام

(كتاب الفقر والزهد وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتاب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي يسبح له الرمال * وتسجد له الظلال * وتندكدك من هيبته الجبال * خلق الانسان من الطين اللازب والصلصال * وزين صورته بأحسن تقويم واتم اعتدال * وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال * واذن له في قرع باب الخدمة بالغدو والآصال * ثم كحل بصيرة المخلصين في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بصيانته حضرة الجلال * فلاح له من البهجة والبهاء والكمال * ما استحقر دونه ادنى اشراقه كل حسن وجمال * واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال * وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال * وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء تحنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال * وهي متلفعة بجلبابها الخفي فمائع اسرارها لطائف السحر والاحتيال * وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال * فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال * ثم لا تفتري معهم بالخلف في مواعيد الوصال * بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والاغلال * وتبليهم بأنواع البلايا والانكال * فلما انكشف للعارفين منها قبائح الاسرار والافعال * زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالاموال * واقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال * واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال * ومشاهدة لذته لا يعتريها فناء ولا زوال * والصلاة على سيدنا محمد سيد الانبياء وعلى آله خير آل *

اما

(أما بعد) فان الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل وبمكرها زل من زل * فحبها رأس الخطايا والسيآت وبغضها أم الطاعات ورأس القربات * وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ونحن الآن نذكر فضل المبغض لها والزهد فيها فانه رأس المنجيات فلا مطمع في النجاة الا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها اما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا واما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الاعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما واقسامهما وشروطهما واحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب ونذكر الزهد في شطره الآخر ولنبدأ بذكر الفقر (الشطر الاول من الكتاب في الفقر) وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغني وبيان ادب الفقير في فقره وبيان ادبه في قبول العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال وبيان احوال السائلين والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه

(بيان حقيقة الفقر واختلاف احوال الفقير واساميه)

اعلم ان الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج اليه اما فقد ما لا حاجة اليه فلا يسمى فقرا وان كان المحتاج اليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا واذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لانه محتاج الى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فان كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغني المطلق ولا يتصوّر أن يكون مثل هذا الموجود الا واحدا فليس في الوجود الا غني واحد وكل من عداه فانهم محتاجون اليه ليمدّ وجودهم بالدوام والى هذا الحصر الاشارة بقوله تعالى والله الغني وانتم الفقراء هذا معنى الفقر مطلقا ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص والا ففقر العبد بالاضافة الى اصناف حاجاته لا ينحصر لان حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل اليه بالمال وهو الذي نريد الآن بيانه فقط فنقول كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة الى المال الذي فقده اذا كان ذلك المفقود محتاجا اليه في حقه ثم يتصوّر أن يكون له خمسة احوال عند الفقر ونحن نميزها ونخصص حال كل باسم لنتوصل بالتمييز الى ذكر أحكامها *(الحالة الاولى)* وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من اخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد *(الثانية)* أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا *(الثالثة)* أن يكون وجود المال احب اليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل ان أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به وان افتقر الى تعب في طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه

الحالة تسميه قانعا اذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة
*(الرابعة) أن يكون تركه الطلب لعجزه والا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا الى
طلبه ولو بالتعب لطلبه أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص
*(الخامسة) أن يكون ما فقده من المال مضطرا اليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري
الفاقد للثوب و يسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته في الطلب
اما ضعيفة واما قوية وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة فهذه خمسة احوال اعلاها
الزهد والاضطرار ان انضم اليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتى
بيانه ووراء هذه الاحوال الخمسة حالة هى أعلى من الزهد وهى أن يستوى عنده وجود
المال وفقده فان وجده لم يفرح به ولم يتأذ ان فقده وكذلك مل حاله كما كان حال عائشة
رضى الله تعالى عنها اذ اتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها
فقالت خادمتها ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه
فقالت لو ذكرتينى لفعلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنه لم تضره
اذ هو يرى الاموال فى خزانة الله تعالى لا فى يد نفسه فلا يفرق بين أن تكون فى يده
أو فى يد غيره و ينبغى أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى لانه غنى عن فقد المال
ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى
من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير الى بقاء المال
فى يده وانما هو غنى عن دخول المال فى يده لا عن بقائه فهو اذا فقير من وجه واما هذا
الشخص فهو غنى عن دخول المال فى يده وعن بقائه فى يده وعن خروجه من يده ايضا
فانه ليس يتأذى به ليحتاج الى اخراجه وليس يفرح به ليحتاج الى بقائه وليس فاقدا له
ليحتاج الى الدخول فى يده فغناه الى العموم اميل فهو الى الغنى الذى هو وصف الله تعالى
أقرب وانما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكنا لا نسمى
صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ليبقى الغنى اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شئ
وأما هذا العبد فان استغنى عن المال وجودا أوعدما فلم يستغن عن اشياء أخر سواه
ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذى زين الله به قلبه فان القلب
المقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذى اعتقه من هذا الرق
فهو محتاج الى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرق والحرية فى أوقات متقاربة
لانه بين اصبعين من اصابع الرحمن فلذلك لم نكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا
الكمال الا مجازا واعلم أن الزهد درجة هى كمال الابرار وصاحب هذه الحالة من
المقربين فلا جرم صار الزهد فى حقه نقصانا اذ حسنات الابرار سيئات المقربين وهذا
لان الكاره للدنيا مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل بما
سوى الله تعالى حجاب عن الله اذ لا بعد بينك و بين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا

فانه اقرب اليك من حبل الوريد وليس هو فى مكان حتى تكون السموات والارض حجابا بينك و بينه فلا حجاب بينك و بينه الا شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وأنت لاتزال مشغولا بنفسك و بشهوات نفسك فكذلك لاتزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول ببغض نفسه ايضا مشغول عن الله تعالى بل كل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر فى مجلس يجمع العاشق والمعشوق فان التفت قلب العاشق الى الرقيب والى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو فى حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت اليه فكما ان النظر الى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك فى العشق ونقص فيه فكذا النظر الى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن احدهما أخف من الآخر بل الكمال فى ان لا يلتفت القلب الى غير المحبوب بغضا وحبا فانه كما لا يجتمع فى القلب حبان فى حالة واحدة فلا يجتمع ايضا بغض وحب فى حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها الا ان المشغول بحبها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق البعد والمشغول ببغضها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق القرب اذ يرجى له ان ينتهى حاله الى ان تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود فالكمال له مرتقب لان بغض الدنيا مطية توصل الى الله تعالى فالمحب والمبغض كرجلين فى طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ولكن احدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها فهما سيان بالاضافة الى الحال ان فى كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة الى المستدبر اذ يرجى له الوصول اليها وليس محمودا بالاضافة الى المعتكف فى الكعبة الملازم لها الذى لا يخرج منها حتى يفتقر الى الاشتغال بالدابة فى الوصول اليها فلا ينبغى ان تظن ان بغض الدنيا مقصود فى عينه بل الدنيا عائق عن الله تعالى ولا وصول اليه الا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله من زهد فى الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغى ان يشتغل بالآخرة فبين ان سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج فاذا قد ظهر ان الزهد فى الدنيا ان اريد به عدم الرغبة فى وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وان اريد به الرغبة فى عدمها فهو كمال بالاضافة الى درجة الراضى والقانع والحريص ونقصان بالاضافة الى درجة المستغنى بل الكمال فى حق المال ان يستوى عندك المال والماء وكثرة الماء فى جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك الا فى قدر الضرورة مع أن الماء محتاج اليه كما أن المال محتاج اليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا ببغض الماء الكثير بل تقول أشرب منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد فهكذا ينبغى أن يكون المال لان الخبز والماء واحد فى الحاجة وانما الفرق بينهما فى قلة احدهما وكثرة الآخر واذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذى دبر به

العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء على ماسيأتي بيانه في كتاب التوكل ان شاء الله تعالى قال أحمد بن أبي الحواري قلت لابي سليمان الداراني قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب الى البيت فخذ الركوة التي اهديتها لي فان العدو يوسوس لي أن اللص قد أخذها قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زهد في الدنيا ما عليه من أخذها فهذا من أن كراهة كون الركوة في يده الا فعات اليها سببه الضعف والنقصان فان قلت فما بال الانبياء والاولياء هم نوامس المال وبعروامسه كل السعار فأقول كأهم نوامس الماء على معنى انهم ما سيروا اكبر من حاجتهم فهم واعماوراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يدرونه مع انفسهم بل تركوه في الانهار والآبار والبراري للمحتاجين اليه لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بعضه وقد حملت خزائن الارض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وماهربوا منها اذ كان تستوي عنده م المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فانما نقل عمن خاف أن لو أخذه ان يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه الى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم المعض للمال والهرب منه في حقهم كال وهذا حكم جميع الخلق لان كلهم ضعفاء الا الانبياء والاولياء واما أن ينقل عن قوي بلغ الكمال ولكن اظهر الفرار والنفار نزولا الى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك اذ لو اقتدوا به في الاخذ لهلكوا كما يفر الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن اخذها ولكن لعلمه انه لو أخذها اخذها أولاده اذا رأوها فيهلكون والسير بسير الضعفاء ضرورة الانبياء والاولياء والعلماء فقد عرفت اذا أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص وأما المضطر فيتصوّر في حقه أيضا الزهد والرضى والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الاحوال واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة أما تسمية المستغني فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل ان سمي فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا الى الله تعالى في جميع اموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقربها فانه أحق باسم العبد من الغافلين وان كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر الى الله تعالى فهو احق باسم الفقير فاسم الفقر مشترك بين هذين المعنيين واذا عرفت هذا الاشتراك فهمت ان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم اعوذ بك من الفقر وقوله عليه السلام كاد الفقر أن يكون كفرا لا يناقض قوله احيني مسكينا وامتني مسكينا اذ فقر المضطر هو الذي استعاذ منه والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار الى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من اهل الارض والسماء

«(بيان فضيلة الفقر مطلقا)»

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم

وأموالهم الآية وقال تعالى للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض ساق الكلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر (وأما الاخبار) في مدح الفقر فاكثر من أن تحصى روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه لاصحابه اي الناس خير فقالوا موسر من المال يعطي حق الله في نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يا رسول الله قال فقير يعطي جهده وقال صلى الله عليه وسلم لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال وفي الخبر المشهور يدخل فقراء امتي الجنة قبل اغنيائها بخمسمائة عام وفي حديث آخر بأربعين خريفا اي اربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغني الحريص والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغني الراغب وماذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء في درجاتهم وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد اذ هذه نسبة الاربعين الى خمسمائة ولا تظنن ان تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجري على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم الا بحقيقة الحق فانه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة واربعين جزأ من النبوة فانه تقدير تحقيق لا محالة ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة الا بتخمين فأما بالتحقيق فلا اذ تعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص احدها انه يعرف حقائق الامور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الاخرة لا كما يعلمه غيره بل مخالفا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثاني ان له في نفسه صفة بها تتم له الافعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بارادتنا وباختيارنا وهي القدرة وان كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالى والثالث أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الاعمى حتى يدرك بها المبصرات والرابع أن له صفة بها يدرك ماسيكون في الغيب اما في اليقظة أو في المنام اذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى مافيه من الغيب فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للانبياء ويعلم انقسام كل واحد منها الى اقسام وربما يمكننا أن نقسمها الى اربعين والى خمسين والى ستين ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها الى ستة واربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزأ واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن الا بظن وتخمين فلا يدرى تحقيقا انه الذي اراده رسول الله صلى الله عليه وسلم ام لا وانما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة واصل انقسامها وذلك لا يرشدنا الى معرفة علة التقدير وكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من اربعين سنة الى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس في قوة البشر غير الانبياء الوقوف

على ذلك الاسوع من الحمين ولا وثوق به والعرض النسيه على منهاج التقدير في امثال
هذه الامور فان السعي في الايمان قد نظن أن ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه
وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا منصب النبوة عن ذلك ولنرجع الى نقل الاخبار فقد
قال صلى الله عليه وسلم أيضا خير هذه الامة فقراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها
وقال صلى الله عليه وسلم ان لي حرفتين اثنتين فمن احبهما فقد احبني ومن أبغضهما فقد
أبغضني الفقر والجهاد وروي ان جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال يا محمد ان الله عزوجل يقرأ عليك السلام ويقول اتحب أن أجعل هذه الجبال
ذهبا وتكون معك اينما كنت فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال
ياجبريل ان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له فقال
جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت وروي ان المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته
برجل نائم ملتف في عباءة فأيقظه وقال يا نائم قم فاذكر الله تعالى فقال ما تريد مني اني
قد تركت الدنيا لاهلها فقال له فنم اذا يا حبيبي ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم
على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو مؤتزر بعباءة فقال يارب
عبدك هذا في الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى اليه ياموسى أما علمت اني اذا نظرت الى عبد
بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها وعن أبي رافع انه قال ورد على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فارسلني الى رجل من يهود خيبر وقال قل له
يقول لك محمد أسلفني أو بعني دقيقا الى هلال رجب قال فأتيته فقال لا والله الا برهن
فاخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله اني لامين في أهل السماء
أمين في أهل الارض ولو باعني أو أسلفني لاديت اليه اذهب بدرعي هذا اليه فارهنه
فلما خرجت نزلت هذه الآية ولا تمدّن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة
الدنيا الآية وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله
عليه وسلم الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خدّ الفرس وقال صلى الله عليه
وسلم من أصبح منكم معافى في جسمه آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت
له الدنيا بحذافيرها وقال كعب الاحبار قال الله تعالى لموسى عليه السلام ياموسى اذا
رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وقال عطاء الخراساني مر نبي من الانبياء
بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء
ثم مر بآخر فقال بسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس
من كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم يارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال
الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدي عن منزليهما فلما رأى ما أعدّ الله تعالى لهذا من
من الكرامة ولذاك من الهوان قال رضيت يارب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم اطلعت
في الجنة فرأيت اكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت اكثر اهلها الاغنياء
والنساء وفي لفظ آخر فقلت اين الاغنياء فقيل حبسهم الجدّ وفي حديث آخر فرأيت
اكثر اهل النار النساء فقلت ما شأنهنّ فقيل شغلهنّ الاحمران الذهب والزعفران

وقال صلى الله عليه وسلم تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر وفى الخبر آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر اصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه وفى حديث آخر رأيته دخل الجنة زحفا وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغنى الجنة وفى خبر آخر عن اهل البيت رضى الله عنهم انه صلى الله عليه وسلم قال اذا احب الله عبدا ابتلاه فاذا احبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له اهلا ولا مالا وفى الخبر اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته وقال موسى عليه السلام يارب من احباؤك من خلقك حتى احبهم لاجلك فقال كل فقير وقير فيمكن أن يكون الثانى للتوكيد ويمكن أن يراد به الشديد الضر وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه انى لا أحب المسكنة وأبغض النعماء وكان أحب الاسامى اليه صلوات الله عليه أن يقال له يا مسكين ولما قالت سادات العرب واغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون اليك ولا نجىء ونجىء اليك ولا يجيئون يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبى ذر وخباب بن الارت وعمار بن ياسر وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضى الله عنهم أجمعين اجابهم النبى صلى الله عليه وسلم الى ذلك وذلك لانهم شكوا اليه التأذى رائحتهم وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الاغنياء منهم الاقرع بن حابس التميمى وعيينة بن بدر الفزارى وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم واياهم مجلس واحد فنزل عليه قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم يعنى الفقراء تريد زينة الحياة الدنيا يعنى الاغنياء ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا يعنى الاغنياء وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر الاية واستاذن ابن ام مكتوم على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى عبس وتولى ان جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى يعنى ابن ام مكتوم أما من استغنى فأنت له تصدى يعنى هذا الشريف وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى اليه كما يعتذر الرجل للرجل فى الدنيا فيقول وعزتى وجلالى ما زويت الدنيا عنك لهوانك على ولكن لما اعددت لك من الكرامة والفضيلة اخرج يا عبدى الى هذه الصفوف فمن أطعمك فى أو كساك فى يريد بذلك وجهى فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة وقال عليه السلام أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الايادى فان لهم دولة قالوا يا رسول الله وما دولتهم قال اذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من اطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به الى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فاذا بلال ونظرت

في أعلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم واطلعت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء
قليل فقلت يا رب ما شأنهم قال أما النساء فأضر بهن الأحمران الذهب والحرير وأما
الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني
بعد ذلك وهو يبكي فقلت ما خلفك عني قال يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى
لقيت المشيبات وظننت أني لا أراك فقلت ولم قال كنت أحاسب بمالي فانظر إلى هذا
وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من
العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا
الحد ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئا فقال لو قسم نور
هذا على أهل الأرض لوسعهم وقال صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بملوك أهل الجنة
قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين لا يؤبه له
لو أقسم على الله لأبره وقال عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه
وسلم منزلة وجاه فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقام وقمت معه
حتى وقف بباب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يا رسول
الله قال أنا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذي بعثك
بالحق نبيا ما علي إلا عباءة قال اصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا
جسدي قد واريته فكيف برأسي فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدي بها
على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا ابنتاه كيف أصبحت قالت أصبحت
والله وجعة وزادني وجعا على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بي الجوع
فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعي يا ابنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ
ثلاث وإني لأكرم على الله منك ولو سألت ربي لأطعمني ولكني آثرت الآخرة على
الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة
قالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم
سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها
ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقنعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا
في الآخرة وروي عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا أبغض
الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال
بالقحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولاة الأحكام والشوكة من الأعداء
(وأما الآثار) فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه ذو الدرهمين أشد حبسا أو قال أشد حسابا
من ذي الدرهم وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كئيبا
فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد ثم قال أريني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه
ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل

فقراء امتى الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام حتى ان الرجل من الاغنياء يدخل فى غمارهم فيؤخذ بيده فيخرج وقال ابو هريرة ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشرابه ولا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير الى مجلس الثورى رحمه الله فقال له تخط لو كنت غنيا ما قربتك وكان الاغنياء من اصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء واعراضه عن الاغنياء وقال المؤمل ما رأيت الغنى اذل منه فى مجلس الثورى ولا رأيت الفقير اعز منه فى مجلس الثورى رحمه الله وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعا وقال ابن عباس ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر وقال لقمان عليه السلام لابنه لا تحقرن احدا لخلقان ثيابه فان ربك وربه واحد وقال يحيى بن معاذ حبك للفقراء من أخلاق المرسلين وايثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين وفى الاخبار عن الكتب السالفة ان الله تعالى اوحى الى بعض انبيائه عليهم السلام احذر أن أمقتك فتسقط من عينى فاصب عليك الدنيا صبا ولقد كانت عائشة رضى الله تعالى عنها تفرق مائة الف درهم فى يوم واحد يوجهها اليها معاوية وابن عامر وغيرهما وان درعها المرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه وكانت صائمة فقالت لو ذكرتينى لفعلت وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء واياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقعيه وجاء رجل الى ابراهيم بن ادهم بعشرة آلاف درهم فابى عليه أن يقبلها فألح عليه الرجل فقال له ابراهيم أتريد ان امحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم لا افعل ذلك ابدا رضى الله عنه

(بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدى الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقال صلى الله عليه وسلم يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضى من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا فالاول القانع وهذا الراضى ويكاد يشعر هذا بمفهومه أن الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة فى فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه فلعل المراد بعدم الرضى هو الكراهة لفعل الله فى حبس الدنيا عنه ورب راغب فى المال لا يخطر بقلبه انكار على الله تعالى ولا كراهة فى فعله فتلك الكراهة هى التى تحبط ثواب الفقر وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم هم جلساء الله تعالى يوم القيامة وروى عن على كرم الله وجهه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال احب العباد الى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال ما من احد غنى ولا فقير الا ود يوم القيامة انه كان

أوتي قوتاً من الدنيا وأوحى الله تعالى الى اسماعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال صلى الله عليه وسلم لا أحد أفضل من الفقير اذا كان راضيا وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يوم القيامة أين صفوتي من خلقي فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدري أدخلوهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون فهذا في القانع والراضي وأما الزاهد فسنذكره في الشطر الثاني من الكتاب ان شاء الله تعالى وأما الآثار في الرضى والقناعة فكثيرة ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه ان الطمع فقر واليأس غنى وانه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنهما ما من يوم الا وملك ينادي من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه ما من أحد الا وفي عقله نقص وذلك انه اذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وقيل كان ابراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم اذ نظر الى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله فلما أكل نام فقال لبعض غلمانه اذا قام فجئني به فلما قام جاء به اليه فقال ابراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع قال نعم قال فشبعت قال نعم قال ثم نمت طيبا قال نعم فقال ابراهيم في نفسه فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ومرّ رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا فقال له يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا فقال ألا أدلك على من رضي بشرّ من هذا قال بلى قال من رضي بالدنيا عوضا عن الآخرة وكان محمد بن واسع رحمه الله عليه يخرج خبزا يابسا فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج الى أحد وقال الحسن رحمه الله لعن الله أقواما أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدّقوه ثم قرأ وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض انه لحق الآية وكان أبو ذر رضي الله عنه يوما جالسا في الناس فأتته امرأته فقالت له أتجلس بين هؤلاء والله ما في البيت هفة ولا سفة فقال يا هذه ان بين أيدينا عقبة كؤودا لا يجوزها الا كل مخف فرجعت وهي راضية وقال ذو النون رحمه الله أقرب الناس الى الكفر ذو فاقة لا صبر له وقيل لبعض الحكماء ما مالك فقال التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في أيدي الناس ويروى ان الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا القوت فاذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن اليك وقيل في القناعة

اضرع الى الله لا تضرع الى الناس * واقنع بيأس فان العز في الياس

واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم * ان الغني من استغنى عن الناس

وقد قيل في هذا المعنى أيضا

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه * مقدّر أى باب منه يغلقه
مفكرا كيف تأتيه منيته * أغاديا أم بها يسرى فتطرقه
جمعت مالا فقل لى هل جمعت له * يا جامع المال أياما تفرقه
المال عندك مخزون لوراثه * ما المال مالك الا يوم تنفقه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة * أن الذى قسم الارزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنسه * والوجه منه جديد ليس يخلقه
انّ القناعة من يحلل بساحتها * لم يلق فى ظلها هما يؤرقه

(بيان فضيلة الفقر على الغنى)

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى هذا فذهب الجنيد والخوّاص والأكثرون الى تفضيل الفقر وقال ابن عطاء الغنى الشاكر القائم بحقه افضل من الفقير الصابر ويقال ان الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته اياه فى هذا فأصابته محنة وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الصبر ووجه التفاوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة فى الاعمال والاحوال وان ذلك لا يمكن الا بتفصيل فأما الفقر والغنى اذا اخذ مطلقا لم يسترب من قرا الاخبار والآثار فى تفضيل الفقر ولا بدّ فيه من تفصيل فنقول انما يتصوّر الشك فى مقامين احدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع اوراض بالاضافة الى غنى منفق ماله فى الخيرات ليس حريصا على امساك المال والثانى فقير حريص مع غنى حريص اذ لا يخفى ان الفقير القانع افضل من الغنى الحريص الممسك وأن الغنى المنفق ماله فى الخيرات أفضل من الفقير الحريص أما الاول فربما يظن أن الغنى أفضل من الفقير لانهما تساويا فى ضعف الحرص على المال والغنى متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه وأما الغنى المتمتع بالمال وان كان فى مباح فلا يتصوّر أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ما روى فى الخبر أن الفقراء شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الاغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد فعلمهم كلمات فى التسبيح وذكر لهم انهم ينالون بها فوق ما ناله الاغنياء فتعلم الاغنياء ذلك فكانوا يقولونه فعاد الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وقد استشهد ابن عطاء ايضا لما سئل عن ذلك فقال الغنى افضل لانه وصف الحق اما دليله الاول ففيه نظر لان الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو ان ثواب الفقير فى التسبيح يزيد على ثواب الغنى وان فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن اسلم عن انس بن مالك رضى الله عنه قال بعث الفقراء رسولا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى رسول الفقراء اليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم احبهم قال قالوا يا رسول الله ان الاغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه ويعتمرون ولا نقدر عليه واذا مرضوا بعثوا بفضل اموالهم ذخيرة لهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم بلغ عنى الفقراء ان لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للاغنياء اما خصلة واحدة فان فى الجنة غرفا ينظر

الهاهل الجنة كان فقراء اهل الارض الى نجوم السماء لا يدخلها الا نبي فقير او شهيد فقير او مؤمن فقير والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام وهو خمسمائة عام والثالثة اذا قال الغني سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني بالفقير ولو انفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع اليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا رضينا رضينا فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء اي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله ان الغنى وصف الحق فقد اجابه بعض الشيوخ فقال ارى ان الله تعالى غنى بالاسباب والاعراض فانقطع ولم ينطق واجاب آخرون فقالوا ان التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على ان الفقر أفضل لان صفات العبودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحدا منهما قصمته وقال سهل حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لانهما من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها اذ كما ناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر وكذلك يناقض قول من ذم الغنى لانه وصف العبد بالعلم والمعرفة فانه وصف الرب تعالى والجهل والغفلة وصف العبد وليس لاحد أن يفضل الغفلة على العلم فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو ان مالا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي ان يضاف الى مقصوده اذ به يظهر فضله والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول الى الله تعالى ولا الفقر مطلوب لعينه لكن لان فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والانس به ولا يكون ذلك الا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما ان الغنى قد يكون من الشواغل وانما الشاغل على التحقيق حب الدنيا اذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه او في وصاله وربما يكون شغله في الفراق اكثر وربما يكون شغله في الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذا ان فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد اذ كل واحد غير متمتع الا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده اذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة وان اخذت الامر باعتبار الاكثر فالفقير على الخطر ابعد اذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ومن العصمة ان لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقة الآدميين كلهم الا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في

الاعصار الكثيرة الا نادراولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر والفقراء اصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال المسيح عليه السلام لا تنظروا الى اموال أهل الدنيا فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم وقال بعض العلماء تقليب الاموال يمص حلاوة الايمان وفي الخبر ان لكل امة عجلا وعجل هذه الامة الدينار والدرهم وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا واستواء المال والماء والذهب والحجر انما يتصور للانبياء عليهم السلام والاولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة اذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا اليك عني اذ كانت تتمثل له بزينتها وكان علي كرم الله وجهه يقول يا صفراء غري غيري و يا بيضاء غري غيري وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادي الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق اذ قال عليه الصلاة والسلام ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس واذا كان ذلك بعيدا فاذا الاصلح لكافة الخلق فقد المال وان تصدقوا به وصرفوه الى الخيرات لانهم لا ينفكون عن القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها وكل ذلك يورث الانس بهذا العالم وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ومهما انقطعت اسباب الانس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب اذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لا محالة الى الله اذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود الا الله تعالى وغيره فمن اقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن اقبل عليه تجافى عن غيره ويكون اقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل المشرق والمغرب فانهما جهتان فالمتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وانسه بها فاذا فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهما الا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور فان الغني ربما يظن انه منقطع القلب عن المال ويكون حبه دفينا في باطنه وهو لا يشعر به وانما يشعر به اذا فقده فليجرب نفسه بتفريقه أو اذا سرق منه فان وجد لقلبه اليه التفاتا فليعلم انه كان مغرورا فكم من رجل باع سرية له لظنه انه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه فتحقق اذا انه كان مغرورا وأن العشق كان مستكنا في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد وهذا حال كل الاغنياء الا الانبياء والاولياء واذ كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بأن الفقراء اصلح لكافة الخلق وأفضل لان علاقة الفقير وانسه بالدنيا اضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته فان حركات اللسان ليست مرادة لاعيانها بل ليتأكد بها الانس بالمذكور ولا يكون تأثيرها في اثارة الانس في قلب فارغ من غير

المذكور كتاب برهانى قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو فى طلب الدنيا مثل من يطفئ النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيه فصبر واحتسب كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها فى سبيل الله تعالى وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله ادع الله لى فقد أضر بى العيال فقال إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لى فى ذلك الوقت فإن دعاءك أفضل من دعائى وكان يقول مثل الغنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر فى جيد الحسناء وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه اللهم إنى أسألك الذل عند النصف من نفسى والزهد فيما جاوز الكفاف وإذا كان مثل الصديق رضى الله عنه فى كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك فى أن فقد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه فى عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب فقد عذب ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضى الله عنه ما أحب أن لى حانوتا على باب المسجد ولا تخطئنى فيه صلاة وذكر وأربح كل يوم خمسين دينارا وأتصدق بها فى سبيل الله تعالى قيل وما تكره قال سوء الحساب ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الأغنياء ثلاثة أشياء اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بأن يستوى عنده كلاهما فأما إذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا إلى بقائه فلا يضاهى غناه غنى الله تعالى لأن الله تعالى غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح فى ذم غنى يريد بقاء المال وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شئ للعبد بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له أى يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصى فيليق به نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شئ وأنه يعلم أنه كذلك والعبد مأمور بأن يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر

والمطيع

والمطيع أكبر من العاصي والعالم أكبر من الجاهل والانسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات وأقرب الى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لا شك فيها لكانت صفة التكبر خالصة له ولائقة به وفضيلة في حقه الا انه لا سبيل له الى معرفته فان ذلك موقوف على الخاتمة وليس يدري الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر اذ ربما يختم للكافر بالايمان وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لائقا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشئ على ما هو به كان العلم كمالا في حقه لانه من صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الاشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا في حقه اذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره فمعرفة الامور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في العبد من صفات الله فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الانبياء والاولياء والعلماء فاذا لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه فهو فضيلة أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع الى حال الغني الشاكر *(المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص الى حال الغني الحريص)* ولنفرض هذا في شخص واحد وطالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فاي حالتيه أفضل فنقول ينظر فان كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده ان يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل لان الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر الا قدرة مدخولة بشغل والمكفي هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال كاد الفقر أن يكون كفرا أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وان كان المطلوب فوق الحاجة او كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح لانهما استويا في الحرص وحب المال واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ولكن افترقا في أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن الى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يبغي الخلاص منه ومهما استوت الامور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشد ركونا الى الدنيا فحاله أشد لا محالة اذ يلتفت قلبه الى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد انسه بالدنيا وقد قال صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث في روعي احبب من احببت فانك مفارقه وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا فانك اذا احببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل من فارق محبوبا فيكون اذاه في فراقه بقدر حبه وانس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من انس الفاقد لها وان كان حريصا عليها فاذا قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الاشرف والافضل والاصلح

لكن الخلق الآن موضعين أحدهما غني مثل غني عائشة رضي الله عنها إذ يستوي عنده الوجود والعدم فيكون الوجود مزيداً له إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفراً ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقي حياته ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصي ولو مات جوعاً لكانت معاصيه أقل فالأصلح له أن يموت جوعاً ولا يجد ما يضطر إليه أيضاً فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر وبقي النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه وفي غني دونه في الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره فهذا في محل النظر والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده والعلم عند الله تعالى فيه

(بيان آداب الفقير في فقره)

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها فأما أدبه باطنه فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعني أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله وإن كان كارهاً للفقر كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهاً فعل الحجام ولا كارهاً للحجام بل ربما يتقلد منه منة فهذا أقل درجاته وهو واجب ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو معنى قوله عليه السلام يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضى من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر بل يكون راضياً به وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى واثقاً به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف وقد قال علي كرم الله وجهه إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويعصي ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بثمرته إذ قيل ما أعطي عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له خذه على ثلاثة أثلاث شغل وهم وطول حساب وأما أدب ظاهره فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففي الحديث إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال وقال تعالى يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وقال سفيان أفضل الأعمال التجمل عند المحنة وقال بعضهم ستر الفقر من كنوز البر وأما في أعماله فأدبه أن لا يتواضع لغني لأجل غناه بل يتكبر عليه قال علي كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادي الطمع قال الثوري رحمه الله إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص وقال بعض العارفين

اذا خالط الفقير الاغنياء انحلت عروته فاذا طمع فيهم انقطعت عصمته فاذا سكن اليهم ضل وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للاغنياء وطمعا في العطاء وأما ادبه في افعاله فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فان ذلك جهد المقل وفضله اكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى روى زيد بن اسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم قيل وكيف ذلك يارسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها واخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم افضل من صاحب المائة الف وينبغي أن لا يدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات احداها أن لا يدخر الا ليومه وليلته وهي درجة الصديقين والثانية ان يدخر لاربعين يوما فان ما زاد عليه داخل في طول الامل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة في امل الحياة اربعين يوما وهذه درجة المتقين والثالثة أن يدخر لسنته وهي اقصى المراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في اربعين يوما وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الاقسام فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل وبعضهن قوت اربعين يوما وبعضهن يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة

(بيان آداب الفقير في قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال)

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة امور نفس المال وغرض المعطى وغرضه في الاخذ أما نفس المال فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فان كان فيه شبهة فليحترز من اخذه وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب وأما غرض المعطى فلا يخلو اما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية او الثواب وهو الصدقة والزكاة او الذكر والرياء والسمعة اما على التجرد واما ممزوجا ببقية الاغراض أما الاول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فان كان فيها منة فالاولى تركها فان علم ان بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض فقد اهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن واقط وكبش فقبل السمن والاقط ورد الكبش وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض وقال لقد هممت ان لا اتهب الا من قرشي أو ثقفي او انصاري او دوسي وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت الى فتح الموصلي صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اتاه رزق من غير مسألة فرده فانما يرده على الله ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرها وكان الحسن يروى هذا الحديث ايضا ولكن حمل اليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي

هذا وقل من الناس من هذا الى الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن امر العالم والواعظ اشد فى قبول العطاء وقد كان الحسن ينقل من اصحابه وكان ابراهيم التيمى يسأل من اصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها وكان بعضهم اذا اعطاه صديقه شيئا يقول اتركه عندك وانظر ان كنت بعد قبوله فى قلبك افضل منى قبل القبول فأخبرنى حتى آخذه والا فلا وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لورده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه فى قبول صديقه هديته فان علم انه يمازجه منة فاخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين وقال بشر ماسألت احدا قط شيئا الا سريا السقطى لانه قد صح عندى زهده فى الدنيا فهو يفرح بخروج الشئ من يده ويتبرم ببقائه عنده فاكون عونا له على مايحب وجاء خراسانى الى الجنيد رحمه الله تعالى وسأله أن يأكله فقال افرقه على الفقراء فقال ما اريد هذا قال ومتى اعيش حتى آكل هذا قال ما اريد ان تنفقه فى الخل والبقل بل فى الحلاوات والطيبات فقبل ذلك منه فقال الخراسانى ما اجد فى بغداد امن على منك فقال الجنيد ولا ينبغى أن يقبل الامن مثلك ٭ الثانى أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة او زكاة فعليه أن ينظر فى صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فان اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى كتاب أسرار الزكاة وان كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنه فان كان مقارفا للمعصية فى السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب الى الله بالتصدق عليه فهذا حرام اخذه كما لو أعطاه لظنه انه عالم او علوى ولم يكن فان اخذه حرام محض لا شبهة فيه ٭ الثالث أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبل اذ يكون معينا له على غرضه الفاسد وكان سفيان الثورى يرد ما يعطى ويقول لو علمت انهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لاخذت وعوتب بعضهم فى رد ما كان يأتيه من صلة فقال انما ارد صلتهم اشفاقا عليهم ونصحا لهم لانهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب اموالهم وتحبط اجورهم ٭ وأما غرضه فى الاخذ فينبغى أن ينظر أهو محتاج اليه فيما لابد له منه أو هو مستغن عنه فان كان محتاجا اليه وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها فى المعطى فالافضل له الاخذ قال النبى صلى الله عليه وسلم ما المعطى من سعة باعظم اجرا من الآخذ اذا كان محتاجا وقال صلى الله عليه وسلم من اتاه شئ من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله اليه وفى لفظ آخر فلا يرده وقال بعض العلماء من اعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط وقد كان سرى السقطى يوصل الى احمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئا فرده مرة فقال له السرى يا احمد احذر آفة الرد فانها اشد من آفة الاخذ فقال له احمد أعد على ما قلت فاعاده فقال احمد ما رددت عليك الا لان عندى قوت شهر فاحبسه لى عندك فاذا كان بعد شهر فانفذه الى وقد قال بعض العلماء يخاف فى الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول فى شبهة او غيره فأما اذا كان ما اتاه زائدا على حاجته فلا يخلو اما أن يكون حاله الاستغال بنفسه او التكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لما فى طبعه من الرفق

والسخاء فان كان مشغولا بنفسه فلا وجه لاخذه وامساكه ان كان طالبا طريق الآخرة فان ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان او داع اليه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ثم له مقامان احدهما أن يأخذ في العلانية ويرد في السر أو يأخذ في العلانية ويفرق في السر وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه الا من اطمأنت نفسه بالرياضة والثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه الى من هو أحوج منه أو يأخذ ويوصل الى من هو أحوج منه فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية وقد ذكرنا أهل الافضل اظهار الاخذ أو اخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه وأما امتناع احمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمهما الله فانما كان لاستغنائه عنه اذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل باخذه وصرفه الى غيره فان في ذلك آفات وأخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات اذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندي دراهم أعددتها للانفاق في سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي انا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى فنظرت فاذا عليه خلقان لا تكاد تواريه فقلت في نفسي لا اجد لدراهمي موضعا احسن من هذا فحملتها اليه فنظر اليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال اربعة ثمن مئزرين ودرهم انفقه ثلاثا فلا حاجة بي الى الباقي فرده قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت الى فأخذ بيدي فأطافني معه اسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الارض يتخشخش تحت اقدامنا الى الكعبين منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس فقال هذا كله قد اعطانيه فزهدت فيه وآخذ من ايدي الخلق لان هذه أثقال وفتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة والمقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة انما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم احسن عملا وقد قال صلى الله عليه وسلم لا حق لابن آدم الا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يواري عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب فاذا انت في اخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه ان لم تعص الله متعرض للحساب وان عصيت الله فانت متعرض للعقاب ومن الاختيار أيضا أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا الى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتمتحن بها قوة عقلك فالاولى الامتناع عنها فان النفس اذا رخص لها في نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد فان اخذته وصرفته الى محتاج فهو غاية الزهد ولا يقدر عليه الا الصديقون وأما اذا كان حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فانه غير زائد على حاجة الفقراء وبادر به الى الصرف اليهم ولا تدخره فان امساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختيار

فربما علق في قلبك فيمسكه فيكون فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة الى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة فان رزقه الله من حلال قضاه وان مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه وذلك بشرط أن تكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على اقراضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله قيل معناه ليبع احد ثوبيه وقيل معناه فليستقرض بجاهه فذلك مما آتاه الله وقال بعضهم ان لله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضائعهم ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الاقوياء والاسخياء والاغنياء فقيل من هؤلاء فقال أما الاقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الاسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الاغنياء فهم أهل الانقطاع الى الله تعالى فاذا مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطي فلياخذه وينبغي أن يرى ما ياخذه من الله لا من المعطي لان المعطي واسطة قد سخر للعطاء وهو مضطر اليه بما سلط عليه من الدواعي والارادات والاعتقادات . وقد حكي أن بعض الناس دعا شقيقا في خمسين من أصحابه فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قعد قال لاصحابه ان هذا الرجل يقول من لم ير اني صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامي عليه حرام فقاموا كلهم وخرجوا الا شابا منهم كان دونهم في الدرجة فقال صاحب المنزل لشقيق ما قصدت بهذا قال اردت أن اختبر توحيد أصحابي كلهم وقال موسى عليه السلام يارب جعلت رزقي هكذا على ايدي بني اسرائيل يغديني هذا يوما ويعشيني هذا ليلة فاوحى الله تعالى اليه هكذا اصنع باوليائي اجري أرزاقهم على ايدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم فلا ينبغي أن يرى المعطي الا من حيث انه مسخر ماجور من الله تعالى نسال الله حسن التوفيق لما يرضاه

(بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه)

اعلم انه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة اذ قال صلى الله عليه وسلم للسائل حق ولو جاء على فرس وفي الحديث ردوا السائل ولو بظلف محرق ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز اعانة المعتدي على عدوانه والاعطاء اعانة فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام في الاصل وانما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فان كان عنها بد فهو حرام وانما قلنا ان الاصل فيه التحريم لانه لا ينفك عن ثلاثة امور محرمة . الاول اظهار الشكوى من الله تعالى اذ السؤال اظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعا على سيده فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى وهذا

ينبغي أن يحرم ولا يحل الا لضرورة كما تحل الميتة * الثاني أن فيه اذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فان فيه عزه فاما سائر الخلق فانهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم الا لضرورة وفي السؤال ذل السائل بالاضافة الى المسئول * الثالث انه لا ينفك عن ايذاء المسئول غالبا الا انه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه فان بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ وان منع ربما استحيى وتأذى في نفسه بالمنع اذ يرى نفسه في صورة البخلاء ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب في الايذاء والايذاء حرام الا بضرورة ومهما فهمت هذه المحظورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى أن الفاحشة انما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم من سأل عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم وفي لفظ آخر كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيأ وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله وقال من لم يسألنا فهو أحب الينا وقال صلى الله عليه وسلم استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله قال ومني وسمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قد عشيته فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي ابل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد ولولا أن سؤاله كان حراما لما ضربه ولا أخذ مخلاته ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضربه فهو تاديب وقد ورد الشرع بالتعزير وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه فاين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واطلاعه على اسرار دين الله ومصالح عباده افترى انه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة او علم ذلك ولكن اقدم عليه غضبا في معصية الله وحاشاه او اراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله وهيهات فان ذلك ايضا معصية بل الفقه الذي لاح له فيه انه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم ان من اعطاه شيأ فانما اعطاه على اعتقاد انه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه باخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده الى اصحابه اذ لا يعرف اصحابه باعيانهم فبقي مالا لا مالك له فوجب صرفه الى المصالح وابل الصدقة وعلفها من المصالح ويتنزل اخذ السائل مع اظهار الحاجة كاذبا كأخذ العلوي

قوله أي علوي وهو كاذب فانه لا يملك ما يأخذه وكأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى
لصلاحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطي لما أعطاه وقد ذكرنا في مواضع
أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد الى مالكه
فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء
وقد قررناه في مواضع ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا
عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم ان الشيء اما ان يكون مضطرا اليه أو محتاجا اليه
حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه فهذه أربعة أحوال اما المضطر اليه فهو
سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا او مرضا وسؤال العاري وبدنه مكشوف
ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحا
والمسؤول منه بكونه راضيا في الباطن وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فان
القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلب العلم أوقاته
وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة واما المستغني فهو الذي يطلب شيئا
وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا وهذان طرفان واضحان وأما المحتاج حاجة
مهمة فكالمريض الذي يحتاج الى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن
خوف وكمن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي الى حد
الضرورة وكذلك من يسأل على الكراء وهو قادر على المشي بمشقة فهذا أيضا ينبغي
أن يسترسل عليه الاباحة لانها أيضا حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال
تارك للاولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جبتي
قميص والبرد يؤذيني أذى أطيقه ولكن يشق علي فاذا صدق فصدقه يكون كفارة
لسؤاله ان شاء الله تعالى وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه
عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس وكمن يسأل لاجل الادم
وهو واجد للخبز وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار أو يسأل
كراء المحمل وهو قادر على الراحلة فهذا ونحوه ان كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة
غير هذه فهو حرام وان لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى
والذل وايذاء المسؤول فهو حرام لان مثل هذه الحاجة لا يصلح لان تباح بها هذه
المحذورات وان لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة فان قلت فكيف يمكن
اخلاء السؤال عن هذه المحذورات فاعلم أن الشكوى تندفع بان يظهر الشكر لله
والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول انا مستغن بما املكه
ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من
النفس فيخرج به عن حد الشكوى وأما الذل فبأن يسأل اباه أو قريبه أو صديقه
الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرجل السخي الذي
قد أعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط
عنه الذل بذلك فان الذل لازم للمنة لا محالة وأما الايذاء فسبيل الخلاص عنه

ابها

ان لا يعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل الا متبرع بصدق الرغبة وان كان فى القوم شخص مرموق لولم يبذل لكان يلام فهذا ايذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ويكون الاحب اليه فى الباطن الخلاص لوقدر عليه من غير الملامة وأما اذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى أن لا يصرح بل يعرض تعريضا يبقى له سبيلا الى التغافل ان اراد فاذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وانه غير متأذ به وينبغى أن يسال من لا يستحيى منه لورده أو تغافل عنه فان الحياء من السائل يؤذى كما أن الرياء مع غير السائل يؤذى فان قلت فاذا اخذ مع العلم بان باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأ به فهل هو حلال اوشبهة فاقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الامة وحكمه حكم اخذ مال الغير بالضرب والمصادرة اذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام وضرب الباطن اشد نكاية فى قلوب العقلاء ولا يجوز أن يقال هو فى الظاهر قد رضى به وقد قال صلى الله عليه وسلم انما احكم بالظاهر والله يتولى السرائر فان هذه ضرورة القضاة فى فصل الخصومات اذ لا يمكن ردهم الى البواطن وقرائن الاحوال فاضطروا الى الحكم بظاهر القول باللسان مع انه ترجمان كثير الكذب ولكن الضرورة دعت اليه وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى والحاكم فيه احكم الحاكمين والقلوب عنده كالالسنة عند سائر الحكام فلا تنظر فى مثل هذا الا الى قلبك وان افتوك وأفتوك فان المفتى معلم للقاضى والسلطان ليحكموا فى عالم الشهادة ومفتى القلوب هم علماء الآخرة وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا فاذا ما اخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده الى صاحبه فان كان يستحيى من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوى قيمته فى معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته فان لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك الى ورثته فان تلف فى يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذى حصل به الاذى فان قلت فهذا امر باطن يعسر الاطلاع عليه فكيف السبيل الى الخلاص منه فربما يظن السائل انه راض ولا يكون هو فى الباطن راضيا فاقول لهذا ترك المتقون السؤال رأسا فما كانوا يأخذون من احد شيئا اصلا فكان بشر لا يأخذ من احد الا من السرى رحمة الله عليهما وقال لانى علمت انه يفرح بخروج المال من يده فأنا اعينه على ما يحب وانما عظم النكير فى السؤال وتأكد الامر بالتعفف لهذا لان الاذى انما يحل بضرورة وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل الى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة واذى فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة فكان الامتناع طريق الورعين ومن أرباب القلوب من كان واثقا ببصيرته فى الاطلاع على قرائن الاحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا يأخذ الا من اصدقائه ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضا ويرد بعضا كما فعل رسول الله

صلى الله عليه وسلم في الكنس والسمن والاقط وكان هذا فيما بينهم من غير سؤال فان ذلك لا يكون الا عن رغبة ولكن قد يكون رغبته طمعا في جاه أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك واما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا الا في موضعين أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الانبياء في موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك في أنهم ما سألوا الا من علموا أنه يرغب في أعطائهم والثاني السؤال من الاصدقاء والاخوان فقد كانوا ياخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان لان ارباب القلوب علموا أن المطلوب رضى القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا باخوانهم انهم كانوا يفرحون بمباسطتهم فاذا كانوا يسألون الاخوان عند شكهم في اقتدار اخوانهم على ما يريدونه والا فكانوا يستغنون عن السؤال وحد اباحة السؤال أن تعلم أن المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير الا في تعريف حاجتك فاما في تحريكه بالحياء واثارة داعيته بالحيل فلا ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضى بالباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الاحوال فالاخذ في الحالة الاولى حلال طلق وفي الثانية حرام سحت ويتردد بين الحالتين احوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فانه الاثم وليدع ما يريبه الى ما لا يريبه وادراك ذلك بقرائن الاحوال سهل على من قوي فطنته وضعف حرصه وشهوته فان قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم ان اطيب ما اكل الرجل من كسبه وقد اوتي جوامع الكلم لان من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه او احد قرابته فيأكل من أيدي الناس وان اعطي بغير سؤال فانما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما وان اعطي بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء اذا سئل وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة فاذا فتشت احوال من يأكل من ايدي الناس علمت أن جميع ما يأكله او اكثره سحت وان الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلال أو ميراث فاذا بعيد أن يجتمع الورع مع الاكل من أيدي الناس فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يغنينا بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده فانه على ما يشاء قدير

(بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال)

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم من سأل عن ظهر غنى فانما يسأل جمرا فليستقل منه او ليستكثر صريح في التحريم ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسير وليس الينا وضع المقادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف وقد ورد في الحديث استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة وفي حديث آخر من سأل وله خمسون درهما او عدلها من الذهب فقد سأل الحافا وورد في لفظ آخر اربعون درهما ومهما اختلفت التقديرات وصحت الاخبار فينبغي أن يقطع بورودها على احوال مختلفة فان

الحق

الحق فى نفسه لا يكون الا واحدا والتقدير ممتنع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك الا بتقسيم محيط باحوال المحتاجين فنقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حق لابن آدم الا فى ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى به عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب فلنجعل هذه الثلاث اصلا فى الحاجات لبيان اجناسها والنظر فى الاجناس والمقادير والاوقات فاما الاجناس فهى هذه الثلاث ويلحق بها ما فى معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر اذا كان لا يقدر على المشى وكذلك ما يجرى مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة ايضا وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثانى من كل جنس فهو مستغنى عنه وليقس على هذا اثاث البيت جميعه ولا ينبغى أن يطلب رقة الثياب وكون الاوانى من النحاس والصفر فيما يكفى فيه الخزف فان ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على اخس اجناسه ما لم يكن فى غاية البعد عن العادة واما الطعام فقدره فى اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير والادم على الدوام فضلة وقطعه بالكلية اضرار فى طلبه فى بعض الاحوال رخصة وأما المسكن فأقل ما يجزى من حيث المقدار وذلك من غير زينة فاما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالاضافة الى الاوقات فما يحتاج اليه فى الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنه فلا شك فيه فاما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات احداها ما يحتاج اليه فى غد والثانية ما يحتاج اليه فى اربعين يوما او خمسين يوما والثالثة ما يحتاج اليه فى السنة ولنقطع بان من معه ما يكفيه له ولعياله ان كان له عيال سنة فسؤاله حرام فان ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما فى الحديث فان خمسة دنانير تكفى المنفرد فى السنة اذا اقتصد أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وان كان يحتاج اليه قبل السنة فان كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لانه مستغن فى الحال وربما لا يعيش الى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج اليه فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر الذى ورد فى التقدير بهذا القدر وان كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال لان امل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يعينه فان كان خوف العجز عن السؤال فى المستقبل ضعيفا وكان ما لاجله السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخى المدة التى فيها يحتاج الى السؤال وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفتى فيه قلبه ويعمل به ان كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجىء الرزق فى المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى اعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك الا من ضعف اليقين والاصغاء الى تخويف الشيطان وقد قال تعالى فلا تخافوهم وخافون ان

كنتم مؤمنين وقال عز وجل الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والسؤال من الفحشاء التى ابيحت بالضرورة وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وان كان مما يحتاج اليه فى السنة اشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة وكلاهما مباحان فى الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الامل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الخصلة من امهات المهلكات نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

•(بيان احوال السائلين)•

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة فقير لا يسأل وان اعطى لا يأخذ فهذا مع الروحانيين فى عليين وفقير لا يسأل وان اعطى اخذ فهذا مع المقربين فى جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة فهذا مع الصادقين من اصحاب اليمين فاذا اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى انه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة قال شقيق البلخى لابراهيم بن ادهم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من اصحابك قال تركتهم ان اعطوا شكروا وان منعوا صبروا وظن انه لما وصفهم بترك السؤال قد اثنى عليهم غاية الثناء فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له ابراهيم فكيف الفقراء عندك يا ابا اسحاق فقال الفقراء عندنا ان منعوا شكروا وان اعطوا آثروا فقبل رأسه وقال صدقت يا استاذ فاذا درجات ارباب الاحوال فى الرضى والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها فانه اذا لم يعلم لم يقدر على الرقى من حضيضها الى يفاعها ومن اسفل سافلين الى اعلى عليين وقد خلق الانسان فى احسن تقويم ثم رد الى اسفل سافلين ثم امر ان يترقى الى اعلى عليين ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقى قطعا وانما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما لا يقدر عليه وارباب الاحوال قد تغلبهم حالة تقتضى أن يكون السؤال مزيدا لهم فى درجاتهم ولكن بالاضافة الى حالهم فان مثل هذه الاعمال بالنيات وذلك كما روى أن بعضهم رأى ابا اسحاق النورى رحمه الله يمد يده ويسأل الناس فى بعض المواضع قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له فاتيت الجنيد رحمه الله فاخبرته بذلك فقال لا يعظم هذا عليك فان النورى لم يسأل الناس الا ليعطيهم وانما سألهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه اشار به الى قوله صلى الله عليه وسلم يد المعطى هى العليا فقال بعضهم يد المعطى هى يد الآخذ للمال لانه يعطى الثواب والقدر له لا لما يأخذه ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فالقاها على المائة ثم قال احملها اليه فقلت فى نفسى انما يوزن الشئ ليعرف مقداره فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم واستحييت ان اسأله فذهبت بالصرة الى النورى فقال هات الميزان فوزن مائة درهم وقال ردها عليه وقل له انا لا اقبل منك انت شيئا وأخذ ما زاد على المائة قال فزاد تعجبى فسألته فقال الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله

عز وجل فأخذت ماكان لله تبارك وتعالى ورددت ماجعله لنفسه قال فرددتها الى الجنيد فبكى وقال اخذ ماله ورد مالنا الله المستعان فانظر الآن كيف صفت قلوبهم واحوالهم وكيف خلصت لله اعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الاسرار وذلك نتيجة اكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله تعالى بكنه الهمة فمن انكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه ومن انكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فانكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعلة في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا وهذا وان كان في الجهل دون الاول ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين اما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل الى عين اليقين واما رجل لم يسلك الطريق او سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدّق به فهو صاحب علم اليقين وان لم يكن واصلا الى عين اليقين ولعلم اليقين أيضا رتبة وان كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة واتباع الشياطين فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولوا الالباب

(الشطر الثاني من الكتاب في الزهد) وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد واقسامه وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والمسكن والاثاث وضروب المعيشة وبيان علامة الزهد

(بيان حقيقة الزهد)

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لان ابواب الايمان كلها كما قال السلف ترجع الى عقد وقول وعمل وكان القول لظهوره اقيم مقام الحال اذ به يظهر الحال الباطن والا فليس القول مرادا لعينه وان لم يكن صادرا عن حال سمي اسلاما ولم يسم ايمانا والعلم هو السبب في الحال يجري مجرى المثمر والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل * أما الحال فنعني بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشئ الى ما هو خير منه فكل من عدل عن شئ الى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فانما عدل عنه لرغبته عنه وانما عدل الى غيره لرغبته في غيره فحاله بالاضافة الى المعدول عنه يسمى زهدا وبالاضافة الى المعدول اليه يسمى رغبة وحبا فاذا يستدعي حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوبا في نفسه لا يسمى زاهدا اذ تارك الحجر والتراب وما اشبهه لا يسمى زاهدا وانما يسمى زاهدا من ترك الدراهم

والدنانير لأن التراب والجعل لسانى مطمعة الرغبة وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبائع لا يقدم على البيع الا والمشترى عنده خير من المبيع فيكون حاله بالاضافة الى المبيع زهداً فيه وبالاضافة الى العوض رغبة فيه وحباً ولذلك قال الله تعالى وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين معناه باعوه فقد يطلق الشرا بمعنى البيع ووصف اخوة يوسف بالزهد فيه اذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم وكان ذلك عندهم أحب اليهم من يوسف فباعوه طمعاً فى العوض فاذا كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكن فى الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا كما خصص اسم الالحاد بمن يميل الى الباطل خاصة وان كان هو للميل فى وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور الا بالعدول الى شئ هو أحب منه والا فترك المحبوب لغير الأحب محال والذى يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب الا الله تعالى فهو الزاهد المطلق والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة بل طمع فى الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضاً زاهد ولكنه دون الأول والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذى يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع فى الأكل ولا يترك التجمل فى الزينة فلا يستحق اسم الزهد مطلقاً ودرجته فى الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك فى المحظورات والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً وان كان قد زهد فى المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات فاذا الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً الى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولاً الى الله تعالى وهى الدرجة العليا وكما شرط فى المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده فيشترط فى المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه فان ترك ما لا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز اذ جاءته الدنيا راغمة فتركها وأما أنا ففيم زهدت وأما العلم الذى هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالاضافة الى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن يزول الرغبة عن المبيع فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى أى لذاتها خير فى أنفسها وأبقى كما تكون الجواهر خيراً وأبقى من الثلج مثلاً ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلى فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج الموضوع فى الشمس لا يزال فى الذوبان الى الانقراض والآخرة كالجوهر الذى لا فناء له فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين

الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة حتى ان من قوي يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به فليس يحتاج من العلم في الزهد الا الى هذا القدر وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا اما لضعف علمه ويقينه واما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد الشيطان وأما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوما بعد يوم الى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه الا الحسرة بعد الفوت والى تعريف خساسة الدنيا الاشارة بقوله تعالى قل متاع الدنيا قليل والى تعريف نفاسة الآخرة الاشارة بقوله عز وجل وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد الا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تقل هكذا ولكن قل أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك وهذا لان الله تعالى يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق فهو بالاضافة الى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة في حق نفسه بالاضافة الى ما هو خير له ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وان رغب عن فرسه كما يرى حشرات الارض مثلا لانه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيا عن الفرس والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه فيرى الكل في درجة واحدة بالاضافة الى جلاله ويراه متفاوتا الى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالاضافة الى نفسه لا الى غيره * وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لانه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع واخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات والا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن فاذا وفى بشرط الجانبين في الاخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به فان الذي بايعه بهذا البيع وفى بالعهد فمن سلم حاضرا في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم اليه الغائب حين فراغه من سعيه ان كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد وما دام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ولذلك لم يصف الله تعالى اخوة يوسف بالزهد في بنيامين وان كانوا قد قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا وعزموا على ابعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك ولا وصفهم أيضا بالزهد في يوسف عند العزم على اخراجه بل عند التسليم والبيع فعلامة الرغبة الامساك وعلامة الزهد الاخراج فان أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهدا مطلقا وان لم يكن لك مال

ولم تساعدك الدنيا لم تتصور منك الزهد لان ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه وربما
يستهويك الشيطان بغروره ويخيل اليك أن الدنيا وان لم تأتك فأنت زاهد فيها
فلا ينبغي أن تدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله فانك
اذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكم من ظان بنفسه كراهة
المعاصي عند تعذرها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع
فيها واذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فاياك أن تثق بوعدها في المباحات
والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها ان تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة فاذا وفت بما
وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرا وباطنا فلا بأس أن تثق بها
وثوقا ما ولكن تكون من تغيرها على حذر فانها سريعة النقض للعهد قريبة
الرجوع الى مقتضى الطبع وبالجملة فلا أمان منها الا عند الترك بالاضافة الى ما ترك
فقط وذلك عند القدرة قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة ألا ترى الى هذا الحائك لا نفتي
في مسألة الا رد علينا يعني أبا حنيفة فقال ابن شبرمة لا أدري أهو ابن الحائك ام ما هو
لكن اعلم أن الدنيا غدت اليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك قال جميع
المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انا نحب ربنا ولو علمنا أي شئ محبته
لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم
ما فعلوه الا قليل منهم قال ابن مسعود رحمه الله قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم
انت منهم يعني من القليل قال وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى
منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على
سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من
محاسن العادات ولكن لا مدخل لشئ منه في العبادات وانما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك
بحقارتها بالاضافة الى نفاسة الآخرة فأما كل نوع من الترك فانه يتصور ممن لا يؤمن
بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا اذ حسن
الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنى من المال وكما أن ترك المال على
سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا في الذكر والثناء
والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالا له لما في حفظ المال من المشقة والعناء والحاجة الى
التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استعجال حظ آخر للنفس بل
الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح
اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ومحبا
لما سوى الله ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة
فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا
في الحور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين
والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة

وخوفا

وخوفا من أن يقال له اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى وان ماسوى هذه فمعاملات دنيوية لاجدوى لها في الآخرة اصلا

(بيان فضيلة الزهد)

قال الله تعالى فخرج على قومه في زينته الى قوله تعالى وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن فنسب الزهد الى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا جاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا قيل معناه ايهم ازهد فيها فوصف الزهد بأنه من احسن الاعمال وقال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب وقال تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وقال تعالى الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة فوصف الكفار بذلك فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحيوة الدنيا *(واما الاخبار)* فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات اذ حب الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فانه من المنجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن اصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة وقال صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم العبد وقد اعطى صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة وقال تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولذلك قيل من زهد في الدنيا اربعين يوما اجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وانطق بها لسانه وعن بعض الصحابة انه قال قلنا يا رسول الله أي الناس خير قال كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب قال التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد قلنا يا رسول الله فمن على اثره قال الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان اردت ان يحبك الله فازهد في الدنيا فجعل الزهد سببا للمحبة فمن احبه الله تعالى فهو في اعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضا ان محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء اقاما فيه والا ارتحلا ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة ايمانك قال عرفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني بعرش ربي بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالايمان فانظر كيف بدأ اظهار حقيقة

الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقربه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال عبد نور الله قلبه بالإيمان ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام وقيل له ما هذا الشرح قال إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يا رسول الله وهل لذلك من علامة قال نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله فانظر كيف جعل الزهد شرطا للإسلام وهو التجافي عن دار الغرور وقال صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء قالوا إنا لنستحيي من الله تعالى فقال ليس كذلك تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضى بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء فقال عليه الصلاة والسلام إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون فجعل الزهد تكملة لإيمانهم وقال جابر رضي الله عنه خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة فقام إليه علي كرم الله وجهه فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها صفه لنا فسره لنا فقال حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون عمل الجبابرة فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة وفي الخبر السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك وقال أيضا السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة وروي عن ابن المسيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام وروي أنه صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى وإذا العشار عطلت قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به الآية وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت يا رسول الله ألا تستطعم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع فقال يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهبا لأجراها حيث شئت من الأرض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد يا عائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض لي إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل والله ما لي بد

من طاعته وانى والله لاصبرن كما صبروا بجهدى ولا قوة الا بالله وروى عن عمر رضى الله عنه انه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضى الله عنها البس ألين الثياب اذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر فقال عمر يا حفصة ألست تعلمين أن اعلم الناس بحال الرجل أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا اهل بيته غدوة الا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية الا جاعوا غدوة وناشدتك الله هل تعلمين ان النبى صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو واهله حتى فتح الله عليه خيبر وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قربتم اليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم امر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الارض ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثنيت له ليلة اربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال منعتمونى قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به الى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها الى الصلاة وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بنى ظفر كساءين ازارا ورداء وبعثت اليه بأحدهما قبل ان يبلغ الآخر فخرج الى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه الى عنقه فصلى كذلك فما زال يقول حتى ابكاها وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا ان نفسه ستخرج وفى بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو انه قال كان لى صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك بى طريق غير طريقهما وانى والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلى ادرك معهما عيشهما الرغيد وعن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لقد كان الانبياء قبلى يبتلى احدهم بالفقر فلا يلبس الا العباءة وان كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك احب اليهم من العطاء اليكم وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى فى بطنه من الهزال فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز فى الآخرة وفى حديث عمر رضى الله عنه انه قال لما نزل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله قال صلى الله عليه وسلم تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم فقلنا يا رسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأى شئ ندخر فقال صلى الله عليه وسلم ليتخذ احدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينه على امر آخرته وفى حديث حذيفة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث هما لا يفارق قلبه ابدا وفقرا لا يستغنى ابدا وحرصا لا يشبع ابدا وقال النبى صلى الله عليه وسلم لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون ان لا يعرف احب اليه من ان يعرف وحتى يكون قلة الشئ احب اليه

من كثرته وقال المسيح صلى الله عليه وسلم الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقيل له
يا نبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبد الله فيه قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف
يستقيم بنيان على الماء قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه
وسلم ان ربي عز وجل عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يا رب ولكن
أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع اليك وأدعوك وأما اليوم
الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال خرج رسول
الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشي وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي صلى
الله عليه وسلم يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة
دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم أمر الله القيامة أن تقوم قال لا ولكن هذا اسرافيل عليه السلام
قد نزل اليك حين سمع كلامك فأتاه اسرافيل فقال ان الله عز وجل سمع ما ذكرت
فبعثني بمفاتيح الارض وأمرني أن أعرض عليك ان أحببت ان أسير معك جبال تهامة
زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت وان شئت نبيا ملكا وان شئت نبيا عبدا فأومأ
اليه جبريل أن تواضع لله فقال نبيا عبدا ثلاثا وقال صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله
بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه وقال صلى الله عليه
وسلم لرجل ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس
وقال صلوات الله عليه من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد
في الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات ومن خاف
من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت
عليه المصيبات ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام أربع لا يدركن الا بتعب
الصمت وهو أول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء وايراد جميع الاخبار
الواردة في مدح بعض الدنيا وذم جميعها لا يمكن فان الانبياء ما بعثوا الا لصرف الناس
عن الدنيا الى الآخرة واليه يرجع اكثر كلامهم مع الخلق وفيما أوردناه كفاية والله
المستعان (واما الآثار) فقد جاء في الاثر لا يزال لا اله الا الله تدفع عن العباد سخط
الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم وفي لفظ آخر ما لم يؤثروا صفقة دنياهم
على دينهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا اله الا الله قال الله تعالى كذبتم لستم بها
صادقين وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال تابعنا الاعمال كلها فلم نر في امر الآخرة
أبلغ من زهد في الدنيا وقال بعض الصحابة لصدور التابعين أنتم أكثر أعمالا واجتهادا
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك قال كانوا أزهد
في الدنيا منكم وقال عمر رضي الله عنه الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد وقال
بلال بن سعد كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل
لسفيان أشتهي أن أرى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن
منبه أن للجنة ثمانية أبواب فاذا صار أهل الجنة اليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا

لا يدخلها احد قبل الزاهدين فى الدنيا العاشقين للجنة وقال يوسف بن اسباط رحمه الله انى لا اشتهى من الله ثلاث خصال أن اموت حين أموت وليس فى ملكى درهم ولا يكون على دين ولا على عظمى لحم فأعطى ذلك كله وروى أن بعض الخلفاء ارسل الى الفقهاء بجوائز فقبلوها وأرسل الى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال أتدرون ما مثلى ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت ذبحوها قبل أن لا ينتفعوا بجلدها وكذلك أنتم اردتم ذبحى على كبر سنى موتوا يا أهلى جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا وقال عبيد بن عمير كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد أينما ادركه المساء نام وقالت امرأة أبى حازم لابى حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدى الله تعالى ثم الجنة او النار وقيل للحسن لم لا تغسل ثيابك قال الامر اعجل من ذلك وقال ابراهيم بن ادهم قد حجبت قلوبنا بثلاثة اغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود والحزن على المفقود والسرور بالمدح فاذا فرحت بالموجود فأنت حريص واذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب واذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل وقال ابن مسعود رضى الله عنه ركعتان من زاهد قلبه خير له واحب الى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين الى آخر الدهر أبدا سرمدا وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف الينا وكأنه التفت الى معنى قوله صلى الله عليه وسلم ان الله يحمى عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه فاذا فهم هذا علم ان النعمة فى المنع المؤدى الى الصحة أكبر منها فى الاعطاء المؤدى الى السقم وكان الثورى يقول الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء وقال سهل لا يخلص العمل لمتعبد حتى لا يفزع من اربعة اشياء الجوع والعرى والفقر والذل وقال الحسن البصرى ادركت اقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشئ من الدنيا اقبل ولا يأسفون على شئ منها ادبر ولهى كانت فى أعينهم اهون من التراب كان احدهم يعيش خمسين سنة وستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الارض شيأ ولا امر من فى بيته بصنعة طعام قط فاذا كان الليل فقيام على اقدامهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم كانوا اذا عملوا الحسنة دأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يقبلها واذا عملوا السيئة احزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا الا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه

(بيان درجات الزهد واقسامه بالاضافة الى نفسه والى المرغوب عنه والى المرغوب فيه)

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث * الدرجة الأولى
وهي السفلى منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة
ولكنه يجاهدها ويكفها وهذا يسمى المتزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى
درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والمتزهد يذيب أولا نفسه ثم كيسه والزاهد أولا
يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه والمتزهد على خطر فإنه
ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير *
الدرجة الثانية الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي
يترك درهما لأجل درهمين فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن
هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد
يكون معجبا بنفسه وبزهده ويظن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه
وهذا أيضا نقصان * الدرجة الثالثة وهي العليا أن يزهد طوعا ويزهد في زهده فلا يرى
زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئا إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفة وأخذ
جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى
ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه
كمال المعرفة ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا كما أن تارك الخزفة
بالجوهرة آمن من طلب الإقالة في البيع قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد
الرحيم في أي شيء تتكلم قال في الزهد قال في أي شيء قال في الدنيا فنفض يده وقال
ظننت أنه يتكلم في شيء الدنيا لا شيء أيش يزهد فيها ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند
أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب
الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل الباب ونال القرب عند الملك
حتى نفذ أمره في جميع مملكته أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها
إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول
مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال المضغ
وتنقضي على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها في المعدة ثم تنتهي إلى النتن والقذر ثم يحتاج
بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا
كلها أعني ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل
من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة للمتناهي إلى ما لا نهاية له والدنيا متناهية
على القرب ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها
إلى نعيم الأبد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة غير صافية فأي نسبة
لها إلى نعيم الأبد فإذا لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه ولا يلتفت
إلى ما زهد فيه إلا إذا يراه شيئا معتدا به ولا يراه شيئا معتدا به إلا لقصور معرفته فسبب
نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضا لها
درجات إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة في الصبر وكذلك

درجة المعجب بزهده بقدر التفاته الى زهده « وأما انقسام الزهد بالاضافة الى المرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات « الدرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدى العبد من الاهوال كما وردت به الاخبار اذ فيها ان الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا فان الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم « الدرجة الثانية أن يزهد رغبة فى ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة فى جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فان هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الالم بل طمعوا فى وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له « الدرجة الثالثة وهى العليا أن لا يكون له رغبة الا فى الله وفى لقائه فلا يلتفت قلبه الى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا الى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذى اصبح وهمومه هم واحد وهو الموحد الحقيقى الذى لا يطلب غير الله تعالى لان من طلب غير الله فقد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالاضافة الى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفى وهذا زهد المحبين وهم العارفون لانه لا يحب الله تعالى خاصة الا من عرفه وكما ان من عرف الدينار والدرهم وعلم انه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب الا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر الى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر الى نقش القصور وخضرة الاشجار غير ممكن فلا يحب الا لذة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر الى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع فى قلوبهم بل تلك اللذة بالاضافة الى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الارض ورقاب الخلق بالاضافة الى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبى الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن ادراك لذة الملك لا لان اللعب بالعصفور فى نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق « وأما انقسامه بالاضافة الى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الاقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الاقاويل ولكن نشير الى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن اكثر ما ذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكل فنقول المرغوب عنه بالزهد له اجمال وتفصيل وللتفصيل مراتب بعضها اشرح لآحاد الاقسام وبعضها اجمل للجمل أما الاجمال فى الدرجة الاولى فهو كل ما سوى الله فينبغى أن يزهد فيه حتى يزهد فى نفسه أيضا والاجمال فى الدرجة الثانية أن يزهد فى كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها وفى الدرجة الثالثة أن يزهد فى المال والجاه وأسبابهما اذ اليهما يرجع جميع حظوظ النفس وفى الدرجة الرابعة أن يزهد فى العلم والقدرة والدينار والدرهم اذ الاموال وان كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وان كثرت اسبابه فيرجع الى العلم

والقدرة واعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب اذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كما أن معنى المال ملك الاعيان والقدرة عليها فان جاوزت هذا التفصيل الى شرح وتفصيل ابلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ثم رده في آية اخرى الى خمسة فقال عز وجل اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد ثم رده تعالى في موضع آخر الى اثنين فقال تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو ثم رد الكل الى واحد في موضع آخر فقال ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه واذا فهمت طريق الاجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وانما يفارقه في الشرح مرة والاجمال اخرى فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة لانه انما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بارادة البقاء فان من اراد شيئا اراد دوامه ولا معنى لحب الحياة الا حب دوام ما هو موجود او ممكن في هذه الحياة فاذا رغب عنها لم يردها ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا اخرتنا الى اجل قريب فقال تعالى قل متاع الدنيا قليل أي لستم تريدون البقاء الا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين * أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا احدى الحسنيين وكانوا اذا دعوا الى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون اليه مبادرة الظمآن الى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله او نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى ان خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعا في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين في الايمان رضي الله تعالى عنهم اجمعين * وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من الموت فقيل لهم ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم فايثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فأولئك الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالآخرة فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم انفسهم واموالهم بان لهم الجنة فلما رأوا انهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا او ثلاثين سنة بتمتع الابد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به وهذا بيان المزهود فيه واذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون في حد الزهد لم يشيروا به الا الى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه او على من كان يخاطبه فقال بشر رحمه الله تعالى الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس وهذا اشارة الى الزهد في الجاه خاصة وقال قاسم الجوعي الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف فبقدر

ماتملك من بطنك كذلك تملك من الزهد وهذا اشارة الى الزهد فى شهوة واحدة ولعمرى هى اغلب الشهوات على الاكثر وهى المهيجة لاكثر الشهوات وقال الفضيل الزهد فى الدنيا هو القناعة وهذا اشارة الى المال خاصة وقال الثورى الزهد هو قصر الامل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل الى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكانه رغب عن الشهوات كلها وقال اويس اذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطا فى الزهد وقال اويس أيضا الزهد هو ترك الطلب للمضمون وهو اشارة الى الرزق وقال أهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول والزهد انما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذا ان اريد به الرأى الفاسد والمعقول الذى يطلب به الجاه فى الدنيا فهو صحيح ولكنه اشارة الى بعض اسباب الجاه خاصة او الى بعض ما هو من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيه فى الاخرة وقد طولوها حتى ينقضى عمر الانسان فى الاشتغال بواحد منها فشرط الزاهد أن يكون الفضول اول مرغوب عنه عنده وقال الحسن الزاهد الذى اذا رأى أحدا قال هذا أفضل منى فذهب الى أن الزهد هو التواضع وهذا اشارة الى نفى الجاه والعجب وهو بعض اقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال واين هذا من يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال اويس ولا شك فى انه اراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن اسباط يقول من صبر على الاذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد وفى الزهد اقاويل وراء ما نقلناه فلم نر فى نقلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الامور من اقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد الا الحيرة وأما من انكشف له الحق فى نفسه وادركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا الا القصور فى البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الراهنة التى هى مقام العبد فى نفسه والاحوال تختلف فلا جرم الاقوال المخبرة عنها تختلف وأما الحق فى نفسه فلا يكون الا واحدا ولا يتصور أن يختلف وانما الجامع من هذه الاقاويل الكامل فى نفسه وان لم يكن فيه تفصيل ما قاله ابو سليمان الدارانى اذ قال سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شئ يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج او سافر فى طلب المعيشة او كتب الحديث فقد ركن الى الدنيا فجعل جميع ذلك ضد الزهد وقد قرأ ابو سليمان قوله تعالى الا من اتى الله بقلب سليم فقال هو القلب الذى ليس فيه غير الله تعالى وقال انما زهدوا فى الدنيا لتتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة فهذا بيان انقسام الزهد بالاضافة الى أصناف المزهود فيه وأما بالاضافة الى أحكامه فينقسم الى فرض ونفل وسلامة كما قاله ابراهيم بن ادهم فالفرض هو الزهد فى الحرام والنفل هو الزهد فى الحلال والسلامة هو الزهد فى الشبهات وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع فى كتاب

الحلال والحرام وذلك من الزهد اذ قيل لمالك بن انس ما الزهد قال التقوى وأما بالاضافة الى حظ ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه اذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخلوات واللحظات وسائر الحالات لا سيما حظ الرياء فان ذلك لا يطلع عليه الا سماسرة العلماء بل الاموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تتناهى فمن اقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام اذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك قال وما الذي تجدد قال توسدك الحجر أي تنعمت برفع رأسك عن الارض في النوم فرمى الحجر وقال خذه مع ما تركته لك وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام انه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس فسألته امه ان يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل فأوحى الله تعالى اليه يا يحيى آثرت علي الدنيا فبكى ونزع الصوف وعاد الى ما كان عليه وقال أحمد رحمه الله الزهد زهد أويس بلغ من العرى أن جلس في قوصره وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط انسان فاقامه صاحب الحائط فقال ما اقمتني أنت انما اقامني الذي لم يرض لي أن انعم بظل الحائط فاذا درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها وأقل درجاته الزهد في كل شبهة ومحظور وقال قوم الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور فليس ذلك من درجاته في شيء ثم رأوا انه لم يبق حلال في اموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن فان قلت مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله فكيف يتصور ذلك مع الاكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا الى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ولا يتصور ذلك الا مع البقاء ولا بقاء الا بضرورات النفس فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل الى الشيء الا به فهو منه فالمشتغل بعلف الناقة وسقيها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك الى مقصدك فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالاكل والشرب وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لا يناقض الزهد وان قلت فلا بد وأن التذ بالاكل عند الجوع فاعلم أن ذلك لا يضرك اذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله الى زوال ألم العطش ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا اليه فالانسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الاسحار وصوت الاطيار ولكن اذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الاسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا

ونقصان فى الانس بالله بقدر وقوع الانس بغير الله ولذلك كان داود الطائى له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا فهذه مخاوف المحتاطين والحزم فى جميع ذلك الاحتياط فانه وان كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لانفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين فى معرفة المضادة التى بين الدنيا والدين رضى الله تعالى عنهم اجمعين

(بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة)

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم الى فضول والى مهم فالفضول كالخيل المسومة مثلا اذ غالب الناس انما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشى والمهم كالاكل والشرب ولسنا نقدر على تفصيل اصناف الفضول فان ذلك لا يحصر وانما ينحصر المهم الضرورى والمهم ايضا يتطرق اليه فضول فى مقداره وجنسه وأوقاته فلابد من بيان وجه الزهد فيه والمهمات ستة امور المطعم والملبس والمسكن واثاثه والمنكح والمال والجاه يطلب لاغراض وهذه الستة من جملتها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه فى كتاب الرياء من ربع المهلكات ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة (الاول المطعم) ولا بد للانسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض فلابد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد فأما طوله فبالاضافة الى جملة العمر فان من يملك طعام يومه فلا يقنع به وأما عرضه ففى مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله أما طوله فلا يقصر الا بقصر الامل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فاذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه وهذه هى الدرجة العليا * الدرجة الثانية أن يدخر لشهر أو اربعين يوما * الدرجة الثالثة أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ومن ادخر لاكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لان من أمل بقاء اكثر من سنة فهو طويل الامل جدا فلا يتم منه الزهد الا اذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الاخذ من ايدى الناس كداود الطائى فانه ورث عشرين دينارا فامسكها وأنفقها فى عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد الا عند من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالاضافة الى المقدار وأقل درجاته فى اليوم والليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلاه مد واحد وهو ما قدره الله تعالى فى اطعام المسكين فى الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد فى البطن نصيب وأما بالاضافة الى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والذرة واعلاه خبز البر غير منخول فاذا ميز من النخالة وصار حوارى فقد دخل فى التنعم وخرج عن آخر ابواب الزهد فضلا عن اوائله واما الادم فأقله الملح او البقل والخل واوسطه الزيت او يسير من الادهان اى دهن كان واعلاه اللحم اى لحم كان وذلك فى الاسبوع مرة او مرتين فان صار دائما او اكثر من مرتين فى الاسبوع خرج عن ابواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا

في المطعم اصلا واما الا ضافة الى الوقت فاقله في اليوم والليلة مرة وهو ان يكون صائما وأوسطه ان يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ويأكل ليلة ولا يشرب واعلاه ان ينتهي الى أن يطوي ثلاثة ايام او اسبوعا وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات ولينظر الى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الادم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها كانت تأتي علينا اربعون ليلة وما اوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فيم كنتم تعيشون قالت بالاسودين التمر والماء وهذا ترك اللحم والمرقة والادم وقال الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف وينعل المخصوف ويلعق اصابعه ويأكل على الارض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد واجلس كما يجلس العبد وقال المسيح عليه السلام بحق أقول لكم انه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير وقال الفضيل ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول يا بني اسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير واياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكرنا سيرة الانبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربع المهلكات فلا نعيده ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء اتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال أما اني لست احرمه ولكن اتركه تواضعا لله تعالى وأتي عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عني حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازي الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه حيث ادرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والخلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب انيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياء شعاره والجوع ادامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمته والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفته والجنة مبلغه ان شاء الله تعالى (المهم الثاني الملبس) وأقل درجاته ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطى به وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه اذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود في البيت فاذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار أما الجنس فأقله المسوح الخشنة وأوسطه الصوف الخشن واعلاه القطن الغليظ وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة واقله ما يبقى يوما حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وان كان يسارع الجفاف اليه وأوسطه ما يتماسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبقى اكثر من سنة خروج الى طول الامل وهو مضاد للزهد الا اذا كان المطلوب خشونته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به فان امسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للدنيا ولينظر فيه الى احوال الانبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال ابو بردة

اخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا وازارا غليظا فقالت قبض
رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يحب
المتبذل الذي لا يبالي ما البس وقال عمرو بن الاسود العبسي لا البس مشهورا ابدا
ولا انام بليل على دثار أبدا ولا اركب على مأثور أبدا ولا أملأ جوفي من طعام ابدا فقال
عمر من سره ان ينظر الى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى عمرو بن الاسود
وفي الخبر ما من عبد لبس ثوب شهرة الا اعرض الله عنه حتى ينزعه وان كان عنده
حبيبا واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم وكانت قيمة ثوبيه عشرة
وكان ازاره اربعة اذرع ونصفا واشترى سراويل بثلاثة دراهم وكان يلبس شملتين
بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لانهما ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس
بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه
وسلم كأنه قميص زيات ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيراء من
سندس قيمته مائتا درهم فكان اصحابه يلمسونه ويقولون يا رسول الله أنزل عليك هذا
من الجنة تعجبا وكان قد اهداه اليه المقوقس ملك الاسكندرية فاراد أن يكرمه بلبسه
ثم نزعه وارسل به الى رجل من المشركين وصله به ثم حرم لبس الحرير والديباج وكأنه
انما لبسه اولا تأكيدا للتحريم كما لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه فحرم لبسه على الرجال
وكما قال لعائشة في شأن بريرة اشترطي لاهلها الولاء فلما اشترطته صعد عليه السلام
المنبر فحرمه وكما اباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح وقد صلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم في خميصة لها علم فلما سلم قال شغلني النظر الى هذه اذهبوا بها الى أبي جهم
وائتوني بانبجانيته يعني كساءه فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شراك
نعله قد أخلق فابدل بسير جديد فصلى فيه فلما سلم قال اعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا
الجديد فاني نظرت اليه في الصلاة ولبس خاتما من ذهب ونظر اليه على المنبر نظرة فرمى به
فقال شغلني هذا عنكم نظرة اليه ونظرة اليكم وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة
نعلين جديدين فاعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال اعجبني حسنهما فتواضعت خشية ان
يمقتني ثم خرج بهما فدفعهما الى اول مسكين رآه وعن سنان بن سعد قال حكت لرسول
الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف انمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال انظروا
ما احسنها ما ألينها قال فقام اليه اعرابي فقال يا رسول الله هبها لي وكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم اذا سئل شيئا لم يبخل به قال فدفعها اليه وأمر أن يحاك له واحدة اخرى
فمات صلى الله عليه وسلم وهي في الحاكة وعن جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه
وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحا وعليها كساء من وبر الابل فلما
نظر اليها بكى وقال يا فاطمة تجرعي مرارة الدنيا لنعيم الابد فانزل عليه ولسوف يعطيك
ربك فترضى وقال صلى الله عليه وسلم أن من خيار امتي فيما انبأني الملأ الاعلى قوما
يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ويبكون سرا من خوف عذابه مؤنتهم على
الناس خفيفة وعلى انفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان اجسامهم

في الارض وامدبهم عند العرش فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم
في الملابس وقد اوصى امته عامة باتباعه اذ قال من احبني فليستن بسنتي وقال عليكم
بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وقال تعالى قل ان كنتم
تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله واوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله
عنها خاصة وقال ان اردت اللحوق بي فاياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعي ثوبا حتى
ترقعيه وعد على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من ادم واشترى
علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كمه
من الرسغين وقال الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه وقال الثوري وغيره البس من
الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال وكان يقول ان الفقير ليمر بي
وانا اصلي فأدعه يجوز ويمر بي واحد من ابناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا ادعه
يجوز وقال بعضهم قومت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم واربعة دوانق وقال ابن شبرمة
خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته وقال بعض السلف البس من الثياب ما يخلطك
بالسوقة ولا تلبس منها ما يشهرك فينظر اليك وقال ابو سليمان الداراني الثياب ثلاثة
ثوب لله وهو ما يستر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه وثوب للناس وهو
ما يطلب جوهره وحسنه وقال بعضهم من رق ثوبه رق دينه وكان جمهور العلماء من
التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين الى الثلاثين درهما وكان الخواص لا يلبس اكثر
من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه وقال بعض السلف
اول النسك الزي وفي الخبر البذاذة من الايمان وفي الخبر من ترك ثوب جمال وهو يقدر
عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله ان يدخره من عبقري الجنة
في تخاب الياقوت واوحى الله تعالى الى بعض انبيائه قل لاوليائي لا يلبسوا ملابس
اعدائي ولا يدخلوا مداخل اعدائي فيكونوا اعدائي كما هم اعدائي ونظر رافع بن
خديج الى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا الى اميركم يعظ الناس
وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رقاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة الى ابي
ذر في بزته فجعل يتكلم في الزهد فوضع ابو ذر راحته على فيه وجعل يضرط به فغضب
ابن عامر فشكاه الى عمر فقال انت صنعت بنفسك تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة
وقال علي كرم الله وجهه ان الله تعالى اخذ على ائمة الهدى ان يكونوا في مثل ادنى
احوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزري بالفقير فقره ولما عوتب في خشونة لباسه
قال هو اقرب الى التواضع واجدر ان يقتدي به المسلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن
التنعم وقال ان لله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعمين ورئي فضالة بن عبيد وهو والي مصر
أشعث حافيا فقيل له انت الامير وتفعل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن الارفاه وامرنا ان نحتفي احيانا وقال علي لعمر رضي الله عنهما ان اردت ان تلحق
بصاحبيك فارقع القميص ونكس الازار واخصف النعل وكل دون الشبع وقال
عمر اخشوشنوا واياكم وزي العجم كسرى وقيصر وقال علي كرم الله وجهه من تزيا بزي

قوم فهو منهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب و يتشدقون فى الكلام وقال صلى الله عليه وسلم ازرة المؤمن الى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما اسفل من ذلك ففى النار ولا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ازاره بطرا وقال ابو سليمان الدارانى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلبس الشعر من امتى الا مراء أو احمق وقال الاوزاعى لباس الصوف فى السفر سنة وفى الحضر بدعة ودخل محمد بن واسع على قتيبة ابن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة مادعاك الى مدرعة الصوف فسكت فقال اكلمك ولا تجيبنى فقال اكره أن اقول زهدا فأزكى نفسى أو فقرا فأشكو ربى وقال ابو سليمان لما اتخذ الله ابراهيم خليلا اوحى اليه ان وار عورتك من الارض وكان لا يتخذ من كل شئ الا واحدا سوى السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل احدهما لبس الاخر حتى لا يأتى عليه حال الا وعورته مستورة وقيل لسلمان الفارسى رضى الله عنه مالك لا تلبس الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فاذا عتق فله والله ثياب لا تبلى ابدا ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله انه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل اذا قام يصلى وقال الحسن لفرقد السنجى تحسب ان لك فضلا على الناس بكسائك بلغنى ان اكثر اصحاب النار اصحاب الاكسية نفاقا وقال يحيى بن معين رايت ابا معاوية الاسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها فقلت انك تكسى خيرا من هذا فقال ماضرهم ما اصابهم فى الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويبكى * (المهم الثالث المسكن) وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات * اعلاها ان لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كاصحاب الصفة وأوسطها أن يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف او خص او ما يشبهه وأدناها أن يطلب حجرة مبنية اما بشراء او اجارة فان كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد فان طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف اكثر من ستة اذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد فى المسكن فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص او القصب او بالطين او بالآجر واختلاف قدره بالسعة والضيق واختلاف طوله بالاضافة الى الاوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا او مستعارا وللزهد مدخل فى جميع ذلك وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغى أن يجاوز حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الاعين والاذى وأقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدا وقد قيل أول شئ ظهر من طول الامل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد يعنى بالتدريز كف دروز الثياب فانها كانت تشل شلا والتشييد هو البنيان بالجص والآجر وانما كانوا يبنون بالسعف والجريد وقد جاء فى الخبر يأتى على

الناس رماح وشوب ثيابهم كانوا ينسجون البرود اليمانية وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم علية كان قد علاها ومر عليه السلام بقبة معلاة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاء الرجل اعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل اصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فأخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير وقال الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وقال النبي صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد شرا اهلك ماله في الماء والطين وقال عبد الله بن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال ما هذا فقلنا خص لنا قد وهى فقال ارى الامر اعجل من ذلك واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب فقيل له لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محرز وهو في بيت من قصب قد مال عليه فقيل له لو أصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله وقال النبي صلى الله عليه وسلم من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة وفي الخبر كل نفقة للعبد يؤجر عليها الا ما انفقه في الماء والطين وفي قوله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا انه الرياسة والتطاول في البنيان وقال صلى الله عليه وسلم كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة الا ما أكن من حر وبرد وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكا اليه ضيق منزله اتسع في السماء اي في الجنة ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام الى صرح قد بني بجص وآجر فكبر وقال ما كنت اظن أن يكون في هذه الامة من يبني بنيان هامان لفرعون يعني قول فرعون فأوقد لي ياهامان على الطين يعني به الآجر ويقال ان فرعون هو أول من بني له بالجص والآجر وأول من عمله هامان ثم تبعهما الجبابرة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعض الامصار فقال ادركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيته مبنيا من رهص ثم رأيته الآن مبنيا باللبن فكان اصحاب السعف خيرا من اصحاب الرهص وكان اصحاب الرهص خيرا من اصحاب اللبن وكان في السلف من بنى داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في احكام البنيان وكان منهم من اذا حج أو غزا نزع بيته او وهبه لجيرانه فاذا رجع اعاده وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة قال الحسن كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدي الى السقف وقال عمرو بن دينار اذا اعلى العبد البنيان فوق ستة اذرع ناداه ملك الى اين يا افسق الفاسقين وقد نهى سفيان عن النظر الى بناء مشيد وقال لولا نظر الناس لما شيدوه فالنظر اليه معين عليه وقال الفضيل اني لا اعجب ممن بنى وترك ولكني اعجب ممن نظر اليه ولم يعتبر وقال ابن مسعود رضي الله عنه يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين يصلون الى قبلتكم ويموتون على غير دينكم ه (المهم الرابع اثاث البيت) وللزهد فيه ايضا درجات أعلاها حال عيسى المسيح

صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى اذ كان لا يصحبه الا مشط وكوز فرأى انسانا يمشط لحيته باصابعه فرمى بالمشط ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل اثاث فانه انما يراد لمقصود فاذا استغنى عنه فهو وبال فى الدنيا والآخرة ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على اقل الدرجات وهو الخزف فى كل ما يكفى فيه الخزف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف اذا كان المقصود يحصل به وأوسطها أن يكون له اثاث بقدر الحاجة صحيح فى نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة فى اشياء للتخفيف واعلاها ان يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس فان زاد فى العدد او فى نفاسة الجنس خرج عن جميع ابواب الزهد وركن الى طلب الفضول ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين فقد قالت عائشة رضى الله عنها كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف وقال الفضيل ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مزمول بشريط فجلس فرأى أثر الشريط فى جنبه عليه السلام فدمعت عينا عمر فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ما الذى أبكاك يا ابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك وذكرتك وانت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مزمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم اما ترضى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك ودخل رجل على أبى ذر فجعل يقلب بصره فى بيته فقال يا أباذر ما أرى فى بيتك متاعا ولا غير ذلك من الاثاث فقال ان لنا بيتا نوجه اليه صالح متاعنا فقال انه لا بد لك من متاع مادمت ههنا فقال ان صاحب المنزل لا يدعنا فيه ولما قدم عمير بن سعد امير حمص على عمر رضى الله عنهما قال له ما معك من الدنيا فقال معى عصاى أتوكأ عليها واقتل بها حية ان لقيتها ومعى جرابى احمل فيه طعامى ومعى قصعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى ومعى مطهرتى احمل فيها شرابى وطهورى للصلاة فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى فقال عمر صدقت رحمك الله وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من اجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه الى اهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال بأبى انت قد احسنت ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فهتكه وقال كلما رايته ذكرت الدنيا ارسلى به الى آل فلان وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله

عليه وسلم بنام على عباءة مثنية فجعل يتقلب ليلته فلما اصبح قال لها اعيدى العباءة الى لفقة ونحى هذا الفراش عنى قد أسهرني الليلة وكذلك انه دنانير خمسة اوستة ليلا فبيتها فسهر ليلته حتى اخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضى الله عنها فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال ماظن محمد بربه لولقى الله وهذه عنده وقال الحسن ادركت سبعين من الاخيار مالاحدهم الا ثوبه وما وضع احدهم بينه وبين الارض ثوبا قط كان اذا اراد النوم باشر الارض بجسمه وجعل ثوبه فوقه ﴿المهم الخامس المنكح﴾ وقد قال قائلون لا معنى للزهد فى اصل النكاح ولا فى كثرته واليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حبب الى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال كان ازهد الصحابة على بن ابى طالب رضى الله عنه وكان له اربع نسوة وبضع عشرة سرية والصحيح ما قاله ابو سليمان الدارانى رحمه الله اذ قال كل ما شغلك عن الله من اهل ومال وولد فهو عليك مشؤم والمرأة قد تكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه انه قد تكون العزوبة افضل فى بعض الاحوال كما سبق فى كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح افضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وان لم يكن عليه آفة فى تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب اليهن والانس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد فان علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلا فان الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات واللذة التى تلحق الانسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره اذلم تكن هى المقصد والمطلب وهذا كمن ترك اكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الاكل والشرب وليس ذلك من الزهد فى شئ لان فى ترك ذلك فوات بدنه فكذلك فى ترك النكاح انقطاع نسله فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا فى لذته من غير خوف آفة اخرى وهذا ما عناه سهل لا محالة ولاجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا ثبت هذا فى حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى انه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والانفاق عليهن فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر ولكن أنى يتصور ذلك لغير الانبياء والاولياء فاكثر الناس تشغلهم كثرة النسوان فينبغى أن يترك الاصل ان كان يشغله وان لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن او جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه فى ذلك قال ابو سليمان الزهد فى النساء أن يختار المرأة الدون او اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة وقال الجنيد رحمه الله احب للمريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بثلاث والا تغير حاله التكسب وطلب الحديث والتزوج وقال احب للصوفى أن لا يكتب ولا يقرأ لانه اجمع لهمه فاذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الاكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا ﴿المهم السادس ما يكون وسيلة الى هذه الخمسة وهو المال والجاه﴾ اما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به الى الاستعانة فى الاغراض والاعمال وكل من لا يقدر

على

على القيام بنفسه فى جميع حاجاته وافتقر الى من يخدمه افتقر الى جاه لا محالة فى قلب خادمه لانه ان لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته وقيام القدر والمحل فى القلوب هو الجاه وهذا له اول قريب ولكن يتمادى به الى هاوية لا عمق لها ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه وانما يحتاج الى المحل فى القلوب اما لجلب نفع اولدفع ضر أو لخلاص من ظلم فأما النفع فيغنى عنه المال فان من يخدم بأجرة يخدم وان لم يكن عنده للمستأجر قدر وانما يحتاج الى الجاه فى قلب من يخدم بغير اجرة وأما دفع الضر فيحتاج لاجله الى الجاه فى بلد لا يكمل فيه العدل اويكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم الا بمحل له فى قلوبهم اومحل له عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما اذا انضم اليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والخائض فى طلب الجاه سالك طريق الهلاك بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل فى القلوب اصلا فان اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل فى القلوب مايدفع به عنه الاذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين فاما التوهمات والتقديرات التى تحوج الى زيادة فى الجاه على الحاصل بغير كسب فهى اوهام كاذبة اذ من طلب الجاه ايضا لم يخل عن اذى فى بعض الاحوال فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه فاذا طلب المحل فى القلوب لا رخصة فيه اصلا واليسير منه داع الى الكثير وضراوته اشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره. واما المال فهو ضرورى فى المعيشة اعنى القليل منه فان كان كسوبا فاذا اكتسب حاجة يومه فينبغى أن يترك الكسب كان بعضهم اذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام هذا شرط الزهد فان جاوز ذلك الى مايكفيه اكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعا وان كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين فى التوكل فأمسك منها مقدار مايكفى ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط ان يتصدق بكل مايفضل عن كفاية سنته ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فان شرط التوكل فى الزهد كما شرطه اويس القرنى رحمه الله فلا يكون هذا من الزهاد وقولنا انه خرج من حد الزهاد نعنى به أن ما وعد للزاهدين فى الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله والا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالاضافة الى مازهد فيه من الفضول والكثرة وأمر المنفرد فى جميع ذلك اخف من أمر المعيل وقد قال ابو سليمان لا ينبغى أن يرهق الرجل اهله الى الزهد بل يدعوهم اليه فان اجابوا والا تركهم وفعل بنفسه ماشاء معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك فى عياله نعم لا ينبغى أن يجيبهم ايضا فيما يخرج عن حد الاعتدال وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لان ذلك من الزينة لا من الحاجة فاذا مايضطر الانسان اليه من جاه ومال ليس بمحذور بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع ومابينهما درجات متشابهة فما يقرب من الزيادة وان لم يكن سما قاتلا فهو مضر ومايقرب من الضرورة فهو وان لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه والدواء فرض تناوله ومابينهما مشتبه امره فمن احتاط فانما يحتاط

ايتساهل على نفسه ومن استتر الدنيه وترك ما يرسه الى
الى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية
على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب الى الدنيا بل ذلك القدر من
الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط ويدل عليه ما روي أن
ابراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب الى صديق له يستقرضه شيئا فلم
يقرضه فرجع مهموما فأوحى الله تعالى اليه لو سألت خليلك لأعطاك فقال يا رب
عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئا فأوحى الله تعالى اليه ليس الحاجة من
الدنيا اذا قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضا كذلك
يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه
واحتمال الذل فيه وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه وربما يكونون أعداء له
وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينا لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع
الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حتى ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت
ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم
على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه
والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراآة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا فلو خطر له أنه قد
أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر
على قطعها ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا
في هلاكه الى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل
في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه الى الدنيا ومخالب ملك الموت قد
علقت بعروق قلبه تجذبه الى الآخرة فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون
كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة عن الجانبين والذي
ينشر بالمنشار إنما يترك المؤلم ببدنه ويتألم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره فما
ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب مخصوصا به لا بطريق السراية اليه من غيره فهذا
أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين
فالنزوع الى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم
إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب قال الله تعالى كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم
إنهم لصالوا الجحيم فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار
فكيف إذا أضيفت العلاوة اليه فنسأل الله تعالى أن يقرر في أسماعنا ما نفث في روع
رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له أحبب من أحببت فإنك مفارقه وفي معنى
ما ذكرناه من المال قول الشاعر

كدود كدود القز ينسج دائما • ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك
دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالكلية حتى قال الحسن رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل

الله

الله لهم ازهد منكم فيما حرم الله عليكم وفي لفظ آخر كانوا بالبلاء اشد فرحا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين ولو رأوا اخياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق ولو رأوا اشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب وكان احدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد علي قلبي فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده والذين امات حب الدنيا قلوبهم فقد اخبر الله عنهم اذ قال تعالى ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون وقال عز وجل ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وقال تعالى فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام احملني معك في سياحتك فقال أخرج مالك والحقني فقال لا استطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل الغني الجنة أو قال بشدة وقال بعضهم ما من يوم ذر شارقه الا واربعة املاك ينادون في الآفاق بأربعة اصوات ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول احدهم بالمشرق يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر اقصر ويقول الآخر اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا ويقول اللذان بالمغرب احدهما لدوا للموت وابنوا للخراب ويقول الآخر كلوا وتمتعوا لطول الحساب

(بيان علامات الزهد)

أعلم انه قد يظن أن تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على من احب المدح بالزهد فكم من الرهابين من ردوا انفسهم كل يوم الى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له وانما مسرة احدهم معرفة الناس حاله ونظرهم اليه ومدحهم له فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعي جماعة الزهد مع لبس الاصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخواص في وصف المدعين اذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى اليهم مثل لباسهم لئلا ينظر اليهم بالعين التي ينظر بها الى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وانهم على السنة وان الاشياء داخلة اليهم وهم خارجون منها وانما يأخذون بعلة غيرهم هذا اذا طولبوا بالحقائق وألجئوا الى المضايق وكل هؤلاء اكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية اسرارهم ولا بتهذيب اخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم فهم مائلون الى الدنيا متبعون للهوى فهذا كله كلام الخواص رحمه الله فاذا معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزهد على الزاهد مشكل وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات * (العلامة الاولى) * أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده * (العلامة الثانية) * أن يستوي عنده ذامه ومادحه فالاول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه * (العلامة الثالثة) * أن يكون انسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة

الطاعة ولا يخلو القلب عن حلاوة المحبة اما محبة الدنيا واما محبة الله وهما في القلب كالماء والهواء في القدح فالماء اذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان وكل من انس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره ولذلك قيل لبعضهم الى ماذا افضى بهم الزهد فقال الى الانس بالله فأما الانس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان وقد قال اهل المعرفة اذا تعلق الايمان بظاهر القلب احب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما واذا بطن الايمان في سويداء القلب وباشره ابغض الدنيا فلم ينظر اليها ولم يعمل لها ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام اللهم انى اسألك ايمانا تباشر قلبي وقال ابو سليمان من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين ومقامه الاول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم ولا يستدل بامساكه قليلا من المال على فقد زهده اصلا قال ابن ابى الحوارى قلت لابى سليمان أكان داود الطائى زاهدا قال نعم قلت قد بلغنى انه ورث عن امه عشرين دينارا فانفقها في عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد واذا الحقيقة الغاية فان الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس ولا يتم الزهد الا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيأ مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجرا كما فعله المسيح عليه السلام فنسال الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وان قل فان امثالنا لا يستجرى على الطمع في غاياته وان كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه واذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شئ فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاور لكل كمال فاذا علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم وذلك لغلبة الانس بالله ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخر لا محالة مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها وقيل علامته أن يترك الدنيا كما هى فلا يقول أبنى رباطا او أعمر مسجدا وقال يحيى بن معاذ علامة الزهد السخاء بالموجود وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة في الخروج من الملك وقال أيضا الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف وقال ابو سليمان الصوف علم من اعلام الزهد فلا ينبغى ان يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم وقال احمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله علامة الزهد قصر الامل وقال سرى لا يطيب عيش الزاهد اذا اشتغل عن نفسه ولا يطيب عيش العارف اذا اشتغل بنفسه وقال النصر اباذى الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة وقال يحيى بن معاذ علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رياسة وقال ايضا الزاهد يسعطك الخل والخردل والعارف يشمك المسك والعنبر وقال له رجل متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد واقعد مع الزاهدين فقال اذا صرت من رياضتك لنفسك في السر الى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك فاما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط

الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال ايضا الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها والعارف يشتغل بالله تعالى لا يلتفت اليها وقال السرى مارست كل شئ من امر الزهد فنلت منه ما اريد الا الزهد فى الناس فانى لم أبلغه ولم اطقه وقال الفضيل رحمه الله جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا فهذا ما اردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه واذا كان الزهد لا يتم الا بالتوكل فلنشرع فى بيانه ان شاء الله تعالى

﴿كتاب التوحيد والتوكل وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله مدبر الملك والملكوت * المنفرد بالعزة والجبروت * الرافع للسماء بغير عماد * المقدر فيها ارزاق العباد * الذى صرف اعين ذوى القلوب والالباب * عن ملاحظة الوسايط والاسباب الى مسبب الاسباب * ورفع هممهم عن الالتفات الى ما عداه * والاعتماد على مدبر سواه * فلم يعبدوا الا اياه * علما بانه الواحد الفرد الصمد الاله * وتحقيقا بأن جميع اصناف الخلق * عباد أمثالهم لا يبتغى عندهم الرزق * وانه ما من ذرة الا الى الله خلقها * وما من دابة الا على الله رزقها * فلما تحققوا انه لرزق عباده ضامن وبه كفيل * توكلوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * والصلاة على محمد قامع الاباطيل الهادى الى سواء السبيل * وعلى آله وسلم تسليما كثيرا * (اما بعد) فان التوكل منزل من منازل الدين * ومقام من مقامات الموقنين * بل هو من معالى درجات المقربين * وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الاسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع والاعتماد على الاسباب من غير أن ترى اسبابا تغيير فى وجه العقل وانغماس فى غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع فى غاية الغموض والعسر ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء الا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فابصروا وتحققوا * ثم نطقوا بالاعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا * ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر الاول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله فى الشطر الثانى

﴿بيان فضيلة التوكل﴾

(أما من الآيات) * فقد قال تعالى وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين وقال عز وجل وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقال تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقال سبحانه وتعالى ان الله يحب المتوكلين وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز

العظيم بأن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب وقال تعالى أليس الله بكاف عبده فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق كقوله تعالى هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً وقال عز وجل ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم أي عزيز لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم بين أن كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه وقال تعالى إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه وقال عز وجل ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون وقال عز وجل يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار (وأما الأخبار) فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود رأيت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملؤا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهيئتهم فقيل لي أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب قيل من هم يا رسول الله قال الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة وقال صلى الله عليه وسلم لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً وقال صلى الله عليه وسلم من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها وقال صلى الله عليه وسلم من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول هذا أمرني ربي عز وجل قال عز وجل وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها الآية وقال صلى الله عليه وسلم لم يتوكل من استرقى واكتوى وروي أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمي إلى النار بالمنجنيق ألك حاجة قال أما إليك فلا وفاء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى فأنزل الله تعالى وإبراهيم الذي وفى وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً (وأما الآثار) فقد قال سعيد بن جبير لدغتني عقرب فأقسمت علي أمي لتسترقين فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى وتوكل على الحي الذي لا يموت إلى آخرها فقال ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى وقيل لبعض العلماء في منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته وقال بعض العلماء لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك

وبيان

وقال يحيى بن معاذ فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد وقال ابراهيم بن ادهم سألت بعض الرهبان من أين تأكل فقال لى ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى من أين يطعمنى وقال هرم بن حيان لاويس القرنى اين تأمرنى أن أكون فأومأ الى الشام قال هرم كيف المعيشة قال اويس اف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكيلا وجدت الى كل خير سبيلا نسأل الله تعالى حسن الادب

(بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل)

اعلم أن التوكل من ابواب الايمان وجميع ابواب الايمان لا تنتظم الا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الاصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الاصل وهو المسمى ايمانا فى أصل اللسان اذ الايمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم واذا قوى سمى يقينا ولكن ابواب اليقين كثيرة ونحن انما نحتاج منها الى ماننبنى عليه التوكل وهو التوحيد الذى يترجمه قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له والايمان بالقدرة التى يترجم عنها قولك له الملك والايمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك وله الحمد فمن قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير تم له الايمان الذى هو أصل التوكل أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه فأما التوحيد فهو الاصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالاعمال بواسطة الاحوال ولا يتم علم المعاملة الا بها واذا لا نتعرض الا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة والا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لا ساحل له فنقول للتوحيد اربع مراتب وهو ينقسم الى لب والى لب اللب والى قشر والى قشر القشر ولنمثل ذلك تقريبا الى الافهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا فان له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة الاولى من التوحيد هى أن يقول الانسان بلسانه لا اله الا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى اشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لا يرى فى الوجود الا واحدا وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد لانه من حيث لا يرى الا واحدا فلا يرى نفسه ايضا واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه فى توحيده بمعنى انه فنى عن رؤية نفسه والخلق فالاول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان والثانى موحد بمعنى انه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة ان توفى عليه ولم تضعف بالمعاصى عقدته ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصد بها دفع حيلة

التحليل والتعقيد ويقصد بها ايضا احكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى
كلاما والعارف به يسمى متكلما وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل
هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث انه يحمي بكلامه
مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته والثالث موحد بمعنى انه
لم يشاهد الا فاعلا واحدا اذ انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة
الا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لا انه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم
لفظ الحقيقة فان تلك رتبة العوام والمتكلمين اذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل
في صنعة تلفيق الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع
موحد بمعنى انه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث انه كثير بل من
حيث انه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد فالاول كالقشرة العليا من الجوز
والثاني كالقشرة السفلى والثالث كاللب والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أن
القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل ان أكل فهو مر المذاق وان نظر الى باطنه فهو كريه
المنظر وان اتخذ حطبا اطفأ النار واكثر الدخان وان ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح
الا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون
التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة
في حفظ القشرة السفلى الى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن وتوحيد
المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف انما يصيب
جسم البدن وهو القشرة وانما تتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده وكما أن
القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة الى القشرة العليا فانها تصون اللب وتحرسه عن
الفساد عند الادخار واذا فصلت امكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة
الى اللب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة الى مجرد نطق
اللسان ناقص القدر بالاضافة الى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر
وانفساحه واشراق نور الحق فيه اذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى فمن يرد الله أن
يهديه يشرح صدره للاسلام وبقوله عز وجل أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على
نور من ربه وكما أن اللب نفيس في نفسه بالاضافة الى القشر وكأنه المقصود ولكنه
لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة الى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل
مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات الى الكثرة
بالاضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد
الا واحدا وهو يشاهد السماء والارض وسائر الاجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف
يكون الكثير واحدا فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن
تسطر في كتاب فقد قال العارفون افشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة
نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة
واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الانسان

كثيران التفت الى روحه وجسده واطرافه وعروقه وعظامه واحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة اخرى واحد اذ تقول انه انسان واحد فهو بالاضافة الى الانسانية واحد وكم من شخص يشاهد انسانا ولا يخطر بباله كثرة امعائه وعروقه واطرافه وتفصيل روحه وجسده واعضائه والفرق بينهما انه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكانه في عين الجمع والملتفت الى الكثرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات أخر سواه كثير وبعضها اشد كثرة من بعض ومثاله الانسان وان كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به ايمان تصديق فيكون لك من حيث انك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وان لم يكن ما آمنت به صفتك كما انك اذا آمنت بالنبوة وان لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة ايمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها الا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطهر كالبرق الخاطف وهو الاكثر والدوام نادر عزيز والى هذا اشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الاسفار فقال فيماذا انت فقال أدور في الاسفار لاصحح حالتي في التوكل وقد كان من المتوكلين فقال الحسين قد افنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الاجمال فان قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه وليس التوكل أيضا مبنيا عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث وأما الاول وهو النفاق فواضح وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه وأما الثالث فهو الذي ينبني عليه التوكل اذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله امثال هذا الكتاب وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل الا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر الى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه واذا انكشف لك هذا لم تنظر الى غيره بل كان منه خوفك واليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السموات والارض واذا انفتح لك ابواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا اتم من المشاهدة بالبصر وانما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغي به أن يطرق الى قلبك شائبة الشرك بسببين احدهما الالتفات الى اختيار الحيوانات والثاني الالتفات الى الجمادات أما الالتفات الى الجمادات فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه وعلى الغيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع الغيم

وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق
الأمور ولذلك قال تعالى فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من
هذه لنكونن من الشاكرين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون قيل معناه أنهم يقولون
لولا استواء الريح لما نجونا ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء
والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا إلى أن ينتهي إلى
المحرك الأول الذي لا محرك له ولا يتحرك في نفسه عز وجل فالتفات العبد في النجاة إلى
الريح يضاهي التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته فأخذ
يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع ويقول لولا القلم لما تخلصت
فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا حكم له
في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما
يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس
والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير
القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو كاتب التوقيع
والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى وما رميت إذ رميت ولكن الله
رمى فإذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف
عنك الشيطان خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك فأتاك في المهلكة الثانية
وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من
الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا
الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء
عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك
فيه ويقول له أيضا نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو
المسخر له وعند هذا زل أقدام الأكثرين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم
للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد
جميع الضعفاء كون القلم مسخرا وعرفوا أن غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلا
لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد
والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض وذلك
لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها وكذلك من لم يشرح الله
تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة
كونه قاهرا وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض بل أرباب
القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته
التي بها أنطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها
بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع لمعزولون
ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات فإن الحمار شريك فيه ولا قدر

لما يشارك فيه البهائم وانما اريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي * فان قلت فهذه اعجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وانها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف سبحت وقدست وكيف شهدت على نفسها بالعجز فاعلم أن لكل ذرة في السموات والارض مع ارباب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى فانها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له ولو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر الآية ثم انها تناجي بأسرار الملك والملكوت وافشاء السر لؤم بل صدور الاحرار قبور الاسرار وهل رأيت قط امينا على أسرار الملك قد نوجي بخفاياه فنادى بسره على ملأ من الخلق ولو جاز افشاء كل سر لما قال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون ولما نهى عن افشاء سر القدر ولما قال اذا ذكر النجوم فأمسكوا واذا ذكر القدر فأمسكوا واذا ذكر اصحابي فأمسكوا ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الاسرار فاذا عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب ارباب المشاهدات مانعان احدهما استحالة افشاء السر والثاني خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ولكنا في المثال الذي كنا فيه وهي حركة القلم نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا نفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونرد كلماتها الى الحروف والاصوات وان لم تكن هي حروفا واصواتا ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر ما بال وجهك كان ابيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغد ما انصفتني في هذه المقالة فاني ما سودت وجهي بنفسي ولكن سل الحبر فانه كان مجموعا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا فقال صدقت فسأل الحبر عن ذلك فقال ما انصفتني فاني كنت في المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادي وفرق جمعي وبددني كما ترى على ساحة بيضاء فالسؤال عليه لا علي فقال صدقت ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه واخراج الحبر من أوطانه فقال سل اليد والاصابع فاني كنت قصبا نابتا على شط الانهار متنزها بين خضرة الاشجار فجاءتني اليد بسكين فنحت عني قشري ومزقت على ثيابي واقتلعتني من اصلي وفصلت بين انابيبي ثم برتني وشقت رأسي وغمستني في سواد الحبر ومرارته وهي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك فتنح عني وسل من قهرني فقال صدقت ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما انا الا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه وانما أنا مركب مسخر ركبني فارس يقال له القدرة والعزة وهي التي ترددني وتجول بي في نواحي الارض أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شئ منها مكانه ولا يتحرك بنفسه اذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر أما ترى ايدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ثم لا معاملة بينها وبين القلم فانا أيضا

من حيث انا لا معاملة بيني وبين العلم فسل القدرة عن شأني فاني مركب ازعجني من
ركبني فقال صدقت ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها
وترديدها فقال دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لائم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له
وكيف خفي عليك امري وكيف ظننت اني ظلمت اليد لما ركبتها ولقد كنت لها راكبة
قبل التحريك وما كنت احركها ولا استسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون
بي اني ميتة او معدومة لاني ما كنت اتحرك ولا احرك حتى جاءني موكل ازعجني
وارهقني الى ما تراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ولم تكن لي قوة على مخالفته وهذا
الموكل يسمى الارادة ولا اعرفه الا باسمه وهجومه وصياله اذ ازعجني من غمرة النوم
وارهقني الى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي فقال صدقت ثم سأل الارادة
ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها الى التحريك وارهقتها
اليه ارهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الارادة لا تعجل علي فلعل لنا عذرا وانت
تلوم فاني ما انتهضت بنفسي ولكن انهضت وما انبعثت ولكن بعثت بحكم قاهر وامر
جازم وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد علي من حضرة القلب رسول العلم على
لسان العقل بالاشخاص للقدرة فاشخصتها باضطرار فاني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم
والعقل ولا ادري باي جرم وقفت عليه وسخرت له والزمت طاعته لكني ادري اني
في دعة وسكون ما لم يرد علي هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل او الظالم وقد وقفت
عليه وقفا والزمت طاعته الزاما لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة
لعمري ما دام هو في التردد على نفسه والتحير في حكمه فانا ساكنة لكن مع استشعار
وانتظار لحكمه فاذا انجزم حكمه ازعجت بطبع وقهر تحت طاعته واشخصت القدرة لتقوم
بموجب حكمه فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك فاني كما قال القائل شعر

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا ... ان لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت واقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا ومعاتبا اياهم على استنهاض
الارادة وتسخيرها لاشخاص القدرة فقال العقل اما انا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن
اشعلت وقال القلب اما انا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بسطت وقال العلم اما انا فنقش
نقشت في بياض لوح القلب لما اشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي فكم كان هذا
اللوح خاليا عني فسل القلم عني لان الخط لا يكون الا بالقلم فعند ذلك تتعتع السائل
ولم يقنعه جواب وقال قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني
من طمعت به في معرفة هذا الامر على غيره ولكني كنت اطيب نفسا بكثرة الترداد
لما كنت اسمع كلاما مقبولا في الفؤاد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال فاما قولك اني خط
ونقش وانما خطني قلم فلست افهمه فاني لا اعلم قلما الا من القصب ولا لوحا الا من الحديد
او الخشب ولا خطا الا بالحبر ولا سراجا الا من النار واني لا اسمع في هذا المنزل حديث
اللوح والسراج والخط والقلم ولا اشاهد من ذلك شيئا اسمع جعجعة ولا ارى طحنا فقال له
العلم ان صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف واعلم ان

المهالك

المهالك في الطريق التي توجهت اليها كثيرة فالصواب لك ان تنصرف وتدع ما انت فيه فما هذا بعشك فادرج وكل ميسر لما خلق له وان كنت راغبا في استتمام الطريق الى المقصد فالق سمعك وأنت شهيد واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة أولها ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة والثاني عالم الملكوت وهو وراءى فاذا جاوزتني انتهيت الى منازله وفيه المهامه الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ولا ادري كيف تسلم فيها والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لان عالم الملك اسهل منه طريقا وعالم الملكوت اوعر منه منهجا وانما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الارض والماء فلا هي في حد اضطراب الماء ولا هي في حد سكون الارض وثباتها وكل من يمشي على الارض يمشي في عالم الملك والشهادة فان جاوزت قوته الى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فان انتهى الى ان يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعتع فان كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الارض وخرقت السفينة ولم يبق بين يديك الا الماء الصافي واول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام لو ازداد يقينا لمشى على الهواء لما قيل له انه كان يمشي على الماء فقال السالك السائل قد تحيرت في امري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست ادري اطيق قطع هذه المهامه التي وصفتها ام لا فهل لذلك من علامة قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوي فان ظهر لك القلم الذي به اكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من ابواب الملكوت كوشف بالقلم اما ترى ان النبي صلى الله عليه وسلم في اول امره كوشف بالقلم اذ نزل عليه اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته والله ما ارى قصبا ولا خشبا ولا اعلم قلما الا كذلك فقال العلم لقد أبعدت النجعة اما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت اما علمت ان الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات وكذلك لا تشبه يده الايدي ولا قلمه الاقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه امور الهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الايدي ولا قلمه من قصب ولا لوحه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وعفص فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فما اراك الا مخنثا بين فحولة التنزيه وانوثة التشبيه مذبذبا بين هذا وذا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الاجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن معاني الحروف والاصوات واخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه فان كنت قد فهمت

من قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن منها مطلقا كما يقال كن يهود يا صرفا والا فلا تلعب بالتوراة وان فهمت منه الصورة الباطنة التى تدرك بالبصائر لا بالابصار فكن منها صرفا ومقدسا فحلا واطوا الطريق فانك بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فلعلك تجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودى به موسى انى انا ربك فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وانه مخنث بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ولقد كان زيته الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضئ ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فاصبح نورا على نور فقال له العلم اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ففتح بصره فانكشف له القلم الالهى فاذا هو كما وصفه العلم فى التنزيه ما هو من خشب ولا قصب ولا له راس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام فى قلوب البشر كلهم اصناف العلوم وكأن له فى كل قلب رأسا ولا راس له فقضى منه العجب وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله تعالى عنى خير اذ الآن ظهر لى صدق انبائه عن اوصاف القلم فانى اراه قلما لا كالاقلام فعند هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامى عندك ومرادتى لك وانا عازم على ان اسافر الى حضرة القلم واساله عن شأنه فسافر اليه وقال له ما بالك ايها القلم تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات الى اشخاص القدرة وصرفها الى المقدورات فقال أوقد نسيت ما رأيت فى عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم اذ سألته فأحالك على اليد قال لم أنس ذلك قال فجوابى مثل جوابه قال كيف وانت لا تشبهه قال القلم أما سمعت ان الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فسل عن شأنى الملقب بيمين الملك فانى فى قبضته وهو الذى يرددنى وأنا مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الالهى وقلم الآدمى فى معنى التسخير وانما الفرق فى ظاهر الصورة فقال فمن يمين الملك فقال القلم أما سمعت قوله تعالى والسموات مطويات بيمينه قال نعم قال والاقلام أيضا فى قبضة يمينه هو الذى يرددها فسافر السالك من عنده الى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شئ من ذلك ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه والحاصل فيه انه يمين لا كالايمان ويد لا كالايدى واصبع لا كالاصابع فرأى القلم متحركا فى قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جوابى مثل ما سمعته من اليمين الى رأيتها فى عالم الشهادة وهو الحوالة على القدرة اذ اليد لا حكم لها فى نفسها وانما محركها القدرة لا محالة فسافر السالك الى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت انما انا صفة فاسأل القادر اذ العهدة على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد ان يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادقات الحضرة لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فغشيته هيبة الحضرة فخر صعقا يضطرب فى غشيته فلما افاق قال سبحانك ما اعظم شأنك تبت اليك وتوكلت

عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ الا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ومالى الا ان أسألك وأتضرع اليك وابتهل بين يديك فأقول اشرح لى صدرى لاعرفك واحلل عقدة من لسانى لاثنى عليك فنودى من وراء الحجاب اياك أن تطمع فى الثناء وتزيد على سيد الانبياء بل ارجع اليه فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه وما قاله لك فقله فانه مازاد فى هذه الحضرة على أن قال سبحانك لا احصى ثناء عليك انت كما أثنيت على نفسك فقال الهى ان لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع فى معرفتك فنودى اياك أن تتخطى رقاب الصديقين فارجع الى الصديق الاكبر فاقتد به فان أصحاب سيد الانبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول العجز عن درك الادراك ادراك فيكفيك نصيبا من حضرتنا أن تعرف انك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا فعند هذا رجع السالك واعتذر عن اسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة ومابعدها اقبلوا عذرى فانى كنت غريبا حديث العهد بالدخول فى هذه البلاد ولكل داخل دهشة فما كان انكارى عليكم الا من قصور وجهل والآن قد صح عندى عذركم وانكشف لى أن المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فما انتم الا مسخرون تحت قهره وقدرته مرددون فى قبضته وهو الاول والآخر والظاهر والباطن فلما ذكر ذلك فى عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف يكون هو الاول والآخر وهما وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالاول ليس بآخر والظاهر ليس بباطن فقال هو الاول بالاضافة الى الموجودات اذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد وهو الآخر بالاضافة الى سير السائرين اليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل الى منزل الى أن يقع الانتهاء الى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر فى المشاهدة أول فى الوجود وهو باطن بالاضافة الى العاكفين فى عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس الخمس ظاهر بالاضافة الى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد فى الفعل اعنى من انكشف له ان الفاعل واحد فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد الى انه يبتنى على الايمان بعالم الملكوت فمن لم يفهم ذلك او يجحده فما طريقه فأقول أما الجاحد فلا علاج له الا أن يقال له انكارك لعالم الملكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الخمس فأنكروا القدرة والارادة والعلم لانها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس فان قال وأنا منهم فانى لا اهتدى الا الى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئا سواه فيقال انكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا نثق به فلعلنا نراه فى المنام فان قال وأنا من جملتهم فانى شاك أيضا فى المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فيترك اياما قلائل وما كل مريض يقوى على علاجه الاطباء هذا حكم الجاحد وأما الذى لا يجحد ولكن لا يفهم

فطريق السالكين فيه ان ينظروا الى عينه الى يشاهدها عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة فى الاصل وقد نزل فيها ماء اسود تقبل الازالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته استعمال الكحال بالابصار الظاهرة فاذا استوى بصره ارشده الى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بخواص اصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام دواب الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد الى حضيض فهمه فان فى عالم الشهادة أيضا توحيدا اذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين فقال له على حد عقله الله العالم واحد والمدبر واحد اذ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فيكون ذلك على ذوق ما رآه فى عالم الشهادة فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الانبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ولذلك نزل القرآن بلسان العرب وعلى حد عادتهم فى المحاورة فان قلت فمثل هذا التوحيد الاعتقادى هل يصح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه فاقول نعم فان الاعتقاد اذا قوى عمل عمل الكشف فى اثارة الاحوال الا انه فى الغالب يضعف و يتسارع اليه الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه الى متكلم يحرسه بكلامه او الى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التى تلقفها من استاذه او من ابويه او من أهل بلده وأما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شئ من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وان كان يزداد وضوحا كما أن الذى يرى انسانا فى وقت الاسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه انسان ولكن يزداد وضوحا فى تفصيل خلقته وما مثال المكاشفين والمعتقدين الا كسحرة فرعون مع اصحاب السامرى فان سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الامر فلم يكترثوا بقول فرعون لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف بل قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحيوة الدنيا فان البيان والكشف يمنع التغيير وأما اصحاب السامرى لما كان ايمانهم عن النظر الى ظاهر الثعبان فلما نظروا الى عجل السامرى وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله هذا الهكم واله موسى ونسوا انه لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر الى ثعبان يكفر لا محالة اذا نظر الى عجل لان كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد فى عالم الشهادة كثير وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا فان قلت ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والاسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر الا فى حركات الانسان فانه يتحرك ان شاء و يسكن ان شاء فكيف يكون مسخرا فاعلم انه لو كان مع هذا يشاء ان اراد أن يشاء ولا يشاء ان لم يرد أن يشاء لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط ولكن علم انه يفعل ما يشاء اذا شاء أن يشاء ام لم يشاء فليست المشيئة اليه اذ لو كانت اليه لافتقرت الى مشيئة اخرى وتسلسل الى غير نهاية واذا لم تكن المشيئة اليه فمهما

وجدت المشيئة التي تصرف القدرة الى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل الى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة الى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت انه في عين الاختيار مجبور فهو اذا مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متطفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم نقصد به الا علم المعاملة ولكني أقول لفظ الفعل في الانسان يطلق على ثلاثة اوجه اذ يقال الانسان يكتب بالاصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء اذا وقف عليه بجسمه فينسب اليه الخرق في الماء والتنفس والكتابة وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحد ولكنها تختلف وراء ذلك في امور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسمي خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ونسمي تنفسه فعلا اراديا ونسمي كتابته فعلا اختياريا والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لانه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح الى الهواء انخرق لا محالة فيكون الخرق بعد التخطي ضروريا والتنفس في معناه فان نسبة حركة الحنجرة الى ارادة التنفس كنسبة انخراق الماء الى ثقل البدن فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده وليس الثقل اليه وكذلك الارادة ليست اليه ولذلك لو قصد عين الانسان بابرة طبق الاجفان اضطرارا ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تغميض الاجفان اضطرارا فعل ارادي ولكنه اذا تمثل صورة الابرة في مشاهدته بالادراك حدثت الارادة بالتغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع انه فعل بالقدرة والارادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا وأما الثالث وهو الاختيار فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذي يقال فيه ان شاء فعل وان شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا ان الامر اليه وهذا للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه وبيانه أن الارادة تبع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك والاشياء تنقسم الى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد والى ما قد يتردد العقل فيه فالذي تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بابرة او بدنك بسيف فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تنبعث الارادة بالعلم والقدرة بالارادة وتحصل حركة الاجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالارادة ومن الاشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري انه موافق ام لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتميز أن الخير في الفعل او الترك فاذا حصل بالفكر والروية العلم بأن احدهما خير التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية وفكر فانبعثت الارادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان واذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل انه خير سميت هذه الارادة اختيارا مشتقا

من الخير أي هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر
في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور حكم الخير به للعقل إلا أن الخير
في دفع السيف ظهر من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية فالاختيار
عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيما له في إدراكه توقف وعن هذا
قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور أن تنبعث
الإرادة إلا بحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز
رقبة نفسه مثلاً لم يمكنه لا لعدم القدرة في اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الإرادة
الداعية المشخصة للقدرة وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس بكون
الفعل موافقاً وقتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه
إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق فإن العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد لأنه تردد من
شر الشرين فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم
بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة
والقدرة وأهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمي نفسه من السطح مثلاً وإن
كان مهلكاً ولا يبالي ولا يمكنه أن لا يرمي نفسه فإن كان يتبع بضرب خفيف فإذا
انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقفت أعضاؤه
ولا يمكنه أن يرمي نفسه ولا تنبعث له داعية البتة لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم
العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة
فيه من حيث لا يدري فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلا ولما
فإذاً معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ومعنى كونه مختاراً أنه
محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً وحدث
الحكم أيضاً جبراً فإذاً هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الإحراق مثلاً جبر محض
وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على
الاختيار فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لأنه لما كان فناً ثالثاً واتبعوا فيه كتاب
الله تعالى فسموه كسباً وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه
وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد فإن
ذلك في حقه محال وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله
تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه
فإن قلت فهل تقول إن العلم ولد الإرادة والإرادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة
وإن كل متأخر حدث من المتقدم فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة
الله تعالى وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض فاعلم أن القول بأن
بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع
ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية وهو الأصل الذي لم يقف كافة الخلق
عليه إلا الراسخون في العلم فإنهم وقفوا على كنه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع

نوع

نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق وبيان ذلك يطول ولكن بعض المقدورات مترتبة على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الازلية ارادة الا بعد علم ولا علم الا بعد حياة ولا حياة الا بعد محل الحياة وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة فكذلك فى سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر الا للخواص المكاشفين بنور الحق والا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر الا بالحق واللزوم وكذلك جميع افعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهى فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا والى هذا اشار قوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق فكل ما بين السماء والارض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون الا كما حدث وعلى هذا الترتيب الذى وجد فما تأخر متأخر الا لانتظار شرطه والمشروط قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكونه مقدورا فلا يتأخر العلم عن النطفة الا لفقد شرط الحياة ولا تتأخر عنها الارادة بعد العلم الا لفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس فى شئ من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتدبير وتفهيم ذلك عسير ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادى الحق من الافهام الضعيفة وذلك بأن تقدر انسانا محدثا قد انغمس فى الماء الى رقبته فالحدث لا يرتفع عن اعضاءه وان كان الماء هو الرافع وهو ملاق له فقدر القدرة الازلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للاعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشروط وهو غسل الوجه فاذا وضع الواقف فى الماء وجهه على الماء عمل الماء فى سائر اعضاءه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل ان الحدث ارتفع على اليدين برفعه عن الوجه لانه حدث عقيبه اذ يقول كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه فاذا غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهى ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالارادة والارادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقى له لا بغسل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شئ ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فهكذا ينبغى أن تفهم صدور المقدورات عن القدرة الازلية مع ان القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فان مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد فى الفعل فان الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد الا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك فى عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك يطوى تحت قول لا اله الا الله وما أخف مؤنته على اللسان وما اسهل اعتقاد مفهوم لفظه على

القلب وما أعز حقيقته وإنه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم فإن قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول بين فاعلين غير مفهوم فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الأمير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع وكل ما له ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا لأن القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين فلذلك سمي فعلا لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت قل يتوفاكم ملك الموت ثم قال عز وجل الله يتوفى الأنفس حين موتها وقال تعالى أفرأيتم ما تحرثون أضاف الحرث إلينا ثم قال تعالى أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقال عز وجل فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ثم قال تعالى فنفخنا فيها من روحنا وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما قال تعالى فإذا قرأناه فاتبع قرآنه قيل في التفسير معناه إذا قرأه عليك جبريل وقال تعالى قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وقال تعالى وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا إذ هما معنيان مختلفان وقال الله تعالى الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ثم قال الرحمن علم القرآن وقال علمه البيان وقال إن علينا بيانه وقال أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا فيقول يا رب أذكر أم أنثى أسوي أم معوج فيقول الله تعالى ما شاء ويخلق الملك وفي لفظ آخر ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة وقد قال بعض السلف إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد وإنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمي روحا وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك

ذكر الله تعالى فى القرآن من الادلة والآيات فى الارض والسموات ثم قال أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد وقال شهد الله انه لا اله الا هو فبين انه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر الى الموجودات وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ثم فوض الموت والحياة الى ملكين ففي الخبر ان ملكي الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا اميت الاحياء وقال ملك الحياة أنا احيي الموتى فأوحى الله تعالى اليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وأنا المميت والمحيي لا يميت ولا يحيي سواي فاذا الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني اذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة خذها لو لم تأتها لأتتك اضاف الاتيان اليه والى التمرة ومعلوم ان التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الانسان اليها وكذلك لما قال التائب اتوب الى الله تعالى ولا أتوب الى محمد فقال صلى الله عليه وسلم عرف الحق لاهله فكل من اضاف الكل الى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن اضافه الى غيره فهو المتجوز والمستعير في كلامه وللتجوز وجه كما أن للحقيقة وجها واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن انه تحقيق وتوهم أن نسبته الى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل الى الامير فانه مجاز بالاضافة الى نسبته الى الجلاد فلما انكشف الحق لاهله عرفوا ان الامر بالعكس وقالوا ان الفاعل قد وضعته ايها اللغوي للمخترع فلا فاعل الا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أي تجوزبه عما وضعه اللغوي له ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الاعراب قصدا او اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد ألا كل شئ ما خلا الله باطل أي كل ما لا قوام له بنفسه وانما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وانما حقيته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذا لا حق بالحقيقة الا الحي القيوم الذي ليس كمثله شئ فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان فان قلت فقد ظهر الآن أن الكل جبر فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضى وكيف غضبه على فعل نفسه فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا اليه في كتاب الشكر فلا نطول باعادته فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز اليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا الا بالايمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر الى مسبب الاسباب والايمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الاسباب ولا يتم حال التوكل كما سيأتي الا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب الى حسن نظر الكفيل وهذا الايمان أيضا باب عظيم من ابواب الايمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده

الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يسترب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينيا
لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم
وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها
ثم زاده مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور
واطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا
به على الخير والشر والنفع والضر ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم
والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه
الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع
منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن
بلي به ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه بل كل ما خلقه الله تعالى
من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ما رأوا فيها من تفاوت
ولا فطور وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة
وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل
هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي وليس
في الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل
بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض
الإلهية بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص
في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره إذ لولا الليل لما عرف قدر
النهار ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة
وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم
الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم
العقوبة على أهل النيران وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل وما لم يخلق
الناقص لا يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس فإن الكمال والنقص
يظهر بالإضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا وكما أن قطع اليد
إذا تآكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص فكذلك الأمر في التفاوت الذي
بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه
وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة
من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله
إلا العالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره
المكاشفون والحاصل أن الخير والشر مقضي به وقد كان ما قضي به واجب الحصول بعد
سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر
وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك
ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل ولنرجع إلى علم
المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل

الشطر

(الشطر الثاني من الكتاب) في احوال التوكل واعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ماقاله الشيوخ في حدّ التوكل وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والمعيل وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل في دفع المضار وبيان التوكل في ازالة الضرر بالتداوي وغيره والله الموفق برحمته،

(بيان حال التوكل)

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل * وذكرنا العلم فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وانما العلم أصله والعمل ثمرته وقد اكثر الخائضون في بيان حدّ التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه واخبر عن حدّه كما جرت عادة اهل التصوّف به ولا فائدة في النقل والاكثار فلنكشف الغطاء عنه ونقول التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل امره الى فلان أي فوّضه اليه واعتمد عليه فيه ويسمى الموكول اليه وكيلا ويسمى المفوّض اليه متكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمأنت اليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلا فنقول من ادّعى عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله الا اذا اعتقد فيه أربعة أمور منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شئ أصلا وأما القدرة والقوة فليستجرئ على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحيي ولا يجبن فانه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه خوف او الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به وأما الفصاحة فهي أيضا من القدرة الا انها قدرة في اللسان على الافصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه واشار اليه فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس واما منتهى الشفقة فيكون باعثا له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود فان قدرته لا تغني دون العناية به اذا كان لا يهمه امره ولا يبالي به ظفر خصمه اولم يظفر هلك به حقه اولم يهلك فان كان شاكا في هذه الاربعة اوفي واحدة منها او جوّز ان يكون خصمه في هذه الاربعة اكمل منه لم تطمئن نفسه الى وكيله بل بقي منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة احواله في شدّة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه والاعتقادات والظنون في القوّة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر فلا جرم تتفاوت احوال المتوكلين في قوّة الطمأنينة والثقة تفاوتا لا ينحصر الى ان ينتهي الى اليقين الذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذي يسعى بجمع الحلال والحرام لاجله فانه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الخصال الاربعة قطعية وكذلك سائر الخصال يتصوّر أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الاخبار بأنه افصح الناس لسانا

وأقواهم بيانا وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فاذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى فان ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم انه لا فاعل الا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت الى غيره بوجه ولا الى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة الا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فان الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فان كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين اما ضعف اليقين باحدى هذه الخصال الاربعة واما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه فان القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعة له من غير نقصان في اليقين فان من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وان كان متيقنا بكونه ميتا وانه جماد في الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وان كان قادرا عليه في انها مطردة بأن لا يقلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السنور أسدا وان كان قادرا عليه ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش أو الميت معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلما يخلو الانسان عن شئ منه وان قل وقد يقوى فيصير مرضا حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع اغلاق الباب واحكامه فاذا لا يتم التوكل الا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا اذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون في القلب شئ واليقين شئ آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لابراهيم عليه السلام أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي فالتمس أن يكون مشاهدا احياء الميت بعينه ليثبت في خياله فان النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها الى ان يبلغ في الآخرة الى درجة النفس المطمئنة وذلك لا يكون في البداية أصلا وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب فان اليهودي مطمئن القلب الى تهوده وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلا وانما يتبعون الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين الا انهم معرضون عنه فاذا الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معهما فهي أحد الاسباب التي تضاد حال التوكل كما ان ضعف اليقين بالخصال الاربعة أحد الاسباب واذا اجتمعت هذه الاسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب في التوراة ملعون من ثقته انسان مثله وقد قال صلى الله عليه وسلم من استعز بالعبيد أذله الله تعالى واذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلا فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات ﴿الدرجة الاولى﴾ ما ذكرناه وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته

كحاله فى الثقة بالوكيل *(الثانية)* وهى اقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل فى حق امه فانه لايعرف غيرها ولا يفزع الى احد سواها ولا يعتمد الا اياها فان رآها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يخلها وان نابه امر فى غيبتها كان أول سابق الى لسانه ياأماه وأول خاطر يخطر على قلبه امه فانها مفزعه فانه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليس خاليا عن نوع ادراك بالتمييز الذى له ويظن أنه طبع من حيث أن الصبى لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلفيق لفظه ولا على احضاره مفصلا فى ذهنه ولكن كل ذلك وراء الادراك فمن كان باله الى الله عزوجل ونظره اليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبى بامّه فيكون متوكلا حقا فان الطفل متوكل على امّه والفرق بين هذا وبين الاول أن هذا متوكل وقد فنى فى توكله عن توكله اذليس يلتفت قلبه الى التوكل وحقيقته بل الى المتوكل عليه فقط فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل عليه وأما الاول فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن توكله أى له التفات الى توكله وشعوره وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده والى هذه الدرجة اشار سهل حيث سئل عن التوكل ما ادناه قال ترك الامانى قيل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو اشارة الى الدرجة الثانيه وسئل عن اعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه الا من بلغ أوسطه *(الثالثة)* وهى أعلاها ان يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل لا يفارقه الا فى انه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وأن كلا يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه ويفارق الصبى فان الصبى يفزع الى امّه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها بل هو مثل صبى علم أنه وان لم يزعق بامه فالام تطلبه وانه وان لم يتعلق بذيل امه فالام تحمله وان لم يسألها اللبن فالام تفاتحه وتسقيه وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وانه يعطى ابتداء افضل مما يسأل فكم من نعمة ابتداها قبل السؤال والدعاء وقبل الاستحقاق والمقام الثانى لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وانما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط فان قلت فهذه الاحوال هل يتصوّر وجودها فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر والمقام الثانى والثالث اعزها والاول اقرب الى الامكان ثم اذا وجد الثالث والثانى فدوامه ابعد منه بل يكاد لا يكون المقام الثالث فى دوامه الا كصفرة الوجل فان انبساط القلب الى ملاحظة الحول والقوة والاسباب طبع وانقباضه عارض كما ان انبساط الدم الى جميع الاطراف طبع وانقباضه عارض والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة الى الباطن حتى ينمحى عن ظاهر البشرة الحمرة التى كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فان البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوّة وسائر الاسباب الظاهرة لا يدوم وأما المقام الثانى فيشبه صفرة المحموم فانه قد يدوم يوما ويومين والاوّل يشبه صفرة مريض

استحكم مرضه ولا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول فإن قلت فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال فاعلم أن المقام الثالث ينفي التدبير رأساً ما دامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمبهوت والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضاً توكله عليه إذ ليس هو فزعاً منه إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر بقوله وأما المعلوم من عادته واطراد سنته فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحاج الخصم إلا من السجل فتمام توكله إن كان متوكلاً عليه أن يكون معولاً على سنته وعادته ووافياً بمقتضاها وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاصمته فإذا لا يستغني عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصاناً في توكله فكيف يكون فعله نقصاناً فيه نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظراً إلى محاجته فقد ينتهي إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعه إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته وقد انتهى بها نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتي تفصيله في الأعمال فإذا فزع المتوكل إلى حوله وقوته في الحضور والإحضار لا ينافي التوكل لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى فإذاً لا يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إن الوكيل جعله معتمد المحاجة وعرفه ذلك بإشارته وسنته فإذاً لا حول ولا قوة إلا بالوكيل إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالقاً حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيدين في نفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاً لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد فإذاً لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب لمفهوم لفظها وهيهات فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها

كنسبة معنى أحدهما الى الآخر اذفى هذه الكلمة اضافة شيئين الى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة وأما كلمة لا اله الا الله فهو نسبة الكل اليه فانظر الى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب لا اله الا الله بالاضافة الى هذا وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات واكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما تطرقوا الى اللبين والى اللبين الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من قال لا اله الا الله صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة وحيث اطلق من غير ذكر الصدق والاخلاص أراد بالمطلق المقيد كما اضاف المغفرة الى الايمان والعمل الصالح فى بعض المواضع وأضافها الى مجرد الايمان فى بعض المواضع والمراد به المقيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضا حديث ولكنه حديث نفس وانما الصدق والاخلاص وراءهما ولا ينصب سرير الملك الا للمقربين وهم المخلصون نعم لمن يقرب منهم فى الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وان كانت لا تنتهى الى الملك أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر فى سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ولما انتهى الى أصحاب اليمين ما زاد على ذكر الماء والظل والفواكه والاشجار والحور العين وكل ذلك لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح ويتصور ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول فى أعلى عليين فى جوار رب العالمين ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة افترى أن احوال البهائم وهى مسيبة فى الرياض متنعمة بالماء والاشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد أعلى والذ واشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوطة من أحوال الملائكة فى سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين فى أعلى عليين هيهات هيهات ما ابعد عن التحصيل من اذا خير بين أن يكون حمارا أو يكون فى درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وهل يخفى أن شبه كل شئ منجذب اليه وأن النفس التى نزوعها الى صنعة الاساكفة اكثر من نزوعها الى صنعة الكتابة فهو بالاساكفة أشبه فى جوهره منه بالكتاب وكذلك من نزوع نفسه الى نيل لذات البهائم اكثر من نزوعها الى نيل لذات الملائكة فهو بالبهايم اشبه منه بالملائكة لا محالة وهؤلاء هم الذين يقال فيهم اولئك كالانعام بل هم أضل وانما كانوا أضل لان الانعام ليس فى قوتها طلب درجة الملائكة فتركها الطلب للعجز وأما الانسان ففى قوته ذلك والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة الى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال واذ كان هذا كلاما معترضا فلنرجع الى المقصود فقد بينا معنى قول لا اله الا الله ومعنى لا حول ولا قوة الا بالله ومن ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل فان قلت ليس فى قولك لا حول ولا قوة الا بالله الا نسبة شيئين الى الله فلو قال قائل السماء والارض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه فأقول لا لان الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر الى عظم السماء

والارض وصغر الحول والقوة ان جاز وصفهما بالصغر تجوزا فليست الامور تعظم بالاشخاص بل كل عامي يفهم أن الارض والسماء ليستا من جهة الآدميين بل هما من خلق الله تعالى فأما الحول والقوة فقد اشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن تدعى انه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره فهي مهلكة خطرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون اذ اثبتوا لانفسهم امرا وهو شرك في التوحيد واثبات خالق سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة ووفقه الله اياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذي يصدق قوله لا حول ولا قوة الا بالله وقد ذكرنا انه ليس في التوحيد الا عقبتان احداهما النظر الى السماء والارض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات والثانية النظر الى اختيار الحيوانات وهي اعظم العقبتين واخطرهما وبقطعهما يكمل سر التوحيد ولذلك عظم ثواب هذه الكلمة اعني ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها فاذا رجع حال المتوكل الى التبري من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل اعمال المتوكل ان شاء الله تعالى

(بيان ما قاله الشيوخ في احوال التوكل)

ليتفهم ان شيأ منها لا يخرج عما ذكرناه ولكن كل واحد يشير الى بعض الاحوال فقد قال ابو موسى الديلي قلت لابي يزيد ما التوكل فقال ما تقول انت قلت ان اصحابنا يقولون لو ان السباع والافاعي عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرك فقال ابو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو ان اهل الجنة في الجنة يتنعمون واهل النار في النار يعذبون ثم وقع لك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فما ذكره ابو موسى فهو جلي من احوال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره ابو يزيد عبارة عن أعز انواع العلم الذي هو من اصول التوكل وهو العلم بالحكمة وان ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين اهل النار واهل الجنة بالاضافة الى اصل العدل والحكمة وهذا اغمض انواع العلم ووراءه سر القدر وابو يزيد قلما يتكلم الا عن اعلى المقامات واقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطا في المقام الاول من التوكل فقد احترز ابو بكر رضي الله عنه في الغار اذ سد منافذ الحيات الا ان يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره او يقال انما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه وانما تزلزل التوكل بتحرك سره وتغيره لامر يرجع الى نفسه وللنظر في هذا مجال ولكن سيأتي ان امثال ذلك واكثر منه لا يناقض التوكل فان حركة السر من الحيات هو الخوف وحق المتوكل ان يخاف مسلط الحيات اذ لا حول للحيات ولا قوة لها الا بالله فان احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال خلع الارباب وقطع الاسباب فخلع الارباب اشارة الى علم التوحيد وقطع الاسباب اشارة الى الاعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وان كان اللفظ يتضمنه فقيل له زدنا فقال القاء النفس في العبودية واخراجها من الربوبية

وهذا اشارة الى التبري من الحول والقوة فقط وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال ان كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا أشارة الى مجرد الايمان بسعة القدرة وأن في المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الاسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى في كل حال فقال السائل زدني فقال ترك كل سبب يوصل الى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك فالاول عام للمقامات الثلاث والثاني أشارة الى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل ابراهيم صلى الله عليه وسلم اذ قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة فقال أما اليك فلا اذ كان سؤاله سببا يفضي الى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى ان أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو المتولي لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره وهو حال عزيز في نفسه ودوامه ان وجد أبعد منه وأعز قال أبو سعيد الخراز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير الى المقام الثاني فسكونه بلا اضطراب اشارة الى سكون القلب الى الوكيل وثقته به واضطراب بلا سكون اشارة الى فزعه اليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه الى امه وسكون قلبه الى تمام شفقتها وقال أبو علي الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن الى وعده والمسلم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا اشارة الى تفاوت درجات نظره بالاضافة الى المنظور اليه فان العلم هو الاصل والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شئ من ذلك وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه ولا نطول بها فان الكشف أنفع من الرواية والنقل فهذا ما يتعلق بحال التوكل والله الموفق برحمته ولطفه

(بيان أعمال المتوكلين)

اعلم أن العلم يورث الحال والحال يثمر الاعمال وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال فان ذلك حرام في الشرع والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل نكشف الغطاء عنه ونقول انما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه الى مقاصده وسعي العبد باختياره اما أن يكون لاجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لازالة ضار قد نزل به كالتداوي من المرض فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الاربعة وهو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع *(الفن الاول)* في جلب النافع فنقول فيه الاسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لا تثق النفس

به ثقة تامة ولا تطمئن إليه * الدرجة الأولى المقطوع به وذلك مثل الأسباب التي
ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف كما أن الطعام
إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد إليه وتقول
أنا متوكل وشرط التوكل ترك السعي ومد اليد إليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالأسنان
وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء
فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الخبز أو يخلق في الخبز حركة إليك
أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع
الأرض وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع
كما ولدت مريم عليها السلام فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه
فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم أما العلم فهو أن تعلم أن الله تعالى
خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه الذي يطعمك ويسقيك وأما الحال
فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف
تعتمد على صحة يدك وربما تجف في الحال وتفلج وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ
عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك وكيف تعول على حضور الطعام
وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه أو يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرق بينك
وبين طعامك وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك
فلتفرح وعليه فلتعول فإذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فإنه متوكل * الدرجة الثانية
الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال
حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي
لا يطرقها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا
في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ولا يزول التوكل به بعد أن يكون
الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز وهو من أعلى
مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص فإن قلت فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس
في التهلكة فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين أحدهما أن يكون الرجل
قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر
عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى والثاني أن يكون بحيث
يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة فبعد هذين الشرطين
لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى محلة
أو قرية أو إلى حشيش يجتزي به فيحيى به مجاهدا نفسه والمجاهدة عماد التوكل وعلى
هذا كان يعول الخواص ونظراؤه من المتوكلين والدليل عليه أن الخواص كان لا يفارقه
الإبرة والمقراض والحبل والركوة ويقول هذا لا يقدح في التوكل وسببه أنه علم أن البوادي
لا يكون الماء فيها على وجه الأرض وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير
دلو ولا حبل ولا تغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش والماء

يحتاج اليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه فى كل يوم أو يومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وان صبر عن الطعام وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والابرة فى البوادى غالبا عند كل صلاة ولا يقوم مقامهما فى الخياطة والقطع شئ مما يوجد فى البوادى فكل ما فى معنى هذه الاربعة ايضا يلتحق بالدرجة الثانية لانه مظنون ظنا ليس مقطوعا به لانه يحتمل أن لا يتخرق الثوب او يعطيه انسان ثوبا او يجد على رأس البئر من يسقيه ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغا الى فيه فبين الدرجتين فرقان ولكن الثانى فى معنى الاول ولهذا نقول لو انحاز الى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع فى هلاك نفسه كما روى أن زاهدا من الزهاد فارق الامصار وأقام فى سفح جبل سبعا وقال لا أسأل احدا شيأ حتى يأتينى ربى برزقى فقعد سبعا فكاد يموت ولم يأته رزق فقال يارب ان أحييتنى فائتنى برزقى الذى قسمت لى والا فاقبضنى اليك فأوحى الله جل ذكره اليه وعزتى لا ارزقنك حتى تدخل الامصار وتقعد بين الناس فدخل المصر وقعد فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب وأوجس فى نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى اليه اردت أن تذهب حكمتى بزهدك فى الدنيا أما علمت انى أن ارزق عبدى بأيدى عبادى احب الى من أن ارزقه بيد قدرتى فاذا التباعد عن الاسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الاسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا فى التوكل بالخصومة من قبل ولكن الاسباب تنقسم الى ظاهرة والى خفية فتصرف المتوكل فى الاكتفاء بالاسباب الخفية عن الاسباب الظاهرة مع سكون النفس الى مسبب السبب لا الى السبب فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب اهو حرام أو مباح او مندوب فاعلم أن ذلك ليس بحرام لان صاحب السياحة فى البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه والصبر ممكن الى أن يتفق ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لاحد اليه ففعله ذلك حرام وان فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج اولى له ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب وان كان مشغول القلب بالله غير مشرف الى الناس ولا متطلع الى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه الى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل وهو ان يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فان الرزق يأتيه لا محالة وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لادركه وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا ويقال له يا جاهل كيف اخلقك ولا ارزقك ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما اختلف الناس فى كل شئ الا فى الرزق والاجل فانهم اجمعوا على أن لا رازق

ولا يميت الا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال وقال عيسى عليه السلام انظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم فان قلتم نحن اكبر بطونا فانظروا الى الانعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق وقال ابو يعقوب السوسي المتوكلون تجرى ارزاقهم على أيدى العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون وقال بعضهم العبيد كلهم فى رزق الله تعالى لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتهان كالصناع وبعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة ـ الدرجة الثالثة ملابسة الاسباب التى يوهم افضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها وهو الذى فيه الناس كلهم اعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح فأما اخذ الشبهة او اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الاسباب فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الاسباب التى نسبتها الى جلب المنافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكى بالاضافة الى ازالة الضار فان النبى صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بانهم لا يكتسبون ولا يجلسون فى الامصار ولا يأخذون من احد شيأ بل وصفهم بانهم يتعاطون هذه الاسباب وأمثال هذه الاسباب التى يوثق بها فى المسببات مما يكثر فلا يمكن احصاؤها وقال سهل فى التوكل انه ترك التدبير وقال ان الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وانما حجابهم بتدبيرهم ولعله اراد به اسقاط الاسباب البعيدة بالفكر فهى التى تحتاج الى التدبير دون الاسباب الجلية فاذ قد ظهر أن الاسباب منقسمة الى ما يخرج التعلق بها عن التوكل والى ما لا يخرج وان الذى يخرج ينقسم الى مقطوع به والى مظنون وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الاسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل واما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون فى ملابسة هذه الاسباب على ثلاث مقامات ـ (الاول) ـ مقام الخواص ونظرائه وهو الذى يدور فى البوادى بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه فى تقويته على الصبر اسبوعا وما فوقه او تيسير حشيش له اوقوت او تثبيته على الرضى بالموت ان لم يتيسر شئ من ذلك فان الذى يحمل الزاد قد يفقد زاده او يضل بعيره ويموت جوعا فذلك ممكن مع الزاد كما انه ممكن مع فقده ـ (المقام الثانى) ـ أن يقعد فى بيته او فى مسجد ولكنه فى القرى والامصار وهذا اضعف من الاول ولكنه ايضا متوكل لانه تارك للكسب والاسباب الظاهرة معول على فضل الله تعالى فى تدبير أمره من جهة الاسباب الخفية ولكنه بالقعود فى الامصار متعرض لاسباب الرزق فان ذلك من الاسباب الجالبة الا ان ذلك لا يبطل توكله اذا كان نظره الى الذى يسخر له سكان البلد لايصال رزقه اليه لا الى سكان البلد اذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل

الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم (المقام الثالث) أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه فى الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا المعنى لا يخرجه أيضا عن مقامات التوكل اذا لم يكن طمأنينة نفسه الى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فان ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه فى لحظة بل يكون نظره الى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير اسبابه له بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالاضافة الى قدرة الله تعالى كما يرى القلم فى يد الملك الموقع فلا يكون نظره الى القلم بل الى قلب الملك انه بماذا يتحرك والى ماذا يميل وبم يحكم ثم ان كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو ليفرق على المساكين فهو ببدنه مكتسب وبقلبه عنه منقطع فحال هذا اشرف من حال القاعد فى بيته والدليل على أن الكسب لا ينافى حال التوكل اذا روعيت فيه الشروط وانضاف اليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصديق رضى الله عنه لما بويع بالخلافة اصبح اخذ الاثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادى حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة فقال لا تشغلونى عن عيالى فانى ان اضيعهم كنت لما سواهم اضيع حتى فرضوا له قوت اهل بيت من المسلمين فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين اولى ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق فى مقام التوكل فمن اولى بهذا المقام منه فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات الى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الاسباب وبشروط كان يراعيها فى طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب اليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرهمه أحب اليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل الا مع الزهد فى الدنيا نعم يصح الزهد دون التوكل فان التوكل مقام وراء الزهد وقال ابو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما وكان من المتوكلين اخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق كنت اكتسب فى كل يوم دينارا ولا ابيت منه دانقا ولا استريح منه الى قيراط ادخل به الحمام بل اخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لا يتكلم فى التوكل بحضرته وكان يقول استحى ان تكلم فى مقامه وهو حاضر عندى واعلم أن الجلوس فى رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فان لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل الا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب وان لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل اليهم فهذا أقوى فى توكلهم لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا الا بشروط كثيرة كما سبق فان قلت فما الافضل ان يقعد فى بيته او يخرج ويكتسب فاعلم ان كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر واخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تتشوق نفسه الى الناس فى انتظار من يدخل فيحمل اليه شيأ بل يكون قوى القلب فى الصبر والاتكال على الله تعالى فالقعود له أولى وان كان يضطرب قلبه فى البيت ويستشرف الى الناس فالكسب

اولى لان استشراف القلب الى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب
وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف اليه نفوسهم كان احمد بن حنبل قد أمر ابا
بكر المروزي أن يعطي بعض الفقراء شيأ فضلا عما كان استأجره عليه فرده فلما ولى قال له
الحقه وأعطه فانه يقبل فلحقه وأعطاه فأخذه فسأل احمد عن ذلك فقال كان قد
استشرفت نفسه فرد فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ وكان الخواص رحمه الله اذا نظر
الى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيأ وقال الخواص بعد أن
سئل عن اعجب ما رآه في أسفاره رأيت الخضر ورضي بصحبتي ولكني فارقته خيفة أن
تسكن نفسي اليه فيكون نقصانا في توكلي فاذا المكتسب اذا راعى آداب الكسب وشروط
نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على
بضاعته وكفايته كان متوكلا فان قلت فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية
فأقول علامته أنه ان سرقت بضاعته او خسرت تجارته او تعوق امر من اموره كان
راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده
واحدا فان من لم يسكن الى شئ لم يضطرب بفقده ومن اضطرب لفقد شئ فقد سكن اليه
وكان بشر يعمل المغازل فتركها وذلك لان الا مادي كاتبه قال بلغني انك استغنيت عن
رزقك بالمغازل أرأيت ان اخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من فوقع ذلك في قلبه
فأخرج آلة المغازل من يده وتركها وقيل بل تركها لما توهمت باسمه وقصد لاجلها وقيل
فعل ذلك لما مات عياله كما كان لسفيان خمسون دينارا عرفها فلما مات عياله فرقها فان
قلت فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن اليها وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة
لا يمكن فأقول بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة وان الذين كثرت
بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة وان يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به الا ما فيه
صلاحه فان اهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سببا لفساده وقد لطف الله
تعالى به وغايته أن يموت جوعا فينبغي أن يعتقد ان الموت جوعا خير له في الآخرة مهما
قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده
وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر ان العبد ليهم من الليل بأمر من امور التجارة مما لو فعله
لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى اليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيبا حزينا
يتطير بجاره وابن عمه من سبقني من دهاني وما هي الا رحمة رحمه الله بها ولذلك قال عمر
رضي الله عنه لا ابالي اصبحت غنيا أو فقيرا فاني لا ادري ايهما خير لي ومن لم يكمل
يقينه بهذه الامور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال أبو سليمان الداراني لاحمد بن ابي
الحواري لي من كل مقام نصيب الا من هذا التوكل المبارك فاني ما شممت منه رائحة هذا
كلامه مع علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما ادركته ولعله اراد
ادراك اقصاه ومالم يكمل الايمان بأن لا فاعل الا الله ولا رازق سواه وان كل ما يقدره
على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد لم يكمل حال التوكل
فبناء التوكل على قوة الايمان بهذه الامور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من

الاقوال والاعمال تبنى على اصولها من الايمان وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعى قوّة القلب وقوّة اليقين ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد فان قلت فهل من دواء ينتفع به فى صرف القلب عن الركون الى الاسباب الظاهرة وحسن الظنّ بالله تعالى فى تيسير الاسباب الخفية فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا فان الانسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشفيق بسوء الظنّ مولع واذا انضم اليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلمين على الاسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية الرزق من الاسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكى عن عابد أنه عكف فى مسجد ولم يكن له معلوم فقال له الامام لو اكتسبت لكان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا فقال فى الرابعة يهودى فى جوار المسجد قد ضمن لى كل يوم رغيفين فقال ان كان صادقا فى ضمانه فعكوفك فى المسجد خير لك فقال يا هذا لو لم تكن اماما تقف بين يدى الله وبين العباد مع هذا النقص فى التوحيد كان خيرا لك اذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق وقال امام المسجد لبعض المصلين من أين تأكل فقال يا شيخ اصبر حتى اعيد الصلاة التى صليتها خلفك ثم اجيبك وينفع فى حسن الظن بمجىء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الاسباب الخفية أن تسمع الحكايات التى فيها عجائب صنع الله تعالى فى وصول الرزق الى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى فى اهلاك أموال التجار والاغنياء وقتلهم جوعا كما روى عن حذيفة المرعشى وقد كان خدم ابراهيم بن أدهم فقيل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا فى طريق مكة اياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوينا الى مسجد خراب فنظر الى ابراهيم وقال يا حذيفة ارى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال علىّ بدواة وقرطاس فجئت به فكتب بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود اليه بكل حال والمشار اليه بكل معنى وكتب شعرا

* اناحامد أناشاكر اناذاكر * اناجائع أناضائع اناعارى *
هى ستة وانا الضمين لنصفها * فكن الضمين لنصفها يابارى
مدحى لغيرك لهب نار خضتها * فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع الى الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة الى اول من يلقاك فخرجت فأول من لقينى كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما فعل صاحب هذه الرقعة فقلت هو فى المسجد الفلانى فدفع الىّ صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال هذا نصرانى فجئت الى ابراهيم واخبرته بالقصة فقال لا تمسها فانه يجىء الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس ابراهيم يقبله وأسلم وقال أبو يعقوب الاقطع البصرى

جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثتني نفسي بالخروج فخرجت الى
الوادي لعلي أجد شيأ يسكن ضعفي فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها فوجدت في قلبي
منها وحشة وكأن قائلا يقول جعت لي عشرة ايام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة
فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت فاذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي
ووضع قمطرة وقال هذه لك فقلت كيف خصصتني بها قال اعلم انا كنا في البحر منذ عشرة
ايام وأشرفت السفينة على الغرق فنذرت ان خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على
اول من يقع عليه بصري من المجاورين وأنت أول من لقيته فقلت افتحها ففتحها فاذا
فيها سميذ مصري ولوز مقشور وسكر كعاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت
رد الباقي الى أصحابك هدية مني اليكم وقد قبلتها ثم قلت في نفسي رزقك يسير اليك
من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي. وقال ممشاد الدينوري كان علي دين فاشتغل
قلبي بسببه فرأيت في النوم كأن قائلا يقول يا بخيل أخذت علينا هذا المقدار من الدين
خذ عليك الاخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما. وحكي
عن بنان الحمال قال كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعي زاد فجاءتني امرأة وقالت
لي يا بنان أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم انه لا يرزقك قال فرميت بزادي ثم أتى
علي ثلاث لم آكل فوجدت خلخالا في الطريق فقلت في نفسي احمله حتى يجيء صاحبه
فربما يعطيني شيأ فارده عليه فاذا انا بتلك المرأة فقالت لي أنت تاجر تقول عسى يجيء
صاحبه فآخذ منه شيأ ثم رمت لي شيأ من الدراهم وقالت أنفقها فاكتفيت بها الى
قريب من مكة. وحكي أن بنانا احتاج الى جارية تخدمه فانبسط الى اخوانه فجمعوا له
ثمنها وقالوا هو ذا يجيء النفر فنشتري ما يوافق فلما ورد النفر اجتمع رأيهم على واحدة
وقالوا انها تصلح له فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال انها ليست للبيع فألحوا عليه فقال انها
لبنان الحمال اهدتها اليه امرأة من سمرقند فحملت الى بنان وذكرت له القصة. وقيل
كان في الزمان الاول رجل في سفر ومعه قرص فقال ان اكلته مت فوكل الله عز وجل
به ملكا وقال ان اكله فارزقه وان لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه الى أن
مات ولم يأكله وبقي القرص عنده. وقال ابو سعيد الخراز دخلت البادية بغير زاد
فأصابتني فاقة فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت في نفسي اني
سكنت واتكلت على غيره وآليت ان لا ادخل المرحلة الا ان احمل اليها فحفرت لنفسي
في الرمل حفرة وواريت جسدي فيها الى صدري فسمعت صوتا في نصف الليل عاليا
يا اهل المرحلة ان لله تعالى وليا حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة
فأخرجوني وحملوني الى القرية. وروي أن رجلا لازم باب عمر فاذا هو بقائل يقول يا هذا
هاجرت الى عمر أو الى الله تعالى اذهب فتعلم القرآن فانه سيغنيك عن باب عمر فذهب
الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له اني
قد اشتقت اليك فما الذي شغلك عني فقال اني قرأت القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر
فقال عمر رحمك الله فما الذي وجدت فيه فقال وجدت فيه وفي السماء رزقكم وما توعدون

فقلت

فقلت رزقي في السماء وانا اطلبه في الارض فبكى عمرو وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس اليه * وقال أبو حمزة الخراساني حججت سنة من السنين فبينا انا امشي في الطريق اذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي ان استغيث فقلت لا والله لا استغيث فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان فقال احدهما للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر فهممت ان اصيح فقلت في نفسي الى من اصيح هو اقرب منهما وسكنت فبينا انا بعد ساعة اذا انا بشئ جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكانه يقول تعلق بي في همهمة له كنت اعرف ذلك فتعلقت به فأخرجني فاذا هو سبع فمر وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف فمشيت وانا اقول

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى * واغنيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي * الى غائبي واللطف يدرك باللطف
تراءيت لي بالغيب حتى كانما * تبشرني بالغيب انك في الكف
اراك وبي من هيبتي لك وحشة * فتؤنسني باللطف منك وبالعطف
وتحيي محبا أنت في الحب حتفه * وذا عجب كون الحياة مع الحتف

أمثال هذه الوقائع مما يكثر واذا قوى الايمان به وانضم اليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوى الايمان بأنه ان لم يسق اليه رزقه في اسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه تم التوكل بهذه الاحوال والمشاهدات والا فلا يتم اصلا

(بيان توكل المعيل)

اعلم أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد لان المنفرد لا يصح توكله الا بأمرين احدهما قدرته على الجوع اسبوعا من غير استشراف وضيق نفس والآخر أبواب من الايمان من ذكرناها من جملتها أن يطيب نفسا بالموت ان لم يأته رزقه علما بأن رزقه الموت والجوع وهو وان كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنه سيق اليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة وأن هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك وانه كذا قضى وقدر له فبهذا يتم التوكل للمنفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندهم الايمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه ان اتفق ذلك نادرا وكذا سائر أبواب الايمان فاذا لا يمكنه في حقهم الا توكل المكتسب وهو المقام الثالث كتوكل أبي بكر رضي الله عنه اذ خرج للكسب فأما دخول البراري وترك العيال توكلا في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا في حقهم فهذا حرام وقد يفضي الى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فانه ان ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ولا يجوز له أن يضيعها الا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة فان كان لا يطيقه ويضطرب

اعلمه قلبه وتشوش عليه عبادته لم يحرزه التوكل ولذلك روى أن أباتراب النخشبي نظر
الى صوفي مد يده الى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة ايام فقال له لا يصلح لك التصوف الزم
السوق أي لا تصوف الا مع التوكل ولا يصح التوكل الا لمن يصبر عن الطعام أكثر من
ثلاثة أيام وقال أبو علي الروذباري اذا قال الفقير بعد خمسة أيام انا جائع فألزموه السوق
ومروه بالعمل والكسب فاذا بدنه عياله وتوكله فيما يضر بدنه كتوكله في عياله
وانما يفارقهم في شئ واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك
في عياله وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الاسباب بل الاعتماد على
الصبر على الجوع مدة والرضى بالموت ان تأخر الرزق نادرا وملازمة البلاد والامصار
او ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها اسباب البقاء
ولكن مع نوع من الاذى اذ لا يمكن الاستمرار عليه الا بالصبر والتوكل في الامصار
أقرب الى الاسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الاسباب الا أن الناس
عدلوا الى اسباب اظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا وذلك لضعف ايمانهم وشدة حرصهم
وقلة صبرهم على الاذى في الدنيا لاجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم باساءة
الظن وطول الامل ومن نظر في ملكوت السموات والارض انكشف له تحقيقا أن الله
تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وان ترك الاضطراب فان العاجز عن
الاضطراب لم يجاوزه رزقه أما ترى الجنين في بطن امه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب
كيف وصل سرته بالام حتى تنتهي اليه فضلات غذاء الام بواسطة السرة ولم يكن ذلك
بحيلة الجنين ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الام لتتكفل به شاءت ام أبت اضطرارا
من الله تعالى بما اشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل
رزقه من اللبن الذي لا يحتاج الى المضغ ولانه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذا الكثيف
فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الام عند انفصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة
الطفل أو بحيلة الام فاذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف انبتت له اسنانا قواطع
وطواحين لاجل المضغ فاذا كبر واستقل يسرت له اسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة
فجبنه بعد البلوغ جهل محض لانه ما نقصت اسباب معيشته ببلوغه بل زادت فانه لم يكن
قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا
وهي الام او الاب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة
أو مرتين وكان اطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلط الله
الشفقة والمودة والرقة والرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة حتى ان كل واحد
منهم اذا احس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية الى ازالة حاجته فقد كان
المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لانهم
رأوه في كفالة الام والاب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا ولو رأوه يتيما لسلط الله داعية
الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذوه ويكفلوه فما رؤي الى الآن في
سني الخصب يتيم قد مات جوعا مع انه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله

تعالى

تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبي وقد كان المشفق واحدا وشفق الآن ألف نعم كانت شفقة الام اقوى واحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وان ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وام فيجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين ويترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث يقول

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق في غشاوته الجنين

فان قلت الناس يكفلون اليتيم لانهم يرونه عاجزا بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون اليه ويقولون هو مثلنا فليجتهد لنفسه فأقول ان كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فان التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فما للبطال والتوكل وان كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه في قلوب الناس حتى يحملون اليه مؤن كفايته وانما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب الى جبل من بين الناس وما رؤى الى الآن عالم او عابد استغرق الاوقات بالله تعالى وهو في الامصار فمات جوعا ولا يرى قط بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه فان من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الام لولدها فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لاهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر الى مدبر الاسباب لا الى الاسباب نعم ما دبره تدبيرا يصل الى المشتغل به الحلوى والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا في بعض الاحوال لكن دبره تدبيرا يصل الى كل مشغول بعبادة الله تعالى في كل اسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة والغالب انه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل الا رغبة النفس في التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الاغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق الآخرة وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وانما يحصل نادرا وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فاثر الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته فلذلك لا يطمئن الى اضطرابه بل الى مدبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه وان سكن الا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب فاذا انكشفت هذه الامور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس اثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله اذ قال وددت أن أهل البصرة في عيالي وأن حبة بدينار وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والارض رصاصا واهتممت برزقي لظننت اني مشرك فاذا فهمت هذه الامور فهمت أن التوكل مقام

مهموم في نفسه ويكون الوصول اليه الى قهر نفسه وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وامكانه أنكره عن جهل فاياك أن تجمع بين الافلاسين الافلاس عن وجود المقام ذوقا والافلاس عن الايمان به علما واذا عليك بالقناعة باليسير القليل والرضى بالقوت فانه يأتيك لا محالة وان فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث اليك رزقك على يدي من لا تحتسب فان اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب الآية الا انه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذيذ الاطعمة شاء ممن لا الرزق الذي تدوم به حياته وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالناس واطمأن الى عنايته فان الذي أحاط به تدبير الله من الاسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى اليها وذلك لان ظهوره على الارض وسببه في السماء قال الله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون وأسرار السماء لا تطلع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون قالوا نطلب الرزق فقال ان علمتم أي موضع هو فاطلبوه قالوا نسأل الله قال ان علمتم انه ينساكم فذكروه فقالوا ندخل البيت ونتوكل وننظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة وقال أحمد بن عيسى الخراز كنت في البادية فنالني جوع شديد فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من افعال المتوكلين فطالبتني أن أسأل الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بي ويقول

ويزعم أنه منا قريب ❊ وانا لا نضيع من أتانا

ويسألنا على الاقتار جهدا ❊ كأنا لا نراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوي قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوي ايمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن النفس أبدا واثقا بالله عز وجل فان أسوأ أحواله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئنا فاذا تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والذي ضمن رزق القانعين بهذه الاسباب الى درها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الارزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك ولا تكن في توكلك منتظرا للاسباب بل لمسبب الاسباب كما لا تكون منتظر القلم الكاتب بل لقلب الكاتب فانه أصل حركة القلم والمحرك الاول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر الا اليه وهذا شرط توكل من يخوض البراري بلا زاد أو يقعد في الامصار وهو خامل وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم اذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وان لم يكن من اللذائذ وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام بل يأتيه أضعافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور فان اشتهاره سبب ظاهر يجلب الرزق اليه أقوى من دخول الامصار في حق الخامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين وهو بالعلماء اقبح لان شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وان كانوا معه الا اذا اراد أن لا يأخذ من ايدي الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم

العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الاخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى لانه تفرغ لله عز وجل واعانة للمعطى على نيل الثواب ومن نظر الى مجارى سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الاسباب ولذلك سأل بعض الاكاسرة حكيما عن الاحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال اراد الصانع أن يدل على نفسه اذ لو رزق كل عاقل وحرم كل احمق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالاسباب الظاهرة لهم قال الشاعر

ولو كانت الارزاق تجرى على الحجا * هلكن اذا من جهلهن البهائم

(بيان احوال المتوكلين فى التعلق بالاسباب بضرب مثال)

اعلم ان مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون الى الطعام فأخرج اليهم غلمانا كثيرة ومعهم ارغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويجتهدوا فى أن لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى نادى فيهم ان اسكنوا ولا تتعلقوا بالغلمان اذا خرجوا اليكم بل ينبغى أن يطمئن كل واحد منكم فى موضعه فان الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا اليكم طعامكم فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فاذا فتح باب الميدان وخرج اتبعته بغلام يكون موكلا به الى أن اتقدم لعقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكنى اخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فانى اختصه بخلعة سنية فى المعاد المذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت فى مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ومن اخطأه غلمانى فما اوصلوا اليه شيأ فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان ولا قائلا ليته اوصل الى رغيفا فانى غدا أستوزره وافوض ملكى اليه فانقسم السؤال الى اربعة اقسام قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا الى العقوبة الموعودة وقالوا من اليوم الى غد فرج ونحن الآن جائعون وبادروا الى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة اليهم فى الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة وقسم قالوا انا نجلس بمرئى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ اذا أعطونا رغيفا واحدا ونقنع به فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة وقسم رابع اختفوا فى زوايا الميدان وانحرفوا عن مرئى اعين الغلمان) وقالوا ان اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد وان اخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما نفعهم ذلك اذ اتبعهم الغلمان فى كل زاوية واعطوا كل واحد رغيفا واحدا وجرى مثل ذلك اياما حتى اتفق على الندور أن اختفى ثلاثة فى زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا فى جوع شديد فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للغلمان واخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر وسكت الثالث الى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا

مثال الخلق والميدان هو الحياة في الدنيا وباب الميدان الموت والميعاد المجهول يوم القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل اذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك الى معاد القيامة لان الشهداء احياء عند ربهم يرزقون والمعلق بالغلمان هو المعتدي في الاسباب والغلمان المسخرون هم الاسباب والناس في ظهر الميدان عز مى الغلمان هم المقيمون في الامصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والاسباب تتبعهم والرزق يأتيهم الاعلى سبيل الندور فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله السهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الخلق الى هذه الاقسام الاربعة ولعل من كل مائة تعلق بالاسباب تسعون واقام سبعة من العشرة الباقية في الامصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم وساح في البوادي ثلاثة وسقط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد ولعله كان كذلك في الاعصار السالفة وأما الآن فالتارك للاسباب لاينتهي الى واحد من عشرة آلاف * (الفن الثاني) * في التعرض لاسباب الادخار فمن حصل له مال بارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الاسباب فله في الادخار ثلاثة احوال * الاول أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل ان كان جائعا ويلبس ان كان عاريا ويشتري مسكنا مختصرا ان كان محتاجا ويفرق الباقي في الحال ولا يأخذه ولا يدخره الا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج اليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا وهي الدرجة العليا * الحالة الثانية المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل ان يدخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من المتوكلين اصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات الا ثلاث الفارة والنملة وابن آدم * الحالة الثالثة ان يدخر لاربعين يوما فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل الى انه يخرج عن حد التوكل وذهب الخواص الى انه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الاربعين وقال ابو طالب المكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الاربعين ايضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز اصل الادخار نعم يجوز ان يظن ظان أن أصل الادخار ينافي التوكل فاما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى اصحاب النهايات السابقين واصحاب البدايات اصحاب اليمين ثم اصحاب اليمين ايضا على درجات وكذلك السابقون واعالي درجات اصحاب اليمين تلاصق اسافل درجات السابقين فلا معنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق ان التوكل بترك الادخار لا يتم الا بقصر الامل واما عدم آمال البقا فيبعد اشتراطه ولو في نفس فان ذلك كالممتنع وجوده اما الناس فمتفاوتون في طول الامل وقصره واقل درجات الامل يوم وليلة فما دونه من الساعات واقصاه ما يتصور ان يكون عمر الانسان وبينهما درجات لا حصر لها فمن لم يؤمل اكثر من شهر اقرب الى المقصود ممن يؤمل سنة وتقديره بأربعين لاجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد فان تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الامل فيه ولكن

استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم الا بعد اربعين يوما لسر جرت به وبامثاله سنة الله تعالى في تدريج الامور كما قال عليه السلام ان الله خمر طينة آدم بيده اربعين صباحا لان استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر فاذا ما وراء السنة لا يدخره الا بحكم ضعف القلب والركون الى الظاهر من الاسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق باحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الاسباب فان اسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ومن ادخر اقل من سنة فله درجة بحسب قصر امله ومن كان امله شهرين لم تكن درجته كدرجة من امل شهرا ولا درجة من امل ثلاثة اشهر بل هو بينهما في الرتبة ولا يمنع من الادخار الا قصر الامل فالافضل ان لا يدخر اصلا وان ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله اكثر وقد روى في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه واسامة ان يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته فلما دفنه قال لاصحابه انه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية قلنا وما هي يا رسول الله قال كان صواما قواما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان اذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه واذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ثم قال صلى الله عليه وسلم من اقل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث وليس الكوز والسفرة وما يحتاج اليه على الدوام في معنى ذلك فادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج اليه في الصيف وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ولا يستشرف نفسه الى ايدي الخلق بل لا يلتفت قلبه الا الى الوكيل الحق فان كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له اولى بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه الا به فذلك له اولى لان المقصود اصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل والا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل الى الله تعالى وأرشدهم الى ان فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا الى الله تعالى وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما ان صواب القوي ترك الادخار وهذا كله حكم المفرد فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكينا لقلوبهم وادخار اكثر من ذلك مبطل للتوكل لان الاسباب تتكرر عند تكرر السنين فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب مطمئن النفس الى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الاسباب الظاهرة وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ونهى ام ايمن وغيرها أن تدخر له شيئا لغد ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها فقال صلى الله عليه وسلم

أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالا وقال صلى الله عليه وسلم إذا سئلت فلا تمنع
وإذا أعطيت فلا تخبأ اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم وقد كان قصر أمله
بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول ما يدريني لعلي لا أبلغه وقد كان صلى الله عليه
وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره ولكن عليه السلام ترك
ذلك تعليما للأقوياء من أمته فإن أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوته وادخر عليه
السلام لعياله سنة لا لضعف قلبه فيه وفي عياله ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته فل
أخبر أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه تطييبا لقلوب الضعفاء حتى
لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم لعجزهم
عن منتهى الدرجات فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على
اختلاف أصنافهم ودرجاتهم. وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد
لا يضر ويدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلي أن بعض أصحاب الصفة توفي فما وجد له كفن
فقال صلى الله عليه وسلم فتشوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله
عليه وسلم كيتان وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك في حقه
وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين أحدهما أنه أراد كيتان من النار كما قال تعالى
تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم وذلك إذ كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل
مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبيس والثاني أن لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به
النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه وذلك لا يكون
عن تلبيس فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة إذ لا يؤتى أحد من
الدنيا شيئا إلا نقص بقدره من الآخرة. وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدخر
ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ما روي عن بشر قال الحسن المغازلي من أصحابه
كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه كهل أسمر خفيف العارضين فقام إليه بشر
قال وما رأيته قام لأحد غيره قال ودفع إلي كفا من دراهم وقال اشتر لنا من أطيب
ما تقدر عليه من الطعام الطيب وما قال لي قط مثل ذلك قال فجئت بالطعام فوضعته
فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير فأخذه
الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف فعجبت من ذلك وكرهته له فقال لي بشر لعلك
أنكرت فعله قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن فقال ذلك أخونا فتح الموصلي زارنا
اليوم من الموصل فإنما أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار.

(الفن الثالث مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف)

اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب
الدافعة رأسا أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجاري السيل من الوادي
أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه
للهلاك بغير فائدة نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها وإلى مظنونة وإلى موهومة فترك
الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكي والرقية فإن

الكي والرقية قد يتقدم به على المحذور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول المحذور
للازالة ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين الا بترك الكي والرقية والطيرة
ولم يصفهم بأنهم اذا خرجوا الى موضع بارد لم يلبسوا جبة والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع
وكذلك كل ما في معناها من الاسباب نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلا عند الخروج الى
السفر في الشتاء تهييجا للقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الاسباب
والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة ولترك الاسباب الدافعة وان كانت
مقطوعة وجه اذا ناله الضرر من انسان فانه اذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي
فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون وقال
تعالى ولنصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقال عز وجل ودع أذاهم
وتوكل على الله وقال سبحانه وتعالى فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل وقال تعالى نعم
أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون وهذا في أذى الناس وأما الصبر على أذى
الحيات والسباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل في شئ اذ لا فائدة فيه ولا يراد
السعي ولا يترك السعي لعينه بل لاعانته على الدين وترتب الاسباب ههنا كترتبها
في الكسب وجلب النافع فلا نطوّل بالاعادة وكذلك في الاسباب الدافعة
عن المال فلا ينقص التوكل باغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير
لانّ هذه اسباب عرفت بسنة الله تعالى اما قطعا واما ظنا ولذلك قال صلى الله
عليه وسلم للاعرابي لما ان اهمل البعير وقال توكلت على الله اعقلها وتوكل وقال
تعالى خذوا حذركم وقال في كيفية صلاة الخوف وليأخذوا اسلحتهم وقال
سبحانه وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل وقال تعالى لموسى عليه
السلام فأسر بعبادي ليلا والتحصن بالليل اختفاء عن اعين الاعداء ونوع تسبب
واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار اختفاء عن اعين الاعداء دفعا للضرر
وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فانه دافع قطعا
ولكن أخذ السلاح سبب مظنون وقد بينا أن المظنون كالمقطوع وانما الموهوم
هو الذي يقتضي التوكل تركه فان قلت فقد حكي عن جماعة أن منهم من وضع
الاسد يده على كتفه ولم يتحرّك فأقول وقد حكي عن جماعة انهم ركبوا الاسد وسخروه
ولا ينبغي أن يغرك ذلك المقام فانه وان كان صحيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق
التعلم من الغير بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطا في التوكل وفيه
أسرار لا يقف عليها من لم ينته اليها فان قلت وهل من علامة أعلم بها اني قد وصلت اليها
فاقول الواصل لا يحتاج الى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة
عليه أن يسخر لك كلب هو معك في اهابك يسمى الغضب فلا يزال يعضك ويعض غيرك
فان سخر لك هذا الكلب بحيث اذا هيج واشلي لم يستشل الا باشارتك وكان مسخرا
لك فربما ترتفع درجتك الى أن يسخر لك الاسد الذي هو ملك السباع وكلب دارك اولى
من أن يكون مسخرا لك من كلب الوادي وكلب اهابك اولى بأن يتسخر من كلب دارك

فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر فإن قلت فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن يطلق فبأي اعتبار يكون متوكلا فنقول يكون متوكلا بالعلم والحال فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه فكم من باب يغلق ولا ينفع وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب فلا تتكل على هذه الأسباب أصلا بل على مسبب الأسباب كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله بل على كفاية الوكيل وقوته وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك فإني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أو عارية ووديعة فتستردها ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري وكيفما قضيت فأنا راض به وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ثم إذا عاد ووجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى وإن لم يجده بل وجده مسروقا فلينظر إلى قلبه فإن وجده راضيا أو فرحا بذلك عالما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقا في دعوى التوكل لأن التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد إلا ممن لا يأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه فقد كانت السرقة مزيدا له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه في جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها فإنها خداعة أمارة بالسوء مدّعية للخير فإن قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى تؤخذ فأقول المتوكل لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل منها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه إليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وإنما ذلك في المأكول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة لأن سنة الله جارية بوصول الخبز إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم وفي كل أسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل ولذلك كان الخوّاص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض

والابرة دون الزاد لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الامرين فان قلت وكيف يتصور ان لا يحزن اذا اخذ متاعه الذي هو محتاج اليه ولا يتأسف عليه فان كان لا يشتهيه فلم امسكه واغلق الباب عليه وان كان امسكه لانه يشتهيه لحاجته اليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه فأقول انما كان يحفظه ليستعين به على دينه اذ كان يظن ان الخيرة له في ان يكون له ذلك المتاع ولولا ان الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما اعطاه اياه فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على اسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به اذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب اكثر فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه لانه في جميع الاحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها الى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما اخذها مني فبمثل هذا الظن يتصور ان يندفع عنه الحزن اذ به يخرج عن ان يكون فرحه بالاسباب من حيث انها اسباب بل من حيث انه يسرها مسبب الاسباب عناية به وتلطفا وهو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فان قدم اليه الغذاء فرح وقال لولا أنه يعرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربه الى وان اخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا أن الغذاء يضرني ويسوقني الى الموت لما حال بيني وبينه وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق بعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا ومن عرف الله تعالى وعرف افعاله وعرف سنته في أصلاح عباده لم يكن فرحه بالاسباب فانه لا يدري اي الاسباب خير له كما قال عمر رضي الله عنه لا ابالي أصبحت غنيا او فقيرا فاني لا ادري ايهما خير لي فكذلك ينبغي ان لا يبالي المتوكل يسرق متاعه اولا يسرق فانه لا يدري ايهما خير له في الدنيا او في الآخرة فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غني يبتلى بواقعة لاجل غناه يقول يا ليتني كنت فقيرا

(بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم)

للمتوكل آداب في متاع بيته اذا خرج عنه (الاول) أن يغلق الباب ولا يستقصي في اسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق وكجمعه أغلاقا كثيرة فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشده بشريط ويقول لولا الكلاب ما شددته أيضا (الثاني) ان لا يترك في البيت متاعا يحرص عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أو امساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما اهدى المغيرة الى مالك بن دينار ركوة قال خذها لا حاجة لي اليها قال لم قال يوسوس الى العدو أن اللص أخذها فكانه احترز من أن يعصي السارق ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ولذلك قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها (الثالث) ان ما يضطر الى تركه في البيت ينبغي ان ينوي عند خروجه الرضى بما يقضي الله فيه من

يسلط سارق عليه و يقول ما يأخذه السارق فهو منه في حل او هو في سبيل الله تعالى
وان كان فقيرا فهو عليه صدقة وان لم يشترط الفقر فهو اولى فيكون له نيتان لو اخذه غني
او فقير احداهما ان يكون ماله مانعا له من المعصية فانه ربما يستغني به فيتوانى عن
السرقة بعده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما ان جعله في حل والثانية ان لا يظلم مسلما
آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ومهما نوى حراسة مال غيره بمال نفسه او نوى
دفع المعصية عن السارق او تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله صلى الله عليه
وسلم انصر اخاك ظالما او مظلوما ونصر الظالم ان تمنعه من الظلم وعفوه عنه اعدام للظلم
ومنع له وليتحقق ان هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه اذ ليس فيها ما يسلط السارق
و يغير القضاء الازلي وليكن يتحقق بالزهد نيته فان أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة
درهم لانه نواه وقصده وان لم يؤخذ حصل له الاجر ايضا كما روي عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم فيمن يترك العزل فاقر النطفة قرارها ان له اجر غلام ولد له من ذلك الجماع
وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وان لم يولد له لانه ليس اليه في امر الولد الا الوقاع
فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس اليه فلو خلق لكان ثوابه على فعله وفعله
لم ينعدم فكذلك امر السرقة (الرابع) انه اذا وجد المال مسروقا فينبغي ان لا يحزن
بل يفرح ان امكنه و يقول لولا ان الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم ان لم يكن
قد جعله في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه وفي اساءة الظن بالمسلمين وان كان قد
جعله في سبيل الله فيترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه الى الآخرة فان اعيد عليه
فالاولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل وان قبله فهو في ملكه
في ظاهر العلم لان الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند المتوكلين وقد
روي ان ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى اعيا ثم قال في سبيل الله تعالى فدخل المسجد
فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل فقال يا ابا عبد الرحمن ان ناقتك في مكان كذا فلبس نعله
وقام ثم قال استغفر الله وجلس فقيل له الا تذهب فتأخذها فقال اني كنت قلت
في سبيل الله وقال بعض الشيوخ رأيت بعض اخواني في النوم بعد موته فقلت ما فعل الله
بك قال غفر لي وادخلني الجنة وعرض علي منازلي فيها فرأيتها قال وهو مع ذلك كئيب
حزين فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتنفس الصعداء ثم قال نعم اني
لا ازال حزينا الى يوم القيامة قلت ولم قال اني لما رأيت منازلي في الجنة رفعت لي مقامات
في عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت ففرحت بها فلما هممت بدخولها نادى مناد من
فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له انما هي لمن امضى السبيل فقلت وما امضاء السبيل
فقال لي كنت تقول للشيء انه في سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت امضيت السبيل
لامضيناه لك وحكي عن بعض العباد بمكة انه كان نائما الى جنب رجل معه هميان فانتبه
الرجل ففقد هميانه فاتهمه به فقال له كم كان في هميانك فذكره فحمله الى داره ووزنه
من عنده ثم بعد ذلك اعلمه اصحابه انهم كانوا اخذوا الهميان مزاحا معه فجاء هو واصحابه
معه وردوا الذهب فأبى وقال خذه حلالا طيبا فما كنت لاعود في مال اخرجته

في سبيل الله عز وجل فلم يقبل فألحوا عليه فدعا أناله وجعل يصره صررا و يبعث بها الى الفقراء حتى لم يبق منه شئ فهكذا كانت اخلاق السلف وكذلك من اخذ رغيفا ليعطى فقيرا فغاب عنه كان يكره رده الى البيت بعد اخراجه فيعطى فقيرا آخر وكذلك فى الدراهم والدنانير وسائر الصدقات ﴿(الخامس)﴾ وهو اقل الدرجات ان لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالا حد فان فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات و بطل زهده ولو بالغ فيه بطل ايضا اجره فيما اصيب به ففى الخبر من دعا على ظالمه فقد انتصر وحكى ان الربيع بن خيثم سرق فرس له وكان قيمته عشرين الفا وكان قائما يصلى فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه فجاءه قوم يعزونه فقال أما انى قد كنت رأيته وهو يحله قيل وما منعك أن تزجره قال كنت فيما هو أحب الى من ذلك يعنى الصلاة فجعلوا يدعون عليه فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا فانى قد جعلتها صدقة عليه وقيل لبعضهم فى شئ قد كان سرق له الا تدعو على ظالمك قال ما احب أن أكون عونا للشيطان عليه قيل أرأيت لو رد عليك قال لا آخذه ولا انظر اليه لانى كنت قد احللته له وقيل لآخر ادع الله على ظالمك فقال ما ظلمني أحد ثم قال انما ظلم نفسه ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى ازيده شرا واكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف فى ظلمه فقال لا تغرق فى شتمه فان الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن اخذ ماله ودمه وفى الخبر ان العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه و يسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم ﴿(السادس)﴾ أن يغتم لاجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى و يشكر الله تعالى اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقصان دنياه لا نقصان دينه فقد شكا بعض الناس الى عالم انه قطع عليه الطريق واخذ ماله فقال ان لم يكن لك غم انه قد صار فى المسلمين من يستحل هذا اكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين وسرق من على بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه ابوه وهو يبكي و يحزن فقال اعلى الدنانير تبكى فقال لا والله ولكن على المسكين ان يسأل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل لبعضهم ادع على من ظلمك فقال انى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه اخلاق السلف رضى الله عنهم اجمعين ﴿(الفن الرابع فى السعى فى ازالة الضرر كمداواة المرض وامثاله)﴾ اعلم أن الاسباب المزيلة للمرض أيضا تنقسم الى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع والى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر ابواب الطب اعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهى الاسباب الظاهرة فى الطب والى موهوم كالكى والرقية أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت وأما الموهوم فشرط التوكل تركه اذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين وأقواها الكى ويليه الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال اليها غاية التعمق فى ملاحظة الاسباب وأما الدرجة المتوسطة وهى المظنونة كالمداواة بالاسباب الظاهرة عند الاطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظورا

أعلاق المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص
فهي على درجة بين الدرجتين ويدل على أن المداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقوله وأمره به أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم ما من داء
إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام يعني الموت وقال عليه السلام
تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله
شيئا فقال هي من قدر الله وفي الخبر المشهور ما مررت بملإ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك
بالحجامة وفي الحديث أنه أمر بها وقال احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى
وعشرين لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم فذكر أن تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن
الله تعالى وبين أن إخراج الدم خلاص منه إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب
وبين إخراج العقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل
ترك ذلك بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت
وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا وفي خبر مقطوع من احتجم يوم الثلاثاء
لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير
واحد من الصحابة بالتداوي وبالحمية وقطع لسعد بن معاذ عرقا أي فصده وكوى سعد
ابن زرارة وقال لعلي رضي الله تعالى عنه وكان رمد العين لا تأكل من هذا يعني الرطب
وكل من هذا فإنه أوفق لك يعني سلقا قد طبخ بدقيق شعير وقال لصهيب وقد رآه يأكل
التمر وهو وجع العين أتأكل تمرا وأنت أرمد فقال إني آكل من الجانب الآخر فتبسم صلى
الله عليه وسلم وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روي في حديث من طريق أهل
البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة قيل السنا المكي
وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها وروي أنه كان إذا نزل عليه
الوحي صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء وفي خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها
حناء وقد جعل على قرحة خرجت به ترابا وما روي في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن
الحصر وقد صنف في ذلك كتاب وسمي طب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء
في الإسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا
علته فقالوا لو تداويت بكذا لبرئت فقال لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء فطالت
علته فقالوا إن دواء هذه العلة معروف مجرب وإنا نتداوى به فنبرأ فقال لا أتداوى
وأقامت علته فأوحى الله تعالى إليه وعزتي وجلالي لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك
فقال لهم داووني بما ذكرتم فداووه فبرأ فأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه
أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك علي فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري وروي
في خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكا علة يجدها فأوحى الله تعالى إليه كل
البيض وشكا نبي آخر الضعف فأوحى الله تعالى إليه كل اللحم باللبن فإن فيهما القوة قيل
هو الضعف عن الجماع وقد روي أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى
إليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك في الشهر

الثالث والرابع اذ فيه يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل والنفساء الرطب فهذا تبين أن مسبب الاسباب اجرى سنته بربط المسببات بالاسباب اظهارا للحكمة والادوية اسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الاسباب فكما أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء والسقمونيا دواء الاسهال لا يفارقه الا فى أحد أمرين احدهما أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلى واضح يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص فمن ادرك ذلك بالتجربة التحق فى حقه بالاول . والثانى أن الدواء يسهل والسكنجبين يسكن الصفرا بشروط أخر فى الباطن واسباب فى المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الاسهال وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب دوام العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الاسباب ابدا ينحصر فى هذين الشيئين والا فالمسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الاسباب وتسخيره وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر الى مسبب الاسباب دون الطبيب والدواء فقد روى عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال يارب ممن الداء والدواء فقال تعالى منى قال فما يصنع الاطباء قال يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادى حتى يأتى شفائى او قضائى فاذا معنى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال كما سبق فى دون الاعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع فأما ترك التداوى رأسا فليس شرطا فيه فان قلت فالكى أيضا من الاسباب الظاهرة النفع فأقول ليس كذلك اذ الاسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقى المبردات للمحرور وأما الكى فلو كان مثلها فى الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه وقلما يعتاد الكى فى أكثر البلاد وانما ذلك عادة بعض الاتراك والاعراب فهذا من الاسباب الموهومة كالرقى الا انه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار فى الحال مع الاستغناء عنه فانه ما من وجع يعالج بالكى الا وله دواء يغنى عنه ليس فيه احراق فالاحراق بالنار جرح مخرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه بخلاف الفصد والحجامة فان سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما غيرهما ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكى دون الرقى وكل واحد منهما بعيد عن التوكل وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكى فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه الامير حتى اكتوى فكان يقول كنت ارى نورا وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة فلما اكتويت انقطع ذلك عنى وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما افلحن ولا انجحن ثم تاب من ذلك واناب الى الله تعالى فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من امر الملائكة وقال لمطرف بن عبد الله ألم تر الى الملائكة التى كان اكرمنى الله بها قد ردها الله تعالى على بعد أن كان اخبره بفقدها فاذا الكى وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالمتوكل لانه يحتاج فى استنباطه الى تدبير ثم هو مذموم ويدل ذلك على شدة ملاحظة الاسباب وعلى التعمق فيها والله أعلم

(بيان أن ترك التداوي قد يحمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل وأن ذلك
لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الذين تداووا من السلف لا ينحصرون ولكن قد ترك التداوي أيضا جماعة من الأكابر فربما يظن أن ذلك نقصان لأنه لو كان كمالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله وقد روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قيل له لو دعونا لك طبيبا فقال الطبيب قد نظر إلي وقال إني فعال لما أريد وقيل لأبي الدرداء في مرضه ما تشتكي قال ذنوبي قيل فما تشتهي قال مغفرة ربي قالوا ألا ندعو لك طبيبا قال الطبيب أمرضني وقيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه لو داويتهما قال إني عنهما مشغول فقيل له لو سألت الله تعالى أن يعافيك فقال أسأله فيما هو أهم علي منهما وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج فقيل له لو تداويت فقال قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطباء فهلك المداوي والمداوى ولم تغن الرقى شيأ وكان أحمد بن حنبل يقول أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا إذا سأله وقيل لسهل متى يصح للعبد التوكل قال إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلا بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه فإذا منهم من ترك التداوي ورآه ومنهم من كرهه ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوي فنقول إن لترك التداوي أسبابا (السبب الأول) أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة وتارة بحدس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه أن يكون ترك الصديق رضي الله عنه المداوي من هذا السبب فإنه كان من المكاشفين فإنه قال لعائشة رضي الله عنها في أمر الميراث إنما هن أختاك وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله وإلا فلا يظن به إنكار التداوي وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوي وأمر به (السبب الثاني) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوي شغلا بحاله وعليه يدل كلام أبي ذر إذ قال إني عنهما مشغول وكلام أبي الدرداء إذ قال إنما أشتكي ذنوبي فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالخائف الذي يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له ألا تأكل وأنت جائع فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طعنا فيمن أكل ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له ما القوت فقال هو ذكر الحي القيوم فقيل إنما سألناك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألناك عن الغذاء قال الغذاء هو الذكر قيل سألناك عن طعمة الجسد قال ما لك وللجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخرا إذا دخل عليه علة فرده إلى صانعه أما رأيت

الصنعة اذا عيبت ردوها الى صانعها حتى يصلحها * (السبب الثالث) * أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالاضافة الى لمته موهوم النفع جار مجرى الكى والرقية فيتركه المتوكل واليه يشير قول الربيع بن خيثم اذ قال ذكرت عادا وثمود وفيهم الاطباء فهلك المداوى والمداوى أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك فى نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يغلب على ظنه كونه نافعا ولا شك فى أن الطبيب المجرب اشد اعتقادا فى الادوية من غيره فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة واكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم لانه يبقى الدواء عندهم شيأ موهوما لا اصل له وذلك صحيح فى بعض الادوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح فى البعض ولكن غير الطبيب قد ينظر الى الكل نظرا واحدا فيرى التداوى تعمقا فى الاسباب كالكى والرقى فيتركه توكلا * (السبب الرابع) * أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليجرب نفسه فى القدرة على الصبر فقد ورد فى ثواب المرض ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء أشد الناس بلاء ثم الامثل فالامثل يبتلى العبد على قدر ايمانه فان كان صلب الايمان شدد عليه البلاء وان كان فى ايمانه ضعف خفف عنه البلاء وفى الخبر ان الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب احدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الابريز لا يريد ومنهم دون ذلك ومنهم من يخرج اسود محترقا وفى حديث من طريق اهل البيت ان الله تعالى اذا احب عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضى اصطفاه وقال صلى الله عليه وسلم تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون وقال ابن مسعود رضى الله عنه تجد المؤمن اصح شئ قلبا وامرضه جسما وتجد المنافق اصح شئ جسما وأمرضه قلبا فلما عظم الثناء على المرض والبلاء احب قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه وكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أن الحق اغلب على قلبه من ان يشغله المرض عنه وانما يمنع المرض جوارحه وعلموا أن صلاتهم قعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة فى الخبر ان الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمله فانه فى وثاقى ان اطلقته ابدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وان توفيته توفيته الى رحمتى وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الاعمال ما اكرهت عليه النفوس فقيل معناه ما دخل عليه من الامراض والمصائب واليه الاشارة بقوله تعالى وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وكان سهل يقول ترك التداوى وان ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لاجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوى الناس منها وكان اذا رأى العبد يصلى من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الامراض فيتداوى للقيام الى الصلاة والنهوض الى الطاعات يعجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضى بحاله افضل من التداوى للقوة والصلاة قائما وسئل عن شراب الدواء فقال كل من

دخل في شيء من الدواء فانما هو سعة من الله تعالى لاهل الضعف ومن لم يدخل في شيء منه فهو أفضل لانه ان احد شيأ من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم احده ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب المذهب من ضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بأن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضى والتوكل افضل من امثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا يمنع من أعمال القلوب الا اذا كان ألمه غالبا مدهشا وقال سهل رحمه الله علل الاجسام رحمة الله وعلل القلوب عقوبة ‌‌‌(السبب الخامس) أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى المرض اذا طال تكفيرا فيترك التداوي خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال صلى الله عليه وسلم لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشي على الارض كالبردة ما عليه ذنب ولا خطيئة وفي الخبر حمى يوم كفارة سنة فقيل لانها تهد قوة سنة وقيل للانسان ثلاثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى في جميعها ويجد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموما فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الانصار فكانت الحمى لا تزايلهم ولما قال صلى الله عليه وسلم من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة قال فلقد كان من الانصار من يتمنى العمى وقال عيسى عليه السلام لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والامراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطاياه وروى ان موسى عليه السلام نظر الى عبد عظيم البلاء فقال يارب ارحمه فقال تعالى كيف ارحمه فيما به ارحمه اي به اكفر ذنوبه وازيد في درجاته ‌‌(السبب السادس) ‌‌أن يستشعر العبد في نفسه مبادي البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوي خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان او طول الامل والتسويف في تدارك الفائت وتأخير الخيرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها تنبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو الى المعاصي واقلها أن تدعو الى التنعم في المباحات وهو تضييع الاوقات واهمال الربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات واذا اراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالامراض والمصائب ولذلك قيل لا يخلو المؤمن من علة او قلة او ذلة وقد روى ان الله تعالى يقول الفقر سجني والمرض قيدي احبس به من احب من خلقي فاذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأي خير يزيد عليه ولا ينبغي ان يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصي فقد قال بعض العارفين لانسان كيف كنت بعدي قال في عافية قال ان كنت لم تعص الله عز وجل فانت في عافية وان كنت قد عصيته فاي داء ادوأ من المعصية ما عوفي من عصى الله وقال علي كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم عيد ما هذا الذي أظهروه قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم فقال كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد وقال تعالى من بعد ما أراكم ما تحبون قيل العوافي أن الانسان ليطغى أن رآه استغنى وكذلك اذا استغنى بالعافية وقال بعضهم انما قال فرعون أنا ربكم الاعلى لطول

العافية

العافية لانه لبث اربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية لعنه الله ولو أخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية وقال صلى الله عليه وسلم أكثروا من ذكر هادم اللذات وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويف وقال تعالى أولا يرون انهم يفتنون فى كل عام مرة او مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ويقال ان العبد اذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت يا غافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تجب وقد كان السلف لذلك يستوحشون اذا خرج عام لم يصابوا فيه بنقص فى نفس أو مال وقالوا لا يخلو المؤمن فى كل اربعين يوما أن يروع روعة او يصاب ببلية حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها وأن النبى صلى الله عليه وسلم عرض عليه امرأة فحكى من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل وانها ما مرضت قط فقال لا حاجة لى فيها وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الامراض والاوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال صلى الله عليه وسلم اليك عنى من اراد أن ينظر الى رجل من اهل النار فلينظر الى هذا وهذا لانه ورد فى الخبر الحمى حظ كل مؤمن من النار وروى حديث انس وعائشة رضى الله عنهما قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة وفى لفظ آخر الذى يذكر ذنوبه فتحزنه ولا شك فى أن ذكر الموت على المريض اغلب فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة فى زوالها اذ رأوا لانفسهم مزيدا فيها لا من حيث رأوا التداوى نقصانا وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم

(بيان الرد على من قال ترك التداوى افضل بكل حال)

فان قال قائل انما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسن لغيره والا فهو حال الضعفا ودرجة الاقوياء توجب التوكل بترك الدواء فيقال ينبغى ان يكون من شرط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدم فان قيل ان ذلك ايضا شرط فليكن من شرطه ان تلدغه العقرب او الحية فلا ينحيها عن نفسه اذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما فان قال وذلك ايضا شرط التوكل فيقال ينبغى أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لا قائل به ولا فرق بين هذه الدرجات فان جميع ذلك اسباب رتبها مسبب الاسباب سبحانه وتعالى واجرى بها سنته ويدل على ان ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة فى قصة الطاعون فانهم لما قصدوا الشام وانتهوا الى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا فافترق الناس فرقتين فقال بعضهم لا ندخل على الوباء فنلقى بأيدينا الى التهلكة وقالت طائفة اخرى بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فرجعوا الى عمر فسألوه عن رأيه فقال نرجع ولا ندخل على الوباء فقال له المخالفون فى رأيه انفر من قدر الله تعالى قال عمر نعم نفر من قدر الله الى قدر الله ثم ضرب لهم مثلا

فقال أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان احداهما مخصبة والأخرى مجدبة أليس ان رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وان رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك فقال عندي فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر الله أكبر فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه واذا وقع في أرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى اذ وافق رأيه ورجع من الجابية بالناس فاذا كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات ان كان أمثال هذا من شروط التوكل فان قلت فلم نهى عن الخروج من البلد الذي فيه الوباء وسبب الوباء في الطب الهواء واظهر طرق التداوي الفرار من المضر والهواء هو المضر فلم لم يرخص فيه فاعلم انه لا خلاف في أن الفرار عن المضر غير منهي عنه اذ الحجامة والفصد فرار من المضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على المقصود ولكن الذي ينقدح فيه والعلم عند الله تعالى أن الهواء لا يضر من حيث انه يلاقي ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فانه اذا كان فيه عفونة ووصل الى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر الا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذي استحكم من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيا عنه ولكن صار منهيا عنه لانه انضاف اليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقي في البلد الا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتها بأنفسهم فيكون ذلك سعيا في اهلاكهم تحقيقا وخلاصهم منتظر كما أن خلاص الأصحاء منتظر فلو أقاموا لم تكن الاقامة قاطعة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص وهو قاطع في اهلاك الباقين والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا والمؤمنون كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى اليه سائر أعضائه فهذا هو الذي ينقدح عندنا في تعليل النهي وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فانه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة اليهم نعم لو لم يبق بالبلد الا مطعونون وافتقروا الى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الاعانة ولا ينهى عن الدخول لانه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين وبهذا اشبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف لان فيه كسر القلوب بقية المسلمين وسعيا في اهلاكهم فهذه امور دقيقة فمن لا يلاحظها ونظر الى ظواهر الأخبار والآثار تناقض عنده أكثر ما سمعه وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وانما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك فان قلت ففي ترك التداوي فضل كما ذكرت

فلم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل فنقول فيه فضل بالاضافة الى من كثرت ذنوبه ليكفرها او خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات او احتاج الى مايذكره الموت لغلبة الغفلة او احتاج الى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين او قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما اودع الله تعالى فى الادوية من لطائف المنافع حتى صار فى حقه موهوما كالرقى او كان شغله بحالة تمنعه عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع فالى هذه المعانى رجعت الصوارف فى ترك التداوى وكل ذلك كمالات بالاضافة الى بعض الخلق ونقصان بالاضافة الى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها اذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الاسباب وفقدها فانه لم يكن له نظر فى الاحوال الا الى مسبب الاسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الاسباب كما ان الرغبة فى المال نقص والرغبة عن المال كراهية له وان كانت كمالا فهى ايضا نقص بالاضافة الى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لا لخوفه على نفسه من امساكه فانه كان اعلى رتبة من أن تغره الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الارض وأبى أن يقبلها فكذلك يستوى عنده مباشرة الاسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة وانما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا الامته فيما تمس اليه حاجتهم مع انه لا ضرر فيه بخلاف ادخال الاموال فان ذلك يعظم ضرره نعم التداوى لا يضر الا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه من حيث انه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصى وذلك منهى عنه والمؤمن فى غالب الامر لا يقصد ذلك وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث انه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا فحكم التداوى فى مقصوده كحكم الكسب فانه ان اكتسب للاستعانة على الطاعة او على المعصية كان له حكمها وان اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعانى التى اوردناها أن ترك التداوى قد يكون افضل فى بعض الاحوال وأن التداوى قد يكون افضل فى بعض وأن ذلك يختلف باختلاف الاحوال والاشخاص والنيات وان واحدا من الفعل والترك ليس شرطا فى التوكل الا ترك الموهومات كالكى والرقى فان ذلك تعمق فى التدبيرات لا يليق بالمتوكلين

(بيان حكم التوكل فى اظهار المرض وكتمانه)

اعلم أن كتمان المرض واخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات لان الرضى بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمانه اسلم عن الآفات ومع هذا فالاظهار لا بأس به اذا صحت فيه النية والمقصد ومقاصد الاظهار ثلاثة. (الاول) أن يكون غرضه التداوى فيحتاج الى ذكره للطبيب فيذكره لا فى

معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى فقد كان بشر يسف لعبد الرحمن المتطبب أوجاعه وكان احمد بن حنبل يخبر بأمراضه ويقول انما اصف قدرة الله تعالى في ما بي وأن يسف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر انه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم قال الحسن البصري اذا حمد المريض الله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى (الثالث) أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره الى الله تعالى وذلك يحسن ممن يليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز كما روى أنه قيل لعلي في مرضه رضي الله عنه كيف أنت قال بشر فنظر بعضهم الى بعض كانهم كرهوا ذلك وظنوا انه شكاية فقال اتجلد على الله فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم اياه حيث مرض علي كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول اللهم صبرني على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فسل الله تعالى العافية فهذه النيات يرخص في ذكر المرض وانما اشترط ذلك لان ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كما ذكرناه في تحريم السؤال على الفقراء الا بضرورة وتصير الاظهار شكاية بقرينة السخط واظهار الكراهة لفعل الله تعالى فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الاولى تركه لانه ربما يوهم الشكاية ولانه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوي توكلا فلا وجه في حقه للاظهار لان الاستراحة الى الدواء افضل من الاستراحة الى الافشاء وقد قال بعضهم من بث لم يصبر وقيل في معنى قوله صبر جميل لا شكوى فيه وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذي اذهب بصرك قال مر الزمان وطول الاحزان فاوحى الله تعالى اليه تفرغت لشكواي الى عبادي فقال يارب اتوب اليك وروى عن طاوس ومجاهد انهما قالا يكتب على المريض انينه في مرضه وكانوا يكرهون انين المريض لانه اظهار معنى يقتضي الشكوى حتى قيل ما اصاب ابليس لعنه الله من ايوب عليه السلام الا انينه في مرضه فجعل الانين حظه منه وفي الخبر اذا مرض العبد أوحى الله تعالى الى الملكين انظرا ما يقول لعواده فان حمد الله وأثنى بخير دعوا له وان شكا وذكر شرا قالا كذلك تكون وانما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام فكان بعضهم اذا مرض اغلق بابه فلم يدخل عليه احد حتى يبرأ فيخرج اليهم منهم فضيل ووهيب وبشر وكان فضيل يقول اشتهي أن امرض بلا عواد وقال لا اكره العلة الا لاجل العواد رضي الله عنه وعنهم اجمعين كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه يتلوه ان شاء الله تعالى كتاب المحبة والشوق والانس والرضى والله سبحانه وتعالى الموفق

(كتاب المحبة والشوق والانس والرضى وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات الى زخرف الدنيا ونضرته ووصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى اشرقت بأنوار معرفته ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما اغبر في وجه العقل وبصيرته وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا ايها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى في بحر معرفته ومحترقة بنار محبته والصلاة على محمد خاتم الانبياء بكمال نبوته وعلى آله واصحابه سادة الخلق وائمته وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا. أما بعد فان المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والانس والرضى واخواتها ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات ان عز وجودها فلم تخل القلوب عن الايمان بامكانها وأما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بها حتى أنكر بعض العلماء امكانها وقال لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثال ولما انكروا المحبة انكروا الانس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الامر ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة الا الله تعالى ثم بيان أن اعظم اللذات لذة النظر الا وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ثم بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الافهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الانس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط في الانس ثم القول في معنى الرضى وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة فهذه جميع بيانات هذا الكتاب

﴿بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى﴾

اعلم ان الامة مجمعة على ان الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من احب ويدل على اثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل يحبهم ويحبونه وقوله تعالى والذين آمنوا اشد حبا لله وهو دليل على اثبات الحب واثبات التفاوت فيه فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الايمان في أخبار كثيرة اذ قال ابو رزين العقيلي يا رسول الله ما الايمان قال أن يكون الله ورسوله

احب اليك مما سواهما وفى حديث آخر لا يؤمن احدكم حتى يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما وفى حديث آخر لا يؤمن العبد حتى اكون احب اليه من اهله وماله والناس اجمعين وفى رواية ومن نفسه كيف وقد قال تعالى قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم الآية وانما أجرى ذلك فى معرض التهديد والانكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله اياى ويروى أن رجلا قال يارسول الله انى احبك فقال صلى الله عليه وسلم استعد للفقر فقال انى احب الله فقال استعد للبلاء وعن عمر رضى الله عنه قال نظر النبى صلى الله عليه وسلم الى مصعب ابن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال النبى صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الرجل الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله الى ما ترون وفى الخبر المشهور أن ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت اذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خليلا يميت خليله فأوحى الله تعالى اليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه فقال ياملك الموت الآن فاقبض وهذا لا يجده الا عبد يحب الله بكل قلبه واذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه اليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت اليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى دعائه اللهم ارزقنى حبك وحب من احبك وحب ما يقربنى الى حبك واجعل حبك احب الى من الماء البارد وجاء اعرابى الى النبى صلى الله وسلم فقال يارسول الله متى الساعة قال ما اعددت لها فقال ما اعددت لها كثير صلاة ولا صيام الا انى احب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب قال انس فما رأيت المسلمين فرحوا بشئ بعد الاسلام فرحهم بذلك وقال ابو بكر الصديق رضى الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر وقال الحسن من عرف ربه احبه ومن عرف الدنيا زهد فيها والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فاذا تفكر حزن وقال ابو سليمان الدارانى ان من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم ما الذى بلغ بكم ما ارى فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله أن يؤمن الخائف ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال ما الذى بلغ بكم ما ارى قالوا الشوق الى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذا هم اشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرائى من النور فقال ما الذى بلغ بكم ما ارى قالوا نحب الله عز وجل فقال أنتم المقربون أنتم المقربون أنتم المقربون وقال عبد الواحد بن زيد مررت برجل قائم فى الثلج فقلت أما تجد البرد فقال من شغله حب الله لم يجد البرد وعن سرى السقطى قال تدعى الامم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فيقال يا امة موسى ويا امة عيسى ويا امة محمد غير المحبين لله تعالى فانهم ينادون يا اولياء الله هلموا الى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا وقال هرم بن حيان المؤمن اذا عرف ربه عز وجل احبه واذا احبه اقبل اليه واذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى

الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وحبه يدهش العقول فكيف وده ووده ينسي مادونه فكيف لطفه وفي بعض الكتب عبدي انا وحقك لك محب فبحقي عليك كن لي محبا وقال يحيى بن معاذ مثقال خردلة من الحب احب الي من عبادة سبعين سنة بلا حب وقال يحيى بن معاذ الهي اني مقيم بفنائك مشغول بثنائك صغيرا اخذتني اليك وسربلتني بمعرفتك وامكنتني من لطفك ونقلتني في الاحوال وقلبتني في الاعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضى وحبا تسقيني من حياضك وتهملني في رياضك ملازما لامرك ومشغوفا بقولك ولما طر شاربي ولاح طائلي فكيف انصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلي مابقيت حولك دندنة والضراعة اليك همهمة لاني محبك وكل محب بحبيبه مشغول وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد في حب الله تعالى من الاخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وانما الغموض في تحقيق معناه فليشتغل به

(بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لا ينكشف الا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها واسبابها ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى فأول ماينبغي أن يتحقق أنه لا يتصوّر محبة الا بعد معرفة وادراك اذ لا يحب الانسان الا ما يعرفه ولذلك لم يتصوّر أن يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم الى مايوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه والى ماينافيه وينافره ويؤلمه والى ما لا يؤثر فيه بايلام والذاذ فكل ما في ادراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك وما في ادراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة فلا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها فاذا كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا اليه ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشئ الملذ فان تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوي سمي مقتا فهذا اصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته

(الاصل الثاني) أن الحب لما كان تابعا للادراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل اليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم فلذة العين في الابصار وادراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الاذن في النغمات الطيبة الموزونة ولذة الشم في الروائح الطيبة ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللمس في اللين والنعومة ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل اليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حبب الي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعل قرة عيني في الصلاة فسمى الطيب

محبوبا ومعلوم انه لا حظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النساء محبوبات ولا حظ
فيهن الا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ
المحبوبات ومعلوم انه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلب
لا يدركه الا من كان له قلب ولذات الحواس الخمس تشاركه فيها البهائم الانسان فان
كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال ان الله تعالى لا يدرك
بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب فاذا قد بطلت خاصية الانسان وما تميز به من الحس
السادس الذي يعبر عنه اما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا
مشاحة فيه وهيهات فالبصيرة الباطنة اقوى من البصر الظاهر والقلب أشد ادراكا
من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للابصار فتكون
لا محالة لذة القلب بما يدركه من الامور الشريفة الالهية التي تجل عن أن تدركها
الحواس اتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح اليه اقوى ولا معنى للحب
الا الميل الى ما في ادراكه لذة كما سيأتي تفصيله فلا ينكر اذا حب الله تعالى الا من قعد به
القصور في درجة البهائم فلم يجاوز ادراك الحواس اصلا . (الاصل الثالث) أن الانسان
لا يخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لاجل نفسه وهل يتصور أن يحب غيره
لذاته لا لاجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب
الانسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته والحق أن ذلك
متصور وموجود فلنفصل اسباب المحبة وأقسامها وبيان أن المحبوب الاول عند كل حي
نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا الى دوام وجوده ونفرة عن عدمه
وهلاكه لان المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام
وجوده وأي شيء اعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يحب الانسان دوام
الوجود ويكره الموت والقتل لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت
بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك
ولا يحب الموت والعدم المحض الا لمقاساة ألم في الحياة ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال
البلاء فان احب العدم لم يحبه لانه عدم بل لان فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم ممقوت
ودوام الوجود محبوب وكما أن دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضا محبوب لان
الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة اليه
والهلاك والعدم ممقوت في الصفات وكمال الوجود كما أنه ممقوت في اصل الذات ووجود
صفات الكمال محبوب كما أن دوام اصل الوجود محبوب وهذه غريزة في الطباع بحكم
سنة الله تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا فاذا المحبوب الاول للانسان ذاته ثم سلامة
اعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه فالاعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لان كمال
الوجود ودوام الوجود موقوف عليها والمال محبوب لانه أيضا آلة في دوام الوجود وكماله
وكذا سائر الاسباب فالانسان يحب هذه الاشياء لا لاعيانها بل لارتباط حظه في
دوام الوجود وكماله بها حتى انه ليحب ولده وان كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق

لاجله لانه يخلفه فى الوجود بعد عدمه فيكون فى بقاء نسله نوع بقاء له فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكانه جزء منه لما عجز عن الطمع فى بقاء نفسه ابدا نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده لان بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق وكذلك حبه لاقاربه وعشيرته يرجع الى حبه لكمال نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكمالهم فان العشيرة والمال والاسباب الخارجة كالجناح المكمل للانسان وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة فاذا المحبوب الاول عند كل حى ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو اول الاسباب * السبب الثانى الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من احسن اليها وبغض من اساء اليها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم لا تجعل لفاجر على يدا فيحبه قلبى اشارة الى أن حب القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع دفعه وهو جبلة وفطرة لا سبيل الى تغييرها وبهذا السبب قد يحب الانسان الاجنبى الذى لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة وهذا اذا حقق رجع الى السبب الاول فان المحسن من امد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة الى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التى بها يتهيأ الوجود الا أن الفرق أن اعضاء الانسان محبوبة لان بها كمال وجوده وهى عين الكمال المطلوب فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذى يكون سببا فى دوام صحة الاعضاء ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذى هو سبب الصحة اذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لانه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والاستاذ محبوب ولكن العلم محبوب لذاته والاستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لانها وسيلة الى الطعام فاذا يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة والا فكل واحد يرجع الى محبة الانسان نفسه فكان من احب المحسن لاحسانه فما احب ذاته تحقيقا بل احب احسانه وهو فعل من افعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ويتطرق اليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه * السبب الثالث أن يحب الشئ لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقى البالغ الذى يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لان ادراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور الا لاجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة اخرى قد تحب الصور الجميلة لاجلها وادراك نفس الجمال أيضا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبا لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة او ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجارى والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والاطيار المليحة

الألوان الحسنة والنقوش المتناسبة الشكل حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله جميل يحب الجمال *

(الأصل الرابع) في بيان معنى الحسن والجمال

اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الأبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا متلونا متقدرا فلا يتصور حسنه وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محبوبا وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة فإنا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن فأي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء فلا بد من البحث عنه وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه فنصرح بالحق ونقول كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كر وفر عليه والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء فإن قلت فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال وهذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطباع مجبولة على حب

الأنبياء

الانبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع انهم لم يشاهدوا بل على حب ارباب المذاهب مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم حتى ان الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله فى نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه فى قتال من يطعن فى امامه ومتبوعه فكم من دم اريق فى نصرة أرباب المذاهب وليت شعرى من يحب الشافعى مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذى حمله على افراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فان صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب وانما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لافادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات فى العالم وهذه امور جميلة لا يدرك جمالها الا بنور البصيرة فأما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ويفضله على غيره او يحب عليا رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له فلا يحبهم الا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم أن من يحب الصديق رضى الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله اذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقى ما كان الصديق به صديقا وهى الصفات المحمودة التى هى مصادر السير الجميلة فكان الحب باقيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور وتلك الصفات ترجع جملتها الى العلم والقدرة اذ علم حقائق الامور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته فجميع خلال الخير تتشعب على هذين الوصفين وهما غير مدركين بالحس ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذى لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لاجله فاذا الجمال موجود فى السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحبوب مصدر السيرة الجميلة وهى الاخلاق الحميدة والفضائل الشريفة وترجع جملتها الى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى ان الصبى المخلى وطبعه اذا أردنا أن نحبب اليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل الا بالاطناب فى وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك فى نفسه ولم يقدر أن لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض أبى جهل وبغض ابليس لعنه الله الا بالاطناب فى وصف المحاسن والمقابح التى لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ووصفوا خالدا بالشجاعة احبتهم القلوب حبا ضروريا وليس ذلك عن نظر الى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم بل اذا حكى من سيرة بعض الملوك فى بعض اقطار الارض العدل والاحسان وافاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار احسانه الى المحبين لبعد المزار ونأى الديار فاذا ليس حب الانسان مقصورا على من أحسن اليه بل المحسن فى نفسه محبوب وان كان لا ينتهى قط احسانه الى المحب لان كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال

يشملها وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل اليها ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الانبياء لجمال صورته الباطنة ﴿السبب الخامس المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب اذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أوحظ ولكن بمجرد تناسب الارواح كما قال صلى الله عليه وسلم فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لانه ايضا من عجائب أسباب الحب فاذا رجع اقسام الحب الى خمسة أسباب وهو حب الانسان وجود نفسه وكماله وبقاءه وحبه من احسن اليه فيما يرجع الى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه وحبه من كان محسنا في نفسه الى الناس وان لم يكن محسنا اليه وحبه لكل ما هو جميل في ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن فلو اجتمعت هذه الاسباب في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة كما لو كان للانسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن الى الخلق ومحسن الى الوالد كان محبوبا لا محالة غاية الحب ويكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها فان كانت هذه الصفات في اقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في اعلى الدرجات فلنبين الآن أن هذه الاسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها الا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى

﴿بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده﴾

وان من أحب غير الله لا من حيث نسبته الى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى وحب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لانه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والاتقياء لان محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع الى حب الاصل فلا يتجاوزه الى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر الا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه وايضاحه بأن نرجع الى الاسباب الخمسة التي ذكرناها ونبين انها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد في غيره الا آحادها وانها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذي بصيرة ضد ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقا وبان أن التحقيق يقتضي أن لا تحب أحدا غير الله تعالى * فأما السبب الاول وهو حب الانسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حي ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى فان من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا انه لا وجود له من ذاته وانما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من

الله

الله والى الله وبالله فهو المخترع الموجد له وهو المبقى له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخالق الاسباب الموصلة اليه وخلق الهداية الى استعمال الاسباب والا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالايجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالابقاء وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته وبالجملة فليس فى الوجود شئ له بنفسه قوام الا القيوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ماسواه قائم به فان احب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له ان عرفه خالقا موجدا ومخترعا مبقيا وقيوما بنفسه ومقوما لغيره فان كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وكيف يتصور ان يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ومعلوم ان المتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الاشجار التى بها قوام الظل وكل مافى الوجود بالاضافة الى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالاضافة الى الشجر والنور بالاضافة الى الشمس فان الكل من آثار قدرته ووجود الكل تابع لوجوده كما ان وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا المثال صحيح بالاضافة الى اوهام العوام اذ تخيلوا ان النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها وهو خطأ محض اذ انكشف لارباب القلوب انكشافا اظهر من مشاهدة الابصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس والاجسام الكثيفة كما ان نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها ايضا حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الغرض من الامثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق فاذا ان كان حب الانسان نفسه ضروريا فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا فى اصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى ان عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطأ أرضه الا من يقرب الى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربه فى الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه الى حضيض عالم البهائم * وأما السبب الثانى وهو حبه من أحسن اليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمده بمعونته وانتدب لنصرته وقمع اعدائه وقام بدفع شر الاشرار عنه وانتهض وسيلة الى جميع حظوظه وأغراضه فى نفسه وأولاده وأقاربه فانه محبوب لا محالة عنده وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب الا الله تعالى فانه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن اليه هو الله تعالى فقط فأما انواع احسانه الى كل عبيده فلست اعدها اذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال الله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقد اشرنا الى طرف منه فى كتاب الشكر ولكنا نقتصر الآن على بيان أن الاحسان من الناس غير متصور الا

بالمجاز وانما المحسن هو الله تعالى والمعرض ذلك فيمن انعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الاحسان منه وهو غلط فانه انما تم احسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال اليك فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق ارادته وداعيته ومن الذي حبب اليه وصرف وجهه اليك وألقى فى نفسه أن صلاح دينه اودنياه فى الاحسان اليك ولولا كل ذلك لما اعطاك حبة من ماله ومهما سلط الله عليه الدواعى وقرر فى نفسه ان صلاح دينه اودنياه فى ان يسلم اليك ماله كان مقهورا مضطرا فى التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة الى الفعل واما يده فواسطة يصل بها احسان الله اليك وصاحب اليد مضطر فى ذلك اضطرار مجرى الماء فى جريان الماء فيه فان اعتقدته محسنا او شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الامر فانه لا يتصور الاحسان من الانسان الا الى نفسه اما الاحسان الى غيره فمحال من المخلوقين لانه لا يبذل ماله الا لغرض له فى البذل اما آجل وهو الثواب واما عاجل وهو المنة والاستسخار والثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم او جذب قلوب الخلق الى الطاعة والمحبة وكما ان الانسان لا يلقى ماله فى البحر اذ لا غرض له فيه فلا يلقيه فى يد انسان الا لغرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده واما انت فلست مقصودا بل يدك آلة له فى القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء او الشكر او الثواب بسبب قبضك المال فقد استسخرك فى القبض للتوصل الى غرض نفسه فهو اذا محسن الى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو ارجح عنده من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لاجلك اصلا البتة فاذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين احدهما انه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدرة له على المخالفة فهو جار مجرى خازن الامير فانه لا يرى محسنا بتسليم خلعة الامير الى من خلع عليه لانه من جهة الامير مضطر الى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ولو خلاه الامير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى فى نفسه أن حظه دينا ودنياى بذله فبذله لذلك والثانى انه معتاض عما بذله حظا هو اوفى عنده وأحب مما بذله فكما لا يعد البائع محسنا لانه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب او الحمد والثناء او عوضا آخر وليس من شرط العوض أن يكون عينا متمولا بل الحظوظ كلها اعواض تستحقر الاموال والاعيان بالاضافة اليها فالاحسان فى الجود والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع الى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى انعم على العالمين احسانا اليهم ولاجلهم لا لحظ وغرض يرجع اليه فانه يتعالى عن الاغراض فلفظ الجود والاحسان فى حق غيره كذب او مجاز ومعناه فى حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد بالجود والاحسان والطول والامتنان فان كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب

العارف

العارف الا الله تعالى اذ الاحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الاحسان بشرط الجهل بمعنى الاحسان وحقيقته * وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن فى نفسه وان لم يصل اليك احسانه وهذا أيضا موجود فى الطباع فانه اذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من اقطار الارض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك فانك تجد فى قلبك تفرقة بينهما اذ تجد فى القلب ميلا الى الاول وهو الحب ونفرة عن الثانى وهو البغض مع انك آيس من خير الاول وآمن من شر الثانى لانقطاع طمعك عن التوغل الى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث انه محسن فقط لا من حيث انه محسن اليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا الا من حيث يتعلق منه بسبب فان الله هو المحسن الى الكافة والمتفضل على جميع اصناف الخلائق اولا بايجادهم وثانيا بتكميلهم بالاعضاء والاسباب التى هى من ضروراتهم وثالثا بترفيههم وتنعيمهم بخلق الاسباب التى هى فى مظان حاجاتهم وان لم تكن فى مظان الضرورة ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التى هى فى مظنة زينتهم وهى خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال الضرورى من الاعضاء الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج اليه العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين الا غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضرورى من النعم الخارجة عن بدن الانسان الماء والغذاء ومثال الحاجة الدواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوائد خضرة الاشجار وحسن اشكال الانوار والازهار ولذائذ الفواكه والاطعمة التى لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الاقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من اصناف الخلق من ذروة العرش الى منتهى الفرش فاذا هو المحسن فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان وخالق اسباب الاحسان فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة الا الله تعالى * وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال منه وراء ادراك الجمال فقد بينا أن ذلك مجبول فى الطباع وأن الجمال ينقسم الى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس والى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والاول يدركه الصبيان والبهائم والثانى يختص بدركه ارباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم الا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فان كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا فى المشاهدة حب الانبياء والعلماء وذوى المكارم السنية والاخلاق المرضية فان ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الاعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحسن لا يدركه نعم يدرك بحسن آثارها الصادرة منه الدالة عليه حتى اذا دل القلب عليه مال القلب اليه فأحبه فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعى

رحمة الله عليه فلا يحبهم الا لحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن
أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الافعال اذ الافعال
آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل
حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الافعال صفاتها الجميلة الباطنة التي
يرجع حاصلها عند البحث الى العلم والقدرة ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان
العلم اشرف واجل وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل
رتبة وأشرف قدرا وأجل المعلومات هو الله تعالى فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها
معرفة الله تعالى وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به فاذا جمال
صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع الى ثلاثة امور احدها علمهم بالله
وملائكته وكتبه ورسله وشرائع انبيائه والثاني قدرتهم على اصلاح انفسهم واصلاح
عباد الله بالارشاد والسياسة والثالث تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات
الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة الى طريق الشر وبمثل هذا يحب الانبياء والعلماء
والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فانسب هذه الصفات الى صفات الله تعالى
(أما العلم) فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل احاطة خارجة
عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وقد خاطب الخلق
كلهم فقال عز وجل وما أوتيتم من العلم الا قليلا بل لو اجتمع أهل الارض والسماء على أن
يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة او بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك
ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه
كما قال تعالى خلق الانسان علمه البيان فان كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا وكان هو في
نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب الا الله تعالى فعلوم العلماء
جهل بالاضافة الى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل اهل زمانه استحال أن يحب
بسبب العلم الاجهل ويترك الاعلم وان كان الاجهل لا يخلو عن علم ما تقتضيه معيشته
والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق اكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق واجهلهم
لان الاعلم لا يفضل الاجهل الا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الامكان أن ينالها
الاجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن
النهاية اذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية (واما صفة القدرة) فهي أيضا
كمال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وادراكه لذيذ حتى
ان الانسان ليسمع في الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله تعالى عنهما وغيرهما من
الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الاقران فيصادف في قلبه اهتزازا وفرحا وارتياحا
ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القلب ضروريا للمتصف
به فانه نوع كمال فانسب الآن قدرة الخلق كلهم الى قدرة الله تعالى فأعظم الاشخاص قوة
وأوسعهم ملكا وأقواهم بطشا وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس واجمعهم
للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ما منتهى قدرته وانما غايته ان يقدر على بعض

صفات نفسه وعلى بعض اشخاص الانس فى بعض الامور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفعا بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج الى عد ما يعجز عنه فى نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والارض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق اسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بعوضا على أعظم ملك واقوى شخص من الحيوانات لاهلكه فليس للعبد قدرة الا بتمكين مولاه كما قال فى أعظم ملوك الارض ذى القرنين اذ قال انا مكنا له فى الارض فلم يكن جميع ملكه وسلطنته الا بتمكين الله تعالى اياه فى جزء من الارض والارض كلها مدرة بالاضافة الى اجسام العالم وجميع الولايات التى يحظى بها الناس من الارض غبرة من تلك المدرة ثم تلك الغبرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر السموات مطويات بيمينه والارض وملكها وما عليها فى قبضته وناصية جميع المخلوقات فى قبضة قدرته ان اهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وان خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور فى اختراعها فلا قدرة ولا قادر الا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء فان كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا . وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو احد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال فى الصور الباطنة والانبياء والصديقون وان كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقدس والتنزه الا للواحد الحق الملك القدوس ذى الجلال والاكرام وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال الا بقدر ما اعطاه الله وليس فى المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فان منتهى الكمال أقل درجاته ان لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال فى حق غيره فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب وشرح وجوه التقدس والتنزه فى حقه عن النقائص يطول وهو من اسرار علوم المكاشفات فلا نطول بذكره فهذا الوصف ايضا ان كان كمالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته الا له وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالاضافة الا ما هو اشد منه نقصانا كما ان للفرس كمالا بالاضافة الى الحمار وللانسان كمالا بالاضافة الى الفرس واصل النقص شامل للكل وانما يتفاوتون فى درجات النقصان فاذا الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذى لا ند له الفرد الذى لا ضد له الصمد الذى لا منازع له الغنى الذى لا حاجة له القادر الذى يفعل ما يشاء

ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في
السموات والأرض القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت
من سطوته وبطشه رقاب القياصرة الأزلي الذي لا أول لوجوده الأبدي الذي لا آخر
لبقائه الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته القيوم الذي يقوم
بنفسه ويقوم كل موجود به جبار السموات والأرض خالق الجماد والحيوان والنبات
المتفرد بالعزة والجبروت المتوحد بالملك والملكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال
والقدرة والكمال الذي تتحير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الألسنة الذي
كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور
عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين لا أحصي ثناء عليك أنت
كما أثنيت على نفسك وقال سيد الصديقين رضي الله تعالى عنه العجز عن درك الإدراك
إدراك سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته فليت شعري
من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا أينكر أن هذه الأوصاف من
أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها
أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه فسبحان من
احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه
الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي
مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا وهم عن
الآخرة هم غافلون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون والحب بهذا السبب أقوى من الحب
بالإحسان لأن الإحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام
إن أود الأوداء إلي من عبدني بغير نوال لكن ليعطي الربوبية حقها وفي الزبور من أظلم
ممن عبدني لجنة أو نار لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع ومر عيسى
عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم
مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم ومر بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله
فقال أنتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم وقال أبو حازم إني لأستحيي أن أعبده للثواب
والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل
وفي الخبر لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل ولا كالعبد السوء
إن لم يخف لم يعمل ٭ وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لأن شبه الشيء
منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير
يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر عن غير نوعه وأنس العالم بالعالم أكثر منه
بالمحترف وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له
الأخبار والآثار كما استقصيناه في باب الأخوة في الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه
وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي
الصبي في معنى الصبا وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق

بين شخصين من غير ملاحظة جمال أوطمع في مال اوغيره كما اشار اليه النبي صلى الله عليه وسلم اذ قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف فالتعارف هو التناسب والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضا يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع المشابهة في الصور والاشكال بل الى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغيرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق اذا استكملوا شرط السلوك فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الالهية من العلم والبر والاحسان واللطف وافاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وارشادهم الى الحق ومنعهم من الباطل الى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب الى الله سبحانه لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يومي اليها قوله تعالى ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي اذ بين انه امر رباني خارج عن حد عقول الخلق وأوضح من ذلك قوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحي ولذلك أسجد له ملائكته ويشير اليه قوله تعالى انا جعلناك خليفة في الارض اذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى الا بتلك المناسبة واليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته حتى ظن القاصرون أن لا صورة الا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا واليه الاشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام مرضت فلم تعدني فقال يارب وكيف ذلك قال مرض عبدي فلان فلم تعده ولو عدته وجدتني عنده وهذه المناسبة لا تظهر الا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض كما قال الله تعالى لا يزال يتقرب العبد الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه الى قاصرين مالوا الى التشبيه الظاهر والى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة الى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وضل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو الاله وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون اتحد به وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الاقلون ولعل أبا الحسن النوري عن هذا المقام كان ينظر اذ غلبه الوجد في قول القائل

لا زلت انزل من ودادك منزلا ❊ تتحير الالباب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجده على اجمة قد قطع قصبها وبقي اصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا فهذه هي المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفي أعلى الدرجات لا في أدناها فكان المعقول المقبول عند ذوي البصائر

حب الله تعالى فقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط من كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الاسباب يتصوّر أن يحب غيره لمشاركته اياه في السبب والشركة نقصان في الحب وغض من كماله ولا ينفرد أحد بوصف محبوب الا وقد يوجد له شريك فيه فان لم يوجد فيمكن أن يوجد الا الله تعالى فانه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجودا ولا يتصور أن يكون ذلك امكانا فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان الى حبه كما لا تتطرق الشركة الى صفاته فهو المستحق اذا لأصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا

﴿ بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم وانه لا يتصوّر أن يؤثر عليها لذة أخرى الا من حرم هذه اللذة ﴾

اعلم أن اللذات تابعة للادراكات والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها في نيلها المقتضى طبعها الذي خلقت له فان هذه الغرائز ما ركبت في الانسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الامور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذي هو مقتضى طبعها وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الابصار والاستماع والشم فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالاضافة الى مدركاتها فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الالهي لقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالاسامي فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب المعاني من الالفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة كادراكه خلق العالم أو افتقاره الى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات الهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية والا فالصفة التي فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تذم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الامور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى ان الذي ينسب الى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به والذي ينسب الى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به وحتى ان الانسان لا يكاد يصبر عن التحدي بالعلم والتمدح به في الاشياء الحقيرة فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به فان العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع اذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم لانه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ثم ليست لذة العلم بالحراثة

والخياطة

والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والارض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتى ان الذى يعلم بواطن احوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وان جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فان علم بواطن احوال رئيس البلد وأسرار تدبيره فى رياسته كان ذلك الذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح او حائك فان اطلع على اسرار الوزير وتدبيره وماهو عازم عليه فى امور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس فان كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك اطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وحبه له أكثر لان لذته فيه اعظم فبهذا استبان أن ألذ المعارف اشرفها بحسب شرف المعلوم فان كان فى المعلومات ماهو الاجل والاكمل والاشرف والاعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة واشرفها واطيبها وليت شعرى هل فى الوجود شئ اجل وأعلى وأشرف وأكمل واعظم من خالق الاشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصوّر أن يكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بمبادى جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين فان كنت لا تشك فى ذلك فلا ينبغى ان تشك فى ان الاطلاع على اسرار الربوبية والعلم بترتب الامور الالهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى انواع المعارف والاطلاعات والذها واطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها واجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين ان العلم لذيذ وان الذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وافعاله وتدبيره فى مملكته من منتهى عرشه الى تخوم الارضين فينبغى ان يعلم أن لذة المعرفة اقوى من سائر اللذات اعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس فان اللذات مختلفة بالنوع اولا كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة وهى مختلفة بالضعف والقوة كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر الشهوة وكمخالفة لذة النظر الى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر الى مادونه فى الجمال وانما تعرف اقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فان المخير بين النظر الى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة اذا اختار النظر الى الصورة الجميلة علم أنها الذ عنده من الروائح الطيبة وكذلك اذا حضر الطعام وقت الاكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الاكل فيعلم به أن لذة الغلبة فى الشطرنج اقوى عنده من لذة الاكل فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول اللذات تنقسم الى ظاهرة كلذة الحواس الخمس والى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها اذ ليست هذه اللذة للعين ولا للانف ولا للاذن ولا للمس ولا للذوق والمعانى الباطنة اغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الاعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان المخير

خسيس الهمة ميت القلب شديد البهيمة اختار اللحم والحلاوة وإن كان علي الهمة كامل
العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختياره
للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه
الباطنة بعد كالصبي أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة
المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز
نقصان الصبي والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى
أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية
العبارة عنه أن يقال فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وأنه أعد لهم ما لا عين رأت
ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا
فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة
ويستحقر الخلق الذين يرؤسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه
مشوبا بالكدورات التي لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعا بالموت الذي لا بد من إتيانه
مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالإضافة
إليها لذة معرفة الله تعالى ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى
أسفل السافلين فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق
عنهم بكثرتهم وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض وإذا خرج النظر عن
المقدرات فلا نهاية لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض
يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها إذ ثمار
هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت إذ الموت
لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي وإنما الموت يغير
أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها عن حبسها فأما أن يعدمها فلا ولا تحسبن
الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله
ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الآية ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول
في المعركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر أن الشهيد يتمنى في الآخرة
أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وأن الشهداء يتمنون لو
كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء فإذا جميع أقطار ملكوت السموات والأرض
ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه
فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض وكل عارف فله
مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم
بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر
تفاوت درجاتهم فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوي الكمال من لذة
الحواس كلها وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه وأن لذة المحسوسات
والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة فأما معنى كون

معرفة الله وصفاته وافعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن اثبات ذلك عند من لا قلب له لان القلب معدن هذه القوة كما انه لا يمكن اثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لانه فقد الصفة التى بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه ادرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى الا أن يقال من ذاق عرف ولعمرى طلاب العلوم وان لم يشتغلوا بطلب معرفة الامور الالهية فقد استكشفوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التى قوى حرصهم على طلبها فانها أيضا معارف وعلوم وان كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الالهية فأما من طال فكره فى معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشئ اليسير فانه يصادف فى قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه فى ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك الا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الاشياء وانه لا لذة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الدارانى ان لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض اخوان معروف الكرخى له اخبرنى يا أبا محفوظ أى شئ هاجك الى العبادة والانقطاع عن الخلق فسكت وقال ذكر الموت فقال وأى شئ الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأى شئ القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال وأى شئ هذا ان ملكا هذا كله بيده ان احببته انساك جميع ذلك وان كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا وفى أخبار عيسى عليه السلام اذا رأيت الفتى مشغولا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث فى النوم فقال ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدى الله تعالى يأكلان ويشربان قلت فأنت قال علم الله قلة رغبتى فى الاكل والشرب فأعطانى النظر اليه وعن على بن الموفق قال رأيت فى النوم كأنى ادخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما الى حظيرة القدس فرأيت فى سرادق العرش رجلا قد شخص بصره ينظر الى الله تعالى لا يطرف فقلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخى عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا الى جنته بل حبا له فأباحه النظر اليه الى يوم القيامة وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل ولذلك قال أبو سليمان من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه وقال الثورى لرابعة ما حقيقة ايمانك قالت ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالاجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا اليه وقالت فى معنى المحبة نظما

أحبك حبين حب الهوى ۞ وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ۞ فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ۞ فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ۞ ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة وبحبه
لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما ولذة
مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا
عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على
قلب بشر وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفا قلبه إلى الغاية ولذلك قال
بعضهم إني أقول يا رب يا ألله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من
وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادي جليسه وقال إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه
الخلق بالحجارة أي يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقوله جنونا أو كفرا فمقصد
العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفي لهم منها وإذا
حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقي في النار
لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه
الغاية التي ليس فوقها غاية وليت شعري من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن
بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وما له صورة ولا شكل وأي معنى لوعد الله تعالى به عباده
وذكره أنه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها
تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم

كانت لقلبي أهواء مفرقة ۞ فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده ۞ وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم ۞ شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

ولذلك قال بعضهم

وهجره أعظم من ناره ۞ ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح
فإن الجنة معدن تمتع الحواس فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط ومثال أطوار الخلق في
لذاتهم ما نذكره وهو أن الصبي في أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب
واللهو حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب
وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء
فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليهن ثم يظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر وهي آخر
لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى اعلموا أنما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر
بينكم وتكاثر الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة
أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو الأخير إذ يظهر

حب اللعب فى سن التمييز وحب النساء والزينة فى سن البلوغ وحب الرياسة بعد العشرين وحب العلوم بقرب الاربعين وهى الغاية العليا وكما أن الصبى يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى والعارفون يقولون ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون

(بيان السبب فى زيادة النظر فى الآخرة على المعرفة فى الدنيا)

اعلم أن المدركات تنقسم الى مايدخل فى الخيال كالصور المتخيلة والاجسام المتلونة والمتشكلة من اشخاص الحيوان والنبات والى مالايدخل فى الخيال كذات الله تعالى وكل ماليس بجسم كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ومن رأى انسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة فى خياله كانه ينظر اليها ولكن اذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة الى اختلاف بين الصورتين لان الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وانما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئى صارت بالرؤية اتم انكشافا ووضوحا وهو كشخص يرى فى وقت الاسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء فانه لاتفارق احدى الحالتين الاخرى الا فى مزيد الانكشاف فاذا الخيال أول الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لانه غاية الكشف لالانه فى العين بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المكشوف فى الجبهة او الصدر مثلا استحق أن يسمى رؤية واذا فهمت هذا فى المتخيلات فاعلم أن المعلومات التى لاتتشكل ايضا فى الخيال لمعرفتها وادراكها درجتان احداهما اولى والثانية استكمال لها وبين الاولى والثانية من التفاوت فى مزيد الكشف والايضاح مابين المتخيل والمرئى فيسمى الثانى ايضا بالاضافة الى الاول مشاهدة ولقاء ورؤية وهذه التسمية حق لان الرؤية سميت رؤية لانها غاية الكشف وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الاجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر والمرئى ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ومالم ترتفع كان الادراك الحاصل مجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وماغلب عليها من الصفات البشرية فانها لاتنتهى الى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الاجفان عن رؤية الابصار والقول فى سبب كونه حجابا يطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام لن ترانى وقال تعالى لاتدركه الابصار أى فى الدنيا والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وان كانت متفاوتة فمنها ماتراكم عليه الخبث والصدأ وصار كالمرآة التى فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الاصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم ابد الآباد نعوذ بالله من ذلك ومنها مالم ينته الى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضا

ينقطع منه الخبث الذي هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة الى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين كما وردت به الاخبار سبعة آلاف سنة ولن ترتحل نفس عن هذا العالم الا و يصحبها غبرة وكدورة ما وان قلت ولذلك قال تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فاذا اكمل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب اجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه احدا من خلقه فانه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة لان فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالاضافة الى ما علمه كانكشاف تجلي المرآة بالاضافة الى ما تخيله وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية فاذا الرؤية حق بشرط ان لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الارباب علوا كبيرا بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك بل اقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف الا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما صربنا من المثال في استكمال الخيال بالرؤية فاذا لم يكن في معرفة الله تعالى اثبات صورة وجهة فلا تكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح الى غاية الكشف أيضا جهة وصورة لانها هي بعينها لا تفترق منها الا في زيادة الكشف كما ان الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها الا في زيادة الكشف واليه الاشارة بقوله تعالى يسعى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا اذ تمام النور لا يؤثر الا في زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية الا العارفون في الدنيا لان المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعا ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع وكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضا على درجات متفاوتة فاختلاف التجلي بالاضافة الى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالاضافة الى اختلاف البذر اذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يتجلى للناس عامة ولابي بكر خاصة فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر بل لا يجد الا عشر عشيره ان كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره ولما فضل الناس بسر وقر في صدره فضل لا محالة بتجل انفرد به وكما انك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والارض وسائر الامور الالهية على الرياسة

وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا فكذلك يكون فى الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر الى وجه الله تعالى على نعيم الجنة اذ يرجع نعيمها الى المطعوم والمنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ما وصفنا من ايثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع أسرار على الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ما تقولين فى الجنة فقالت الجار ثم الدار فبينت انه ليس فى قلبها التفات الى الجنة بل الى رب الجنة وكل من لم يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الآخرة اذ ليس يستأنف لاحد فى الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ولا يحصد احد الا ما زرع ولا يحشر المرء الا على ما مات عليه ولا يموت الا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط الا انه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق اذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فان ذلك منتهى لذته وانما طيبة الجنة أن لكل احد فيها ما يشتهى فمن لا يشتهى الا لقاء الله تعالى فلا لذة له فى غيره بل ربما يتأذى به فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فاصل السعادات هى المعرفة التى عبر الشرع عنها بالايمان فان قلت فلذة الرؤية ان كان لها نسبة الى لذة المعرفة فهى قليلة وان كان اضعافها لان لذة المعرفة فى الدنيا ضعيفة فتضاعفها الى حد قريب لا ينتهى فى القوة الى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها فاعلم أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وان انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها اصلا الى لذة اللقاء والمشاهدة كما لا نسبة للذة خيال المعشوق الى رؤيته ولا للذة استنشاق روائح الاطعمة الشهية الى ذوقها ولا للذة اللمس باليد الى لذة الوقاع واظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن الا بضرب مثال فنقول لذة النظر الى وجه المعشوق فى الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها كمال جمال المعشوق ونقصانه فان اللذة فى النظر الى الاجمل اكمل لا محالة والثانى كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه والثالث كمال الادراك فليس التذاذه برؤية المعشوق فى ظلمة او من وراء ستر رقيق او من بعد كالتذاذه بادراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا ادراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كادراكها مع التجرد والرابع اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر الى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم او المشغول قلبه بمهم من المهمات فقدر عاشقا ضعيف العشق ينظر الى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته فى حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه فهو فى هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها

الصور واندفع عنه المؤذيات وبقي سليما فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للاولى اليها نسبة يعتد بها فكذلك فافهم نسبة لذة النظر الى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال البدن او الاشتغال به والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الانسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن وضعف الشهوة والحب مثال قصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق الى الملأ الاعلى والتفاتها الى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته الى اللعب بالعصفور والعارف وان قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها البتة نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الاحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلما يدوم بل يعرض من الشواغل والافكار والخواطر ما يشوشه وينغصه وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة الى الموت وانما الحياة الطيبة بعد الموت وانما العيش عيش الآخرة وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون وكل من انتهى الى هذه الرتبة فانه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ولا يكرهه الا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فان المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له فالاحاطة بكنه جلال الله محال فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر النعيم في الآخرة وعظم كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البذر الا في الدنيا ولا يزرع الا في صعيد القلب ولا حصاد الا في الآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله لان المعرفة انما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب ويستدعي ذلك أمانا لا محالة فمن أحب الموت أحبه لانه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالغا الى منتهى ما يسر له ومن كره الموت كرهه لانه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا ان اتسعت أحبوا البقاء وان ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فانه المحبة المفرطة القوية ومعنى لذة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لذة الرؤية ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال وان لم يكن كذلك عند ذوي النقصان كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان فان قلت فهذه الرؤية محلها القلب او العين في الآخرة فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون الى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت الى أن رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك

بالعين أوغيرها فان العين محل وظرف لانظر اليه ولا حكم له والحق فيه أن القدرة الازلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الامرين هذا في حكم الجواز فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك الا بالسمع والحق ماظهر لاهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الالفاظ الوارده في الشرع مجرى على ظاهره اذلا يجوز ازالة الظواهر الا لضرورة والله تعالى أعلم

(بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى):

اعلم ان أسعد الخلق حالا في الآخرة أقواهم حبا لله تعالى فان الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه وما أعظم نعيم المحب اذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته ابد الآباد من غير منغص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع الا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وانما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لانه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي الى الاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الاكثرون وانما يحصل ذلك بسببين احدهما قطع علائق الدنيا واخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الاناء الذي لا يتسع للخل مثلا مالم يخرج منه الماء وماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه وكمال الحب في أن يحب الله عزوجل بكل قلبه ومادام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله وبقدر مايبقى من الماء في الاناء ينقص من الخل المصبوب فيه والى هذا التفريد والتجريد الاشارة بقوله تعالى قل الله ثم ذرهم في خوضهم وبقوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا بل هو معنى قولك لا اله الا الله اى لا معبود ولا محبوب سواه فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به وكل محب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه وقال صلى الله عليه وسلم أبغض اله عبد في الارض الهوى ولذلك قال عليه السلام من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة ومعنى الاخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لانها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب فما حال من ليس له الا محبوب واحد وقد طال اليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلي من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبد الآباد فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الاهل والمال والولد والاقارب والعقار والدواب والبساتين والمنتزهات حتى ان المتفرج بطيب اصوات الطيور وروح نسيم الاسحار ملتفت الى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فبقدر ما انس بالدنيا فينقص انسه بالله ولا يؤتى احد من الدنيا شيأ الا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة كما انه لا يقرب الانسان من المشرق الا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ولا يطيب قلب امرأته الا

ويسبق به قلب ضرتها الدنيا والآخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب وقد انكشف
ذلك لذوي القلوب انكشافا أوضح من الابصار بالعين وسبيل قلع حب الدنيا من القلب
سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد اليهما بزمام الخوف والرجاء فما ذكرناه من
المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني
المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله وأوله الايمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ثم
يتشعب منه الخوف والرجاء ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك الى الزهد
في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير
الله فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب
وهو أحد ركني المحبة واليه الاشارة بقوله عليه السلام الطهور شطر الايمان كما ذكرناه في
أول كتاب الطهارة ٭ السبب الثاني لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها
واستيلاؤها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجري
مجرى وضع البذر في الارض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني ثم يتولد من
هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلا حيث قال
ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء واليها الاشارة
بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب وهي المعرفة والعمل الصالح يرفعه فالعمل الصالح كالحمال
لهذه المعرفة وكالخادم وانما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولا من الدنيا ثم ادامة
طهارته فلا يراد العمل الا لهذه المعرفة وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل فالعلم هو الاول
وهو الآخر وانما الاول علم المعاملة وغرضه العمل وغرض المعاملة صفاء القلب
وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما
حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة كما أن من كان معتدل المزاج
اذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال اليه ومهما أحبه حصلت اللذة فاللذة
تبع المحبة بالضرورة والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ولا يوصل الى هذه المعرفة بعد انقطاع
شواغل الدنيا من القلب الا بالفكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر
المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته والواصلون الى هذه
الرتبة ينقسمون الى الاقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره والى
الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالافعال ثم يترقون منها الى الفاعل والى الاول الاشارة
بقوله تعالى أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد وبقوله تعالى شهد الله انه لا اله الا
هو ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربي بربي ولولا ربي لما
عرفت ربي والى الثاني الاشارة بقوله تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم
حتى يتبين لهم انه الحق الآية وبقوله عز وجل أولم ينظروا في ملكوت السموات
والارض وبقوله تعالى قل انظروا ماذا في السموات والارض وبقوله تعالى الذي خلق
سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور
ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير وهذا الطريق هو الاسهل

على الأكثرين وهو الاوسع على السالكين واليها أكثر دعوة القرآن عند الامر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر فى آيات خارجة عن الحصر فان قلت كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به الى المحبة فاعلم أن الطريق الاعلى وهو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض والكلام فيه خارج عن حدّ فهم أكثر الخلق فلا فائدة فى ايراده فى الكتب وأما الطريق الاسهل الادنى فأكثره غير خارج عن حدّ الافهام وانما قصرت الافهام عنه لاعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب ابوابه الخارجة عن الحصر والنهاية اذ ما من ذرة من اعلى السموات الى تخوم الارضين الا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته وذلك مما لا يتناهى بل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى فالخوض فيه انغماس فى بحار علوم المكاشفة ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ولكن يمكن الرمز الى مثال واحد على الايجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول اسهل الطريقين النظر الى الافعال فلنتكلم فيها ولنترك الاعلى ثم الافعال الالهية كثيرة فلنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر فى عجائبها فأقل المخلوقات هو الارض وما عليها اعنى بالاضافة الى الملائكة وملكوت السموات فانك ان نظرت فيها من حيث الجسم والعظم فى الشخص فالشمس على ماترى من صغر حجمها هى مثل الارض مائة ونيفا وستين مرّة فانظر الى صغر الارض بالاضافة اليها ثم انظر الى صغر الشمس بالاضافة الى فلكها الذى هى مركوزة فيه فانه لا نسبة لها اليه وهى فى السماء الرابعة وهى صغيرة بالاضافة الى مافوقها من السموات السبع ثم السموات السبع فى الكرسى كحلقة فى فلاة والكرسى فى العرش كذلك فهذا نظر الى ظاهر الاشخاص من حيث المقادير وما أحقر الارض كلها بالاضافة اليها بل ما اصغر الارض بالاضافة الى البحار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الارض فى البحر كالاصطبل فى الارض ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم أن المكشوف من الارض عن الماء كجزيرة صغيرة بالاضافة الى كل الارض ثم انظر الى الآدمى المخلوق من التراب الذى هو جزء من الارض والى سائر الحيوانات والى صغره بالاضافة الى الارض ودع عنك جميع ذلك فأصغر مانعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجرى مجراه فانظر فى البعوض على قدر صغر قدره وتأمّله بعقل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات اذ خلق له خرطوما مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الاعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم اعضاءه الظاهرة فأنبت جناحه وأخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر فى باطنه من اعضاء الغذاء وآلاته مادبره فى سائر الحيوانات وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ماركب فى سائر الحيوانات هذا فى شكله وصفاته ثم انظر الى هدايته كيف هداه الله تعالى الى غذائه وعرّفه أن غذاءه دم

الانسان ثم انظر كيف اثبت له آلة الطيران الى الانسان وكيف خلق له الخرطوم
الطويل وهو محدد الرأس وكيف هداه الى مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه
في واحد منها ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم وكيف علمه المص والتجرع للدم وكيف
خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجري فيه الدم الرقيق وينتهي الى باطنه وينتشر
في سائر أجزائه ويغذيه ثم كيف عرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب
واستعداد آلته وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه
فيترك المص ويهرب ثم اذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر
موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر الى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم
تحتمل حدقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار
خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر الى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه
وأما الانسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى يطبق أحدهما على
الآخر وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه الى أطراف الأهداب
وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الابصار وتحسن صورة العين
وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الأهداب واشتباكها يمنع دخول
الغبار ولا يمنع الابصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان
وعلمها كيفية التصقيل باليدين ولأجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج لأن
بصرها ضعيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه
في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم الى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء
ويرمي بنفسه اليه فاذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على
السداد فيعود اليه مرة أخرى الى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها فاعلم
أن جهل الانسان أعظم من جهلها بل صورة الآدمي في الاكباب على شهوات
الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار اذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث
ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم الناقع القاتل فلا يزال يرمي نفسه عليها الى أن
ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكا مؤبدا فليت كان جهل الآدمي كجهل
الفراش فانها باغترارها بظاهر الضوء ان احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى
في النار أبد الآباد أو مدة مديدة ولذلك كان ينادي رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويقول اني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش فهذه لمعة يسيرة
من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات وفيها من العجائب مالو اجتمع الأولون
والآخرون على الاحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر
صورته فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها الا الله تعالى ثم في كل حيوان ونبات
أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره فانظر الى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله
تعالى اليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وكيف استخرج
من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ثم لو تأملت عجائب

أمرها

أمرها في تناولها الازهار والانوار واحترازها عن النجاسات والاقذار وطاعتها الواحد من جملتها هو اكبرها شخصا وهو اميرها ثم ماسخر الله تعالى له اميرها من العدل والانصاف بينها حتى انه ليقتل على باب المنفذ كل ماوقع منها على نجاسة لقضيت منها العجب آخر العجب ان كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة اقرانك وموالاة اخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر الى بنائها وبيوتها من الشمع واختيارها من جملة الاشكال الشكل المسدس فلا تبني بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا بل مسدسا لخاصية في الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أن اوسع الاشكال وأحواها المستديرة ومايقرب منها فان المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا اجتمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل في الاشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة الا المسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه لطفا به وعناية بوجوده وماهو محتاج اليه ليتهنأ بعيشه فسبحانه مااعظم شأنه واوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الارض والسموات فان القدر الذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الاعمار دون ايضاحه ولا نسبة لما أحاط علمنا الى ما احاط به العلماء والانبياء ولا نسبة لما احاط به علم الخلائق كلهم الى ما استأثر الله تعالى بعلمه بل كل ماعرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى فبالنظر في هذا وامثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين وبزيادة المعرفة تزداد المحبة فان كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له

(بيان السبب في تفاوت الناس في الحب)

اعلم ان المؤمنين مشتركون في أصل الحب لاشتراكهم في اصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا اذ الاشياء انما تتفاوت بتفاوت اسبابها واكثر الناس ليس لهم من الله تعالى الا الصفات والاسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الارباب وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها ايمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم اهل السلامة من أصحاب اليمين والمتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم المقربون وقد ذكر الله حال الاصناف الثلاثة في قوله تعالى فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم الآية فان كنت لا تفهم الامور الا بالامثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول اصحاب الشافعي مثلا يشتركون في حب الشافعي رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لانهم مشتركون في معرفة فضله ودينه

وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن العامي يعرف علمه مجملا والفقيه يعرفه مفصلا فيكون معرفة الفقيه به أتم واعجابه به وحبه له أشد فان من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة ومال اليه قلبه فان رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لا محالة حبه لانه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك تعتقد الرجل في الشاعر انه حسن الشعر فيحبه فاذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف وانه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل والبصير اذا فتش عن التصانيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة لان عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والعامي يعلم ذلك ويعتقده وأما البصير فانه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى في البعوض مثلا من عجائب صنعه ما يبهر به عقله ويتحير فيه لبه ويزداد بسببه لا محالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد به معرفة وله حبا وبحر هذه المعرفة أعني معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصر له ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الاسباب الخمسة التي ذكرناها للحب فان من يحب الله مثلا لكونه محسنا اليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته اذ تتغير بتغير الاحسان فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضى والنعماء وأما من يحبه لذاته فانه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه فهذا وامثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا

※(بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه)※

اعلم أن اظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها الى الافهام وأسهلها على العقول ونرى الامر بالضد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه وانما قلنا انه اظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا نفهمه الا بمثال وهو انا اذا رأينا انسانا يكتب او يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من اظهر الموجودات فحياته وعلمه وقدرته وارادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة اذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أما حياته وقدرته وارادته وعلمه وكونه حيوانا فانه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وارادته فان هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وارادته الا بخياطته وحركته

ولو نظرنا الى كل ما في العالم سواه لم نعرف به صفته فما عليه الا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وارض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه انفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب احوالنا وتغير قلوبنا وجميع اطوارنا في حركاتنا وسكناتنا وأظهر الاشياء في علمنا انفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وادلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لا حصر لها فان كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها الا شاهد واحد وهو ما احسسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شئ داخل نفوسنا وخارجها الا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله اذ كل ذرة فانها تنادي بلسان حالها انه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وانها تحتاج الى موجد ومحرك لها يشهد بذلك اولا تركيب اعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل اطرافنا وسائر اجزائنا الظاهرة والباطنة فانا نعلم انها لم تأتلف بانفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق في الوجود شئ مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب الا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن ادراكه فان ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان * احدهما خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله * والآخر ما يتناهى وضوحه وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فان بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس اذا اشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع ابصاره فلا يرى شيئا الا اذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الالهية في نهاية الاشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والارض فصار ظهوره سبب خفائه فسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والابصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فان الاشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده حتى انه لا ضد له عسر ادراكه ولو اختلفت الاشياء فدل بعضها دون بعض ادركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الامر ومثاله نور الشمس المشرق على الارض فانا نعلم انه عرض من الاعراض يحدث في الارض ويزول عند غيبة الشمس ولو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها لكنا نظن انه لا هيئة في الاجسام الا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما فانا لا نشاهد في الاسود الا السواد وفي الابيض الا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع ادركنا تفرقة بين الحالين فعلمنا أن الاجسام كانت قد استضاءت بضوء

واتضحت تصحة فارقها عند العروف فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه الا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الاجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور هذا مع أن النور أظهر المحسوسات اذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استبهام امره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فالله تعالى هو أظهر الامور وبه ظهرت الاشياء كلها ولو كان له عدم او غيبة او تغير لانهدت السموات والارض وبطل الملك والملكوت ولادرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الاشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لادركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة ولكن دلالته عامة في الاشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الاحوال يستحيل خلافه فلاجرم اورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في قصور الافهام وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فانه في حال اعتدال امره لا يرى الا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم انه ليس في الوجود الا الله وافعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه وانما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الافعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الافعال الا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث انه سماء وارض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث انه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له الى غيره كمن نظر في شعر انسان او خطه او تصنيفه ورأى فيه الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث اثره لا من حيث انه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر الى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر اليه من حيث انه فعل الله وعرفه من حيث انه فعل الله واحبه من حيث انه فعل الله لم يكن ناظرا الا في الله ولا عارفا الا بالله ولا محبا الا له وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى الا الله بل لا ينظر الى نفسه من حيث نفسه بل من حيث انه عبد الله فهذا الذي يقال فيه انه فني في التوحيد وانه فني عن نفسه واليه الاشارة بقول من قال كنا بنا فغبنا عنا فبقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر اشكلت لضعف الافهام عن دركها او قصور قدرة العلماء بها عن ايضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض الى الافهام وباشتغالهم بانفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم فهذا هو السبب في قصور الافهام عن معرفة الله تعالى وانضم اليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله انما يدركها الانسان في الصبي عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد انس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس ولذلك اذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا واعطاؤه فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه واعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الانس بها ولو فرض اكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره الى السماء والارض والاشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة يخيف على عقله

أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها فهذا وأمثاله من الاسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سدّ على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة فالناس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل اذ كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره والجليات اذا صارت مطلوبة صارت معتاصة فهذا سرّ هذا الامر فليحقق ولذلك قيل

لقد ظهرت فما تخفى على أحد * الا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا * فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

(بيان معنى الشوق الى الله تعالى)

اعلم أن من انكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق اذ لا يتصوّر الشوق الا الى محبوب ونحن نثبت وجوب الشوق الى الله تعالى وكون العارف مضطرّا اليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الاخبار والآثار أما الاعتبار فيكفي في اثباته ما سبق في اثبات الحب فكل محبوب يشتاق اليه في غيبته لا محالة فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق اليه فان الشوق طلب وتشوّق الى أمر والموجود لا يطلب ولكن بيانه أن الشوق لا يتصوّر الا الى شئ أدرك من وجه ولم يدرك من وجه فأما ما لا يدرك أصلا فلا يشتاق اليه فان من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصوّر أن يشتاق اليه وما أدرك بكماله لا يشتاق اليه وكمال الادراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوما للنظر اليه لا يتصوّر أن يكون له شوق ولكن الشوق انما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه وهو من وجهين لا ينكشف الا بمثال من المشاهدات فنقول مثلا من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق الى استكمال خياله بالرؤية فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصوّر أن يشتاق اليه ولو رآه لم يتصوّر أن يشتاق في وقت الرؤية فمعنى شوقه تشوّق نفسه الى استكمال خياله فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق الى استكمال رؤيته وتمام الانكشاف في صورته باشراق الضوء عليه (والثاني) أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وان لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق الى أن ينكشف له ما لم يره قط والوجهان جميعا متصوّران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فان ما تضح للعارفين من الامور الالهية وان كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحا غاية الاتضاح بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات فان الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدّرات للمعارف ومنغصات وكذلك ينضاف اليها شواغل الدنيا فانما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام اشراق التجلي ولا يكون ذلك الا في الآخرة

وذلك بالضرورة يوجب الشوق فانه منتهى محبوب العارفين فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما والثاني أن الامور الالهية لا نهاية لها وانما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ماغاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقا الى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها اصلا لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الاول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصور ان يسكن في الدنيا وقد كان ابراهيم بن ادهم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يارب ان اعطيت احدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك فقد اضر بي القلق قال فرأيت في النوم انه أوقفني بين يديه وقال ياابراهيم أما استحييت مني أن تسألني ان اعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقاءي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه فقلت يارب تهت في حبك فلم ادر ما اقول فاغفر لي وعلمني ما اقول فقال قل اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك واوزعني شكر نعمائك فان هذا الشوق يسكن في الآخرة ۞ واما الشوق الثاني فيشبه ان لا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الآخرة اذ نهايته ان ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وافعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لان ذلك لا نهاية له ولا يزال العبد عالما بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة الا انه تشوق الى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية الى غير نهاية فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبد الآباد وتكون لذة ما يتجدد من ألطاف النعيم شاغلة عن الاحساس بالشوق الى ما لم يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا فان كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى نورهم يسعى بين ايديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا يحتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه باتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ويحتمل أن يكون المراد به اتمام النور في غير ما استنار في الدنيا اشارة محتاجة الى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو المراد بتمامه وقوله تعالى انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا يدل على أن الانوار لا بد وأن يتزود اصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة اشراقا فأما أن يتجدد نور فلا والحكم في هذا برجم الظنون مخطر ولم ينكشف لنا فيه بعد ما نوثق به فنسأل الله تعالى ان يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا فهذا القدر من انوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه ۞ واما شواهد الاخبار والآثار فاكثر من ان تحصى فمما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول اللهم اني اسألك الرضى بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك وقال ابو الدرداء لكعب اخبرني عن اخص آية يعني

في التوراة فقال يقول الله تعالى طال شوق الابرار الى لقاءي واني الى لقائهم لاشد شوقا قال ومكتوب الى جانبها من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني فقال ابو الدرداء اشهد اني لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا وفي اخبار داود عليه السلام ان الله تعالى قال يا داود ابلغ اهل ارضي اني حبيب لمن احبني وجليس لمن جالسني ومؤنس لمن أنس بذكري وصاحب لمن صاحبني ومختار لمن اختارني ومطيع لمن أطاعني ما احبني عبد اعلم ذلك يقينا من قلبه الا قبلته لنفسي واحببته حبا لا يتقدمه احد من خلقي من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني فارفضوا يا أهل الارض ما انتم عليه من غرورها وهلموا الى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي وائنسوا بي أؤانسكم واسارع الى محبتكم فاني خلقت طينة احبائي من طينة ابراهيم خليلي وموسى نجيي ومحمد صفيي وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي وروى عن بعض السلف ان الله تعالى اوحى الى بعض الصديقين ان لي عبادا من عبادي يحبوني وأحبهم ويشتاقون الي وأشتاق اليهم ويذكروني واذكرهم وينظرون الي وأنظر اليهم فان حذوت طريقهم احببتك وان عدلت عنهم مقتك قال يا رب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه ويحنون الى غروب الشمس كما يحن الطائر الى وكره عند الغروب فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الاسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا الي أقدامهم وافترشوا الي وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا الي بانعامي فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد بعيني ما يتحملون من اجلي وبسمعي ما يشتكون من حبي اول ما اعطيهم ثلاث اقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما اخبر عنهم والثانية لو كانت السموات والارض وما فيها من موازينهم لاستقللتها لهم والثالثة اقبل بوجهي عليهم فترى من اقبلت بوجهي عليه يعلم احد ما اريد أن اعطيه وفي أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى اوحى اليه يا داود الى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق الي قال يا رب من المشتاقون اليك قال ان المشتاقين الي الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم الي خرقا ينظرون الي واني لاحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سماءي ثم ادعو نجباء ملائكتي فاذا اجتمعوا سجدوا لي فأقول اني لم ادعكم لتسجدوا لي ولكني دعوتكم لاعرض عليكم قلوب المشتاقين الي وأباهي بكم أهل الشوق الي فان قلوبهم لتضيء في سماءي لملائكتي كما تضيء الشمس لاهل الارض يا داود اني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدثي وجعلت ابدانهم موضع نظري الى الارض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به الي يزدادون في كل يوم شوقا قال داود يا رب أرني أهل محبتك فقال يا داود ائت جبل لبنان فان فيه اربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول فاذا اتيتهم فأقرهم مني السلام وقل لهم ان ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فانكم احبائي واصفيائي واوليائي افرح لفرحكم واسارع الى محبتكم فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند

فتية من العرب يتفكرون في عظمة الله عز وجل فلما نظروا الى داود عليه السلام
نهضوا اليه ففرقوا منه فقال داود اني رسول الله اليكم جئتكم لابلغكم رسالة ربكم
فاقبلوا نحوه والقوا اسماعهم نحو قوله والقوا أبصارهم الى الارض فقال داود اني
رسول الله اليكم يقرئكم السلام ويقول لكم الا تسألوني حاجة الا تنادوني أسمع
صوتكم وكلامكم فانكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع الى
محبتكم وأنظر اليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة قال فجرت الدموع على
خدودهم فقال شيخهم سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع
قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا وقال الآخر سبحانك سبحانك نحن عبيدك
وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك وقال الآخر سبحانك سبحانك
نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترئ على الدعاء وقد علمت انه لا حاجة لنا في شيء من
امورنا فأدم لنا لزوم الطريق اليك واتمم بذلك المنة علينا وقال الآخر نحن مقصرون في
طلب رضاك فأعنا عليه بجودك وقال الآخر من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر في
عظمتك أفيجترئ على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر في جلالك وطلبتنا
الدنو من نورك وقال الآخر كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك
وكثرة منتك على أهل محبتك وقال الآخر أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا
للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك وقال الآخر قد عرفت حاجتنا انما هي النظر
الى وجهك وقال الآخر كيف يجترئ العبد على سيده اذ أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا
نورا نهتدي به في الظلمات من أطباق السموات وقال الآخر ندعوك أن تقبل علينا
وتديمه عندنا وقال الآخر نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا وقال
الآخر لا حاجة لنا في شيء من خلقك فامنن علينا بالنظر الى جمال وجهك وقال الآخر
اسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر الى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة
وقال الآخر قد عرفت تباركت وتعاليت انك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال
القلب بك عن كل شيء دونك فأوحى الله تعالى الى داود قل لهم قد سمعت كلامكم
وأجبتكم الى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فاني كاشف
الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا الى نوري وجلالي فقال داود يا رب بم نالوا هذا
منك قال بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بي ومناجاتهم لي وان هذا
منزل لا يناله الا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفرغ قلبه لي
واختارني على جميع خلقي فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب
فيما بيني وبينه حتى ينظر الي نظر الناظر بعينه الى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة
وأقربه من نور وجهي ان مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها وان عطش
أرويته وأذيقه طعم ذكري فاذا فعلت ذلك به يا داود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها
ولم أحببها اليه لا يفتر عن الاشتغال بي يستعجلني القدوم وأنا أكره أن أميته لانه موضع
نظري من بين خلقي لا يرى غيري ولا أرى غيره فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل

جسمه وتهشمت اعضاؤه وانخلع قلبه اذا سمع بذكرى أباهي به ملائكتي وأهل سمواتي
يزداد خوفا وعبادة وعزتي وجلالي يا داود لاقعدنه في الفردوس ولا شفين صدره من
النظر الي حتى يرضى وفوق الرضى وفي أخبار داود أيضا قل لعبادي المتوجهين الى
محبتي ماضركم اذا احتجبت عن خلقي ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا
الي بعيون قلوبكم وماضركم ما زويت عنكم من الدنيا اذا بسطت ديني لكم وماضركم
مسخطة الخلق اذا التمستم رضاي وفي اخبار داود أيضا ان الله تعالى اوحى اليه تزعم
انك تحبني فان كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك فان حبي وحبها لا يجتمعان
في قلب يا داود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه
ولا تقلد دينك الرجال أما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به وأما ما اشكل
عليك فقلدنيه حقا على أني اسارع الى سياستك وتقويمك واكون قائدك ودليلك
اعطيك من غير أن تسألني وأعينك على الشدائد واني قد حلفت على نفسي اني
لا اثيب الا عبدا قد عرفت من طلبته وارادته ألقاء كنفه بين يدي وانه لاغنى به
عني فاذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فاني قد
حلفت على نفسي انه لا يطمئن عبد لي الى نفسه ينظر الى فعالها الا وكلته اليها أضف
الاشياء الي لا تضاد عملك فتكون متعنيا ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجد
لمعرفتي حدا فليس لها غاية ومتى طلبت مني الزيادة اعطك ولا تجد لزيادة مني حد
ثم أعلم بني اسرائيل انه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب فلتعظم رغبتهم وارادتهم
عندي ابح لهم مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ضعني بين عينيك
وانظر الي بصر قلبك ولا تنظر بعينك التي في رأسك الى الذين حجبت عقولهم عني
فأمرجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها فاني حلفت بعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد
دخل في طاعتي للتجربة والتسويف تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين فلو علم
أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم ارضا يمشون عليها يا داود لان تخرج مريدا
من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيدا ومن كتبته عندي جهيدا لا تكون
عليه وحشة ولا فاقة الى المخلوقين يا داود تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك
لا تؤتين منها فأحجب عنك محبتي لا تؤيس عبادي من رحمتي اقطع شهوتك لي فانما
ابحت الشهوات لضعفة خلقي ما بال الاقوياء أن ينالوا الشهوات فانها تنقص حلاوة
مناجاتي وانما عقوبة الاقوياء عندي في موضع التناول ادنى ما يصل اليهم أن احجب
عقولهم عني فاني لم ارض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها يا داود لا تجعل بيني وبينك عالما
يحجبك بسكره عن محبتي اولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين استعن على ترك
الشهوات بادمان الصوم واياك والتجربة في الافطار فان محبتي للصوم ادمانه يا داود
تحبب الي بمعاداة نفسك امنعها الشهوات أنظر اليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة
انما اداريك مداراة لتقوى على ثوابي اذا مننت عليك به واني احبسه عنك وأنت
متمسك بطاعتي واوحى الله تعالى الى داود يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري

لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الى وتقطعت اوصالهم من محبتي يا داود هذه ارادتي في المدبرين عني فكيف ارادتي في المقبلين علي يا داود احوج ما يكون العبد الى اذا استغنى عني وارحم ما اكون بعبدي اذا ادبر عني واجل ما يكون عبدي اذا رجع الى فهذه الاخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على اثبات المحبة والشوق والانس وانما تحقيق معناها بكشف بما سبق

(بيان محبة الله للعبد ومعناها)

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك ولنقدم الشواهد على محبته فقد قال الله تعالى يحبهم ويحبونه وقال تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا وقال تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ولذلك رد سبحانه على من ادعى انه حبيب الله فقال قل فلم يعذبكم بذنوبكم وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا احب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ثم تلى ان الله يحب التوابين ومعناه انه اذا احبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وان كثرت كما لا يضر الكفر الماضي بعد الاسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الايمان الا من يحب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اكثر ذكر الله احبه الله وقال عليه السلام قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به الحديث وقال زيد بن اسلم ان الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول اعمل ما شئت فقد غفرت لك وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز اذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى الشئ الموافق والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط وقد بينا أن الاحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا وأن الجمال والاحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا بل الاسامي كلها اذا اطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تطلق عليهما بمعنى واحد أصلا حتى ان اسم الوجود الذي هو أعم الاسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع وانما الاستواء في اطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم اذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابه فيهما من غير استحقاق أحدهما لان يكون فيه اصلا فليست الجسمية لاحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه وهذا التباعد في سائر الاسامي اظهر كالعلم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق وواضع اللغة انما وضع هذه الاسامي اولا

للمعاني

للخلق فان الخلق اسبق الى العقول والافهام من الخالق فكا .... حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى موافق ملائم وهذا انما يتصور فى نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كمالا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن فى حق الالهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وازلا ولا يتصور تجدده ولا زواله فلا يكون له الى غيره نظر من حيث انه غيره بل نظره الى ذاته وأفعاله فقط وليس فى الوجود الا ذاته وأفعاله ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهنى رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى يحبهم ويحبونه فقال بحق يحبهم فانه ليس يحب الا نفسه على معنى انه الكل وأن ليس فى الوجود غيره فمن لا يحب الا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هى متعلقة بذاته فهو اذا لا يحب الا نفسه وما ورد من الالفاظ فى حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه والى تمكينه اياه من القرب منه والى ارادته ذلك به فى الازل فحبه لمن احبه ازلى مهما اضيف الى الارادة الازلية التى اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب واذا اضيف الى فعله الذى يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضى له كما قال تعالى لا يزال عبدى يتقرب الىّ بالنوافل حتى احبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله فى درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه ولا يفهم هذا الا بمثال وهو ان الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له فى كل وقت فى حضور بساطه لميل الملك اليه اما لينصره بقوته او ليستريح بمشاهدته او ليستشيره فى رأيه او ليهيئ اسباب طعامه وشرابه فيقال ان الملك يحبه ويكون معناه ميله اليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد ولكن لكون العبد فى نفسه موصوفا من الاخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا فاذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه واذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحبب نفسه الى الملك فحب الله للعبد انما يكون بالمعنى الثانى لا بالمعنى الاول وانما يصح تمثيله بالمعنى الثانى بشرط أن لا يسبق الى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله فى البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين والتخلق بمكارم الاخلاق التى هى الاخلاق الالهية فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا اذ صار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال فى حق الله تعالى اذ التغير عليه محال بل لا يزال فى نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه فى ازل الازل ولا ينكشف هذا الا بمثال فى القرب بين الاشخاص فان الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل

القرب سعير في احدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضاً كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة استاذه في كمال العلم وجماله والاستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول الى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل الى ارتفاع العلم فلا يزال دائباً في التغير والترقي الى أن يقرب من استاذه والاستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترقي العبد في درجات القرب فكلما صار أكمل صفة وأتم علماً واحاطة بحقائق الامور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الاستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال فانه لا نهاية لكماله وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي الا الى حد محدود فلا مطمع له في المساواة ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لاجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فاذاً محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه وأما محبة العبد لله فهو ميله الى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشتاق الى ما فاته واذا ادرك منه شيأ يلتذ به والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى فان قلت محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله فأقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم اذا احب الله عبداً ابتلاه فاذا احبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشتري حماراً تركبه فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلني عن نفسه بحمار وفي الخبر اذا احب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضي اصطفاه وقال بعض العلماء اذا رأيت تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد يصافيك وقال بعض المريدين لاستاذه قد طولعت بشئ من المحبة فقال يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه اياه قال لا قال فلا تطمع في المحبة فانه لا يعطيها عبداً حتى يبلوه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا احب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه وقد قال اذا اراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه فأخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه وسره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدبر لامره والمزين لاخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه والجاعل همومه هماً واحداً والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد فلنذكر الآن علامات محبة العبد لله فانها أيضاً علامات حب الله للعبد

(القول في علامات محبة العبد لله تعالى)

اعلم ان المحبة يدعيها كل احد وما اسهل الدعوى وما اعز المعنى فلا ينبغي أن يغتر الانسان

بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى مالم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والادلة والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الاشجار وهي كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام فلا يتصور أن يحب القلب محبوبا الا ويحب مشاهدته ولقاءه واذا علم انه لا وصول الا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محبا للموت غير فار منه فان المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه الى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول الى المشاهدة قال صلى الله عليه وسلم من احب لقاء الله احب الله لقاءه وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم وقال بعض السلف ما من خصلة احب الى الله ان تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله حيث قالوا انا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا وقال عزوجل يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما الحق ثقيل وهو مع ثقله مرئ والباطل خفيف وهو مع خفته وبيء فان حفظت وصيتي لم يكن غائب احب اليك من الموت وهو مدركك وان ضيعت وصيتي لم يكن غائب ابغض اليك من الموت ولن تعجزه ويروى عن اسحاق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني ابي أن عبد الله بن جحش قال له يوم احد الا ندعو الله فخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب اني اقسمت عليك اذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده اقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجدع انفي واذني ويبقر بطني فاذا لقيتك غدا قلت يا عبد الله من جدع انفك واذنك فأقول فيك يارب وفي رسولك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وان انفه واذنه لمعلقتان في خيط قال سعيد بن المسيب أرجو ان يبر الله آخر قسمه كما أبر اوله وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان لا يكره الموت الا مريب لان الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه وقال البويطي لبعض الزهاد تحب الموت فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لاحببته وتلا قوله تعالى فتمنوا الموت ان كنتم صادقين فقال الرجل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يتمنين احدكم الموت فقال انما قاله لضر نزل به لان الرضى بقضاء الله تعالى افضل من طلب الفرار منه فان قلت فمن لا يحب الموت فهل يتصور ان يكون محبا لله فأقول كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الاهل والمال والولد وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لان الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الاهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون في الحب ويدل على التفاوت ما روى ان أبا حذيفة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج اخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا انكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد أنكحته

اياها وانى لاعلم انه خير منها فكان قوله ذلك اشد عليهم من فعله فقالوا وكيف وهى
احبتك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اراد أن ينظر الى
رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم فهذا يدل على ان من الناس من لا يحب الله بكل
قلبه فيحبه و يحب ايضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر
حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها (واما السبب الثانى للكراهة)
فهو أن يكون العبد فى ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وانما يكره عجلته قبل أن
يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذى وصله الخبر بقدوم
حبيبه عليه فاحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره و يعدّ له اسبابه فيلقاه كما يهواه
فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكراهة بهذا السبب لا تنافى كمال
الحب اصلا وعلامته الدؤوب فى العمل واستغراق الهم فى الاستعداد ومنها أن يكون مؤثرا
ما أحبه الله تعالى على ما يحبه فى ظاهره و باطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع
الهوى و يعرض عن دعة الكسل ولا يزال مواظبا على طاعة الله ومتقربا اليه بالنوافل
وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب فى قلب محبوبه وقد وصف الله
المحبين بالايثار فقال يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا
و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن بقى مستمرا على متابعة الهوى
فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل

اريد وصاله و يريد هجرى ‏ ‏ فأترك ما اريد لما يريد

بل الحب اذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روى ان زليخا لما آمنت وتزوج
بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت الى الله تعالى وكان
يدعوها الى فراشه نهارا فتدافعه الى الليل فاذا دعاها ليلا سوفت به الى النهار وقالت
يا يوسف انما كنت احبك قبل ان أعرفه فأما أن عرفته فما ابقت محبته محبة لسواه وما
اريد به بدلا حتى قال لها ان الله جل ذكره امرنى بذلك وأخبرنى انه مخرج منك ولدين
وجاعلهما نبيين فقالت أما اذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلنى طريقا اليه فطاعة
لامر الله تعالى فعندها سكنت اليه فاذا من احب الله لا يعصيه ولذلك قال ابن
المبارك فيه

تعصى الاله وأنت تظهر حبه ‏ ‏ هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته ‏ ‏ ان المحب لمن يحب مطيع

وفى هذا المعنى قيل أيضا

وأترك ما اهوى لما قد هويته ‏ ‏ فأرضى بما ترضى وان سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب ايثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله
عزوجل صار حبيبا وانما الحبيب من اجتنب المناهى وهو كما قال لان محبته لله تعالى
سبب محبة الله له كما قال تعالى يحبهم و يحبونه واذا احبه الله تولاه ونصره على اعدائه وانما
عدوه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يكله الى هواه وشهواته ولذلك قال تعالى والله أعلم

بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا فان قلت فالعصيان هل يضاد أصل المحبة فأقول أنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها فكم من انسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روى أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيحده في معصية يركبها الى أن أتى به يوما فحده فلعنه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين اذا كان الايمان في ظاهر القلب احب الله تعالى حبا متوسطا فاذا دخل سويداء القلب احبه الحب البالغ وترك المعاصي وبالجملة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل اذا قيل لك اتحب الله تعالى فاسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت ولقد قال بعض العلماء ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم اهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب اشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشئ من ذلك ومنها ان يكون مستهترا بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن احب شيأ اكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرءان الذى هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب اليه فان من يحب انسانا يحب كلب محلته فالمحبة اذا قويت تعدت من المحبوب الى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه وذلك ليس شركة في الحب فان من أحب رسول المحبوب لانه رسوله وكلامه لانه كلامه فلم يجاوز حبه الى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لانهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الاخوة والصحبة ولذلك قال تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لله تعالى وقال سفيان من أحب من يحب الله تعالى فانما أحب الله ومن اكرم من يكرم الله تعالى فانما يكرم الله تعالى وحكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الارادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول في المنام ان كنت تزعم انك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي قال فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعاودت الى حالي وقال ابن مسعود لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه الا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وان لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها الا زادا وبلغة الى الآخرة ومنها

أن يكون انسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق وأول درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته قيل لابراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل من أين أقبلت فقال من الانس بالله وفي اخبار داود عليه السلام لا تستأنس الى أحد من خلقي فاني انما أقطع عني رجلين رجلا استبطأ ثوابي فانقطع ورجلا نسيني فرضي بحاله وعلامة ذلك أن أكله الى نفسه وأن ادعه في الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله ساقطا عن درجة محبته وفي قصة برخ وهو العبد الاسود الذي استسقى به موسى عليه السلام ان الله تعالى قال لموسى عليه السلام ان برخا نعم العبد هولي الا ان فيه عيبا قال يا رب وما عيبه قال يعجبه نسيم الاسحار فيسكن اليه ومن احبني لم يسكن الى شيء وروي أن عابدا عبد الله تعالى في غيضة دهرا طويلا فنظر الى طائر وقد عشش في شجرة يأوي اليها ويصفر عندها فقال لو حولت مسجدي الى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال ففعل فأوحى الله تعالى الى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لاحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدا فاذا علامة المحبة كمال الانس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة وعلامة الانس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة اصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والانس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع بها جميع الهموم بل يستغرق الانس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مرارا مثل العاشق الولهان فانه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه فالمحب من لا يطمئن الا بمحبوبه وقال قتادة في قوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب قال هشت اليه واستأنست به وقال الصديق رضي الله تعالى عنه من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا واوحشه عن جميع البشر وقال مطرف بن أبي بكر المحب لا يسأم من حديث حبيبه وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبتي اذا جنه الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فها أنا ذا موجود لمن طلبني وقال موسى عليه السلام يا رب اين أنت فأقصدك فقال اذا قصدت فقد وصلت وقال يحيى بن معاذ من أحب الله أبغض نفسه وقال أيضا من لم يكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق ومنها ان لا يأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة قال بعض العارفين

ان لله عبادا احبوه واطمأنوا اليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم اذ كان ملك مليكهم تاما وماشاء كان فما كان لهم فهو واصل اليهم ومافاتهم فبحسن تدبيره لهم وحق المحب اذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب ويسأله ويقول رب بأي ذنب قطعت برك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسي وبمتابعة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب الا المحبوب ولم ير شيئا الا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضى وعلم أن المحبوب لم يقدر له الا مافيه خيرته ويذكر قوله وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة وقال الجنيد علامة المحبة دوام النشاط والدؤوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله الفتور وقال بعض العلماء والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات فان العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وان كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الاشياء اليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به فهكذا يكون حب الله تعالى فان كل حب صار غالبا قهر لا محالة ماهو دونه فمن كان محبوبه أحب اليه من الكسل ترك الكسل في خدمته وان كان احب اليه من المال ترك المال في حبه وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شئ ما كان سبب حالك هذه في المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت معرض عني بوجهك كله فقال له المحبوب ان كنت تحبني فأيش تنفق علي قال ياسيدي املكك ما املك ثم انفق عليك روحي حتى تهلك فقلت هذا خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بعبد لمعبود فكل هذا بسببه ومنها ان يكون مشفقا على جميع عباد الله رحيما بهم شديدا على جميع اعداء الله وعلى كل من يقارف شيأ مما يكرهه كما قال الله تعالى اشداء على الكفار رحماء بينهم ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله اولياءه اذ قال الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشئ ويأوون الى ذكري كما يأوي النسر الى وكره ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر اذا حرد فانه لا يبالي قل الناس او كثروا فانظر الى هذا المثال فان الصبي اذا كلف بالشئ لم يفارقه اصلا وان أخذ منه لم يكن له شغل الا البكاء والصياح حتى يرد اليه فان نام أخذه معه في ثيابه فاذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه أبغضه ومن اعطاه احبه وأما النمر فانه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه ان يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه اذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين كما قال تعالى في الابرار ان الابرار لفي نعيم ثم قال

يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون فانما طاب شراب الابرار لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقربين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال ان كتاب الابرار لفي عليين ثم قال يشهده المقربون فكان أمارة علو كتابهم انه ارتفع الى حيث يشهده المقربون وكما أن الابرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم فكذلك يكون حالهم في الآخرة ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة كما بدأنا اول خلق نعيده وكما قال تعالى جزاء وفاقا أي وافق الجزاء أعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه وأعماله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين فمن كان حبه في الدنيا رجاء لنعيم الجنة والحور العين والقصور مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان فهناك تنتهي لذته في الآخرة لانه انما يعطى كل انسان في الجنة ما تشتهيه نفسه وتلذ عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه الا حبه بالاخلاص والصدق انزل في مقعد صدق عند مليك مقتدر فالابرار يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحور العين والولدان والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالاضافة الى ذرة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالسة اقوام آخرون ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكثر اهل الجنة البله وعليون لذوي الالباب ولما قصرت الافهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال وما أدراك ما عليون كما قال تعالى القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ومنها أن يكون في حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل ادراك العظمة يوجب الهيبة كما أن ادراك الجمال يوجب الحب ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشد من بعض فأولها خوف الاعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الابعاد وهذا المعنى من سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين اذ سمع قوله تعالى الا بعدا لثمود الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وانما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به فحديث البعد في حق المبعدين يشتاقه أهل القرب في القرب ولا يحن الى القرب من ألف البعد ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وسلب المزيد فانا قدمنا أن درجات القرب لا نهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من امسه فهو ملعون وكذلك قال عليه السلام انه ليغان على قلبي في اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة وانما كان

استغفاره من القدم الاول فانه كان بعدا بالاضافة الى القدم الثاني ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات الى غير المحبوب كما روى ان الله تعالى يقول ان ادنى ما اصنع بالعالم اذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي ان اسلبه لذيذ مناجاتي فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب والركون الى ما ظهر من مبادي اللطف وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه الا ذوو الاقدام الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته سمع ابراهيم بن ادهم قائلا يقول وهو في سياحته وكان على جبل

كل شئ منك مغفور سوى الاعراض عنا
قد وهبنا لك ما فات بقي ما فات منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يفق يوما وليلة وطرأت عليه احوال ثم قال سمعت النداء من الجبل يا ابراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت ثم خوف السلو عنه فان المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى الا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه او سبب رجعته والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات لها اسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها فاذا اراد الله المكر به واستدراجه أخفي عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن الظن او بغلبة الغفلة او الهوى او النسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان وكما أن من اوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحب وهي اوصاف اللطف والرحمة والحكمة فمن اوصافه ما يلوح فيورث السلو كاوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك مقدمات المكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه الى حب غيره وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الاوراد اسباب هذه المعاني ومقدماتها وظهور هذه الاسباب دليل على النقل عن مقام الحب الى مقام المقت نعوذ بالله منه وملازمة الخوف لهذه الامور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من احب شيأ خاف لا محالة فقده فلا يخلو المحب عن خوف اذا كان المحبوب مما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف احبه الله تعالى فقربه ومكنه وعلمه فالمحب لا يخلو عن خوف والخائف لا يخلو عن محبة ولكن الذي غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف الا يسير يقال هو في مقام المحبة ويعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر فانما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب فقد روى في الاخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الابدال أن يسأل الله

تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ففعل ذلك فهام في الجبال وحار عقله وولِه قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يا رب انقصه من الذرة بعضها فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيناه جزأ من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيأ من المحبة في الوقت الذي سألني هذا فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك فقال سبحانك يا أحكم الحاكمين انقصه مما أعطيته فأذهب الله عنه جملة الجزء وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين وقد قيل في وصف حال العارف

قريب الوجد ذو مرمى بعيد ❊ عن الأحرار منهم والعبيد
غريب الوصف ذو علم غريب ❊ كأن فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت ❊ عن الأبصار إلا للشهيد
يرى الأعياد في الأوقات تجري ❊ له في كل يوم ألف عيد
وللأحباب أفراح بعيد ❊ ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره وهي هذه الأبيات

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم ❊ فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراصا بقرب الله في ظل قدسه ❊ تجول على أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى ❊ ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح بعز مفرد من صفاته ❊ وفي حلل التوحيد تمشي وترفل
ومن بعد هذا ما تدق صفاته ❊ وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمي به ما يصونه ❊ وأبذل منه ما أرى الحق يبذل
وأعطي عباد الله منه حقوقهم ❊ وأمنع منه ما أرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه ❊ إلى أهله في السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها وبطلت الأسواق والمعايش بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن لله تعالى فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم كما أن له في الخير أسرارا وحكما ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقي من إظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب وإجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره فإن الحب من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من

الافتراء وتعظم العقوبة عليه فى العقبى وتتعجل عليه البلوى فى الدنيا نعم قد يكون للمحب سكرة فى حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لانه مقهور وربما يشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالقادر على الكتمان يقول

وقالوا اقترب قلت ما انا صانع * بقرب شعاع الشمس لو كان فى حجرى
فمالى منه غير ذكر بخاطر * يهيج نار الحب والشوق فى صدرى

والعاجز عنه يقول

يخفى فيبدى الدمع أسراره * ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول ايضا

ومن قلبه مع غيره كيف حاله * ومن سره فى جفنه كيف يكتم

وقد قال بعض العارفين أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم اشارة به كانه أراد من يكثر التعريض به فى كل شئ ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل * ودخل ذو النون المصرى على بعض اخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاء فقال لا يحبه من وجد ألم ضره فقال الرجل لكنى أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره فقال ذو النون ولكنى أقول لا يحبه من شهر نفسه بحبه فقال الرجل أستغفر الله وأتوب أليه فان قلت المحبة منتهى المقامات واظهارها اظهار للخير فلماذا يستنكر فاعلم أن المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا وانما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار وحق المحب أن يتم على حبه الخفى أفعاله واحواله دون اقواله وافعاله وينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه الى اظهار الحب ولا الى اظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغى أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط فأما ارادته اطلاع غيره فشرك فى الحب وقادح فيه كما ورد فى الانجيل اذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك فالذى يرى الخفيات يجزيك علانية واذا صمت فاغسل وجهك وادهن راسك لئلا يعلم بذلك غير ربك فاظهار القول والفعل كله مذموم الا اذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الاعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال يا أخى له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذى رأيته من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسببه أن المحب ان كان عارفا وعرف أحوال الملائكة فى حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لا يستنكف من نفسه ومن اظهار حبه وعلم قطعا انه من اخس المحبين فى مملكته وان حبه انقص من حب كل محب لله قال بعض المكاشفين من المحبين عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت ان لى عند الله شيأ وذكر اشيا من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها فبلغت صفا من الملائكة بعدد

جميع ما خلق الله من شئ فقلت من اتم فقال الواعي المحبوب لله عز وجل بعينه ههنا مستد لتمامه الفسه ما خطر على قلوبها قط سواه ولا ذكر ناغيره قال فاستحييت من أعمالي فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه في جهنم فاذا من عرف نفسه وعرف ربه واستحى منه حق الحياء خرس لسانه عن الظاهر بالدعوى انم تشهد على حبه حركاته وسكناته واقدامه واحجامه وترداده كما حكى عن الجنيد انه قال مرض استاذنا السري رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا السببا ووصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائه فنظر اليها الطبيب وجعل ينظر اليه مليا ثم قال لى اراه بول عاشق قال الجنيد فصعقت وغشى على ووقعت القارورة من يدى ثم رجعت الى السري فأخبرته فتبسم ثم قال قاتله الله ما ابصره قلت يا استاذ وتبين المحبة فى البول قال نعم وقد قال السري مرة لو شئت اقول ما ايبس جلدى على عظمى ولا نحل جسمى الا حبه ثم غشى عليه ويدل الغشية على انه نطق فى غلبة الوجد ومقدمات الغشية فهذه مجامع علامات الحب وثمراته ومنها الانس والرضى كما سيأتى وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الاخلاق ثمرة وما لا ثمرة الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الاخلاق نعم قد يحب الله لاحسانه اليه وقد يحبه لجلاله وجماله وان لم يحسن اليه والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس فى محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام احسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن ارضوه الا انهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والاحسان فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ولما عرفوا صفاته الكاملة واسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن احبوه اذ استحق عندهم المحبة بذلك لانه أهل لها ولو ازال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يحب هواه وعدو الله ابليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات او يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك كعلماء السوء وقراء السوء اولئك بغضاء الله فى ارضه * وكان سهل اذا تكلم مع انسان قال يادوست اى ياحبيب فقيل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال فى اذن القائل سرا لا يخلو أن يكون مؤمنا او منافقا فان كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل وان كان منافقا فهو حبيب ابليس وقد قال ابوتراب النخشبى فى علامات المحبة ابياتا

لا تخدعن فللحبيب دلائل * ولديه من تحف الحبيب وسائل

منها تنعمه بمر بلائه * وسروره فى كل ماهو فاعل

فالمنع منه عطية مقبولة * والفقر اكرام وبر عاجل

ومن الدلائل أن ترى من عزمه * طوع الحبيب وان الح العاذل

ومن الدلائل أن يرى متبسما * والقلب فيه من الحبيب بلابل

ومن الدلائل أن يرى متفهما * لكلام من يحظى لديه السائل

ومن الدلائل أن يرى متقشفا * متحفظا من كل ماهو قائل

وقال

وقال يحيى بن معاذ

ومن الدلائل أن تراه مشمرا * في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه * جوف الظلام فماله من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا * نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى * من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيا * أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما * كل الامور الى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا * بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى * والقلب محزون كقلب الثاكل

(بيان معنى الانس بالله تعالى)

قد ذكرنا أن الانس والخوف والشوق من آثار المحبة الا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب الى الطلب وانزعج له وهاج اليه وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقا وهو بالاضافة الى أمر غائب واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت الى ما لم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره انسا وان كان نظره الى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر امكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا وهذه الاحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لاسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالانس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى انه اذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن ههنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا انما الشوق الى غائب فاذا كان الغائب حاضرا فالى من يشتاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت الى ما بقي في الامكان من مزايا الالطاف ومن غلب عليه حال الانس لم تكن شهوته الا في الانفراد والخلوة كما حكي أن ابراهيم بن ادهم نزل من الجبل فقيل له من أين أقبلت فقال من الانس بالله وذلك لان الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الاشياء على القلب كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام احد من الناس الا اخذه الغشيان لان الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يا من آنسني بذكره واوحشني من خلقه وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لي مشتاقا وبي مستأنسا ومن سواي مستوحشا وقيل لرابعة بم نلت هذه المنزلة قالت بتركي ما لا يعنيني وأنسي بمن لم يزل وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له يا راهب لقد أعجبتك الوحدة فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت

اليها من نفسك الوحدة رأس العبادة فقلت يا راهب ما اقل ما تجده في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الانس بالله تعالى قال اذا صفا الود وخلصت المعاملة قلت ومتى يصفو الود قال اذا اجتمع الهم فصار هما واحدا في الطاعة وقال بعض الحكماء عجبا للخلائق كيف ارادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك فان قلت فما علامة الانس فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بابدان ارواحها معلقة بالمحل الاعلى أولئك خلفاء الله في ارضه والدعاة الى دينه فهذا معنى الانس بالله وهذه علامته وهذه شواهده وقد ذهب بعض المتكلمين الى انكار الانس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر اكمل من جمال المبصرات ولذة معرفتها اغلب على ذوي القلوب ومنهم أحمد بن غالب يعرف بغلام الخليل انكر على الجنيد وعلى ابي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى انكر بعضهم مقام الرضى وقال ليس الا الصبر فأما الرضى فغير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين الا على القشور فظن أنه لا وجود الا للقشر فان المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراء اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز الا الى قشره يظن ان الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل

الانس بالله لا يحويه بطال ❊ وليس يدركه بالحول محتال

والآنسون رجال كلهم نجب ❊ وكلهم صفوة لله عمال

❊(بيان معنى الانبساط والادلال الذي تثمره غلبة الانس)❊

اعلم أن الانس اذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فانه يثمر نوعا من الانبساط في الاقوال والافعال والمناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن اقيم في مقام الانس ومن لم يقم في ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الاسود الذي امر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني اسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسقي لهم في سبعين ألفا فأوحى الله عز وجل اليه كيف استجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم سرائرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري ارجع الى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتى استجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما

موسى ذات يوم يمشي في طريق اذا بعبد اسود قد استقبله بين عينيه تراب من تراب السجود في شملة قد عقدها على عنقه فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له ما اسمك فقال اسمي برخ قال فانت طلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا فخرج فقال في كلامه ما هذا من فعالك ولا هذا من حلمك وما الذي بدا لك انقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك ام نفد ما عندك ام اشتد غضبك على المذنبين ألست كنت غفارا قبل خلق الخاطئين خلقت الرحمة وأمرت بالعطف ام ترينا انك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة قال فما برح حتى اخضلت بنو اسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف انصفني فهم موسى عليه السلام به فأوحى الله تعالى اليه ان برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات * وعن الحسن قال احترقت اخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق وابو موسى يومئذ أمير البصرة فأخبر بذلك فبعث الى صاحب الخص قال فأتى بشيخ فقال يا شيخ ما بال خصك لم يحترق قال اني اقسمت على ربي عز وجل أن لا يحرقه فقال ابو موسى رضي الله عنه اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يكون في امتي قوم شعثة رؤسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لابرهم قال ووقع حريق بالبصرة فجاء ابو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار فقال له امير البصرة انظر لا تحترق بالنار فقال اني اقسمت على ربي عز وجل أن لا يحرقني بالنار قال فاعزم على النار أن تطفأ قال فعزم عليها فطفئت * وكان ابو حفص يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له ابو حفص ما اصابك فقال ضل حماري ولا املك غيره قال فوقف ابو حفص وقال وعزتك لا اخطو خطوة مالم ترد عليه حماره قال فظهر حماره في الوقت ومر ابو حفص رحمه الله فهذا وامثاله يجري لذوي الانس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم قال الجنيد رحمه الله اهل الانس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم اشياء هي كفر عند العامة وقال مرة لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد في احوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم واليه اشار القائل

قوم تخالجهم زهو بسيدهم * والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له * يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدن رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني لو فطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لاولي البصائر والابصار حتى ينظروا اليها بعين الاعتبار فانما هي عند ذوي الاعتبار من الاسمار فأول القصص قصة آدم عليه السلام وابليس أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا في الاجتباء والعصمة أما ابليس فأبلس عن رحمته وقيل انه من المبعدين وأما آدم عليه السلام فقيل فيه وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في الاعراض عن عبد والاقبال على عبد وهما في العبودية سيان ولكن في الحال مختلفان فقال وأما من جاءك يسعى

وهو يخشى فأنت عنه تلهى وقال في الآخر أما من استغنى فأنت له تصدى وكذلك امره بالقعود مع طائفة فقال عز وجل واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم وأمره بالاعراض عن غيرهم فقال واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى قال فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين وقال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى فكذا الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون بعض فمن انبساط الانس قول موسى عليه السلام ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء وقوله في التعلل والاعتذار لما قيل له اذهب الى فرعون فقال ولهم على ذنب وقوله انى اخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى وقوله انا نخاف أن يفرط علينا اوأن يطغى وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الادب لان الذى اقيم مقام الانس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام ما دون هذا لما اقيم مقام القبض والهيبة فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ونودى عليه الى يوم القيامة لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم قال الحسن العراء هو القيامة ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم ان يقتدى به وقيل له فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الاحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الازل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد وقد قال تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وقال منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولادلاله سلم على نفسه فقال والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم أبعث حيا وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الانس وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فانه اقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى اثنى عليه خالقه فقال وسلام عليه وانظر كيف احتمل لاخوة يوسف ما فعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء قد عددت من اول قوله تعالى اذ قالوا ليوسف وأخوه احب الى ابينا الى رأس العشرين من اخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطيئة بعضها اكبر من بعض وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والاربع فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزير في مسألة واحدة سأل عنها في القدر حتى قيل محى من ديوان النبوة وكذلك كان بلعام بن باعوراء من اكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته في الجوارح فعفا عنه فقد روى ان الله تعالى اوحى الى سليمان عليه السلام يا رأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين كم يعصينى ابن خالتك آصف وانا احلم عليه مرة بعد مرة فوعزتى وجلالى لئن اخذته عصفة من عصفاتى لاتركنه مثلة لمن معه ونكالا لمن بعده فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام اخبره بما اوحى الله تعالى اليه فخرج حتى علا كثيبا من رمل ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال الهى وسيدى انت انت وانا انا فكيف اتوب ان لم تتب على وكيف استعصم ان لم تعصمنى لاعودن فأوحى الله تعالى اليه صدقت يا آصف انت انت وانا انا استقبل التوبة فقد تبت عليك وانا التواب الرحيم وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه اليه وناظر به اليه وفي الخبر

ان

ان الله تعالى اوحى الى عبد تداركه بعد ان كان اشفى على الهلكة كم من ذنب واجهتني به غفرته لك قد اهلكت في دونه امة من الامم فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به المشيئة الازلية وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل فما في القرآن شئ الا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى الى خلقه فتارة يتعرف اليهم بالتقديس فيقول قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا احد وتارة يتعرف اليهم بصفات جلاله فيقول الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر وتارة يتعرف اليهم في افعاله المخوفة والمرجوة فيتلو عليهم سنته في اعدائه وفي انبيائه فيقول الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ولا يعدو القرآن هذه الاقسام الثلاثة وهي الارشاد الى معرفة ذات الله وتقديسه او معرفة صفاته وأسمائه او معرفة افعاله وسنته مع عباده ولما اشتملت سورة الاخلاص على احد هذه الاقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرآن فقال من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن لان منتهى التقديس أن يكون واحدا في ثلاثة امور لا يكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يلد ولا يكون حاصلا ممن هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله ولم يولد ولا يكون في درجته وان لم يكن اصلا له ولا فرعا من هو مثله ودل عليه قوله ولم يكن له كفوًا احد ويجمع جميع ذلك قوله تعالى قل هو الله احد وجملته تفصيل قول لا اله الا الله فهذه اسرار القرآن ولا تتناهى امثال هذه الاسرار في القرآن ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه ثوروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الاولين والآخرين وهو كما قال ولا يعرفه الا من طال في آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه حتى تشهد له بكل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر وانه خارج عن حد استطاعة البشر واكثر أسرار القرآن معباة في طي القصص والاخبار فكن حريصا على استنباطها لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه فهذا ما اردنا ذكره من معنى الانس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى اعلم *

(القول في معنى الرضى بقضاء الله وحقيقته وما ورد في فضيلته) *

اعلم أن الرضى ثمرة من ثمار المحبة وهو من اعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الاكثرين وما يدخل عليه من التشابه والايهام غير منكشف الا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين فقد انكر منكرون تصور الرضى بما يخالف الهوى ثم قالوا ان امكن الرضى بكل شئ لانه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضى بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ولو انكشفت هذه الاسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل فلنبدأ ببيان فضيلة الرضى ثم بحكايات احوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضى وكيفية تصوره

في إبطال الهوى ثم ذكر ما لطف له من تمام الرضى وليس منه ترك الدعاء والسكوت على المعاصي

(بيان فضيلة الرضى)

(أما من الآيات) فقوله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه وقد قال تعالى هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ومنتهى الإحسان رضي الله عن عبده وهو ثواب رضى العبد عن الله تعالى وقال تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر فقد رفع الله الرضى فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر فكما أن مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان وفي الحديث إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك فسؤالهم الرضى بعد النظر نهاية التفضيل وأما رضى العبد فسنذكر حقيقته وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فإنما سألوا الرضى لأنه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضى هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى ولدينا مزيد قال بعض المفسرين فيه يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين أحدها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلا وهو قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم والثالثة يقول الله تعالى إني عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى ورضوان من الله أكبر أي من النعيم الذي هم فيه فهذا فضل رضى الله تعالى وهو ثمرة رضى العبد (وأما الأخبار) فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ما أنتم فقالوا مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة وفي خبر آخر أنه قال حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء وفي الخبر طوبى لمن هدي للإسلام وكان رزقه كفافا ورضي به وقال صلى الله عليه وسلم من رضي من الله تعالى بالقليل من الرزق رضي الله تعالى منه بالقليل من العمل وقال أيضا إذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه وقال أيضا إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاؤا فتقول لهم الملائكة هل رأيتم الحساب فيقولون ما رأينا حسابا فتقول لهم هل جزتم الصراط فيقولون ما رأينا صراطا فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأينا شيئا فتقول الملائكة من أمة من أنتم فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول نشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا

فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله فيقولون وما هما فيقولون كنا اذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا فتقول الملائكة يحق لكم هذا وقال صلى الله عليه وسلم يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضى من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا وفي أخبار موسى عليه السلام ان بني اسرائيل قالوا له سل لنا ربك امرا اذا نحن فعلناه يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام الهي قد سمعت ما قالوا فقال يا موسى قل لهم يرضون عني حتى ارضى عنهم ويشهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال من أحب ان يعلم ماله عند الله عزوجل فلينظر ما لله عزوجل عنده فان الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث انزله العبد من نفسه وفي أخبار داود عليه السلام مالاؤلياءى والهم بالدنيا ان الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم ياداود ان محبتي من اوليائى ان يكونوا روحانين لايغتمون وروى ان موسى عليه السلام قال يارب دلني على امر فيه رضاك حتى اعمله فاوحى الله تعالى اليه ان رضاى في كرهك وانت لاتصبر على ماتكره قال يارب دلني عليه قال فان رضاى في رضاك بقضاءى وفي مناجاة موسى عليه السلام اى رب اى خلقك احب اليك قال من اذا اخذت منه المحبوب سالمني قال فاى خلقك انت عليه ساخط قال من يستخير ني في الامر فاذا قضيت له سخط قضاءى وقد روى ماهو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال انا الله لا اله الا انا من لم يصبر على بلاءى ولم يشكر نعماءى ولم يرض بقضاءى فليتخذ ربا سواءى ومثله في الشدة قوله تعالى فيما اخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضي فله الرضى مني حتى يلقاني ومن سخط فله السخط مني حتى يلقاني وفي الخبر المشهور يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف وفي الاخبار السالفة أن نبيا من الانبياء شكا الى الله عزوجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما اجيب الى ما اراد ثم أوحى الله تعالى اليه كم تشكو هكذا كان بدؤك عندي في ام الكتاب قبل أن اخلق السموات والارض وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل أن اخلق الدنيا أفتريد أن اعيد خلق الدنيا من اجلك ام تريد أن ابدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما احب ويكون ما تريد فوق ما اريد وعزتي وجلالي لئن تلجلج هذا في صدرك مرة اخرى لامحونك من ديوان النبوة وروى ان آدم عليه السلام كان بعض اولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون يجعل احدهم رجله على اضلاعه كهيئة الدرج فيصعد الى رأسه ثم ينزل على اضلاعه كذلك وهو مطرق الى الارض لا ينطق ولا يرفع رأسه فقال له بعض ولده يا ابت أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا فقال يا بني اني رأيت مالم تروا وعلمت مالم تعلموا اني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ومن دار النعيم الى دار الشقاء فاخاف أن اتحرك اخرى فيصيبني مالا اعلم وقال انس بن مالك رضي الله عنه خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي لشئ فعلته لم فعلته ولا لشئ لم افعله لم لا فعلته ولا قال في شئ كان ليته لم يكن ولا في شئ لم يكن

ليته كان وكان اذا خاصمه مخاصم من اهله يقول دعوه لو قضى شئ لكان ويروى ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام ياداود انك تريد واريد وانما يكون ما اريد فان سلمت لما اريد كفيتك ما تريد وان لم تسلم لما اريد اتعبتك فيما تريد ثم لا يكون الا ما اريد (واما الآثار) فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما اول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال وقال عمر بن عبد العزيز ما بقى لى سرور الا فى مواقع القدر وقيل له ما تشتهى فقال له ما يقضى الله تعالى وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء وقال الفضيل ان لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك وقال عبد العزيز ابن ابى رواد ليس الشأن فى اكل خبز الشعير والخل ولا فى لبس الصوف والشعر ولكن الشأن فى الرضى عن الله عز وجل وقال عبد الله بن مسعود لان الحس جمرة احرقت ما احرقت وابقت ما ابقت احب الى من ان اقول لشئ كان ليته لم يكن اولشئ لم يكن ليته كان ونظر رجل الى قرحة فى رجل محمد بن واسع فقال انى لارحمك من هذه القرحة فقال انى لاشكرها مذ خرجت اذلم تخرج فى عينى وروى فى الاسرائيليات ان عابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى فى المنام فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة فسأل عنها الى ان وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر الى عملها فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما وتظل مفطرة فقال اما لك عمل غير ما رأيت فقالت ما هو والله الا ما رأيت لا اعرف غيره فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت خصيلة واحدة هى فى ان كنت فى شدة لم اتمن ان اكون فى رخاء وان كنت فى مرض لم اتمن ان اكون فى صحة وان كنت فى الشمس لم اتمن ان اكون فى الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال اهذه خصيلة هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد وعن بعض السلف ان الله تعالى اذا قضى فى السماء قضاء احب من اهل الارض ان يرضوا بقضائه وقال ابو الدرداء ذروة الايمان الصبر للحكم والرضى بالقدر وقال عمر رضى الله عنه ما ابالى على اى حال اصبحت وامسيت من شدة او رخاء وقال الثورى يوما عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت اما تستحى من الله تسأله الرضى وانت عنه غير راض فقالت استغفر الله فقال جعفر بن سليمان الضبعى فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى قالت اذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة وكان الفضيل يقول اذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى وقال احمد بن ابى الحوارى قال ابو سليمان الدارانى ان الله عز وجل من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم قلت وكيف ذاك قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فان محبة الله من عبيده ان يرضوا عنه وقال سهل حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضى وحظهم من الرضى على قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل بحكمه وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضى واليقين وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط

(بيان حقيقة الرضى وتصوره فيما يخالف الهوى)

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء الا الصبر فأما الرضى فلا يتصور فانما

أتي من ناحية انكار المحبة وأما اذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضى بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين * احدهما أن يبطل الاحساس بالالم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فانه في حال غضبه او في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى اذا رأى الدم استدل به على الجراحة بل الذى يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه بل الذى يحجم او يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به فان كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لان القلب اذا صار مستغرقا بأمر من الامور مستوفى به لم يدرك ما عداه وكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه او بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به او يغتم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه هذا اذا اصابه من غير حبيبه فكيف اذا اصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من اعظم الشواغل واذا تصور هذا في الم يسير بسبب حب خفيف تصور في الالم العظيم بالحب العظيم فان الحب أيضا يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الالم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر وكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شئ عنه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه فقد روى أن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابه ازالت عن قلبي مرارة وجعه وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له في ذلك فقال يا دوست ضرب الحبيب لا يوجع . وأما الوجه الثانى فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له اعنى بعقله وان كان كارها بطبعه كالذى يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فانه يدرك ألم ذلك الا انه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصاد به منة بفعله فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الالم وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيا بها ومهما اصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذى ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا ان كان يلاحظ الثواب والاحسان الذى يجازى به عليه ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ولا معنى له الا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فان نظر الى الجمال فما هو الا جلد ولحم ودم مشحون بالاقذار والاخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة وان نظر الى المدرك للجمال فهى العين الخسيسة التى تغلط فيما ترى كثيرا فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا فاذا تصور استيلاء هذا الحب فمن اين يستحيل ذلك في حب الجمال الازلى الابدى الذى لا منتهى

لكنها المدركة بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبه واستكشاف فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم فقد قال شقيق البلخي من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها وقال الجنيد سألت سريا السقطي هل يجد المحب ألم البلاء قال لا قلت وإن ضرب بالسيف قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة وقال بعضهم أحببت كل شيء بحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار وقال بشر بن الحارث مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل الى الحبس فتبعته فقلت له لم ضربت فقال لأني عاشق فقلت له ولم سكت قال لأن معشوقي كان بحذائي ينظر الي فقلت فلو نظرت الى المعشوق الأكبر قال فزعق زعقة خر ميتا وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى اذا نظر أهل الجنة الى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر الى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع اليهم فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله اذا لاحظت جلاله هابت واذا لاحظت جماله تاهت وقال بشر قصدت عبادان في بدايتي فاذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفعت رأسه فوضعته في حجري وأنا أردد الكلام فلما أفاق قال من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي لو قطعني اربا اربا ما ازددت له الا حبا قال بشر فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث ان أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء الا النظر الى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا اذا جاعوا نظروا الى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو تقطيع النسوة أيديهن لاستغراقهن بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شابا وفي يده مدية وهو ينادي بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول

يوم الفراق من القيامة أطول ☆ والموت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل فقلت لست براحل ☆ لكن مهجتي التي تترحل

ثم بقر بالمدية بطنه وخر ميتا فسألت عنه وعن أمره فقيل لي انه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا وروي أن يونس عليه السلام قال لجبريل دلني على أعبد أهل الأرض فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره فسمعه وهو يقول الهي متعتني بهما ما شئت أنت وسلبتني ما شئت أنت وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما انه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ ان حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سرورا أبدا منه فقيل له في ذلك فقال ابن عمر انما كان حزني رحمة له فلما وقع أمر الله رضينا به وقال مسروق كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الديك فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال عسى

أن يكون خيرا ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل عسى أن يكون خيرا ثم اصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيرا ثم اصبحوا ذات يوم فنظروا فاذا قد سبي من حولهم و بقواهم قال وانما أخذوا اولئك لما كان عندهم من اصوات الكلاب والحمير والديكة فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى فاذا من عرف خفي لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال * ويروى ان عيسى عليه السلام مرّ برجل اعمى ابرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذى عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه فقال له عيسى يا هذا أي شئ من البلاء اراه مصروفا عنك فقال يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته فقال له صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو أحسن الناس وجها وافضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه * وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من أكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذى أخذ مني واحدة وايمك لئن كنت اخذت لقد ابقيت ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ثم لم يدع ورده تلك الليلة وكان ابن مسعود يقول الفقر والغنى مطيتان ما ابالي ايتهما ركبت ان كان الفقر فان فيه الصبر وان كان الغنى فان فيه البذل وقال ابو سليمان الداراني قد نلت من كل مقام حالا الا الرضى فمالي منه الا مشام الريح وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا وقيل لعارف آخر هل نلت غاية الرضى عنه فقال أما الغاية فلا ولكن مقام الرضى قد نلته لو جعلني جسرا على جهنم يعبر الخلائق على الى الجنة ثم ملأ بي جهنم تحلة لقسمه و بدلا من خليقته لاحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه وهذا كلام من علم أن الحب قد استغرق همه حتى منعه الاحساس بألم النار فان بقي احساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشعاره حصول رضى محبوبه بالقائه اياه في النار واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وان كان بعيدا من احوالنا الضعيفة ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم احوال الاقوياء ويظن أن ما هو عاجز عنه يعجز عنه الاولياء وقال الروذبادي قلت لابي عبد الله بن الجلاء الدمشقي قول فلان وددت أن جسدي قرض بالمقاريض وان هذا الخلق اطاعوه ما معناه فقال يا هذا ان كان هذا من طريق التعظيم والاجلال فلا اعرف وان كان هذا من طريق الاشفاق والنصح للخلق فأعرف قال ثم غشي عليه وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء فجعل يبكي لما يراه من حاله فقال لم تبكي قال لاني اراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبكي فان احبه الى الله تعالى احبه الي ثم قال احدثك شيأ لعل الله أن ينفعك به واكتم علي حتى اموت ان الملائكة تزورني فآنس بها وتسلم علي فأسمع تسليمها فاعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة اذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن

تحته شيأ حتى كشف فسألته امرأته أهلي فداؤك ما أطعمك ما سقيك فقال طالت
الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا لا أطعم طعاما ولا أسيغ شرابا منذ كذا وكذا
أياما وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر ❊ ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة
وقد كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعو لهذا
ولهذا وكان مجاب الدعوة قال عبد الله بن السائب فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه
فعرفني وقال أنت قارئ أهل مكة قلت نعم فذكر قصة قال في آخرها فقلت له يا عم أنت
تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم وقال يا بني قضاء الله
سبحانه عندي أحسن من بصري وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له
خبر فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعتراضي عليه فيما قضى أشد علي
من ذهاب ولدي وعن بعض العباد أنه قال إني أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكي عليه منذ
ستين سنة وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما هو قال
قلت مرة لشيء كان ليته لم يكن وقال بعض السلف لو قرض جسمي بالمقاريض لكان
أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله سبحانه ليته لم يقضه وقيل لعبد الواحد بن زيد ههنا
رجل قد تعبد خمسين سنة فقصده فقال له يا حبيبي أخبرني عنك هل قنعت به قال لا
قال أفأنست به قال لا قال فهل رضيت عنه قال لا قال فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة قال
نعم قال لولا أني أستحيي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ومعناه
بأنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب وإنما أنت تعد في
طبقات أصحاب اليمين لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم ❊
ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد
جمع بين يديه حجارة فقال من أنتم فقالوا محبوك فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال
ما بالكم ادعيتم محبتي إن صدقتم فاصبروا على بلائي وللشبلي رحمه الله تعالى

إن المحبة للرحمن أسكرني ❊ وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقى الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه وذلك أن
أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ولو كان بها شلل ظل يواريها يعني بذلك
أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة أهل الآخرة وهم
يستنكفون منه وقيل إنه وقع الحريق في السوق فقيل للسري احترق السوق وما
احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين فتاب من
التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله فإذا تأملت هذه
الحكايات عرفت قطعا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من
مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حب
الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا وإمكانه من وجهين أحدهما الرضى بالألم لما يتوقع
من الثواب الموعود كالرضى بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء والثاني الرضى
به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضى له فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب

فى مراد المحبوب فيكون ألذ الاشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ ارادته ولو فى هلاك روحه كما قيل (فما لجرح اذا ارضاكم ألم) وهذا ممكن مع الاحساس بالالم وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن ادراك الالم فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغى أن ينكره من فقده من نفسه لانه انما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب اعظم مما وصفناه وقد روى عن عمرو بن الحارث الرافعى قال كنت فى مجلس بالرقة عند صديق لى وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية وكانت معنا فى المجلس فضربت بالقضيب وغنت

علامة ذل الهوى * على العاشقين البكا

ولا سيما عاشق * اذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى احسنت والله ياسيدتى أفتأذنين لى أن اموت فقالت مت راشدا قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه فحركناه فاذا هو ميت وقال الجنيد رأيت رجلا متعلقا بكم صبى وهو يتضرع ويظهر له المحبة فالتفت اليه الصبى وقال له الى متى ذا النفاق الذى تظهر لى فقال قد علم الله انى صادق فيما اورده حتى لو قلت لى مت لمت فقال ان كنت صادقا فمت قال فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا وقال سمنون المحب كان فى جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا فبيناهو يحرك القدر اذ قالت الجارية آه قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرك ما فى القدر بيده حتى سقطت اصابعه فقالت الجارية ماهذا قال هذا مكان قولك آه * وحكى عن محمد بن عبد الله البغدادى قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد اشرف على الناس وهو يقول

من مات عشقا فليمت هكذا * لاخير فى عشق بلا موت

ثم رمى نفسه الى الارض فحملوه ميتا فهذا وامثاله قد يصدق به فى حب المخلوق والتصديق به فى حب الخالق اولى لان البصيرة الباطنة اصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية اوفى من كل جمال بل كل جمال فى العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال نعم الذى فقد البصر ينكر جمال الصور والذى فقد السمع ينكر لذة الالحان والنغمات الموزونة فالذى فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التى لا مظنة لها سوى القلب

(* بيان أن الدعاء غير مناقض للرضى) *

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضى وكذلك كراهة المعاصى ومقت اهلها ومقت اسبابها والسعى فى ازالتها بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يناقضه أيضا وقد غلط فى ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المعاصى والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضى به وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع فأما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء عليهم السلام على مانقلناه فى كتاب الدعوات تدل عليه ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اعلى المقامات

من الرضى وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله يدعوننا رغبا ورهبا وأما انكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضى بها فقد تعبدالله به عباده وذمهم على الرضى به فقال ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها وقال تعالى رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم وفي الخبر المشهور من شهد منكرا فرضي به فكأنه قد فعله وفي الحديث الدال على الشر كفاعله وعن ابن مسعود ان العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قيل وكيف ذلك قال يبلغه فيرضى به وفي الخبر لو أن عبدا قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكا في قتله وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة في الخيرات وتوقي الشرور فقال تعالى وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثها في الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق وفي لفظ آخر ورجل آتاه الله القرءان فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتى هذا لفعلت مثل ما يفعل وأما بغض الكفار والفجار والانكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرءان والاخبار لا يحصى مثل قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء وقال تعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا وفي الخبر ان الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق ان يبغض كل مؤمن وقال عليه السلام المرء مع من احب وقال من احب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة وقال عليه السلام أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة وفي كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيده فان قلت فقد وردت الآيات والاخبار بالرضى بقضاء الله تعالى فان كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح في التوحيد وان كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى وكيف السبيل الى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضى والكراهة في شئ واحد فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاما من مقامات الرضى وسموه حسن خلق وهو جهل محض بل نقول الرضى والكراهة يتضادان اذا تواردا على شئ واحد من جهة واحدة على وجه واحد فليس من التضاد في شئ واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه اذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع في اهلاكه فتكره موته من حيث انه مات عدو عدوك وترضاه من حيث انه مات عدوك وكذلك المعصية لها وجهان وجه الى الله تعالى من حيث انه فعله واختياره وارادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك الى مالك الملك ورضى بما يفعله فيه ووجه الى العبد من حيث انه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه اسباب البعد والمقت فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف هذا لك الا بمثال فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه اني اريد أن اميز

بين من يحبني و يبغضني وانصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أني اقصد الى فلان فأوذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك الى الشتم لي حتى اذا شتمني ابغضته واتخذته عدوا لي فكل من احبه فأعلم أيضا انه عدوي وكل من أبغضه فأعلم أنه صديقي ومحبي ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول أما تدبيرك في ايذاء هذا الشخص وضربه وابعاده وتعريضك اياه للبغض والعداوة فأنا محب له وراض به فانه رأيك وتدبيرك وفعلك وارادتك وأما شتمه اياك فانه عدوان من جهته اذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث انه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا في تدبيرك وتعويقا في مرادك وأنا كاره لفوات مرادك ولكنه من حيث انه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف مايقتضيه جمالك اذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته اليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لانه مرادك وانا على موافقتك أيضا مبغض له لان شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدوه عدوا وأما بغضه لك فاني ارضاه من حيث انك أردت أن يبغضك اذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ولكني ابغضه من حيث انه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وامقته لذلك فهو ممقوت عندي لمقته اياك وبغضه ومقته لك أيضا عندي مكروه من حيث انه وصف وكل ذلك من حيث انه مرادك فهو مرضي وانما التناقض أن يقول هو من حيث انه مرادك مرضي ومن حيث انه مرادك مكروه وأما اذا كان مكروها لا من حيث انه فعله ومراده بل من حيث انه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تحصى فاذا تسليط الله دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى يجره ذلك الى حب المعصية ويجره الحب الى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلا ليجره الضرب الى الغضب والغضب الى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وان كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وان كان شتمه انما يحصل بتدبيره واختياره لاسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده اعني تسليط دواعي المعصية عليه يدل على انه سبقت مشيئته بابعاده ومقته فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من ابغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادي من ابعده الله عن حضرته وان اضطره بقهره وقدرته الى معاداته ومخالفته فانه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وان كان بعيدا بابعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتا بغيضا الى جميع المحبين موافقة للمحبوب باظهار الغضب على من اظهر المحبوب الغضب عليه بابعاده وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الاخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ

عليهم والمبالغة فى مقتهم مع الرضى بقضاء الله تعالى من حيث انه قضاء الله عز وجل
وهذا كله يستمد من سر القدر والذى لا رخصة فى افشائه وهو ان الشر والخير كلاهما
داخلان فى المشيئة والارادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به فمن قال ليس
الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال انهما جميعا منه من غير افتراق فى الرضى والكراهة
فهو أيضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه فالاولى السكوت والتأدب بأدب
الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم القدر سر الله فلا تفشوه وذلك يتعلق بعلم المكاشفة
وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبده الخلق من الجمع بين الرضى بقضاء الله تعالى
ومقت المعاصى مع انها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الغرض من غير حاجة الى كشف السر
فيه وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصى وسائر الاسباب المعينة
على الدين غير مناقض للرضى بقضاء الله تعالى فان الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج
الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء القلب ومفتاحا
للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضى
بقضاء الله تعالى فى العطش وشرب الماء طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب
الاسباب وكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به وقد ذكرنا أن التمسك بالاسباب
جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستقصيناه فى كتاب التوكل فهو أيضا
لا يناقض الرضى لان الرضى مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم اظهار البلاء فى معرض
الشكوى وانكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضى واظهار البلاء على سبيل
الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض وقد قال بعض السلف من حسن
الرضى بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار أى فى معرض الشكاية وذلك
فى الصيف فأما فى الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضى بكل حال وذم الاطعمة
وعيبها يناقض الرضى بقضاء الله تعالى لان مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من
صنع الله تعالى وقول القائل الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف
كد ومشقة كل ذلك قادح فى الرضى بل ينبغى أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة
لمالكها ويقول ما قاله عمر رضى الله عنه لا ابالى أصبحت غنيا أو فقيرا فانى لا أدرى
أيهما خير لى

«(بيان أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها لا يقدح فى الرضى)»

اعلم ان الضعيف قد يظن ان نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد
ظهر به الطاعون يدل على النهى عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصى لان كل
واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة فى النهى عن مفارقة البلد بعد
ظهور الطاعون انه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الاصحاء وبقى فيه المرضى مهملين
لا متعهد لهم فيهلكون هزلا وضرا ولذلك شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض
الاخبار بالفرار من الزحف ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة فى
الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك فى كتاب التوكل واذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من

البلاد التي هي مظانّ المعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار مما لا بد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو الى المعاصي والاسباب التي تدعو اليها لاجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد واظهارهم ذلك وطلب الفرار منها فقال ابن المبارك قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا اشر امن بغداد قيل وكيف قال هو بلد تزدرى فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله ولما قدم خراسان قيل له كيف رأيت بغداد قال ما رأيت بها الا شرطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ولا ينبغي أن تظنّ أن ذلك من الغيبة لانه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وانما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج الى مكة وقد كان مقامه ببغداد يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما فكان يتصدق بستة عشر دينارا لكل يوم دينار كفارة لمقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الاحبار وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال فما تصنع به بلغني انه ما من أحد يسكن العراق الا قيض الله له قرينا من البلاء وذكر كعب الاحبار يوما العراق فقال فيه تسعة اعشار الشر وفيه الداء العضال وقد قيل قسم الخير عشرة اجزاء تسعة اعشاره بالشام وعشره بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفى متدرع بعباءة فأجلسه الى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال بغداد فأعرض عنه وقال يأتينا أحدهم فى زى الرهبان فاذا سألناه أين تسكن قال فى عش الظلمة وكان بشر بن الحارث يقول مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد فى الحش وكان يقول لا تقتدوا بى فى المقام بها من أراد أن يخرج فليخرج وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر فى نفسى قيل واين تختار السكنى قال بالثغور وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهدهم زاهد وشريرهم شرير فهذا يدل على أن من بلى ببلدة تكثر فيها المعاصى ويقل فيها الخير فلا عذر له فى المقام بها بل ينبغى أن يهاجر قال الله تعالى ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فان منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغى أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس اليه بل ينبغى أن يكون منزعج القلب منها قائلا على الدوام ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها وذلك لانّ الظلم اذا عم نزل البلاء ودمّر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة فاذا ليس فى شئ من أسباب نقص الدين البتة رضى مطلق الا من حيث اضافتها الى فعل الله تعالى فأما هى فى نفسها فلا وجه للرضى بها بحال وقد اختلف العلماء فى الافضل من أهل المقامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا الى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا اختار شيئا بل أرضى بما اختاره الله تعالى ورفعت هذه المسألة الى بعض العارفين فقال صاحب الرضى افضلهم لانه أقلهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثورى و يوسف بن اسباط فقال الثورى كنت اكره موت

الفجاءة فقبل اليوم واليوم وددت أني مت فقال له يوسف لم قال لما أتخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء فقال سفيان لم قال لعلي أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا فقيل لوهيب أيش تقول أنت فقال أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إلي أحبه إلى الله سبحانه فقبل الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة

(بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم)

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محبا إنما أنا محبوب والمحب متعوب وقيل له أيضا الناس يقولون إنك واحد من السبعة فقال أنا كل السبعة وكان يقول إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا قيل وكيف وأنت شخص واحد قال لأني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك قيل فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت نفسي إلى الله فجمحت علي فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ثم التفت فرآني فقال يحيى قلت نعم يا سيدي فقال مذ متى أنت ههنا قلت منذ حين فسكت فقلت يا سيدي حدثني بشيء فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الفلك الأسفل فدورني في الملكوت السفلي وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك فقلت يا سيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه فقال أنت عبدي حقا تعبدني لأجلي صدقا لأفعلن بك ولأفعلن فذكر أشياء قال يحيى فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت يا سيدي لم لا سألته المعرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويلك غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه وحكي أن أبا تراب النخشبي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول

بعبادته

بعبادته ومواجدته فقال له ابو تراب يوما لو رأيت ابا يزيد فقال انى عنه مشغول فلما أكثر عليه ابو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد هاج وجد المريد فقال ويحك ما اصنع بأبى يزيد قد رأيت الله تعالى فأغنانى عن أبى يزيد قال أبو تراب فهاج طبعى ولم املك نفسى فقلت ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ما قلت فقال احملنى اليه فذكر قصة قال فى آخرها فوقفنا على تل ننتظره ليخرج الينا من الغيضة وكان يأوى الى غيضة فيها سباع قال فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى هذا أبو يزيد فانظر اليه فنظر اليه الفتى فصعق فحركناه فاذا هو ميت فتعاونا على دفنه فقلت لابى يزيد يا سيدى نظره اليك قتله قال لا ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن فى قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله لانه فى مقام الضعفاء المريدين فقتله ذلك ٭ ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الانفس ونهبوا الاموال اجتمع الى سهل اخوانه فقالوا لو سألت الله تعالى دفعهم فسكت ثم قال ان لله عبادا فى هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الارض ظالم الا مات فى ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم قال لانهم لا يحبون ما لا يحب ثم ذكر من اجابة الله اشياء لا يستطاع ذكرها حتى قال ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها وهذه أمور ممكنة فى انفسها فمن لم يحظ بشئ منها فلا ينبغى أن يخلو عن التصديق والايمان بامكانها فان القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملكوت كثيرة ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له ولذلك كان ابو يزيد يقول ان اعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة ابراهيم فاطلب ما وراء ذلك فان عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فان سكنت الى ذلك حجبك به وهذا بلاء مثلهم ومن هو فى مثل حالهم لانهم الامثل فالامثل وقد قال بعض العارفين كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين فى الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت اليهن نظرة فعوقبت اربعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن فى الحسن والجمال وقيل لى انظر اليهن قال فسجدت وغمضت عينى فى سجودى لئلا انظر اليهن وقلت أعوذ بك مما سواك لا حاجة لى بهذا فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عنى فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغى أن ينكرها المؤمن لافلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد الا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسى لضاق مجال الايمان عليه بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة ادناها الاخلاص واخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الاعمال ظاهرا وباطنا ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهى أعز موجود فى الاتقياء من الناس وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات الى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادى الحق وانكار

ذلك دون الصرية وسلوك الطريق مجرى مجرى انكار من انكر امكان انكشاف الصورة في الحديدة اذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة فنظر المنكر الى ما في يده من درة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكي صورة من الصور فانكر امكان انكشاف المرئي فيها عند ظهور جوهرها وانكار ذلك غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من انكر كرامات الاولياء اذ لا مستند له الا قصوره عن ذلك وقصور من رآه وبئس المستند ذلك في انكار قدرة الله تعالى بل انما يستروح روائح المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادي الطريق كما قيل لبشر بأي شيء بلغت هذه المنزلة قال كنت اكاتم الله تعالى حالي معناه أسأله أن يكتم عليّ ويخفي أمري وروى انه رأى الخضر عليه السلام فقال له ادع الله تعالى لي فقال يسر الله عليك طاعته قلت زدني قال وستر ها عليك فقيل معناه سترها عن الخلق وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت اليها وعن بعضهم انه قال أقلقني الشوق الى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يريني اياه ليعلمني شيئا كان اهم الاشياء علي قال فرأيته فما غلب على همي ولا همي الا أن قلت له يا ابا العباس علمني شيئا اذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة فقال قل اللهم أسبل علي كثيف سترك وحط علي سرادقات حجبك واجعلني في مكنون غيبك واحجبني عن قلوب خلقك قال ثم غاب فلم أره ولم اشتق اليه بعد ذلك فما زلت أقول هذه الكلمات في كل يوم فحكى انه صار بحيث كان يستذل و يمتهن حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الاشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله في ذله وخموله فهكذا حال اولياء الله تعالى ففي امثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا والمغرورون انما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرئاسة وغيرة الله تعالى على اوليائه تأبى الا اخفاءهم كما قال تعالى اوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري وقال صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعاني القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلمها وأقرب القلوب اليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعارا اذا ذل واهتضم لم يحس بالذل كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه فاذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته الى الذل بل كان عند نفسه احسن منزلة من أن يرى جميع انواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادي هذه الروائح فان فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الايمان بامكان ذلك لاهله فمن لا يقدر أن يكون من اولياء الله فليكن محبا لاولياء الله مؤمنا بهم فعسى أن يحشر مع من أحب و يشهد لهذا ما روى أن عيسى عليه السلام قال لبني اسرائيل اين ينبت الزرع قالوا في التراب فقال بحق أقول لكم لا تنبت الحكمة الا في قلب مثل التراب ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب

شروطها

شروطها باذلال النفس الى منتهى الضعة والخسة حتى روى أن ابن الكريبي وهو استاذ
الجنيد دعاه رجل الى طعام ثلاث مرات ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع اليه بعد ذلك
حتى ادخله فى المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد رضت نفسى على الذل عشرين سنة
حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ولو رددتنى خمسين
مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لاجبت وعنه أيضا انه قال نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح
فتشتت على قلبى فدخلت الحمام وعدلت الى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست
مرقعتى فوقها وخرجت وجعلت امشى قليلا قليلا فلحقونى فنزعوا مرقعتى وأخذوا
الثياب وصفعونى وأوجعونى ضربا فصرت بعد ذلك اعرف بلص الحمام فسكنت
نفسى فهكذا كانوا يروضون انفسهم حتى يخلصهم الله من النظر الى الخلق ثم من النظر
الى النفس فان الملتفت الى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس
بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل وانما بعد القلوب شغلها بغيره او بنفسها
وأعظم الحجب شغل النفس ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من اعيان أهل بسطام
كان لا يفارق مجلس أبى يزيد فقال له يوما أنا منذ ثلاثين سنة اصوم الدهر لا أفطر
وأقوم الليل لا انام ولا أجد فى قلبى من هذا العلم الذى تذكر شيأ وأنا اصدق به وأحبه
فقال أبو يزيد ولو صمت ثلثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة قال ولم قال لانك
محجوب بنفسك قال فلهذا دواء قال نعم قال قل لى حتى اعمله قال لا تقبله قال فاذكره لى
حتى اعمل قال اذهب الساعة الى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر
بعباءة وعلق فى عنقك مخلاة مملوءة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفعنى
صفعة اعطيته جوزة وادخل السوق وطف الاسواق كلها عند الشهود وعند من
يعرفك وأنت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لى مثل هذا فقال أبو يزيد قولك
سبحان الله شرك قال وكيف قال لانك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك فقال
هذا لا أفعله ولكن دلنى على غيره فقال ابتدئ بهذا قبل كل شئ فقال لا اطيقه قال قد
قلت لك انك لا تقبل فهذا الذى ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره الى نفسه ومرض
بنظر الناس اليه ولا ينجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطيق الدواء فلا
ينبغى أن ينكر امكان الشفاء فى حق من داوى نفسه بعد المرض او لم يمرض بمثل هذا
المرض أصلا فاقل درجات الصحة الايمان بامكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا
وهذه امور جلية فى الشرع واضحة وهى مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء
الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم لا يستكمل العبد الايمان حتى تكون قلة الشئ احب
اليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف احب اليه من أن يعرف وقال عليه السلام ثلاث
من كن فيه استكمل ايمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشئ من عمله واذا عرض
عليه امران احدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا وقال عليه السلام
لا يكمل ايمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق
واذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل واذا قدر لم يتناول ما ليس له وفى حديث آخر ثلاث من

اوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود العدل في الرضى والغضب والقصد في الغنى والفقر وخشية الله في السر والعلانية فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأولي الايمان فالعجب ممن يدعي علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون الا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عليه وراء الايمان وفي الاخبار ان الله تعالى أوحى الى بعض انبيائه انما اتخذ خليلي من لا يفتر عن ذكري ولا يكون له هم غيري ولا يؤثر على شيأ من خلقي وان حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وان قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما فمن لم يبلغ الى أن يغلبه الحب الى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الايمان ومقامات الايمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له ولذلك قال عليه السلام للصديق رضي الله عنه ان الله تعالى قد أعطاك مثل ايمان كل من آمن بي من امتي واعطاني مثل ايمان كل من آمن به من ولد آدم وفي حديث آخر ان لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر يا رسول الله هل في منها خلق فقال كلها فيك يا أبا بكر وأحبها الى الله السخاء وقال عليه السلام رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجيء بأمتي فوضعت في كفة فرجح بهم ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله تعالى يعني نفسه

(خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها)

قال سفيان المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره دوام الذكر وقال غيره ايثار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله اشارة الى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها وقال بعضهم المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن ادراكه وتمتنع الالسن عن عبارته وقال الجنيد حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة وقال كل محبة تكون بعوض فاذا زال العوض زالت المحبة وقال ذو النون قل لمن اظهر حب الله احذر أن تذل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحب فقال العارف ان تكلم هلك والمحب ان سكت هلك وقال الشبلي رحمه الله

يا أيها السيد الكريم ❊ حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني ❊ انت بما مر بي عليم

ولغيره

عجبت لمن يقول ذكرت الفي ❊ وهل انسى فأذكر ما نسيت
اموت اذا ذكرتك ثم احيي ❊ ولولا حسن ظني ما حييت
فاحيي بالمنى واموت شوقا ❊ فكم احيي عليك وكم اموت
شربت الحب كأسا بعد كاس ❊ فما نفد الشراب وما رويت

فليت خيـاله نصب لعيني ¤ فان قصرت فى نظرى عميت

وقالت رابعة العدوية يوما من يدلنا على حبيبنا فقالت خادمة لها حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله الى عيسى عليه السلام انى اذا اطلعت على سر عبد فلم اجد فيه حب الدنيا والآخرة ملاءته من حبى وتوليته بحفظى وقيل تكلم سمنون يوما فى المحبة فاذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الارض حتى سال الدم منه فمات وقال ابراهيم بن ادهم الهى انك تعلم ان الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة فى حنب ما اكرمتنى من محبتك وآنستنى بذكرك وفرغتنى للتفكر فى عظمتك وقال السرى رحمه الله من احب الله عاش ومن مال الى الدنيا طاش والاحمق يغدو ويروح فى لاش والعاقل عن عيوبه فتاش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله انى لاحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين وسئل عيسى عليه السلام عن افضل الاعمال فقال الرضى عن الله تعالى والحب له وقال ابو يزيد المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة انما يحب من مولاه مولاه وقال الشبلى الحب دهش فى لذة وحيرة فى تعظيم وقيل المحبة ان تمحو اثرك عنك حتى لا يبقى فيك شئ راجع منك اليك وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص المحبة محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن المحبة فقال عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للراد منه وقيل معاملة المحب على اربع منازل على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم وافضلها التعظيم والمحبة لان هاتين المنزلتين يبقيان مع اهل الجنة فى الجنة ويرفع عنهم غيرهما وقال هرم بن حيان المؤمن اذا عرف ربه عزوجل احبه واذا احبه اقبل عليه واذا وجد حلاوة الاقبال عليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الآخرة بعين الفترة وهى تحسره فى الدنيا وتروحه فى الآخرة وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهى باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا الى الله تعالى وحبا للقائه قال فقلت لها فعلى ثقة انت من عملك قالت لا ولكن لحبى اياه وحسن ظنى به افتراه يعذبنى وانا احبه واوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الى وتقطعت اوصالهم من محبتى يا داود هذه ارادتى فى المدبرين عنى فكيف ارادتى فى المقبلين على يا داود احوج ما يكون العبد الى اذا استغنى عنى وارحم ما اكون بعبدى اذا ادبر عنى واجل ما يكون عندى اذا رجع الى وقال ابو خالد الصفار لقى نبى من الانبياء عابدا فقال له انكم معاشر العباد تعملون على امر لسنا معاشر الانبياء نعمل عليه انتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق وقال الشبلى رحمه الله اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود ذكرى للذاكرين وجنتى للطيعين وزيارتى للمشتاقين وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى الى آدم عليه السلام يا آدم من احب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضى فعله ومن اشتاق اليه جد فى مسيره وكان الخواص رحمه الله

يضرب على صدره ويقول واشوقاه لمن يراني ولا أراه وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمى وقام حتى انحنى وصلى حتى أقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته اليك شوقا مني اليك وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني والحب أساسي والشوق مركبي وذكر الله أنيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضى غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قوتي والصدق شفيعي والطاعة حسبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة وقال ذو النون سبحان من جعل الارواح جنودا مجندة فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا الى الله تعالى وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا الى الجنة وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا الى الدنيا وقال بعض المشايخ رأيت في جبل اللكام رجلا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر الى حجر وهو يقول الشوق والهوى * صيراني كما ترى وقال الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات فهذا القدر كاف في شرح المحبة والانس والشوق والرضى * فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضى والانس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق

(كتاب النية والاخلاص والصدق وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتاب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نحمد الله حمد الشاكرين * ونؤمن به ايمان الموقنين * ونقر بوحدانيته اقرار الصادقين * ونشهد أن لا اله الا الله رب العالمين وخالق السموات والارضين * ومكلف الجن والانس والملائكة المقربين * أن يعبدوه عبادة المخلصين * فقال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين * فما لله الا الدين الخالص المتين فانه أغنى الاغنياء عن شركة المشاركين * والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين (أما بعد) فقد انكشف لارباب القلوب ببصيرة الايمان وأنوار القرآن أن لا وصول الى السعادة * الا بالعلم والعبادة فالناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم * فالعمل بغير نية عناء * والنية بغير اخلاص رياء * وهو للنفاق كفاء * ومع العصيان سواء * والاخلاص من غير صدق وتحقيق هباء * وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بارادة غير الله مشوبا مغمورا * وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا * وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحح النية اذا لم يعرف حقيقة الاخلاص أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق اذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الاولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والاخلاص اللذين هما وسيلتا العبد الى النجاة والخلاص ونحن نذكر

معاني

معاني الصدق والاخلاص في ثلاثة ابواب (الباب الاول) في حقيقة النية ومعناها
(الباب الثاني) في الاخلاص وحقائقه (الباب الثالث في الصدق وحقيقته
(الباب الاول في النية) وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون
النية خيرا من العمل وبيان تفضيل الاعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية
عن الاختيار

(بيان فضيلة النية)

قال الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه والمراد بتلك الارادة هي النية وقال صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات ولكل امرئ مانوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ماهاجر اليه وقال صلى الله عليه وسلم اكثر شهداء امتي اصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله اعلم بنيته وقال تعالى ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وانما نظر الى القلوب لانها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختمة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فانه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا انه لم يعمل شيأ من ذلك فيقول الله تعالى انه نواه وقال صلى الله عليه وسلم الناس اربعة رجل آتاه الله عزوجل علما ومالا فهو يعمل في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الاجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما في الوزر سواء ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه وكذلك في حديث انس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال ان بالمدينة اقواما ما قطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا اصابتنا مخمصة الا شركونا في ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا قال حبسهم العذر فشركوا بحسن النية وفي حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيأ فهو له فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس وكذلك جاء في الخبر ان رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار لانه قاتل رجلا ليأخذ سلبه تمل على ذلك فأضيف الى نيته وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم هو لا ينوي الا عقالا فله ما نوى وقال ابي استعنت رجلا يغزو معي فقال لا حتى جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه لا ماجعلت له وروي في الاسرائيليات ان رجلا مر بكثبان من رمل في مجاعة نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس فأوحى الله تعالى الى نبيهم أن لله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان دقت به وقد ورد في اخبار كثيرة من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة وفي

حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها ارغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها ازهد ما يكون فيها وفي حديث ام سلمة ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم بالبيداء فقلت يارسول الله يكون فيهم المكره والاجير فقال يحشرون على نياتهم وقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول انما قتلى المقتتلين على النيات وقال عليه السلام اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يبعث كل عبد على ما مات وفي حديث الاحنف عن ابي بكرة اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لانه اراد قتل صاحبه وفي حديث ابي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى اداءه فهو زان ومن ادان دينا وهو لا ينوى قضاءه فهو سارق وقال صلى الله عليه وسلم من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه اطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة (وأما الآثار) فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل الاعمال اداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى وكتب سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وان قصرت قصر بقدره وقال بعض السلف رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية وقال داود الطائي البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما الى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك وقال الثوري كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل ومادمت تنوى الخير فأنت بخير وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يدلني على عمل لا ازال فيه عاملا لله تعالى فاني لا احب أن يأتي علي ساعة من ليل او نهار الا وأنا عامل من عمال الله فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فاذا فترت او تركته فهم بعمله فان الهام بعمل الخير كعامله وكذلك قال بعض السلف ان نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وان ذنوبكم اخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توابين وامسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت ولم تهم بمعصية وانتبهت الى غير اثم وقال ابو هريرة يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض اذا قرأ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم يبكي ويرددها ويقول انك ان بلوتنا فضحتنا وهتكت استارنا وقال الحسن انما خلد اهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات وقال ابو هريرة مكتوب في التوراة ما اريد به وجهي فقليله كثير وما اريد به غيري فكثيره قليل وقال بلال بن سعد ان العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله فاذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فان تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى فان

صلح

صلحت بنيته فبالحرى أن يصح مادون ذلك فاذن عماد الاعمال النيات فالعمل مفتقر الى النية ليصير بها خيرا والنية فى نفسها خير وان تعذر العمل بعائق

(بيان حقيقة النية)

اعلم أن النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها امران علم وعمل العلم يقدمه لانه اصله وشرطه والعمل يتبعه لانه ثمرته وفرعه وذلك لان كل عمل اعنى كل حركة وسكون اختيارى فانه لا يتم الا بثلاثة امور علم وارادة وقدرة لانه لا يريد الانسان مالا يعلمه فلابد وأن يعلم ولا يعمل مالم يرد فلابد من ارادة ومعنى الارادة انبعاث القلب الى مايراه موافقا للغرض اما فى الحال أو فى المآل فقد خلق الانسان بحيث يوافقه بعض الامور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الامور فيحتاج الى جلب الملائم الموافق الى نفسه ودفع الضار المنافى عن نفسه فافتقر بالضرورة الى معرفة وادراك للشئ المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها اسبابا وهى الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول مالم يكن فيه ميل اليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه اذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحركة اليه فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والارادة وأعنى به نزوعا فى نفسه اليه وتوجها فى قلبه اليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا فخلقت له القدرة والاعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك الا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة او الظن والاعتقاد وهو أن يقوى فى نفسه كون الشئ موافقا له فاذا جزمت المعرفة بأن الشئ موافق ولا بد وأن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الارادة وتحقق الميل فاذا انبعثت الارادة انتهضت القدرة لتحريك الاعضاء فالقدرة خادمة للارادة والارادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهى الارادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل الى ماهو موافق للغرض اما فى الحال واما فى المآل فالمحرك الاول هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو المقصد المنوى والانبعاث هو القصد والنية وانتهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك الاعضاء هو العمل الا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد واذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه الا بالاجتماع وقد يكون احدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا فيخرج من هذا التقسيم اربعة اقسام فلنذكر لكل واحد مثالا واسما (أما الاول) فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما اذا هجم على الانسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له الا غرض الهرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه الى الهرب ورغبت فيه فانتهضت

القدرة عاملة تقتضي الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره
وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها اخلاصا بالاضافة الى الغرض الباعث
ومعناه انه خلص من مشاركة غيره ومما زحته (واما الثاني) فهو أن يجتمع باعثان كل
واحد مستقل بالانهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل
شئ بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير
حاجة فيقضيها لفقره وقرابته وعلم انه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وانه لولا
قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيرغب
في قضاء حاجته وفقير أجنبي فيرغب ايضا فيه وكذلك من امره الطبيب بترك الطعام ودخل
عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم انه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية
لكان يتركه لاجل انه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني
رفيق الاول فلنسم هذا مرافقة للبواعث (والثالث) أن لا يستقل كل واحد لو انفرد
ولكن قوي مجموعهما على انهاض القدرة ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على
حمل ما لا ينفرد احدهما به ومثاله من غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا
يعطيه ويقصده الاجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير
فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر وكذلك الرجل
يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ويكون بحيث لو كان منفردا
لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصدق
عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا اورثا بمجموعهما تحريك القلب
ولنسم هذا الجنس مشاركة (والرابع) أن يكون احد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه
والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف اليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل ومثاله في
المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل ولو انفرد القوي لاستقل ولو
انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه ومثاله في
غرضنا أن يكون للانسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها
جماعة من الناس فصار الفعل اخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه انه لو كان
منفردا خاليا لم يفتر عن عمله وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه
فهو شوب تطرق الى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني اما أن يكون
رفيقا أو شريكا أو معينا وسنذكر حكمها في باب الاخلاص والغرض الآن بيان أقسام
النية فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل انما الاعمال
بالنيات لانها تابعة لا حكم لها في نفسها وانما الحكم للمتبوع

(بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم نية المؤمن خير من عمله)

اعلم انه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه الا الله تعالى والعمل ظاهر
ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لانه لو نوى ان يذكر الله بقلبه او يتفكر
في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر وقد يظن

ان

ان سبب الترجيح أن النية تدوم الى آخر العمل والاعمال لا تدوم وهو ضعيف لان ذلك يرجع معناه الى ان العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية اعمال الصلاة قد لا تدوم الا في لحظات معدودة والاعمال تدوم والعموم يقتضي ان تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال ان معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد اذ العمل بلا نية او على الغفلة لا خير فيه اصلا والنية بمجردها خير وظاهر الترجيح للمشتركين في اصل الخير بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل اى لكل واحد منهما اثر في المقصود وأثر النية أكثر من اثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرهما فهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه الا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ اثر الطريق في الاتصال الى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الارجح بالاضافة الى المقصود فمن قال الخبز خير من الفاكهة فانما يعني به انه خير بالاضافة الى مقصود القوت والاغتذاء ولا يفهم ذلك الا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء وأن الاغذية مختلفة الآثار فيها وفهم اثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ولن يتنعم بلقاء الله الا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه الا من عرفه ولن يأنس به الا من طال ذكره له فالانس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر الا اذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها الا اذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا الى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وانما يميل الى الخيرات والطاعات اذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها كما يميل العاقل الى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما واذا حصل أصل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه فان المواظبة على مقتضى صفات القلب وارادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها فالمائل الى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء الا ضعيفا فان اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والاعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع وان خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق بل الذي ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفا لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج امره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ويكون ذلك زجرا ودفعا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة وميل النفس الى الخيرات

الاخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك الا بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح لان بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى انه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو اذا اصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب اذا تألم بعلمه بموت عزيز من اعزته او بهجوم امر مخوف تأثرت به الاعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون الا أن القلب هو الاصل المتبوع فكأنه الامير والراعي والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو المقصود والاعضاء آلات موصلة الى المقصود ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد وقال عليه السلام اللهم أصلح الراعي والرعية وأراد بالراعي القلب وقال الله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وهي صفة القلب فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون اعمال القلب على الجملة افضل من حركات الجوارح ثم يجب أن تكون النية من جملتها افضل لانها عبارة عن ميل القلب الى الخير وارادته له وغرضنا من الاعمال بالجوارح أن نعود القلب ارادة الخير ونؤكد فيه الميل اليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر فبالضرورة يكون خيرا بالاضافة الى الغرض لانه متمكن من نفس المقصود وهذا كما أن المعدة اذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل الى المعدة فالشرب خير من طلاء الصدر لان طلاء الصدر أيضا انما اريد به أن يسري منه الاثر الى المعدة فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها اذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح فلا تظن أن في وضع الجبهة على الارض غرضا من حيث انه جمع بين الجبهة والارض بل من حيث انه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب فان من يجد في نفسه تواضعا فاذا استكان باعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فاذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا اصلا لان من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان انه يمسح ثوبا لم ينتشر من اعضائه أثر الى قلبه لتأكيد الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأغراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الارض اثر الى قلبه يتأكد به التواضع فكان وجود ذلك كعدمه وما ساوى وجوده عدمه بالاضافة الى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه هذا اذا فعل عن غفلة فاذا قصد به رياء او تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا فانه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى اكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الميل الى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة لان هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات وانما الاتمام بالعمل يزيدها تأكيدا فليس المقصود من اراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها ايثارا لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد

حصلت عند جزم النية والهمة وان عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى ههنا اعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ان قوما بالمدينة قد شركونا فى جهادنا كما تقدم ذكره لان قلوبهم فى صدق ارادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة فى طلب الشهادة واعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين فى الجهاد وانما فارقوهم بالابدان لعوائق تخص الاسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب الا للتأكيد هذه الصفات وبهذه المعانى تفهم جميع الاحاديث التى اوردناها فى فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطوّل بالاعادة

(بيان تفصيل الاعمال المتعلقة بالنية)

اعلم أن الاعمال وان انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصوّر احصاؤه واستقصاؤه فهى ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات *(القسم الاول المعاصى)* وهى لا تتغير عن موضعها بالنية فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام انما الاعمال بالنيات فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذى يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره او يطعم فقيرا من مال غيره او يبنى مدرسة او مسجدا او رباطا بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر فى اخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر فان عرفه فهو معاند للشرع وان جهله فهو عاص بجهله اذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات انما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيهات بل المروج لذلك على القلب خفى الشهوة وباطن الهوى فان القلب اذا كان مائلا الى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به الى التلبيس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى ما عصى الله تعالى بمعصية اعظم من الجهل قيل يا ابا محمد هل تعرف شيأ أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لان الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بالكلية بنفسه انه عالم فكيف يتعلم وكذلك افضل ما طيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما ان رأس الجهل الجهل بالجهل فان من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما اكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التى هى وسائلهم الى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم والمقصود ان من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور الا اذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم وقد قال الله سبحانه فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقال النبى صلى الله عليه وسلم لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم ان يسكت على علمه ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والاشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين فان هؤلاء اذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله وانتهض

كل واحد منهم في بلده بانه اعني الدجال بسكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرئ الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله ثم قد ينتشر ذلك العلم الى مثله وامثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع الى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته انواع المعاصي من اقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم الف سنة مثلا والفي سنة وطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول انما الاعمال بالنيات وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني وما قصدت به الا أن يستعين به على الخير وانما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ويقول انما اردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله فان اعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من افضل القربات فان هو صرفه الى قطع الطريق فهو العاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الاخلاق الى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى ثلثمائة خلق من تقرب اليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها اليه السخاء فليت شعري لم حرم هذا السخاء ولم وجب عليه أن ينظر الى قرينة الحال من هذا الظالم فاذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي ان يسعى في سلب سلاحه لا في أن يمده بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثرا لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز امداده بنوع علم يتمكن به من الوصول الى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون احوال من يتردد اليهم فلو رأوا منه تقصيرا في نفل من النوافل انكروه وتركوا اكرامه واذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه لعلمهم بأن من تعلم مسئلة ولم يعمل بها وجاوزها الى غيرها فليس يطلب الا آلة الشر وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل وحكي عن بعض اصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله انه كان يتردد اليه سنين ثم اتفق أن اعرض عنه احمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره حتى قال بلغني انك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد اخذت قدر سمك الطين وهو انملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فهكذا كانت مراقبة السلف لاحوال العلم وهذا وأمثاله مما يلتبس على الاغبياء وأتباع الشيطان وان كانوا ارباب الطيالسة والاكمام الواسعة وأصحاب الالسنة الطويلة والفضل الكثير أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء اليها بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها الى جمع الحطام واستسخار الناس والتقدم على الاقران فاذا قوله

عليه السلام انما الاعمال بالنيات يختص من الاقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي اذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا نعم للنية دخل فيها وهو أنه اذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة (القسم الثاني الطاعات) وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها أما الاصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير فان نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب اذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر ومثاله القعود في المسجد فانه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين أولها أن يعتقد أنه بيت الله وان داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور اكرام زائره وثانيها أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى ورابطوا وثالثها الترهب بكف السمع والبصر والاعضاء عن الحركات والترددات فان الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم وهو نوع ترهب ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رهبانية امتي القعود في المساجد ورابعها عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال الى المسجد وخامسها التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روي في الخبر من غدا الى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى وسادسها أن يقصد افادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر اذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده الى الدين فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته وسابعها أن يستفيد أخا في الله فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله وثامنها أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما من ادمن الاختلاف الى المسجد رزقه الله احدى سبع خصال أخا مستفادا في الله أو رحمة مستنزلة أو علما مستطرفا أو كلمة تدله على هدى أو تصرفه عن ردى أو يترك الذنوب خشية أو حياء فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات اذ ما من طاعة الا تحتمل نيات كثيرة وانما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه فبهذا تزكو الاعمال وتتضاعف الحسنات ✽ (القسم الثالث المباحات) ✽ وما من شيء من المباحات الا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيأ من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة انه لم فعله وما الذي قصد به هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم حلالها حساب وحرامها عقاب وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شئ حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بأصبعه وعن لمسه ثوب اخيه وفي خبر آخر من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة فاستعمال الطيب مباح ولكن لابد فيه من نية فان قلت فما الذي يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله فاعلم أن من تطيب مثلا يوم الجمعة وفي سائر الاوقات يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا او يقصد به اظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الاقران او يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة اولتودد به الى قلوب النساء الاجنبيات اذا كان مستحلا للنظر اليهن ولامور اخر لاتحصى وكل هذا يجعل الطيب معصية فبذلك يكون انتن من الجيفة في القيامة الا القصد الاول وهو التلذذ والتنعم فان ذلك ليس بمعصية الا انه يسأل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيأ من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بأن تستعجل مايفنى وتخسر زيادة نعيم لايفنى وأما النيات الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وينوى بذلك ايضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائر الله الا طيب الرائحة وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي الى ايذاء مخالطيه وان يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين اذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا * أن لا تفارقهم فالراحلون هم وقال الله تعالى ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم اشار به الى أن التسبب الى الشر شر وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعي رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لايعجز الفقيه عنها اذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه واذا لم يغلب على قلبه الا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وان ذكرت له لم تنبعث لها قلبه فلا يكون معه منها الا حديث النفس وليس ذلك من النية في شئ والمباحات كثيرة ولايمكن احصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ماعداه ولهذا قال بعض العارفين من السلف اني لاستحب أن يكون لي في كل شئ نية حتى في اكلي وشربي ونومي ودخولي الى الخلاء وكل ذلك مما يمكن ان يقصد به التقرب الى الله تعالى لان كل ماهو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الاكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به الى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده فيكثر به امة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعا باكله ونكاحه وأغلب حظوظ النفس الاكل والوقاع وقصد الخير بهما ممتنع لمن غلب على قلبه هم

الا آخرة ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما صاح له مال و يقول هو في سبيل الله واذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل الى ديوانه حسناته ولينو ذلك بسكوته عن الجواب ففي الخبر ان العبد ليحاسب فتبطل اعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الاعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب و يقول يارب هذه اعمال ما عملتها قط فيقال هذه اعمال الذين اغتابوك واذوك وظلموك وفي الخبر ان العبد ليوافى القيامة بحسنات امثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فنيت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكا الى النار وبالجملة فاياك ثم اياك أن تستحقر شيأ من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فان الله تعالى مطلع عليك وشهيد وما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن اتربه من حائط جارلي فتحرجت ثم قلت تراب وما تراب فأتربته فهتف بي هاتف سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه فسأله عن ذلك فقال اني لبسته لله تعالى ولا اريد أن اسويه لغير الله وقد قال الحسن ان الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بيني وبينك الله فيقول والله ما اعرفك فيقول بلى انت اخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطا من ثوبي فهذا وامثاله من الاخبار قطع قلوب الخائفين فان كنت من اولي العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب احوالك ولا تسكن ولا تتحرك مالم تتأمل اولا انك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذي تنال به من الدنيا وما الذي يفوتك به من الآخرة وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة فاذا علمت انه لا باعث الا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك والا فأمسك ثم راقب ايضا قلبك في امساكك وامتناعك فان ترك الفعل فعل ولا بد له من نية صحيحة فلا ينبغي أن يكون لداعي هوى خفي لا يطلع عليه ولا تغرنك ظواهر الامور ومشهورات الخيرات وافطن للاغوار والاسرار تخرج من حيز أهل الاغترار فقد روى عن زكريا عليه السلام انه كان يعمل في حائط بالطين وكان اجير القوم فقدموا له رغيفه اذ كان لا يأكل الا من كسب يده فدخل عليه قوم فلم يدعهم الى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال اني اعمل للقوم بالاجرة وقدموا الي الرغيف لاتقوى به على عملهم فلوا كلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله فان ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة الى الطعام نقص في فضل ولا حكم للفضائل مع الفرائض. وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق اصابعه ثم قال لولا اني اخذته بدين لاحببت أن تأكل منه وقال سفيان من دعا رجلا الى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان اجابه فأكل فعليه وزران

وان لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين العقاب وبالثاني تعرضه اياه لما يكره لو علمه فهكذا ينبغي أن يعتقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم الا بنيته فان لم تحضره النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار

(بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار)

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم انما الأعمال بالنيات فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو أتجر لله أو آكل لله و يظن أن ذلك نية وهيهات فذلك حديث نفس أو حديث لسان أو فكر وانتقال من خاطر الى خاطر والنية بمعزل من جميع ذلك وانما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ما ظهر لها أن فيه غرضها اما عاجلا واما آجلا والميل اذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة بل ذلك كقول الشبعان نويت أن أشتهي الطعام وأميل اليه أو قول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي فذلك محال بل لا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشيء وميله اليه وتوجهه نحوه الا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وانما تنبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ومالم يعتقد الانسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين واذا اعتقد فانما يتوجه القلب اذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال فاذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولا دنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن الا على نية قضاء الشهوة اذ النية هي اجابة الباعث ولا باعث الا الشهوة فكيف ينوي الولد واذا لم يغلب على قلبه أن اقامة سنة النكاح اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة الا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوي أولا ايمانه بالشرع ويقوي ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره فاذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة الى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتحرك أعضاءه لمباشرة العقد فاذا انبعثت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناويا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات اذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية حتى ان ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى فقالت أجيء بالمرآة فسكت ساعة ثم قال نعم فقيل له في ذلك فقال كان لي في المدرى نية ولم تحضرني في المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى

ومات حماد ابن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة فقيل للثوري ألا تشهد جنازته فقال لو كان لى نية لفعلت وكان احدهم اذا سئل عملا من أعمال البر يقول ان رزقنى الله تعالى نية فعلت وكان طاوس لا يحدث الا بنية وكان يسأل أن يحدث فلا يحدث ولا يسأل فيبتدئ فقيل له فى ذلك قال أفتحبون أن احدث بغير نية اذا حضرتنى نية فعلت وحكى أن داود ابن المحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه احمد صفحا ورده فقال مالك قال فيه اسانيد ضعاف فقال له داود أنالم أخرجه على الاسانيد فأنظر فيه بعين الخبر انما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت قال أحمد فرده على حتى انظر فيه بالعين التى نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به * وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجد له نية وقال بعضهم أنا فى طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لى بعد وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى الى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تعرض عليه العشاء قال ليس من نيتى وهذا لان النية تتبع النظر فاذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا الا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هى قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله تعالى فقد تتيسر فى بعض الاوقات وقد تتعذر فى بعضها نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الاحوال احضار النية للخيرات فان قلبه مائل بالجملة الى أصل الخير فينبعث الى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له فى الفرائض الا بجهد جهيد وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها او نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته وأما الطاعة على نية اجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب فى الدنيا وهذه اعز النيات واعلاها ويعز على بسيط الارض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها ونيات الناس فى الطاعات أقسام اذ منهم من يكون عمله اجابة لباعث الخوف فانه يتقى النار ومنهم من يعمل اجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة فى الجنة وهذا وان كان نازلا بالاضافة الى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لامر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة لانه ميل الى الموعود فى الآخرة وان كان من جنس المألوفات فى الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة فالعامل لاجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالاجير السوء ودرجته درجة البله وانه لينالها بعمله اذ أكثر أهل الجنة البله وأما عبادة ذوى الالباب فانها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله وسائر الاعمال تكون مؤكدات وروادف وهؤلاء ارفع درجة من الالتفات الى المنكوح والمطعوم فى الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر الى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت الى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر الى الحور العين ممن

يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد فإن التفاوت بين جمال حضرة
الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين
والصور المصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر
من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء
لصاحبتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعمى أكثر القلوب عن
إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعر به
أصلا ولا تلتفت إليه ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت
إليهن ولا يزالون مختلفين كل حزب بما لديهم فرحون ولذلك خلقهم * حكي أن أحمد
ابن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له كل الناس يطلبون مني الجنة
إلا أبا يزيد فإنه يطلبني ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال يا رب كيف الطريق إليك فقال
اترك نفسك وتعال إلي ورئي الشبلي بعد موته في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال
لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد قلت يوما أي خسارة أعظم من
خسران الجنة فقال أي خسارة أعظم من خسران لقائي والغرض أن هذه الأسباب
متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها لا يتيسر له العدول إلى غيرها
ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء
فإنا نقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة
إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات وذلك مثل العفو فإنه
أفضل من الانتصار في الظلم وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك
أفضل ومثل أن تكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على
العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحال للصوم والصلاة فالأكل والنوم
هو الأفضل له بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه
لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة قال أبو الدرداء إني
لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عونا لي على الحق وقال علي كرم الله وجهه
روحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون
الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر
في الطب وإنما يبتغي به أن يعيد أولا قوته ليحتمل المعالجة بالضد والحاذق في لعب
الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ليتوصل بذلك إلى الغلبة والضعيف
البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرنه
ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق
الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف
من الحيل يستبعدها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكارا على ما يراه من شيخه
ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من
أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله

حسن التوفيق

(الباب الثانى فى الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته)

(فضيلة الاخلاص)

قال الله تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وقال ألا لله الدين الخالص وقال تعالى الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله وقال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه وقال النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغل عليهنّ قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال ظنّ أبى أن له فضلا على من هو دونه من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم انما نصر الله عز وجل هذه الامّة بضعفائها ودعوتهم واخلاصهم وصلاتهم وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى الاخلاص سرّ من سرّى استودعته قلب من احببت من عبادى وقال على بن أبى طالب كرّم الله وجهه لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل أخلص العمل يجزك منه القليل وقال عليه السلام ما من عبد يخلص لله العمل اربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال عليه السلام اوّل من يسأل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ماصنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل اردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد انعمت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت اتصدّق به آناء الليل واطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل اردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك ورجل قتل فى سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب امرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل اردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك قال أبو هريرة ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وقال يا أباهريرة اولئك اوّل خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال صدق الله اذ قال من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها الآية وفى الاسرائليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا ان ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فاسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله ابليس فى صورة شيخ فقال اين تريد رحمك الله قال اريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال ان هذا من عبادتى قال فانى لا اتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه الى الارض وقعد على صدره فقال له ابليس أطلقنى حتى أكلمك فقام عنه فقال له ابليس ياهذا ان الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى انبياء فى اقاليم

الارض ولو شاء لبعث انبياءه الى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فنابذه
للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز ابليس فقال له هل لك في أمر فصل
بيني وبينك وهو خير لك وانفع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال ابليس
أنت رجل فقير لا شيء لك انما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل
على اخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس قال نعم قال فارجع عن
هذا الامر ولك علي أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين اذا اصبحت اخذتهما
فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على اخوانك فيكون ذلك انفع لك وللمسلمين
من قطع هذه الشجرة التي تغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع اخوانك
المؤمنين قطعك اياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع
هذه الشجرة ولا امرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها وما ذكره اكثر منفعة
فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد الى متعبده فبات فلما أصبح رأى
دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا
فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله ابليس في صورة شيخ فقال له الى أين قال أقطع
تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك اليها قال فتناوله
العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيهات فأخذه ابليس وصرعه فاذا هو كالعصفور
بين رجليه وقعد ابليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الامر أو لأذبحنك فنظر العابد
فاذا لا طاقة له به قال يا هذا غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني
الآن فقال لانك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك وهذه المرة
غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى الا عبادك منهم
المخلصين اذ لا يتخلص العبد من الشيطان الا بالاخلاص ولذلك كان معروف الكرخي
رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تتخلصي وقال يعقوب المكفوف
المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته وقال سليمان طوبى لمن صحت له خطوة واحدة
لا يريد بها الا الله تعالى وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الى أبي موسى
الاشعري من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس وكتب بعض الاولياء
الى أخ له أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوب السختياني تخليص
النيات على العمال أشد عليهم من جميع الاعمال وكان مطرف يقول من صفا صفي له
ومن خلط خلط عليه ورؤي بعضهم في المنام فقيل له كيف وجدت أعمالك فقال كل
شيء عملته لله وجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في
كفة الحسنات وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات وكان قد نفق
حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت موت سنور في كفة الحسنات وموت
حمار ليس فيها فقيل لي انه قد وجه حيث بعثت به فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة
الله فبطل اجرك فيه ولو قلت في سبيل الله لوجدته في حسناتك وفي رواية قال وكنت
تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم الي فوجدت ذلك لا علي ولا لي قال سفيان

لما سمع هذا ما أحسن حاله اذ لم يكن عليه فقد أحسن اليه * وقال يحيى بن معاذ الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم وقيل كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة الى الرجل والى امرأة معه فدعا الله تعالى بالاخلاص وقال ان نجوت من هذه الفضيحة لا أعود الى مثل هذا فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة * وقال بعض الصوفية كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض اخوانه من الابدال فساره بشيء فقال أبو عبيد لا فمر كالسحاب يمسح الارض حتى غاب عن عيني فقلت لابي عبيد ما قال لك فقال سألني أن أحج معه فقلت لا قلت فهلا فعلت قال ليس لي في الحج نية وقد نويت أن اتمم هذه الارض العشية فأخاف ان حججت معه لاجله تعرضت لمقت الله تعالى لاني ادخل في عمل الله شيأ غيره فيكون ما انا فيه أعظم عندي من سبعين حجة ويروى عن بعضهم قال غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة فقلت اشتريها فأنتفع بها في غزوي فاذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال احدهما لصاحبه اكتب الغزاة فأملى عليه خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ثم نظر الي وقال اكتب فلان خرج تاجرا فقلت الله الله في امري ما خرجت اتجر وما معي تجارة اتجر فيها ما خرجت الا للغزو فقال يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت لا تكتبوني تاجرا فنظر الى صاحبه وقال ما ترى فقال اكتب خرج فلان غازيا الا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى وقال سري السقطي رحمه الله تعالى لان تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثا او سبعمائة بعلو وقال بعضهم في اخلاص ساعة نجاة الابد ولكن الاخلاص عزيز ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص وقال بعضهم اذا أبغض الله عبدا اعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا اعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم واعطاه الاعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها واعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها وقال السوسي مراد الله من عمل الخلائق الاخلاص فقط وقال الجنيد ان لله عبادا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الاخلاص الى ابواب البر اجمع وقال محمد بن سعيد المروزي الامر كله يرجع الى اصلين فعل منه بك وفعل منك له فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل فاذا أنت قد سعدت بهذين وفزت في الدارين

(بيان حقيقة الاخلاص)

اعلم ان كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصا قال الله تعالى من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين فانما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن

أن يقترن به والإخلاص يضاده الإشراك فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن الشرك درجات فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية والشرك منه خفي ومنه جلي وكذا الإخلاص والإخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحداً على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً بالإضافة إلى المنوي فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات وأقل أموره ما ورد في الخبر من أن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء يا مرائي يا مخادع يا مشرك يا كافر وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدو له في منزله أو يتبرم بأهله وولده أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياماً أو ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزاً بين العشيرة أو ليكون عقاره وماله محروساً بعز العلم عن الأطماع أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث أو تكفل بخدمة العلماء والصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس أو لينال به رفقاً في الدنيا أو كتب مصحفاً ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء أو توضأ ليتنظف أو يتبرد أو اغتسل لتطيب رائحته أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد أو اعتكف في المسجد ليخف عليه كراء المسكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضافت إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك وقد قال تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشركة وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك قيل من سلم له من عمره

لحظة واحدة خالصة لوجه الله بجا وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذى لا باعث عليه الا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ ان كانت هى الباعثة وحدها فلا تخفى شدة الامر على صاحبه فيها وانما نظرنا فيما اذا كان القصد الاصلى هو التقرب وانضافت اليه هذه الامور ثم هذه الشوائب اما أن تكون فى رتبة الموافقة او فى رتبة المشاركة او فى رتبة المعاونة كما سبق فى النية وبالجملة فاما ان يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى او اقوى منه او اضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وانما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه وهذا لا يتصور الا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الاكل والشرب أيضا بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث انه ضرورة الجبلة فلا يشتهى الطعام لانه طعام بل لانه يقويه على عبادة الله تعالى ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج الى الاكل فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لانه ضرورة دينه فلا يكون له هم الا الله تعالى فمثل هذا الشخص لو أكل او شرب او قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص فى الاعمال مسدود عليه الا على الندور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت اخلاصا فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك الا نادرا فاذا علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذذاك يتيسر الاخلاص وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن انها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لانه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم انه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها فى المسجد فى الصف الاول لانى تأخرت يوما العذر فصليت فى الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى فعرفت أن نظر الناس الى فى الصف الاول كان مسرتى وسبب استراحة قلبى من حيث لا اشعر وهذا دقيق غامض قلما تسلم الاعمال عن امثاله وقل من يتنبه له الا من وفقه الله تعالى والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وبقوله تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للاكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظ يمن على الله تعالى

بصحبة الحق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله واقبالهم عليه وهو يدعى
انه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف
الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى اذ كفاه الله
تعالى هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول انما غمك لانقطاع الثواب
عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك الى غيرك اذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب
واغتمامك لفوات الثواب محمود ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الامر أفضل
واجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة من انفراده وليت شعرى لو اغتم عمر رضى الله عنه
بتصدى أبى بكر رضى الله تعالى عنه للامامة أكان غمه محمودا أو مذموما ولا يستريب
دو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما لان انقياده للحق وتسليمه الامر الى من هو أصلح
منه أعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل بل فرح
عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالامر فما بال العلماء لا يفرحون بمثل
ذلك وقد ينخدع بعض اهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى
منه بالامر لفرح به واخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل
والغرور فان النفس سهلة القياد فى الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الامر ثم اذا دهاه الامر
اتغير ورجع ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه الا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال
اشتغاله بامتحانها فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع الا
الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى فى قوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين فليكن العبد
شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر

(بيان اقاويل الشيوخ فى الاخلاص)

قال السوسى الاخلاص فقد رؤية الاخلاص فان من شاهد فى اخلاصه الاخلاص
فقد احتاج اخلاصه الى اخلاص وما ذكره اشارة الى تصفية العمل عن العجب بالفعل فان
الالتفات الى الاخلاص والنظر اليه عجب وهو من جملة الآفات والخالص ما صفا عن
جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحدة وقال سهل رحمه الله تعالى الاخلاص أن يكون
سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض وفى معناه قول
ابراهيم بن ادهم الاخلاص صدق النية مع الله تعالى وقيل لسهل أى شئ أشد على
النفس فقال الاخلاص اذ ليس لها فيه نصيب وقال رويم الاخلاص فى العمل هو أن لا
يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين وهذا اشارة الى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا
والعابد لاجل تنعم النفس بالشهوات فى الجنة معلول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل الا
وجه الله تعالى وهو اشارة الى اخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق فأما من يعمل
لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالاضافة الى الحظوظ العاجلة والا فهو فى طلب حظ
البطن والفرج وانما المطلوب الحق لذوى الالباب وجه الله تعالى فقط وهو القائل لا يحرك
الانسان الا الحظ والبراءة من الحظوظ صفة الالهية ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى
القاضى أبو بكر الباقلانى بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات

الالهية وماذكره حق ولكن القوم انما ارادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا وهو الشهوات الموصوفة فى الجنة فقط فأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر الى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه وهؤلاء لو عوضوا عماهم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود للحضرة الالهية سرا وجهرا جميع نعم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا اليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره وقال أبو عثمان الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر الى الخالق فقط وهذا اشارة الى آفة الرياء فقط ولذلك قال بعضهم الاخلاص فى العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فانه اشارة الى مجرد الاخفاء وقد قيل الاخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد وقال المحاسبى الاخلاص هو اخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا اشارة الى مجرد نفى الرياء وكذلك قول الخواص من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن اخلاص العبودية وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ما الخالص من الاعمال فقال الذى يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وانما خصه بالذكر لانه اقوى الاسباب المشوشة للاخلاص وقال الجنيد الاخلاص تصفية العمل من الكدورات وقال الفضيل ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من اجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما وقيل الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والاقاويل فى هذا كثيرة ولا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وانما البيان الشافى بيان سيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم اذ سئل عن الاخلاص فقال أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما امرت أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد الا ربك وتستقيم فى عبادته كما امرت وهذا اشارة الى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا

(بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للاخلاص)

اعلم أن الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلى وبعضها خفى وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها فى الخفاء والجلاء الا بمثال واظهر مشوشات الاخلاص الرياء * فلنذكر منه مثالا فنقول الشيطان يدخل الآفة على المصلى مهما كان مخلصا فى صلاته ثم نظر اليه جماعة اودخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه وتسكن اطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين * الدرجة الثانية يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت اليه ويستمر فى صلاته كما كان فيأتيه فى معرض الخير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم ان احسنت وعليك الوزر ان اسأت فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك فى الخشوع وتحسين العبادة وهذا اغمض

من الاول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالاول وهو أيضا عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه ان كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن يكون نفس غيره أعز عليه من نفسه فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره الى غيره فيكون له ثواب عليه فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على اظهاره من نفسه ما ليس متصفا به ❊ الدرجة الثالثة وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الاخلاص في أن يكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملاء ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملاء ويصلي في الملاء أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء الغامض لانه حسن صلاته في الخلوة ليحسن في الملاء فلا يكون قد فرق بينهما فالتفاته في الخلوة والملاء الى الخلق بل الاخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة فكأن نفس هذا ليست تسمح باساءة الصلاة بين اظهر الناس ثم تستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلاء والملاء وهيهات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت الى الخلق كما لا يلتفت الى الجمادات في الخلاء والملأ جميعا وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملأ والخلاء جميعا وهذا من المكايد الخفية للشيطان ❊ الدرجة الرابعة وهي أدق واخفى أن ينظر اليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لاجلهم فانه قد عرف انه تفطن لذلك فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من ان ينظر الله الى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن ان ذلك عين الاخلاص وهو عين المكر والخداع فان خشوعه لو كان لنظره الى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الامن من هذه الآفة ان يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا فما دام لم يفرق في احواله بين مشاهدة انسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الاخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء وهذا الشرك اخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء كما ورد به الخبر ولا يسلم من الشيطان الا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته والا فالشيطان ملازم للمشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن في اوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها فيدعوه الشيطان الى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ويكون انبعاث القلب باطنا لها لاجل تلك

الشهوة الخفية أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص بسببه ومالا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس اليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الانس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع اليه ويتبين ذلك في ميله الى أحد المسجدين أو أحد الموضعين اذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمري الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل دركه ومنها ما يدق بحيث لا يدركه الا الناقد البصير وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا ولهذا قيل ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الاعمال حتى يخلص عنها فان الجاهل نظره الى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي الى حمرة الدينار المموه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرقة الى فنون الاعمال لا يمكن حصرها واحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل

(بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به)

اعلم ان العمل اذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء او حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضي ثوابا أم يقتضي عقابا أم لا يقتضي شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذي لم يرد به الا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وانما النظر في المشوب وظاهر الاخبار تدل على انه لا ثواب له وليس تخلو الاخبار عن تعارض فيه والذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله أن ينظر الى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وان كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب وان كان قصد التقرب أغلب بالاضافة الى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ولقوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل ان كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة وان كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد * وكشف الغطاء عن هذا أن الاعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرياء من المهلكات وانما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه وداعية الخير من المنجيات وانما قوتها بالعمل على

ونعنيها إذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادان فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء
فقد قوي تلك الصفة وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوي أيضاً تلك
الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فإن كان تقويته هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما
فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته
فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر فكما
لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة
الله تعالى فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير في إنارة
القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده فإذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا
فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده
شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم أتبع السيئة الحسنة
تمحها فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن
يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح
حجه وأثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال إنما يثاب
على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما
المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما
كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس
السفر عن ثواب وما عندي أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار
جهة يكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ويبعد أن يقال إدراك هذه التفرقة
يحبط بالكلية ثواب جهادهم بل العدل أن يقال إذا كان الباعث الأصلي والمزعج
القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به
الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا فإن هذا الالتفات
نقصان لا محالة فإن قلت فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب
وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من
التابعين أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أو قال يتصدق
فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا
صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال أدنى الرياء شرك وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه
وسلم يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له وروي عن عبادة أن الله عز وجل
يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشركة من عمل لي عملا فأشرك معي غيري ودعت نصيبي
لشريكي وروى أبو موسى أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول
الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله
فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وقال عمر
رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا وقال ابن

مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له فنقول هذه الاحاديث لا تناقض ماذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك الا الدنيا كقوله من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا وكان ذلك هو الاغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لان طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي وقد بينا انه اذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ثم ان الانسان عند الشركة أبدا في خطر فانه لا يدري أي الامرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا أي لا يرجى اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لا ينال الا بالاخلاص في الغزو وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه الى مجرد الغزو وان لم يكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفار احداهما غنية والاخرى فقيرة فمال الى جهة الاغنياء لاعلاء كلمة الله وللغنيمة لا ثواب له على غزوه البتة ونعوذ بالله أن يكون الامر كذلك فان هذا حرج في الدين ومدخل لليأس على المسلمين لان أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الانسان عنها الا على الندور فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب فأما أن يكون في احباطه فلا نعم الانسان فيه على خطر عظيم لانه ربما يظن أن الباعث الاقوى هو قصد التقرب الى الله ويكون الاغلب على سره الحظ النفسي وذلك مما يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الاجر الا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وان بالغ في الاحتياط فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة ولذلك قال سفيان رحمه الله لا أعتد بما ظهر من عملي وقال عبد العزيز بن أبي رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى الا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لا لي ولا علي ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه اذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكي ان بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف في أعماله فتكلم أبو سعيد في الاخلاص يوما يريد اخلاص الحركات فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالاخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الاخلاص وانه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها فقال أبو سعيد لا تفعل اذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الاخلاص فما قلت لك اترك العمل وانما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لاجل الخلق شرك

الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته

• (فضيلة الصدق) •

قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وان الكذب يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ه ويكفي في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الانبياء به في معرض المدح والثناء فقال واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا وقال واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وقال تعالى واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر وقال بشر بن الحارث من عامل الله بالصدق استوحش من الناس وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصورا الدينوري في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل فقلت له احسن ما توجه العبد به الى الله ماذا قال الصدق وأقبح ما توجه به الكذب وقال ابو سليمان اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك وقال رجل لحكيم ما رأيت صادقا فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن علي الكتاني قال وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة اركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول وقال الثوري في قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى بنفسه في دجلة فقال الشبلي ان كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وان كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون وقال بعضهم اجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال انها اذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها الا ببعض الاسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الاعمال وطيب المطعم وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني اسرائيل يجتمعون فيقرؤنها ويتدارسونها لا كنز أنفع من العلم ولا مال أربح من الحلم ولا حسب أوضع من الغضب ولا قرين ازين من العمل ولا رفيق اشين من الجهل ولا شرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أعلى من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء الين من الرفق ولا داء أوجع من الخرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق ولا فقر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أطيب من الصحة ولا معيشة اهنأ من العفة ولا عبادة أحسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت ه وقال محمد بن سعيد المروزي اذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك

حتى

حتى تبصر كل شئ من عجائب الدنيا والآخرة وقال ابو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لذى النون هل للعبد الى صلاح أموره سبيل فقال

قد بقينا من الذنوب حيارى * نطلب الصدق مااليه سبيل
فدعاوى الهوى تخف علينا * وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل ما اصل هذا الامر الذى نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة فقيل زدنا فقال التقى والحياء وطيب الغذاء وعن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق وعن الجنيد فى قوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم قال يسأل الصادقين عن أنفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا أمر على خطر

(بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه)

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان صدق فى القول وصدق فى النية والارادة وصدق فى العزم وصدق فى الوفاء بالعزم وصدق فى العمل وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صديق لانه مبالغة فى الصدق ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ فى الصدق فى شئ من الجملة فهو صادق بالاضافة الى ما فيه صدقه *(الصدق الاول)* صدق اللسان وذلك لا يكون الا فى الاخبار أو فيما يتضمن الاخبار وينبه عليه والخبر اما أن يتعلق بالماضى أو بالمستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم الا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الاخبار عن الاشياء على خلاف ما هى عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان أحدهما الاحتراز عن المعاريض فقد قيل فى المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لانها تقوم مقام الكذب اذ المحذور من الكذب تفهيم الشئ على خلاف ما هو عليه فى نفسه الا أن ذلك مما تمس اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة فى بعض الاحوال وفى تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم وفى الحذر عن الظلمة وفى قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر الى شئ من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين فاذا نطق به فهو صادق وان كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لان الصدق ما اريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل الى المعاريض ما وجد اليه سبيلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توجه الى سفر ورّى بغيره وذلك كى لا ينتهى الخبر الى الاعداء فيقصد وليس هذا من الكذب فى شئ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيرا او نمى خيرا ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع من اصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان فى مصالح الحرب والصدق ههنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة الخير فمهما صح

قصده وصدقت نيته وتجردت للخير ارادته صار صادقا وصديقا كما كان لعطه ثم التعريض فيه اولى وطريقه ماحكى عن بعضهم انه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره فقال لزوجته خطى باصبعك دائرة وضعى الاصبع على الدائرة وقولى ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم انه ليس فى الدار فالكمال الاول فى اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض ايضا الا عند الضرورة والكمال الثانى أن يراعى معنى الصدق فى الالفاظ التى يناجى بها ربه كقوله وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض فان قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بامانى الدنيا وشهواته فهو كاذب وكقوله اياك نعبد وكقوله انا عبد الله فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله انا عبد الله لعجز عن تحقيقه فانه ان كان عبدا لنفسه او عبدا الدنيا او عبدا لشهواته لم يكن صادقا فى قوله وكل ما تقيد العبد به فهو عبدله كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة سمى كل من تقيد قلبه بشئ عبدا له وانما العبد الحق لله عز وجل من اعتق اولا عن غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فاذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد الا الله تعالى ثم قد يتجاوز هذا الى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق ايضا عن ارادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب او ابعاد فتفنى ارادته فى ارادة الله تعالى وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفقود النفسه موجودا لسيده ومولاه ان حركه تحرك وان سكنه سكن وان ابتلاه رضى لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل وهذا منتهى الصدق فى العبودية لله تعالى فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق فى القول (الصدق الثانى): فى النية والارادة ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات الا الله تعالى فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا كما روينا فى فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين يسأل العالم ما عملت فيما علمت فقال فعلت كذا وكذا فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم فانه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه فى ارادته ونيته وقد قال بعضهم الصدق صحة التوحيد فى القصد وكذلك قول الله تعالى والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وقد قالوا انك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق الى الخبر وهذا القول يتضمن اخبارا بقرينة الحال اذ صاحبه يظهر من

نفسه انه يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه فانه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظه فيرجع احد معاني الصدق الى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلا بدّ وأن يكون مخلصا * (الصدق الثالث) * صدق العزم فان الانسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه ان رزقني الله مالا تصدّقت بجميعه او بشطره وان لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم ابال وان قتلت وان اعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم اعص الله تعالى بظلم وميل الى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوّة كما يقال لفلان شهوة صادقة ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي او كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصدّيق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوّة تامّة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردّد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه لان أقدم فتضرب عنقي احب اليّ من أن اتأمّر على قوم فيهم ابو بكر رضي الله عنه فانه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمّر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه وأكد ذلك بما ذكره من القتل ومراتب الصدّيقين في العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهي به الى أن يرضى بالقتل فيه ولكن اذا خلي ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين ان يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب اليه من حياة أبي بكر الصديق * (الصدق الرابع) * في الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال اذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفا بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ولذلك قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فقد روي عن انس أن عمه انس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال اوّل مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن اراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما اصنع قال فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا ابا عمرو الى اين فقال واها لريح الجنة اني اجده دون احد فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت اخته بنت النضر ما عرفت اخي الا بثيابه ونزلت هذه الآية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم احد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الشهداء اربعة رجل مؤمن جيد الايمان لقي العدوّ فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس اليه اعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى

وقعت قلنسوته قال الراوي فلا ادري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل جيد الايمان اذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم غائر فقتله فهو في الدرجة الثالثة ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيأ لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة . وقال مجاهد رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا ان رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين وقال بعضهم انما هو شيء نووه في انفسهم لم يتكلموا به فقال ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فاعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق اشد من الصدق الثاني فان النفس قد تسخو بالعزم ثم تكع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الاسباب ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال لان اقدم فتضرب عنقي احب الي من أن أتأمر على قوم فيهم ابو بكر اللهم الا أن تسول لي نفسي عند القتل شيئا لا اجده الآن لاني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها اشار بذلك الى شدة الوفاء بالعزم وقال ابو سعيد الخراز رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي ما الصدق قلت الوفاء بالعهد فقالا لي صدقت وعرجا الى السماء ۞ (الصدق الخامس) في الاعمال وهو أن يجهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على امر في باطنه لا يتصف هو به لا بأن يترك الاعمال ولكن بأن يستجر الباطن الى تصديق الظاهر وهذا مخالف لما ذكرناه من ترك الرياء لان المرائي هو الذي يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر اليه يراه قائما بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن اعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الاعمال وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق في عمله وان لم يكن ملتفتا الى الخلق ولا مرائيا اياهم ولا ينجو من هذا الا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الاشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا في دلالة الظاهر على الباطن فاذا مخالفة الظاهر للباطن ان كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الاخلاص وان كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل سريرتي خيرا من علانيتي واجعل علانيتي صالحة وقال يزيد بن الحارث اذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وان كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل وان كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور وأنشدوا

اذا السر والاعلان في المؤمن استوى ۞ فقد عز في الدارين واستوجب الثنا

قوله فهو في الدرجة الثالثة هكذا في نسخ الاصل التي بيدي لم يذكر فيها الدرجة الثانية وليحرر اه

قال

فان خالف الاعلان سرا فماله * على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار فى السوق نافق * ومغشوشه المردود لا يقتضى المنا

وقال عطية بن عبد الغافر اذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدى حقا وقال معاوية بن قرة من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار وقال عبد الواحد كان الحسن اذا امر بشئ كان من اعمل الناس به واذا نهى عن شئ كان من اترك الناس له ولم ار احدا قط أشبه سريرة بعلانية منه وكان ابو عبد الرحمن الزاهد يقول الهى عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالامانة وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة ويبكى وقال ابو يعقوب النهرجورى الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية فاذا مساواة السريرة للعلانية احد أنواع الصدق * (الصدق السادس) * وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق فى مقامات الدين كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضى والتوكل والحب وسائر هذه الامور فان هذه الامور لها مبادى يطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها واذا غلب الشئ وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هى الشهوة الصادقة وقال الله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا الى قوله اولئك هم الصادقون وقال تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الى قوله اولئك الذين صدقوا وسئل ابوذر عن الايمان فقرأ هذه الآية فقيل له سألناك عن الايمان فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرأ هذه الآية ولنضرب للخوف مثلا فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر الا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق اى غير بالغ درجة الحقيقة اما تراه اذا خاف سلطانا اوقاطع طريق فى سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه اكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به اهله وولده وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالانس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للاخطار كل ذلك خوفا من درك المحذور ثم انه يخاف النار ولا يظهر عليه شئ من ذلك عند جريان معصية عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لم ار مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها فالتحقيق فى هذه الامور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله اما ضعيف واما قوى فاذا قوى سمى صادقا فيه فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام احب أن اراك فى صورتك التى هى صورتك فقال لا تطيق ذلك قال بل ارنى فواعده البقيع فى ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبى صلى الله عليه وسلم فاذا هو به قد سد الافق يعنى جوانب السماء فوقع النبى صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فافاق وقد عاد جبريل لصورته الاولى فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما ظننت أن احدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت اسرافيل ان العرش لعلى كاهله وان رجليه قد مرقتا تخوم الارض السفلى وانه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع يعنى كالعصفور الصغير

فانظر ما الذى يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع الى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم فى المعرفة فهذا هو الصدق فى التعظيم وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة اسرى بى وجبريل بالملأ الاعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنه لن تبلغ حق هذا الايمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى فى دين الله وقال مطرف ما من الناس احد الا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه الا أن بعض الحمق اهون من بعض وقال النبى صلى الله عليه وسلم لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كالاباعر فى جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها احقر حقير فالصادق اذا فى جميع المقامات عزيز ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق فى بعض الامور دون بعض فان كان صادقا فى الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة انا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف ماصليت صلاة منذ اسلمت فحدثت نفسى حتى افرغ منها ولا شيعت جنازة فحدثت نفسى بغير ماهى قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا الا علمت انه حق وقال ابن المسيب ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع الا فى النبى عليه السلام فهذا صدق فى هذه الامور وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ فهذه هى درجات الصدق ومعانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ فى حقيقة الصدق فى الاغلب لا تتعرض الا لآحاد هذه المعانى نعم قد قال ابو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون وصدق الطاعة لاهل العلم والورع وصدق المعرفة لاهل الولاية الذين هم اوتاد الارض وكل هذا يدور على ماذكرناه فى الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام مافيه الصدق وهو أيضا غير محيط بجميع الاقسام وقال جعفر الصادق الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى هو اجتباكم وقيل اوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام انى اذا أحببت عبدا ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لانظر كيف صدقه فان وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا وان وجدته جزعا يشكونى الى خلقى خذلته ولا ابالى فاذا من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها

تم كتاب الصدق والاخلاص يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله

(كتاب المراقبة والمحاسبة وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجترحت المطلع

على ضمائر القلب اذا هجست * الحسيب على خواطر عباده اذا اختلجت * الذى لا يعزب
عن علمه مثقال ذرة فى السموات والارض تحركت اوسكنت * المحاسب على النقير
والقطمير والقليل والكثير من الاعمال وان خفيت * المتفضل بقبول طاعات العباد
وان صغرت * المتطوّل بالعفو عن معاصيهم وان كثرت * وانما يحاسبهم لتعلم كل
نفس ما احضرت * وتنظر فيما قدّمت وأخرت * فتعلم انه لولا لزومها المراقبة والمحاسبة
فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت * وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا
فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت * فسبحان من عمت نعمته كافة العباد
وشملت * واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت * فبنفحات فضله
اتسعت القلوب للايمان وانشرحت * وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات
وتأدبت * وبحسن هدايته انحلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت * وبتأييده
ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت * وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات
اذا ثقلت * وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت * فمنه العطاء والجزاء * والابعاد
والادناء * والاسعاد والاشقاء * والصلاة على محمد سيد الانبياء * وعلى آله سادة
الاصفياء * وعلى اصحابه قادة الاتقياء * (أما بعد) فقد قال الله تعالى ونضع الموازين
القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا
حاسبين وقال تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون
يا ويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا
ولا يظلم ربك احدا وقال تعالى يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا احصاه الله ونسوه
والله على كل شئ شهيد وقال تعالى يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم فمن يعمل
مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وقال تعالى ثم توفى كل نفس
ما كسبت وهم لا يظلمون وقال تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا
وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه امدا بعيدا ويحذركم الله نفسه وقال تعالى واعلموا
ان الله يعلم ما فى انفسكم فاحذروه فعرف ارباب البصائر من جملة العباد ان الله تعالى لهم
بالمرصاد وأنهم سيناقشون فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات
وتحققوا أنهم لا ينجيهم من هذه الاخطار الا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة
النفس فى الانفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل
أن يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه
ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته الى
الخزى والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا انهم لا ينجيهم منه الا طاعة الله
وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا
ورابطوا فرابطوا انفسهم اوّلا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة
ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولا بدّ من شرحها وبيان حقيقتها
وفضيلتها وتفصيل الاعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشارطة

ومراقبه ومعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق

(المقام الاول) من المرابطة المشارطة

اعلم أن مطلب المعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما ان التاجر يستعين بشريكه فيسلم اليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وانما مطلبه وربحه تزكية النفس لان بذلك فلاحها قال الله تعالى قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها وانما فلاحها بالاعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة اذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح فيحتاج الى أن يشارطه اولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه او يعاتبه رابعا فكذلك العقل يحتاج الى مشارطة النفس اولا فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها الى طرق الفلاح ويحرم عليها الامر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فانه لو أهملها لم ير منها الا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن اذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربحها الفردوس الاعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الانبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس اهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع انها محتقرة بالاضافة الى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها الى التصرم والانقضاء ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لان الشر الذي لا يدوم اذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر والخير الذي لا يدوم يبقى الاسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ولذلك قيل

اشد الغم عندي في سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه ابد الآباد فانقضاء هذه الانفاس ضائعة او مصروفة الى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل فاذا اصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة الى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالي بضاعة الا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد امهلني الله فيه وانسأ في اجلي وأنعم علي به ولو توفاني لكنت اتمنى أن يرجعني الى الدنيا يوما واحدا حتى اعمل فيه صالحا فاحسبي انك قد توفيت ثم قد رددت فاياك ثم اياك أن تضيعي هذا اليوم فان كل نفس من الانفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد في الخبر انه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها

حزانه

خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الانوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار مالو وزع على اهل النار لادهشهم ذلك الفرح عند الاحساس بألم النار ويفتح له خزانة اخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع مالو قسم على اهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة اخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه وهي الساعة التي نام فيها او غفل او اشتغل بشئ من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير اذا اهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا وهكذا تعرض عليه خزائن اوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي اسباب ملكك ولا تميلي الى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وان دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لا يطاق وان كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب أن المسئ قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين اشار به الى الغبن والحسرة وقال الله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن فهذه وصيته لنفسه في اوقاته ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها اليها فانها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة وان لجهنم سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم وانما تتعين تلك الابواب لمن عصى الله تعالى بهذه الاعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها * أما العين فيحفظها عن النظر الى وجه من ليس له بمحرم او الى عورة مسلم او النظر الى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فان الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم اذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر الى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر الى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل الامر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والاطعمة واللعن والدعاء على الاعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وارشاد عباد الله الى طريق الله واصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار الا في الذكر فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة وما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وأما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الاكل من الحلال واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشرط على نفسه انها ان خالفت شيأ من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهوتها وهكذا يشرط عليها في جميع

الاعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الاعضاء وطاعاتها ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وهذه شروط يفتقر اليها في كل يوم ولكن اذا تعوّد الانسان شرط ذلك على نفسه أياما وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها وان أطاع في بعضها بقيت الحاجة الى تجديد المشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ولله عليه في ذلك حق وهكذا على من يشتغل بشئ من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس اذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج الى أن يقضي حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الاهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه وهذا للمستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فانه يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه في المستقبل وروى عبادة بن الصامت انه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه اذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فأمضه وان كان غيا فانته عنه وقال بعض الحكماء اذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فان مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان ان المؤمن اذا أبصر العاقبة أمن الندامة وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله دان نفسه أي حاسبها ويوم الدين يوم الحساب وقوله انا لمدينون أي لمحاسبون وقال عمر رضي الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيأوا للعرض الاكبر وكتب الى أبي موسى الاشعري حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله قال ويل لديان الارض من ديان السماء فعلاه بالدرة وقال الا من حاسب نفسه فقال كعب يا أمير المؤمنين انها الى جنبها في التوراة ما بينهما حرف الا من حاسب نفسه وهذا كله اشارة الى المحاسبة للمستقبل اذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الامور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها (المرابطة الثانية) المراقبة اذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى الا المراقبة لها عند الخوض في الاعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فانها ان تركت طغت وفسدت ولنذكر فضيلة

المراقبة ثم درجات تراه (اما الفضيلة) فقد سأل جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال ان تعبد الله كأنك تراه وقال عليه السلام اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وقد قال تعالى افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وقال تعالى الم يعلم بأن الله يرى وقال تعالى ان الله كان عليكم رقيبا وقال تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون وقال ابن المبارك لرجل راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال كن أبدا كأنك ترى الله عزوجل وقال عبد الواحد بن يزيد اذا كان سيدى رقيبا على فما ابالى بغيره وقال ابو عثمان المغربى افضل ما يلزم الانسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم وقال ابن عطاء افضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الاوقات وقال الجريرى امرنا هذا مبنى على اصلين ان تلزم نفسك المراقبة لله عزوجل ويكون العلم على ظاهرك قائما وقال ابو عثمان قال لى ابو حفص اذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك وحكى انه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض اصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لا يراه احد ودفع الى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حى بيده فقال مالك لم تذبح كما ذبح اصحابك فقال لم اجد موضعا لا يرانى فيه احد اذ الله مطلع على فى كل مكان فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا حق لك ان تكرم وحكى ان زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا استحى من مراقبة الملك الجبار وحكى عن بعض الاحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له ألا تستحى فقال ممن استحى وما يرانا الا الكواكب قالت فأين مكوكبها وقال رجل للجنيد بم أستعين على غض البصر فقال بعلمك أن نظر الناظر اليك اسبق من نظرك الى المنظور اليه وقال الجنيد وانما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عزوجل وعن مالك بن دينار قال جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها قال يقول الله عزوجل انما يسكن جنات عدن الذين اذا هموا بالمعاصى ذكروا عظمتى فراقبونى والذين انثنت اصلابهم من خشيتى وعزتى وجلالى انى لاهم بعذاب اهل الارض فاذا نظرت الى اهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب وسئل المحاسبى عن المراقبة فقال اولها علم القلب بقرب الرب تعالى وقال المرتعش المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة ويروى أن الله تعالى قال للملائكة انتم موكلون بالظاهر وانا الرقيب على الباطن وقال محمد بن على الترمذى اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره اليك واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه وقال سهل لم يتزين القلب بشئ افضل ولا اشرف من علم العبد بأن شاهده حيث كان وسئل بعضهم

عن قوله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل ان تحاسب وقد قيل

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ＊ خلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ＊ خلوت ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

الم تر أن اليوم اسرع ذاهب ＊ وأن غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظني فقال لئن كنت اذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على امر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت وقال سفيان الثوري عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة وقال فرقد السبخي ان المنافق ينظر فاذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وانما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه الى مكة فعرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له يا راعي بعني شاة من هذه الغنم فقال اني مملوك فقال قل لسيدك اكلها الذئب قال فأين الله قال فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا الى المملوك فاشتراه من مولاه واعتقه وقال اعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة

＊(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)＊

اعلم ان حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم اليه فمن احترز من امر من الامور بسبب غيره يقال انه يراقب فلانا ويراعي جانبه ونعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته اليه وملاحظته اياه وانصرافه اليه وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على اعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة اذا صارت يقينا أعني انها خلت عن الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرت القلب الى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه اليه والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون الى الصديقين والى اصحاب اليمين فمراقبتهم على درجتين الدرجة الاولى مراقبة المقربين من الصديقين وهي مراقبة التعظيم والاجلال وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات الى الغير أصلا وهذه مراقبة لا نطول النظر في تفصيل أعمالها فانها مقصورة على القلب أما الجوارح فانها تتعطل عن التلفت الى المباحات فضلا عن المحظورات واذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج الى تدبير وتثبت في حفظها على سنن السداد بل يسدد الرعية من ملك كليته الراعي والقلب هو الراعي

فاذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذي صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر الهموم ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع انه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه اذا مررت بي فحركني ولا تستبعد هذا فانك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الارض حتى ان خدم الملك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي فربما يجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له وقد قيل لعبد الواحد بن زيد هل تعرف في زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق فقال ما اعرف الا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان الا سريعا حتى دخل عتبة الغلام فقال له عبد الواحد بن زيد من اين جئت يا عتبة فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من لقيت في الطريق فقال ما رأيت احدا ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا فقال ما ظننتها الا جدارا وحكي عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدا منهم فتقدمت اليه فأردت ان اكلمه فقال ذكر الله تعالى اشهى فقلت انت وحدك فقال معي ربي وملكاي فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له فقلت اين الطريق فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال اكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم الا منه ولا يسمع الا فيه فهذا لا يحتاج الى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا تتحرك الا بما هو فيه ودخل الشبلي على ابي الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شئ فقال له من اين اخذت هذه المراقبة والسكون فقال من سنور كانت لنا فكانت اذا ارادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة وقال ابو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر اريد الرملة للقاء ابي على الروذبادي فقال لي عيسى ابن يونس المصري المعروف بالزاهد ان في صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت اليهما نظرة لعلك تستفيد منهما فدخلت صور وانا جائع عطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شئ فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما اجاباني فسلمت ثانية وثالثة فلم اسمع الجواب فقلت نشدتكما بالله الا رددتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر الي وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقي من القليل الا القليل فخذ من القليل الكثير يا ابن خفيف ما اقل شغلك حتى تتفرغ الى لقائنا قال فاخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي فلما كان وقت العصر قلت عظني فرفع رأسه الي وقال يا ابن خفيف نحن اصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما اكلا شيأ ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت في سري احلفهما أن يعظاني لعلي انتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه وقال لي يا ابن خفيف

عليك محبة من يذكرك الله رؤيته ويقع هيبته على قلبك يعطلك بلسانه فعله ولا يعطلك
بلسانه قوله والسلام فهم عما فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الاجلال
والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك * الدرجة الثانية مراقبة الورعين من أصحاب
اليمين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ولكن لم
تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات الى
الاحوال والاعمال الا انها مع ممارسة الاعمال لا تخلو عن المراقبة نعم غلب عليهم الحياء
من الله فلا يقدمون ولا يحجمون الا بعد التثبت فيه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في
القيامة فانهم يرون الله في الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون الى انتظار القيامة وتعرف
اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك في خلوتك قد تتعاطى أعمالا فيحضرك صبي
او امرأة فتعلم انه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي احوالك لا عن
اجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وان كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فانها
تهيج الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك او كبير من الاكابر فيستغرقك التعظيم
حتى تترك كل ما انت فيه شغلا به لا حياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة
الله تعالى ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته
ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته وله فيها نظرات نظر قبل العمل ونظر في العمل أما قبل
العمل فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة او هو في هوى النفس
ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فان كان لله
تعالى امضاه وان كان لغير الله استحيى من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه
وهمه به وميله اليه وعرفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وانها عدوة نفسها ان لم
يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف في بداية الامور الى حد البيان واجب محتوم
لا محيص لاحد عنه فان في الخبر أنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وان صغرت
ثلاثة دواوين الديوان الاول لم والثاني كيف والثالث لمن ومعنى لم أي لم فعلت هذا أكان
عليك أن تفعله لمولاك او ملت اليه بشهوتك وهواك فان سلم منه بأن كان عليه أن
يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له كيف فعلت هذا فان لله في كل عمل
شرطا وحكما لا يدرك قدره ووقته وصفته الا بعلم فيقال له كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل
وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالاخلاص فيقال له لمن
عملت ألوجه الله خالصا فوفاء بقولك لا اله الا الله فيكون اجرك على الله او لمراآة خلق
مثلك فخذ أجرك منه أم عملته لنيل عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته
بسهو وغفلة فقد سقط اجرك وحبط عملك وخاب سعيك وان عملت لغيري فقد
استوجبت مقتي وعقابي اذ كنت عبدا لي تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري
أما سمعتني أقول ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ان الذين تعبدون من
دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ويحك أما سمعتني أقول ألا
لله الدين الخالص فاذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه

قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابا وليكن الجواب صوابا فلا يبدي ولا يعيد الا بعد التثبت ولا يحرك جفنا ولا انملة الا بعد التأمل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ ان الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فتة الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب اخيه وقال الحسن كان احدهم اذا اراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فان كان لله امضاه وقال الحسن رحم الله تعالى عبدا وقف عند همه فان كان لله مضى وان كان لغيره تأخر وقال في حديث سعد حين اوصاه سلمان اتق الله عند همك اذا هممت وقال محمد بن علي ان المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الاول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا الا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الاعمال واغوار النفس ومكايد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه ابليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمه وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة بل الاكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ولا تظنن أن الجاهل يعذر على التعلم فيه بعذر هيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لانه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقي ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة واساس كل خسران فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم انه لله تعالى فيمضيه اوهو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فان الخطرة الاولى في الباطل اذا لم تدفع اورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث الفعل والفعل يورث البوار والمقت فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الاول وهو الخاطر فان جميع ما وراءه يتبعه ومهما اشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فان عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فليستضئ بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل اشد فقد اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لا تسال عني عالما اسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي اولئك قطاع الطريق على عبادي فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فان مستضاء انوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها واقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا فلتكن همة المريد اولا في احكام العلم وفي طلب عالم معرض عن الدنيا اوضعيف الرغبة فيها ان لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات جمع بين الامرين وهما متلازمان حقا فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال عليه السلام من قارف ذنبا

فارقه عمل لا يعود اليه أبداً انما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمى به حتى تعمد الى
محوه ومحقه بمفارقة الذنوب ومعرفة آفات الاعمال قد اندرست فى هذه الاعصار فان
الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات الثائرة فى
اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه واخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم
وتجردوا للفقه الدنيا الذى ما قصد به الا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين
فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفى الخبر أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه
المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المثبت ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال
مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الامر كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر
وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهواه معجبا
برأيه وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى
متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وكل من خاض فى شبهة بغير
تحقيق فقد خالف قوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم وقوله عليه السلام اياكم والظن
فان الظن أكذب الحديث واراد به ظنا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما اشكل
عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الامر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه
اللهم ارنى الحق حقا وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه ولا تجعله
متشابها على فأتبع الهوى وقال عيسى عليه السلام الامور ثلاثة امر استبان رشده
فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله الى عالمه وقد كان من دعاء
النبى صلى الله عليه وسلم اللهم انى اعوذ بك ان اقول فى الدين بغير علم فأعظم نعمة الله على
عباده هو العلم وكشف الحق والايمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى
امتنانا على عبده وكان فضل الله عليك عظيما وأراد به العلم وقال تعالى فاسألوا أهل
الذكر ان كنتم لا تعلمون وقال تعالى ان علينا للهدى وقال ثم ان علينا بيانه وقال وعلى
الله قصد السبيل وقال على كرم الله وجهه الهوى شريك العمى ومن التوفيق التوقف
عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفى الصدق السلامة ورب بعيد
اقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعدمك
من حسب سوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب الى كل جميل وأوثق العرى التقوى
وأوثق سبب اخذت به سبب بينك وبين الله تعالى انما لك من دنياك ما اصلحت به
مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته اتاك وان كنت جازعا على
ما اصيب مما فى يدك فلا تجزع على ما لم يصل اليك واستدل على ما لم يكن بما كان فانما
الامور اشباه والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك
من دنياك فلا تكثرن به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك اسفا وليكن سرورك بما
قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت وغرضنا من
نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ❊ فاذا المطر الاول للمراقب
نظره فى الهم والحركة أهى لله ام للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه

استكمل

استكمل ايمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشئ من عمله واذا عرض له امران احدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا واظهر ما ينكشف له فى حركاته او يكون مباحا ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه. النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى اتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على اكمل ما يمكنه وهذا ملازم له فى جميع احواله فانه لا يخلو فى جميع احواله عن حركة وسكون فاذا راقب الله تعالى فى جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الادب فان كان قاعدا مثلا فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله صلى الله عليه وسلم خير المجالس ما استقبل به القبلة ولا يجلس متربعا اذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه قال ابراهيم بن ادهم رحمه الله جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول هكذا تجالس الملوك فلم اجلس بعد ذلك متربعا وان كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التى ذكرناها فى مواضعها فكل ذلك داخل فى المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة فاذا لا يخلو العبد اما أن يكون فى طاعة أو فى معصية او فى مباح فمراقبته فى الطاعات بالاخلاص والاكمال ومراعاة الادب وحراستها عن الآفات وان كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير وان كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الادب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة احواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها او نعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالى عليه اما فعل يلزمه مباشرته او محظور يلزمه تركه او ندب حث عليه ليسارع به الى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله او مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع اوقاته فى هذه الاقسام الثلاثة فاذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغى ان يلتمس افضل الاعمال ليشتغل بها فان من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون والارباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى ولا تنس نصيبك من الدنيا وكل ذلك انما يمكن بصبر ساعة واحدة. فان الساعات ثلاث ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت فى مشقة او رفاهية وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدرى العبد أيعيش اليها ام لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فان لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وان اتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الاولى ولا يطول امله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه فى آخر انفاسه فلعله آخر انفاسه وهو لا يدرى واذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع احواله مقصودة على ما رواه أبو ذر رضى الله تعالى عنه

من قوله عليه السلام لا يكون المؤمن ظاعنا الا فى ثلاث تزود لمعاد او مرمة لمعاش أو لذة فى غير محرم وما روى عنه أيضا فى معناه وعلى العاقل أن تكون له اربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها فى صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب فان فى هذه الساعة عونا له على بقية الساعات ثم هذه الساعة التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغى أن يخلو عن عمل هو افضل الاعمال وهو الذكر والفكر فان الطعام الذى يتناوله مثلا فيه من العجائب مالو تفكر فيه وفطن له كان ذلك افضل من كثير من اعمال الجوارح والناس فيه أقسام قسم ينظرون اليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون فى عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لاسبابه وخلق الشهوة الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلناه فى كتاب الشكر وهذا مقام ذوى الالباب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار اليه ويودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون انفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون فى الصنعة الصانع ويترقون منها الى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو اعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين اذ المحب اذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله فى النظر منه الى الصانع مجال رحب فتحت له ابواب الملكوت وذلك عزيز جدا وقسم رابع ينظرون اليه بعين الرغبة والحرص فيأسفون على مافاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته ويذمون منه مالا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون ان الفاعل للطبيخ والطباخ وللقدرة وللعلم هو الله تعالى وان من ذم شيأ من خلق الله بغير اذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الاعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن احكم الاصول *

(المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها) *

(اما الفضيلة)

فقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد وهذه اشارة الى المحاسبة على مامضى من الاعمال ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وفى الخبر انه عليه السلام جاءه رجل فقال يارسول الله أوصنى فقال امستوص أنت فقال نعم قال اذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه وفى الخبر وينبغى للعاقل ان تكون له اربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم انى لاستغفر الله تعالى وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وقال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون وعن عمر رضى تعالى عنه انه كان يضرب

قدميه بالدرة اذا اجنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم وعن ميمون بن مهران انه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس احب الى من عمر ثم قال لها كيف قلت فأعادت عليه ما قال فقال ما أحد أعز على من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندما ورجاء للعوض مما فاته وفي حديث ابن سلام انه حمل حزمة من حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في بيتك وغلمانك ما يكفونك هذا فقال اردت أن اجرب نفسي هل تنكره وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله وانما خف الحساب على قوم حاسبوا انفسهم في الدنيا وانما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الامر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال ان المؤمن يفجأه الشئ يعجبه فيقول والله انك لتعجبني وانك لمن حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشئ فيرجع الى نفسه فيقول ماذا اردت بهذا والله لا اعذر بهذا والله لا اعود لهذا أبدا ان شاء الله وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله اوليعذبنك قال الحسن في قوله تعالى ولا أقسم بالنفس اللوامة قال لا يلقى المؤمن الا يعاتب نفسه ماذا اردت بكلمتي ماذا اردت بأكلتي ماذا اردت بشربتي والفاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه وقال ميمون بن مهران التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح وقال ابراهيم التيمي مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمرها وأشرب من انهارها وأعانق ابكارها ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها واعالج سلاسلها واغلالها فقلت لنفسي يا نفس أي شئ تريدين فقالت اريد أن أرد الى الدنيا فأعمل صالحا قلت فأنت في الامنية فاعملي وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب الى غيره رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكياله رحم الله امرأ نظر في ميزانه فما زال يقول حتى ابكاني وحكى صاحب للاحنف بن قيس قال كنت اصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجئ الى المصباح فيضع اصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا

(بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل)

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في اول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق

و ينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة او شهر او يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من ان يفوتهم منها مالو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى الا اياما قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة ابدا الآباد ما هذه المساهلة الا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فان كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وان كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعامله نفسه الامارة بالسوء فليحاسبها على الفرائض اولا فان اداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها وان فوتها من اصلها طالبها بالقضاء وان اداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وان ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما انه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فانها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها اولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده واكله وشربه ونومه حتى عن سكوته انه لم سكت وعن سكونه لم سكن فاذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون أما بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها برد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك الا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه فاذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الاعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فاذا هو ابن ستين سنة فحسب ايامها فاذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال يا ويلتي ألقى المالك بأحد وعشرين الف ذنب فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فاذا هو ميت فسمعوا قائلا يقول يا لك ركضة الى الفردوس الاعلى فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الانفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ولو رمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك احصاه الله ونسوه المرابطة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها

فانه

فانه ان اهملها اسهل عليه مقارفة المعاصي وانست بها نفسه وعسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فاذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع واذا نظر الى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن ابراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست وروى انه كان في بني اسرائيل رجل يتعبد في صومعته فمكث كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فاذا هو بامرأة فافتتن بها وهمّ بها فأخرج رجله لينزل اليها فأدركه الله بسابقة فقال ماهذا الذي اريد أن اصنع فرجعت اليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم فلما اراد أن يعيد رجله الى الصومعة قال هيهات هيهات رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معي في صومعتي لا يكون والله ذلك أبدا فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الامطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكريبي يقول اصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن اغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا فحدثتني نفسي بالتأخير حتى اصبح واسخن الماء وأدخل الحمام ولا اعنى على نفسي فقلت واعجباه أنا اعامل الله في طول عمري فيجب له علي حق فلا اجد في المسارعة واجد الوقوف والتأخر آليت أن لا اغتسل الا في مرقعتي هذه وآليت ان لا انزعها ولا اعصرها ولا اجففها في الشمس ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهم فتكشفت جارية فنظر اليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال انك للحاظة الى ما يضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة الى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش ويحكى أن حسان بن ابي سنان مرّ بغرفة فقال متى بنيت هذه ثم أقبل على نفسه فقال تسألين عما لا يعنيك لاعاقبنك بصوم سنة فصامها وقال مالك بن ضيغم جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا انه نائم فقال نوم هذه الساعة هذا وقت نوم ثم ولى منصرفا فأتبعناه رسولا وقلنا الا نوقظه لك فجاء الرسول وقال هو اشغل من أن يفهم عني شيأ ادركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول اقلت وقت نوم هذه الساعة افكان هذا عليك ينام الرجل متى شاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم تتكلمين بما لا تعلمين اما ان لله علىّ عهدا لا انقضه ابدا لا اوسدك الارض لنوم حولا الا لمرض حائل او لعقل زائل سوءة لك أما تستحين كم توبخين وعن غيك لا تنتهين قال وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني فلما رايت ذلك انصرفت وتركته ويحكى عن تميم الداري انه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع وعن طلحة رضي الله تعالى عنه قال انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقي ونار جهنم أشد حرًّا أجيفة بالليل بطالة بالنهار فبينما هو كذلك اذ بصر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأتاه فقال غلبتني نفسي فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم ألم يكن لك بد من الذي صنعت

أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من
أخيكم فجعل الرجل يقول له يا فلان ادع لي يا فلان ادع لي فقال النبي صلى الله عليه
وسلم عمهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبي صلى
الله عليه وسلم يقول اللهم سدده فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مآبهم وقال حذيفة
ابن قتادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها فقال ما على وجه الأرض نفس
أبغض إلي منها فكيف أعطيها شهوتها ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات
وهو في بيته على التراب فقال يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل
أن تعذب فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له وعن وهب بن منبه أن رجلا تعبد زمانا
ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتا يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة ثم
سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت
حاجتك فنزل إليه ملك وقال يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد
قضى الله حاجتك وقال عبد الله بن قيس كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في الناس
فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول أي نفس
ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ألم أشهد مشهد
كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله
أخذك أو تركك فقلت لأرمقنه اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم
ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات وهو ثابت
يقاتل فوالله ما زال ذاك دأبه حتى رأيته صرع فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من
ستين طعنة وقد ذكرنا حديث أبي طلحة لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه
فتصدق بالحائط كفارة لذلك وأن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول ماذا
عملت اليوم وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه
أن لا يرفع رأسه إلى السماء ما دام في الدنيا وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح
بالليل فكان يضع إصبعه عليه ويقول لنفسه ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا وأنكر
وهيب بن الورد شيئا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول
لنفسه ويحك إنما أريد بك الخير ورأى محمد بن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره
خبزا بغير ملح فقال له لو أكلته بملح فقال إن نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة ولا ذاق داود
ملحا ما دام في الدنيا فهكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب
عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف
أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم
عدو لك وأشد طغيانا عليك وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فإن
غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن
فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة
أولى من غيرها المرابطة الخامسة المجاهدة وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت

معصية فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت وان رآها تتوانى بحكم الكسل فى شئ من الفضائل اوورد من الاوراد فينبغى ان يؤدبها بتثقيل الاوراد عليها ويلزمها فنونا من الوظائف جبر المافات منه وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر ابن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدق بارض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر اذا فاتته صلاة فى جماعة احيى تلك الليلة وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين وفات ابن ابى ربيعة ركعتا الفجر فاعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة او الحج ماشيا او التصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها فان قلت ان كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الاوراد فما سبيل معالجتها فأقول سبيلك فى ذلك أن تسمعها ما ورد فى الاخبار من فضل المجتهدين ومن انفع اسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العباده فتلاحظ اقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول كنت اذا اعترتنى فتره فى العبادة نظرت الى احوال محمد بن واسع والى اجتهاده فعملت على ذلك اسبوعا الا أن هذا العلاج قد تعذر اذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الاولين فينبغى أن يعدل من المشاهدة الى السماع فلا شئ انفع من سماع احوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد وقد انقضى تعبهم وبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما اعظم ملكهم وما اشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتع نفسه اياما قلائل بشهوات مكدرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله من ذلك ونحن من اوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد فى الاجتهاد اقتدابهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله اقواما يحسبهم الناس مرضى وماهم بمرضى قال الحسن اجهدتهم العبادة قال الله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ويروى ان الله تعالى يقول لملائكته ما بال عبادى مجتهدين فيقولون الهنا خوفتهم شيأ فخافوه وشوقتهم الى شئ فاشتاقوا اليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف لو رآنى عبادى لكانوا اشد اجتهادا وقال الحسن ادركت اقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشئ من الدنيا اقبل ولا يتأسفون على شئ منها ادبر ولهى كانت اهون فى اعينهم من هذا التراب الذى تطؤنه بأرجلكم ان كان احدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر اهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الارض شيأ قط وادركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم اذا اجنهم الليل فقيام على اطرافهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم اذا عملوا الحسنة فرحوا بها وأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يتقبلها واذا عملوا السيئة احزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا الا بالمغفرة ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه واذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال عمر يا فتى

ما الذي بلغ بك ما أرى فقال يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض فقال سألتك بالله الا صدقتني فقال يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكأني انظر الى عرش ربي والناس يساقون الى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه وقال أبو نعيم كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له في ذلك فقال بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال ان في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال يا ابن اخي ان لي في البيت عشرين سنة ما نظرت الى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام وقال محمد بن عبد العزيز جلسنا الى أحمد بن رزين من غدوة الى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة فقيل له في ذلك فقال ان الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد الى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة وقالت امرأة مسروق ما كان يوجد مسروق الا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت والله ان كنت لاجلس خلفه فأبكي رحمة له وقال ابو الدرداء لولا ثلاث ما احببت العيش يوما واحدا الظمأ لله بالهواجر والسجود في جوف الليل ومجالسة اقوام ينتقون اطايب الكلام كما ينتقى اطايب الثمر وكان الاسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول كرامتها اريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط فدخل عليه انس بن مالك والحسن فقالا له ان الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا فقال انما انا عبد مملوك لا ادع من الاستكانة شيأ الا جئت به وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة حتى اقعد من رجليه فكان يصلي جالسا الف ركعة فاذا صلى العصر احتبى ثم قال عجبت للخليقة كيف ارادت بك بدلا منك عجبت للخليقة كيف انست بسواك بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك وكان ثابت البناني قد حبب اليه الصلاة فكان يقول اللهم ان كنت اذنت لاحد ان يصلي لك في قبره فائذن لي ان أصلي في قبري وقال الجنيد ما رأيت اعبد من السري أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعا الا في علة الموت وقال الحارث بن سعد مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك فقال وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقاة الاهوال وهم غافلون قد عكفوا على حظوظ انفسهم ونسوا حظهم الاكبر من ربهم فبكى القوم عن آخرهم وعن ابي محمد المغازلي قال جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند الى عمود ولا الى حائط ولم يمد رجليه فعبر عليه ابو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطني فاعانني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى متفكرا وعن بعضهم قال دخلت على فتح الموصلي فرأيته قد مد كفيه يبكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين اصابعه فدنوت منه فاذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت ولم بالله يا فتح بكيت الدم فقال لولا انك حلفتني بالله ما اخبرتك نعم بكيت دما فقلت له على ماذا بكيت الدموع فقال على تخلفي عن واجب

حق الله تعالى و بكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع قال فرأيته بعد موته في المنام فقلت ما صنع الله بك قال غفر لي فقلت له فماذا صنع في دموعك فقال قربني ربي عز وجل وقال لي يا فتح الدمع على ماذا قلت يارب على تخلفي عن واجب حقك فقال والدم على ماذا قلت على دموعي أن لا تصح لي فقال لي يا فتح ما اردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة وقيل ان قوما ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب منفرد عن الناس فنادوه فاشرف عليهم من صومعته فقالوا يا راهب انا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه الى السماء فعلم القوم ما اراد فقالوا يا راهب انا سائلوك فهل انت مجيبنا فقال سلوا ولا تكثروا فان النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث فعجب القوم من كلامه فقالوا يا راهب علام الخلق غدا عند مليكهم فقال على نياتهم فقالوا أوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فان خير الزاد ما بلغ البغية ثم ارشدهم الى الطريق وادخل رأسه في صومعته وقال عبد الواحد بن مزيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فاشرف علي وقال يا هذا ما أنا براهب انما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما انا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا اعقرهم فقلت يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله بعد ان عرفوه فقال يا اخي لم يقطع الخلق عن الله الا حب الدنيا وزينتها لانها محل المعاصي والذنوب والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب الى الله تعالى من ذنبه واقبل على ما يقربه من ربه وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال اني اذا لفارغ وكان اويس القرني يقول هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة واذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في سجدة وقيل لما تاب عتبه الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رفقت بنفسك قال الرفق اطلب دعيني اتعب قليلا واتنعم طويلا وحج مسروق فما نام قط الا ساجدا وقال سفيان الثوري عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى وقال عبد الله بن داود كان احدهم اذا بلغ اربعين سنة طوى فراشه أي كان لا ينام طول الليل وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم الف ركعة ثم يقول لنفسه قومي يا ماوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان يبكي ويقول ذهب نصف عملي وكانت ابنة الربيع بن خيثم تقول له يا ابت مالي ارى الناس ينامون وانت لا تنام فيقول يا ابنتاه ان اباك يخاف البيات ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته يا بني لعلك قتلت قتيلا قال نعم يا اماه قالت فمن هو حتى نطلب أهله فيعفوا عنك فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك فيقول يا اماه هي نفسي وعن عمر ابن اخت بشر بن الحارث قال سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لامي يا اختي جوفي وخواصري تضرب علي فقالت له امي يا اخي تاذن لي

حتى أصلح لك قليل حساء تكف دقيق عندي تحساه ثم تجوزه فقال لها وتحك أماه
ان تقول من أين لك هذا الدقيق فلا أدري ايش أقول له فبكت أمي وبكى معها وبكيت
معهم قال عمر ورأيت أمي ما تشير من شدة الجوع وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً فقالت له
امي يا أخي ليت امك لم تلدني فوالله تقطعت كبدي مما ارى بك فسمعته يقول لها وأنا
فليت امي لم تلدني واذ ولدتني لم تدر بي ثدياً علي قال عمر وكانت امي تبكي عليه الليل
والنهار وقال الربيع اتيت اويساً فوجدته جالساً قد صلى الفجر ثم جلس فجلست
فقلت لا اشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم قام الى الصلاة حتى
صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ثم
ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فغلبته عيناه فقال اللهم اني اعوذ بك من
عين نوامة ومن بطن لا تشبع فقلت حسبي هذا منه ثم رجعت ونظر رجل الى اويس
فقال يا أبا عبد الله مالي أراك كأنك مريض فقال وما لاويس أن لا يكون مريضاً يطعم
المريض واويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم وقال أحمد بن حرب يا عجباً
لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما وقال رجل من
النساك اتيت ابراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة
ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب الى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن
فوثب الى الصلاة ولم يحدث وضوأ فحاك ذلك في صدري فقلت له رحمك الله قد نمت الليل
كله مضطجعاً ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحياناً
وفي أودية النار أحياناً فهل في ذلك نوم وقال ثابت البناني ادركت رجالاً كان أحدهم
يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه الا حبواً وقيل مكث ابو بكر بن عياش أربعين سنة
لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في احدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله
وقيل كان ورد سمنون في كل يوم خمسمائة ركعة وعن أبي بكر المطوعي قال كان وردي
في شبيبتي كل يوم وليلة اقرأ فيه قل هو الله أحد احدا وثلاثين ألف مرة أو اربعين ألف مرة
شك الراوي وكان منصور بن المعتمر اذا رأيته قلت رجل اصيب بمصيبة منكسر الطرف
منخفض الصوت رطب العينين ان حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا
الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت لعلك يا بني اصبت نفساً قتلت
قتيلاً فيقول يا أمه انا اعلم بما صنعت بنفسي وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على
سهر الليل وظمأ الهواجر فقال هل هو الا اني صرفت طعام النهار الى الليل ونوم الليل الى
النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار
نام هاربها وكان اذا جاء الليل قال اذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فاذا جاء النهار
قال اذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي فاذا جاء الليل قال من خاف ادلج وعند الصباح
يحمد القوم السرى وقال بعضهم صحبت عامر بن عبد القيس اربعة اشهر فما رأيته نام
بليل ولا نهار ويروى عن رجل من اصحاب علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه انه قال
صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث

حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيأ يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا اذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله. وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون الكلال منك لا مني فاذا دخلته الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابتي وكان يقول أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحمنهم عليه زحاما حتى يعلموا انهم قد خلفوا وراءهم رجالا وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد مالو قيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا وكان اذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد واذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام وانه مات وهو ساجد وانه كان يقول اللهم اني احب لقاءك فاحب لقائي وقال القاسم بن محمد غدوت يوما وكنت اذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها اسلم عليها فغدوت يوما اليها فاذا هي تصلي صلاة الضحى وهي تقرأ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وتبكي وتدعو وتردد الآية فقمت حتى مللت وهي كما هي فلما رأيت ذلك ذهبت الى السوق فقلت افرغ من حاجتي ثم ارجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو وقال محمد بن اسحاق لما ورد علينا عبد الرحمن بن الاسود حاجا اعتلت احدى قدميه فقام يصلي على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء وقال بعضهم ما أخاف من الموت الا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه سيما الصالحين صفرة الالوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين وقيل للحسن ما بال المتهجدين احسن الناس وجوها فقال لانهم خلوا بالرحمن فالبسهم نورا من نوره وكان عامر بن عبد القيس يقول الهي خلقتني ولم تؤامرني وتميتني ولا تعلمني وخلقت معي عدوا وجعلته يجري مني مجرى الدم وجعلته يراني ولا اراه ثم قلت لي استمسك الهي كيف استمسك ان لم تمسكني الهي في الدنيا الهموم والاحزان وفي الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرج وقال جعفر بن محمد كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان اذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ثم وضع راسه بين ركبتيه يتفكر فاذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد فحدثت به بعض البصريين فقال لا تنظر الى صياحه ولكن انظر الى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح وعن القاسم بن راشد الشيباني قال كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب وكان له اهل وبنات وكان يقوم فيصلي ليلا طويلا فاذا كان السحر نادى بأعلى صوته ايها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون افلا تقومون فترحلون فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارئ ومن ههنا

متوحش فاذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى وقال بعض الحكماء
ان لله عبادا انعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فاطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق
والامر اليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن
للقدرة فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول فى الملكوت وتلوذ بمحجوب
الغيوب ثم ترجع ومعها طرائف من لطائف الفوائد ومالا يمكن واصف ان يصفه فهم
فى باطن امورهم كالديباج حسنا وهم فى الظاهر مناديل مبتذلون لمن ارادهم تواضعا
وهذه طريقة لا يبلغ اليها بالتكلف وانما هو فضل الله يؤتيه من يشاء وقال بعض السائحين
بينما انا اسير فى بعض جبال بيت المقدس اذ هبطت الى واد هنالك فاذا انا بصوت قد علا
واذا لتلك الجبال تجيبه لها دوى فقال فاتبعت الصوت فاذا انا بروضة عليها شجر ملتف
واذا انا برجل قائم فيها يردد هذه الآية يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا الى قوله
ويحذركم الله نفسه قال فجلست خلفه اسمع كلامه وهو يردد هذه الآية اذ صاح صيحة
خر مغشيا عليه فقلت وا أسفاه هذا لشقائى ثم انتظرت افاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته
وهو يقول اعوذ بك من مقام الكذابين اعوذ بك من أعمال البطالين اعوذ بك من
اعراض الغافلين ثم قال لك خشعت قلوب الخائفين واليك فزعت آمال المقصرين
ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يده فقال مالى وللدنيا وما للدنيا ولى عليك
يا دنيا بأبناء جنسك وألاف نعيمك الى محبيك فاذهبى واياهم فاخدعى ثم قال أين
القرون الماضية واهل الدهور السالفة فى التراب يبلون وعلى الزمان يفنون فناديته
يا عبد الله انا منذ اليوم خلفك انتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من يبادر الاوقات
وتبادره يخاف سبقها بالموت الى نفسه ام كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه
ثم قال انت لها ولكل شدة اتوقع نزولها ثم لها عنى ساعة وقرأ وبدا لهم من الله مالم يكونوا
يحتسبون ثم صاح صيحة اخرى اشد من الاولى وخر مغشيا عليه فقلت قد خرجت روحه
فدنوت منه فاذا هو يضطرب ثم افاق وهو يقول من انا ما خطرى هب لى اساءتى من
فضلك وجللنى بسترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك اذا وقفت بين يديك فقلت له
بالذى ترجوه لنفسك وتثق به الا كلمتنى فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام
من اوبقته ذنوبه انى لفى هذا الموضع مذ شاء الله اجاهد ابليس ويجاهدنى فلم يجد عونا
على ليخرجنى مما انا فيه غيرك فاليك عنى يا مخدوع فقد عطلت على لسانى وميلت الى
حديثك شعبة من قلبى وانا اعوذ بالله من شرك ثم ارجوان يعيذنى من سخطه ويتفضل
على برحمته قال فقلت هذا ولى لله اخاف ان اشغله فاعاقب فى موضعى هذا فانصرفت
وتركته وقال بعض السائحين بينما انا اسير فى مسيرى اذ ملت الى شجرة لاستريح تحتها
فاذا انا بشيخ قد اشرف على فقال لى يا هذا قم فان الموت لم يمت ثم هام على وجهه فاتبعته
فسمعته وهو يقول كل نفس ذائقة الموت اللهم بارك لى فى الموت فقلت وفيما بعد الموت
فقال من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ثم قال يا من
لوجهه عنت الوجوه بيض وجهى بالنظر اليك واملأ قلبى من المحبة لك وأجرنى من ذل

التوبيخ غدا عندك فقد آن لى الحياء منك وحان لى الرجوع عن الاعراض عنك ثم قال لولا حلمك لم يسعنى اجلى ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك املى ثم مضى وتركنى وقد انشدوا فى هذا المعنى

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد * تراه بقنة أو بطن واد *
ينوح على معاص فاضحات * يكدر ثقلها صفو الرقاد *
فان هاجت مخاوفه وزادت * فدعوته أغثنى يا عمادى *
فأنت بما ألاقيه عليم * كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل ايضا

الذمن التلذذ بالغوانى * اذا اقبلن فى حلل حسان
منيب فر من اهل ومال * يسيح الى مكان من مكان
ليخمل ذكره ويعيش فردا * ويظفر فى العبادة بالامان
تلذذه التلاوة اين ولى * وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير * يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما اراد وما تمنى * من الراحات فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقيل له قد اجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا فقيل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامه فقيل خمسون ألف سنة فقال كيف يعجز احدكم ان يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعنى انك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلص من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا فيكف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة وطالع أحوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع فى القلب وابعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة واذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء فان لم تكن ابل فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون فى زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذو والبصائر فى الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترض لها ان تنخرط فى سلك الحمق وتقنع بالتشبه بالاغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فان حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستنكفى ان تكونى أقل من امرأة فأخسس برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات فقد روى عن حبيبة العدوية انها كانت اذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت الهى قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك ابوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم تقبل على صلاتها فاذا طلع الفجر قالت الهى هذا الليل قد ادبر وهذا النهار قد اسفر

فليت شعري اقبلت مني ليلتي ام رددتها على فاعزي وعزتك انه سدادا بي ودأبك
ما ابقيتني وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحته لما وقع في نفسي من جودك وكرمك
ويروى عن عجرة انها كانت تحيي الليل وكانت مكفوفة البصر فاذا كان في السحر نادت
بصوت لها محزون اليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون الى رحمتك وفضل
مغفرتك فبك يا الهي اسألك لا بغيرك ان تجعلني في اول زمرة السابقين وان ترفعني
لديك في عليين في درجة المقربين وان تلحقني بعبادك الصالحين فانت ارحم الرحماء
واعظم العظماء واكرم الكرماء يا كريم ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو
وتبكي الى الفجر وقال يحيى بن بسطام كنت اشهد مجلس شعوانة وكنت ارى ما تصنع من
النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لو اتيناها اذا خلت فامرناها بالرفق بنفسها فقال انت
وذاك قال فاتيناها فقلت لها لو رفقت بنفسك واقصرت عن هذا البكاء شيأ فكان لك
اقوى على ما تريدين قال فبكت ثم قالت والله لوددت اني ابكي حتى تنفد دموعي ثم ابكي
دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي واني لي بالبكاء واني لي بالبكاء فلم
تزل تردد واني لي بالبكاء حتى غشي عليها وقال محمد بن معاذ حدثتني امرأة من المتعبدات
قالت رأيت في منامي كاني ادخلت الجنة فاذا اهل الجنة قيام على ابوابهم فقلت ما شأن
اهل الجنة قيام فقال لي قائل خرجوا ينظرون الى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها
فقلت ومن هذه المرأة فقيل امة سوداء من اهل الابلة يقال لها شعوانة قالت فقلت اختي
والله قالت فبينا انا كذلك اذا اقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت
يا اختي اما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فالحقني بك قالت فتبسمت الي
وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين الزمي الحزن قلبك وقدمي محبة الله
على هواك ولا يضرك متى مت وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنت
بها معجبا فكانت في بعض الليالي نائمة الى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم اجدها فقمت اطلبها
فاذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي الا ما غفرت لي ذنوبي فقلت لها لا تقولي بحبك لي
ولكن قولي بحبي لك فقالت لا يا مولاي بحبه لي اخرجني من الشرك الى الاسلام وبحبه
لي ايقظ عيني وكثير من خلقه نيام وقال ابو هاشم القرشي قدمت علينا امرأة من اهل
اليمن يقال لها سرية فنزلت في بعض ديارنا قال فكنت اسمع لها من الليل انينا وشهيقا
فقلت يوما لخادمي اشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فاشرف عليها فما رآها تصنع
شيأ غير انها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول خلقت سرية ثم غذيتها
بنعمتك من حال الى حال وكل احوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل وهي مع
ذلك متعرضة لسخطك بالوثوب على معاصيك فلتة بعد فلتة اتراها تظن انك لا ترى سوء
فعالها وانت عليم خبير وانت على كل شيء قدير وقال ذو النون المصري خرجت ليلة
من وادي كنعان فلما علوت الوادي اذا سواد مقبل علي وهو يقول وبدا لهم من الله ما لم
يكونوا يحتسبون ويبكي فلما قرب مني السواد اذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها
ركوة فقالت لي من انت غير فزعة مني فقلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل يوجد مع

الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت لى ما الذى ابكاك فقلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع فى نجاحه قالت فان كنت صادقا فلم بكيت قلت يرحمك الله والصادق لا يبكى قالت لا قلت ولم ذاك قالت لان البكاء راحة القلب فسكت متعجبا من قولها وقال احمد بن على استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهى تقول اللهم انى اعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا امة الله ادعى لنا فقالت جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلمى اربعين سنة فكان لا ينظر الى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشيا عليه فأصابه فتق فى بطنه فيا ليت عفيرة اذا رفعت رأسها لم تعص ويا ليتها اذا عصت لم تعد وقال بعض الصالحين خرجت يوما الى السوق ومعى جارية حبشية فاحتبستها فى موضع بناحية السوق وذهبت فى بعض حوائجى وقلت لا تبرحى حتى انصرف اليك قال فانصرفت فلم أجدها فى الموضع فانصرفت الى منزلى وانا شديد الغضب عليها فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى فقالت يا مولاى لا تعجل علىّ انك اجلستنى فى موضع لم ار فيه ذاكرا لله تعالى فخفت ان يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها انت حرة فقالت ساء ما صنعت كنت اخدمك فيكون لى اجران واما الآن فقد ذهب عنى احدهما ٭ وقال بن العلاء السعدى كانت لى ابنة عم يقال لها بريرة تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف فكلما اتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا الى هذه المرأة حتى نعذلها فى كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت قالت اصبحنا أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت ان يكن لعينى عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما فى الدنيا وان كان لهما عند الله شر فسيزيدها بكاء اطول من هذا ثم اعرضت قال فقال القوم قوموا فهى والله فى شئ غير ما نحن فيه ٭ وكانت معاذة العدوية اذا جاء النهار تقول هذا يومى الذى اموت فيه فما تطعم حتى تمسى فاذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى اموت فيها فتصلى حتى تصبح وقال ابو سليمان الدارانى بت ليلة عند رابعة فقامت الى محراب لها وقمت انا الى ناحية من البيت فلم تزل قائمة الى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت جزاؤه أن نصوم له غدا وكانت شعوانة تقول فى دعائها الهى ما اشوقنى الى لقائك واعظم رجائى لجزائك وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين الهى ان كان دنا اجلى ولم يقربنى منك عملى فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى فان عفوت فمن أولى منك بذلك وان عذبت فمن اعدل منك هنالك الهى قد جرت على نفسى فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك فالويل لها ان لم تسعدها الهى انك لم تزل بى برا ايام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى باحسانه أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه الهى كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى الا الجميل فى حياتى الهى ان كانت ذنوبى قد أخافتنى فان محبتى لك

قد أجاز بي فتول من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله إلهي لو أردت إهانتي لما هديتني ولو أردت فضيحتي لم تسترني فمتعني بما له هديتني وأدم لي ما به سترتني إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت وكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر قال فشهقت ثم قالت علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيئاً مذكوراً ثم أقبلت على صلاتها فلعلك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم والمصيبة إذا عمت طابت فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل لها أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تخلصين بها من الغرق فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها أن ترجع عن طغيانها

(المرابطة السادسة) في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس

المطمئنه

المطمئنة المدعوة الى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلنّ ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها اولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل اولا بوعظ نفسك اوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي منى وقال تعالى وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين وسبيلك أن تقبل عليها فتقرّر عندها جهلها وغباوتها وأنها ابدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتدّ انفها واستنكافها اذا نسبت الى الحمق فتقول لها يا نفس ما اعظم جهلك تدّعين الحكمة والذكاء والفطنة وانت اشدّ الناس غباوة وحمقا أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة الى احداهما على القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وانت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين اوغدا فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس بآت أما تعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لا يأتى فى شئ دون شئ ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل دون نهار ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ولا فى الشباب دون الصبا بل كل نفس من الانفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فان لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضى الى الموت فمالك لا تستعدّين للموت وهو أقرب اليك من كل قريب أما تتدبرين قوله تعالى اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ويحك يا نفس ان كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما اعظم كفرك وان كان مع علمك باطلاعه عليك فما اشدّ وقاحتك وأقلّ حياءك ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل اخ من اخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأىّ جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه افتظنين انك تطيقين عذابه هيهات هيهات جرّبى نفسك ان ألهاك البطر عن الم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس او فى بيت الحمام أو قرّبى اصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك ام تغترّين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فمالك لا تعوّلين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك فاذا قصدك عدوّ فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ولا تكلينه الى كرم الله تعالى واذا ارهقتك حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى الا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لا تعوّلين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز او يسخر عبدا من عبيده فيحمل اليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب افتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للانسان الا ما سعى ويحك يا نفس ما اعجب نفاقك ودعاويك الباطلة فانك تدّعين الايمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها وقال فى امر الآخرة وأن ليس للانسان الا ما سعى فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن

السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت منكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ووكلت امر الآخرة الى سعيك فأعرضت عنها اعراض المغرور المستخف وما هذا من علامات الايمان لو كان الايمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الاسفل من النار ويحك يا نفس كانك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين انك اذا مت انفلت وتخلصت وهيهات أتحسبين انك تتركين سدى ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى فان كان هذا من اضمارك فما أكفرك وأجهلك أما تتفكرين انه مماذا خلقك من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ثم اماتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله ثم اذا شاء انشرك فان لم تكوني مكذبة فمالك لا تأخذين حذرك ولو أن يهوديا اخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفكان قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة اقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم والعجب انه لو اخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفكان قول الانبياء والعلماء والحكماء وكافة الاولياء اقل عندك من قول صبي من جملة الاغبياء أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها احقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها الا يوما او أقل منه ما هذه افعال العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فماذا أمنت استعجال الاجل وهبك انك وعدت بالامهال مائة سنة افتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ان ظننت ذلك فما اعظم جهلك أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلا بطالا يعد نفسه بالتفقه في السنة الاخيرة عند رجوعه الى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة او حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه ثم هب أن الجهد في آخر العمر نافع وانه موصل الى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك فان اوحي اليك بالامهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب الا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة أفتنتظرين يوما يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط الا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوما كان له حكم الامس لا بل تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه اعجز وأعجز لان الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها فاذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي فأخرها الى سنة اخرى مع العلم بأن طول المدة

يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والقضيب الرطب يقبل الانحناء فاذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فاذا كنت ايتها النفس لا تفهمين هذه الامور الجلية وتركنين الى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة الاحرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات فما اشد غباوتك واقبح اعتذارك ان كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة ابد الآباد ولا مطمع في ذلك الا في الجنة فان كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فرب اكلة تمنع اكلات وما قولك في عقل مريض اشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة ايام ليصح ويتهيأ لشربه طول عمره وأخبره انه ان شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أيصبر ثلاثة ايام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة ايام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالاضافة الى الابد الذي هو مدة نعيم اهل الجنة وعذاب اهل النار أدلّ من ثلاثة ايام بالاضافة الى جميع العمر وان طالت مدته وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات اعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك الا لكفر خفيّ او لحمق جليّ أما الكفر الخفيّ فهو ضعف ايمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب وأما الحمق الجليّ فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات الى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع انك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أوحبة من المال او كلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين الى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرّك الحياة الدنيا ولا يغرّنك بالله الغرور فانظري لنفسك فما امرك بمهم لغيرك ولا تضيعي اوقاتك فالانفاس معدودة فاذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدّي للآخرة على قدر بقائك فيها يا نفس أما تستعدّين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الاسباب ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فانه قادر على ذلك أفتظنين ايتها النفس أن زمهرير جهنم اخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ام تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك او أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة افتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي هيهات كما لا يندفع برد الشتاء الا بالجبة والنار وسائر الاسباب فلا يندفع حرّ النار وبردها الا بحصن التوحيد

وتحقيق الطاعات وإنما كرم الله تعالى في أن عرّفك طريق التحصين ويسر لك أسبابه لا في أن يدفع عنك العذاب دون جنته كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفع بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وإنما تشتريه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غنيّ عن العالمين ويحك يا نفس انزعي عن جهلك وقيسي آخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نعيده وكما بدأكم تعودون وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا ويحك يا نفس ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين في نفسك مودتها فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرّق بينك وبين محابك أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطرّ لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك وما لك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزيّ به وعش ما شئت فإنك ميت ويحك يا نفس أما تعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لا يدري أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما تريهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويأملون ما لا يدركون يبني كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقرّه قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعا أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتدا فقيسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا واقتدي من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء يا نفس ما أعجب أمرك وأشدّ جهلك وأظهر طغيانك عجبا لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى

أكثر

أكثر من خمسين سنة ان بقي هذا ان كنت ملكا من ملوك الارض سلم لك المشرق والمغرب حتى اذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الاسباب كيف ويأبى ادبارك وشقاوتك أن يسلم لك امر محلتك بل امر دارك فضلا عن محلتك فان كنت يانفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فمالك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيا من سرعة فنائها ام مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ومالك تفرحين بدنيا ان ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها فاف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الاخساء فما اجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك اذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين في جوار رب العالمين ابد الآبدين لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين ايا ما قلائل فيا حسرة عليك اذ خسرت الدنيا والدين فبادري ويحك يانفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ويحك يانفس مالك الا ايام معدودة هي بضاعتك ان اتجرت فيها وقد ضيعت اكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف اذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك أما تعلمين يانفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الاكبر بين يديك أما علمت يانفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على انفسهم كلهم بالايمان المغلظة انهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم أما تعلمين يانفس انهم يتمنون الرجعة الى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وانت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وانت تضيعين ايامك في الغفلة والبطالة ويحك يانفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم افتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ويحك اهو أهون الناظرين عليك اتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين الى الله وانت عنه فارة وتذكرين بالله وانت له ناسية أما تعلمين يانفس أن المذنب انتن من العذرة وان العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ويحك يانفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء الا بشؤمك ويحك يانفس قد جعلت نفسك حمارا لابليس يقودك الى حيث يريد ويسخر بك ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح في يديك وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله ابليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ويحك يانفس ما اغدرك ويحك يانفس ما اوقحك ويحك يانفس ما اجهلك وما اجرأك على المعاصي ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك يانفس اتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين الى اهل القبور كيف كانوا

جمعوا كثيرا وسوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك اليهم نظرة أتظنين انهم دعوا الى الآخرة وانت من المخلدين هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما انت الا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن امك فابني على وجه الارض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك أما تخافين اذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربك منحدرة اليك بسواد الالوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم او يقبل منك الحزن او يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس انك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك انك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك فكم من مستقبل يوما لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فانت تشاهدين ذلك في اخوانك واقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذري ايتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا امره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله وبأي لسان تجيبين وأعدي للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملي بقية عمرك في ايام قصار لايام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود اعملي قبل أن لا تعملي اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الاحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله انه من وقود النار فليكن نظرك يا نفس الى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما اوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي وينهى الناس ولا ينتهي واعلمي يا نفس انه ليس للدين عوض ولا للايمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يسر فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار وما اراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية فان كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام فان لم تزل فبالمواظبة على الصيام فان لم تزل فبقلة المخالطة والكلام فان لم تزل فبصلة الارحام واللطف بالايتام فان لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك واقفل عليه وانه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطني نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها اهلا وخلق النار وخلق لها اهلا فكل ميسر لما خلق له فان لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك فلا سبيل لك الى القنوط ولا سبيل لك الى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فان سمحت فمستقى

الدمع

الدمع من بحر الرحمة فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستغيثي بأرحم الراحمين واشتكي الى اكرم الاكرمين وأدمني الاستغاثة ولا تملي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك و يغيثك فان مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل و راحت عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا الا الى مولاك فافزعي اليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لانه يرحم المتضرع الذليل و يغيث الطالب المتلهف و يجيب دعوة المضطر وقد أصبحت اليه اليوم مضطرة والى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والمسؤل جواد والمستغاث به بر رؤف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولي يا ارحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم انا المذنب المصر أنا الجرئ الذى لا اقلع انا المتمادى الذى لا استحي هذا مقام المتضرع المسكين و البائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل اغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوة عصمتك يا ارحم الراحمين اقتداء بأبيك آدم عليه السلام فقد قال وهب بن منبه لما اهبط الله آدم من الجنة الى الارض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظم منكس رأسه فأوحى الله تعالى اليه يا آدم ماهذا الجهد الذى ارى بك قال يارب عظمت مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي واخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لا ابكي على خطيئتي فأوحى الله تعالى اليه يا آدم ألم اصطفك لنفسي وأحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي الم اخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي واسجدت لك ملائكتي فعصيت امري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي فوعزتي وجلالي لوملأت الارض رجالا كلهم مثلك يعبدونني ويسبحونني ثم عصوني لانزلتهم منازل العاصين فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام وكان عتبة الغلام كثير البكاء يقول في بكائه طول ليله الهي انا الذى كلما طال عمري زادت ذنوبي انا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى واعتبداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى واعتبداه ان كانت النار لك مقيلا ومأوى واعتبداه ان كانت المقامع لرأسك تهيأ واعتبداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى وقال منصور بن عمار سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابدا يناجي ربه وهو يقول يارب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك اذ عصيتك وانا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لي نفسي واعانني على ذلك شقوتي وغرني سترك المرخى على فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من اعتصم أن قطعت حبلك عني واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا اذا قيل للمخفين جوزوا وقيل

للمقلين حظوا أم مع المحبين أجور أم مع المقلين أحط ويلي كلما كبرت سني كثرت
ذنوبي ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي فإلى متى أتوب وإلى متى أعود أما آن لي أن
أستحيي من ربي فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم
من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة
والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام تم
كتاب المحاسبة والمراقبة يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته
على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

(كتاب التفكر وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاء عزته نحوا ولا قطرا، ولم يجعل لمراقي أقدام الأوهام ومرامي
سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى، بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة
حيرى، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا، وإذا همت بالانصراف
آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا، ثم قيل لها أجيلي في ذل العبودية منك
فكرا، لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدرا، وإن طلبت وراء الفكر
في صفاتك أمرا فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى، وجددي
لكل نعمة منها ذكرا وشكرا، وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا
وشرا، ونفعا وضرا، وعسرا ويسرا، وفوزا وخسرا، وجبرا وكسرا، وطيا ونشرا،
وإيمانا وكفرا، وعرفانا ونكرا، فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد
حاولت أمرا إمرا، وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا، فقد انبهرت
العقول دون مبادي إشراقه وانتكصت على أعقابها اضطرارا وقهرا، والصلاة على محمد
سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته فخرا، صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدة وذخرا،
وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرا، ولطوائف المسلمين
صدرا، وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فقد وردت السنة بأن تفكر ساعة خير من عبادة
سنة، وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار، ولا
يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة
المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته، لكن جهلوا حقيقته وثمرته
ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته، ولم يعلموا أنه كيف يتفكر وفيما
ذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه فإن كان
لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعا، وكشف جميع ذلك مهم،
ونحن نذكر أولا فضيلة التفكر ثم حقيقة التفكر وثمرته ثم مجاري الفكر ومسارحه إن
شاء الله تعالى

(فضيلة التفكر)

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى واثنى على المتفكرين فقال تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ان قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال ما لكم لا تتكلمون فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فان بهذا المغرب ارضا بيضاء نورها بياضها او بياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين قالوا يا رسول الله فأين الشيطان منهم قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا امن ولد آدم قال لا يدرون خلق آدم أم لا وعن عطاء قال انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير الى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم زر غبا تزدد حبا قال ابن عمير فأخبرينا بأعجب شئ رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت وقالت كل أمره كان عجبا أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال ذريني اتعبد لربي عز وجل فقام الى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الارض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى علي في هذه الليلة ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها فقيل للاوزاعي ما غاية التفكر فيهن قال يقرؤهن ويعقلهن وعن محمد بن واسع ان رجلا من أهل البصرة ركب الى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة ابي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة وعن الفضيل قال الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك وقيل لابراهيم انك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بقول القائل

اذا المرء كانت له فكرة * ففي كل شئ له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى ابن مريم يا روح الله هل على الارض اليوم مثلك فقال نعم من كان منطقه ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلي وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو وفي قوله تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق قال امنع قلوبهم التفكر في أمري وعن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطوا أعينكم حظها من العبادة فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة قال النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة انها قالت لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها الى ما قد ادخر لها في

حب العيب من خير الآخرة لم اصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم في الدنيا عين وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان انك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان ان طول الوحدة افهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه ما طالت فكرة امرئ قط الا علم وما علم امرؤ قط الا عمل وقال عمر بن عبد العزيز الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة وقال عبد الله بن المبارك يوما لسهل بن علي ورآه ساكتا متفكرا أين بلغت قال الصراط وقال بشر لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل وعن ابن عباس ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب وبينا أبو شريح يمشي اذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقلنا ما يبكيك قال تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي وقال أبو سليمان عودوا اعينكم البكاء وقلوبكم التفكر وقال أبو سليمان الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب وقال حاتم من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف وقال ابن عباس التفكر في الخير يدعو الى العمل به والندم على الشر يدعو الى تركه ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه اني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن انظر الى همه وهواه فاذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وان لم يتكلم وقال الحسن ان أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة وقال اسحاق بن خلف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات والارض وهو ينظر الى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف وظن انه لص فلما نظر الى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح قال ما شعرت بذلك وقال الجنيد اشرف المجالس واعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن بالله عز وجل ثم قال يا لها من مجالس ما اجلها ومن شراب ما الذه طوبى لمن رزقه وقال الشافعي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال أيضا صحة النظر في الامور نجاة من الغرور والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم وقال أيضا الفضائل اربع احداها الحكمة وقوامها الفكرة والثانية العفة وقوامها في الشهوة والثالثة القوة وقوامها في الغضب والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها

(بيان حقيقة الفكر وثمرته)

اعلم أن معنى الفكر هو احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثاله أن

من

من مال الى العاجلة واثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالايثار من العاجلة فله طريقان احدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالايثار فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الامر فيميل بعمله الى ايثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة والطريق الثانى أن يعرف أن الابقى أولى بالايثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالايثار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالايثار الا بالمعرفتين السابقتين فاحضار المعرفتين السابقتين فى القلب للتوصل به الى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتأملا وتدبرا أما التدبر والتأمل والتفكر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهى مختلفة المعانى وان كان أصل المسمى واحدا كما أن اسم الصارم والمهند والسيف يتوارد على شئ واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والمهند يدل عليه من حيث نسبته الى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير اشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على احضار المعرفتين من حيث انه يعبر منهما الى معرفة ثالثة وان لم يقع العبور ولم يمكن الا الوقوف على المعرفتين فيطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث ان فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحى عن القلب وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر والمعارف اذا اجتمعت فى القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص اثمرت معرفة أخرى فالمعرفة نتاج المعرفة فاذا حصلت معرفة اخرى وازدوجت مع معرفة اخرى حصل من ذلك نتاج آخر وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر الى غير نهاية وانما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت او بالعوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدى الى طريق التفكر واما اكثر الناس فانما منعوا الزيادة فى العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التى بها تستثمر العلوم كالذى لا بضاعة له فانه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وايقاع الازدواج المفضى الى النتاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور الهى فى القلب يحصل بالفطرة كما كان للانبياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جدا وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الاكثر ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير فى الايراد فكم من انسان يعلم أن الآخرة أولى بالايثار علما حقيقيا ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على ايراده والتعبير عنه مع انه لم تحصل معرفته الا عن المعرفتين السابقتين وهو أن الابقى أولى بالايثار وان الآخرة أبقى من الدنيا فتحصل

له معرفة ثالثة وهو ان الآخرة أولى بالايثار فرجع حاصل حقيقة الفكر الى احضار معرفتين للوصول بهما الى معرفة ثالثة وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير نعم اذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب واذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر فالفكر اذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة الفكر وانه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر فاذا التفكر أفضل من جملة الاعمال ولذلك قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فقيل هو الذي ينقل من المكاره الى المحاب ومن الرغبة والحرص الى الزهد والقناعة وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا وان أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة فان الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالايثار فاذا رسخت هذه المعرفة يقينا في قلوبنا تغيرت القلوب الى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال اذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل اليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت ارادته ورغبته ثم أثمر تغير الارادة أعمال الجوارح في اطراح الدنيا والاقبال على أعمال الآخرة فههنا خمس درجات أولاها التذكر وهو احضار المعرفتين في القلب وثانيها التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب ما تجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل الى ما لم يكن يميل اليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند ادراك البصر ما لم يكن يبصره فاذا ثمرة الفكر العلوم والأحوال والعلوم لا نهاية لها والأحوال التي يتصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالاضافة الى مهمات العلوم الدينية وبالاضافة الى الأحوال التي هي مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جمليا فان تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فانها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من افكار مخصوصة فلنشر الى ضبط المجامع فيها ليحصل الوقوف على مجاري الفكر

بيان

(بيان مجارى الفكر)

اعلم أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين وانما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر ونعنى بالدين المعاملة التى بين العبد وبين الرب تعالى فجميع أفكار العبد اما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله واما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين وما يتعلق بالعبد اما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى او فيما هو مكروه ولا حاجة الى الفكر فى غير هذين القسمين وما يتعلق بالرب تعالى اما أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى واما أن يكون فى افعاله وملكه وملكوته وجميع ما فى السموات والارض وما بينهما وينكشف لك انحصار الفكر فى هذه الاقسام بمثال وهو أن حال السائرين الى الله تعالى والمشتاقين الى لقائه يضاهى حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثالا لنا فنقول العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه او يتعلق بنفسه فان تفكر فى معشوقه فاما ان يتفكر فى جماله وحسن صورته فى ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته واما أن يتفكر فى افعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا للذته ومقويا لمحبته وان تفكر فى نفسه فيكون فكره فى صفاته التى تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها او فى الصفات التى تقربه منه وتحببه اليه حتى يتصف بها فان تفكر فى شئ خارج عن هذه الاقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لان العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفى القلب حتى لا يترك فيه متسعا لغيره فمحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه ومهما كان تفكره محصورا فى هذه الاقسام الاربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلنبدأ بالقسم الاول وهو تفكره فى صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم المعاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله او محبوب ينقسم الى ظاهر كالطاعات والمعاصى والى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التى محلها القلب وذكرنا تفصيلها فى ربع المهلكات والمنجيات والطاعات والمعاصى تنقسم الى ما يتعلق بالاعضاء السبعة والى ما ينسب الى جميع البدن كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون فى المسكن الحرام ويجب فى كل واحد من المكاره التفكر فى ثلاثة أمور الاول التفكر فى أنه هل هو مكروه عند الله أم لا فرب شئ لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر والثانى التفكر فى انه ان كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه والثالث أن هذا المكروه هل هو متصف به فى الحال فيتركه أو هو متعرض له فى الاستقبال فيحترز عنه او قارفه فيما مضى من الاحوال فيحتاج الى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم الى هذه الانقسامات فاذا جمعت هذه الاقسام زادت مجارى الفكر فى هذه الاقسام على مائة والعبد مدفوع الى الفكر اما فى جميعها او فى اكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات

يطول ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات فلنذكر في كل نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرها و ينفتح له باب الفكر و يتسع عليه طريقه * (النوع الأول المعاصي) * ينبغي أن يفتش الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلاً ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أولا بسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم او هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول انه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني الى غير ذلك من المكاره فيقرر اولا في نفسه انها مكروهة عند الله تعالى و يتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في أحواله انه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر انه كيف يحترز منه و يعلم انه لا يتم له ذلك الا بالعزلة والانفراد او بأن لا يجالس الا صالحا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله والا فيضع حجرا في فيه اذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز و يتفكر في سمعه انه يصغي به الى الغيبة والكذب وفضول الكلام والى اللهو والبدعة وأن ذلك انما يسمعه من زيد ومن عمرو وانه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال او بالنهي عن المنكر فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه انه انما يعصي الله تعالى فيه بالاكل والشرب اما بكثرة الاكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله ومقوٍ للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله واما بأكل الحرام والشبهة فينظر من اين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه ويتفكر في طريق الحلال ومداخله ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام و يقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام وان أكل الحلال هو اساس العبادات كلها وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر في اعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الاحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الاعضاء عنها * (وأما النوع الثاني وهو الطاعات) * فينظر اولا في الفرائض المكتوبة عليه انه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يرجع الى عضو عضو فيتفكر في الافعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلا ان العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والارض عبرة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قادر على أن اشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله وأنا قادر على أن أنظر الى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وانظر الى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله وكذلك يقول في سمعه اني قادر على استماع كلام ملهوف او استماع حكمة وعلم او استماع قراءة وذكر فمالي اعطله وقد أنعم الله علي به وأودعنيه لأشكره فمالي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله وكذلك يتفكر في اللسان ويقول اني قادر على أن أتقرب الى الله تعالى

بالتعليم

بالتعليم والوعظ والتودد الى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن احوال الفقراء وادخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فانها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فاني مستغن عنه ومهما احتجت اليه رزقني الله تعالى مثله وان كنت محتاجا الآن فأنا الى ثواب الايثار أحوج مني الى ذلك المال وهكذا يفتش عن جميع اعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلمانه وأولاده فان كل ذلك ادواته واسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها او يتفكر فيما يرغبه في البدار الى تلك الطاعات ويتفكر في اخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات (وأما النوع الثالث فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب) فيعرفها مما ذكرناه في ربع المهلكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات فان ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه فان النفس أبدا تعد بالخير من نفسها وتخلف فاذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق كما كان الاولون يجربون به انفسهم واذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في انه هل هو موصوف بالصفة المكروهة ام لا ولذلك علامات ذكرناها في ربع المهلكات فاذا دلت العلامة على وجودها فكر في الاسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة كما لو رأى في نفسه عجبا بالعمل فيتفكر ويقول انما عملي ببدني وجارحتي وبقدرتي وارادتي وكل ذلك ليس مني ولا الي وانما هو من خلق الله وفضله علي فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي وارادتي وهو الذي حرك اعضاءى بقدرته وكذلك قدرتي وارادتي فكيف اعجب بعملي او بنفسي ولا اقوم لنفسي بنفسي فاذا احس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها لم ترين نفسك اكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت وكم من كافر في الحال يموت مقربا الى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة فاذا عرف أن الكبر مهلك وان أصله الحماقة فيتفكر في علاج ازالة ذلك بان يتعاطى أفعال المتواضعين واذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الشره عليه اغلب كان بالبهائم اشبه وعن الملائكة المقربين ابعد وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب * (وأما النوع الرابع وهو المنجيات) * فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والاخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه

والرضى بافعاله والسوق اليه والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا
اسبابه وعلاماته فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي
المقربة الى الله تعالى فاذا افتقر الى شئ منها فليعلم ان الاحوال لا يثمرها الا علوم وان العلوم
لا يثمرها الا افكار فاذا اراد ان يكتسب لنفسه احوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه اولا
وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي
ورد في الشرع فيها وليحقق عند نفسه انه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال
الندم واذا اراد ان يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في احسان الله اليه واياديه عليه
وفي ارسال جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك * واذا
اراد حال المحبة والشوق فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في
عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير الى طرف منه في القسم الثاني من الفكرة واذا اراد
حال الخوف فلينظر اولا في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما
بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه ثم في هول النداء عند
نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في المناقشة في
الحساب والمضايقة في النقير والقطمير ثم في الصراط ودقته وحدته ثم في خطر الامر عنده
انه يصرف الى الشمال فيكون من اصحاب النار او يصرف الى اليمين فينزل دار القرار ثم
ليحضر بعد اهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها واهوالها وسلاسلها
واغلالها وزقومها وصديدها وانواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها وانهم كلما
نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها وانهم كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وانهم اذا
رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرا الى جميع ما ورد في القرآن من
شرحها * واذا اراد ان يستجلب حال الرجاء فلينظر الى الجنة ونعيمها واشجارها وانهارها
وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم
التي تثمر اجتلاب احوال محمودة او التنزه عن صفات مذمومة وقد ذكرنا في كل واحد
من هذه الاحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر اما ذكر مجامعه فلا يوجد
فيه انفع من قراءة القرآن بالتفكر فانه جامع لجميع المقامات والاحوال وفيه شفاء
للعالمين فيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الاحوال
وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغي ان يقرأه العبد ويردد الآية التي هو
محتاج الى التفكر فيها مرة بعد اخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير
تدبر وفهم فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها اسرارا لا تنحصر
ولا يوقف عليها الا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة وكذلك مطالعة
اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد اوتي جوامع الكلم وكل كلمة من كلماته بحر
من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد
الآيات والاخبار يطول فانظر الى قوله صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث في
روعي احبب من احببت فانك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك

مجزى به فان هذه الكلمات جامعة حكم الاولين والآخرين وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر اذلو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم وحال ذلك بينهم وبين التلفت الى الدنيا بالكلية فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى او مكروهة والمبتدي ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الافكار حتى يعمر قلبه بالاخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره وليعلم أن هذا مع انه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه أن ينسى نفسه واحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فانه لا يتفرغ للنظر في احوال نفسه واوصافه بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق فأما ماذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فاذا ضيع جميع عمره في اصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن منصور وقال فيم انت قال ادور في البوادي اصلح حالي في التوكل فقال الحسين افنيت عمرك في عمران باطنك فاين الفناء في التوحيد فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدة في النكاح وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها فان استغرقت جميع عمرها في تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين ان كنت من أهل المجالسة وان كنت كالعبد السوء لا يتحرك الا خوفا من الضرب وطمعا في الاجرة فدونك واتعاب البدن بالاعمال الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا كثيفا فاذا قضيت حق الاعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة اقوام آخرون واذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحا ومساء فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى واحوالك المقربة اليه سبحانه وتعالى بل كل مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم * ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة فانه ان سلم منها سلم من غيرها وهي البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحب المال وحب الجاه * ومن المنجيات عشرة الندم على الذنوب والصبر على البلاء والرضى بالقضاء والشكر على النعماء واعتدال الخوف والرجاء والزهد في الدنيا والاخلاص في الاعمال وحسن الخلق مع الخلق وحب الله تعالى والخشوع له * فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمها كفي من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته اياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم الا بتوفيق الله

تعالى وعونه ولو وكله الى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه فيقبل على البقية الباقية وهكذا يفعل حتى يحيط على الجميع وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات فاذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا حط علمها واشتغل بالباقي وهذا يحتاج اليه المريد المشمر وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يشتغلوا بجرائدهم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة واطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراآة والسكوت عن النفس والافراط في معادات الاعداء وموالات الاولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها امثاله العالم الورع فانه لا يخلو في غالب الامر عن اظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت اما بالتدريس او بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها الا الصديقون فانه ان كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الاعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من المهلكات وان رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول ان غيظك من حيث انه رد الحق وأنكره فان وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الاعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والايراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين والشيطان قد يلبس عليه ويقول انما حرصك على تحسين الالفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب اعلاء لدين الله فان كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من اقرانه فهو مخدوع وانما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ويكون بلقائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو في موالاة غيره وان كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما انتهى الامر بأهل العلم الى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على احدهم أن يختلف بعض تلامذته الى غيره وان كان يعلم انه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وانما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة وهو اما مالك واما هالك ولا مطمع له في سلامة العوام فمن احس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جميعا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الانس اذا قالوا لا تفعل هذا فان هذا الباب لو فتح لاندرس

العلوم من بين الخلق ولقيل لهم ان دين الاسلام مستغن عني فانه قدكان معمورا قبلي وكذلك يكون بعدي ولومت لم تنهدم اركان الاسلام فان الدين مستغن عني وأنا فلست مستغنيا عن اصلاح قلبي وأما أداء ذلك الى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل فان الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب الخلق الرياسة والشيطان لا يفتر عن عمله الى يوم القيامة بل ينتهض لنشر العلم اقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فان ذلك بذر النفاق قال صلى الله عليه وسلم حب الجاه والمال ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل وقال صلى الله عليه وسلم ماذئبان ضاريان ارسلا في زريبة غنم بأكثر افسادا فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم ولا ينقلع حب الجاه من القلب الا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم المتقي فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوى ايماننا بيوم الحساب اذلو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعا ان هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فان من خاف شيأ هرب منه ومن رجا شيأ طلبه وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي ونحن منهمكون فيها وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم الا أنه يقتدي بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق واولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام اذا متنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا انه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة فان فرغوا منها انقطع التفاتهم عن انفسهم وارتقوا منها الى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك الا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات وان ظهر شئ منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكدرا مقطوعا وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة ولا طريق له في كمال التنعم الا باخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى. القسم الثاني الفكر في جلال الله وعظمته

وكبريائه وفيه مقامات فالمقام الاعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني اسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله وذلك لان العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر اليه الا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر بل سائر الخلق احوال ابصارهم بالاضافة الى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالاضافة الى نور الشمس فانه لا يطيقه البتة بل يختفي نهارا وانما يتردد ليلا ينظر في بقية نور الشمس اذا وقع على الارض واحوال الصديقين كحال الانسان في النظر الى الشمس فانه يقدر على النظر اليها ولا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو ادام النظر ونظره الختطف البها نوت العين و يورث العمش وكذلك النظر الى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب اذاً أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته فان اكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذى صرح به بعض العلماء وهو ان الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الاقطار والجهات وانه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول اقوام حتى انكروه اذلم يطيقوا سماعه ومعرفته بل ضعفت طائفة عن احتمال اقل من هذا اذ قيل لهم انه يتعاظم و يتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم فانكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام ان هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الاله لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الاعضاء وهذا لان الانسان لا يعرف الا نفسه فلا يستعظم الا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره و بين يديه غلمان يمتثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لانكر ذلك وقال كيف يكون خالقي انقص مني أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري وعقول اكثر الخلق قريب من هذا العقل وان الانسان لجهول ظلوم كفار ولذلك أوحى الله تعالى الى بعض انبيائه لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عني بما يفهمون ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته مخطرا من هذا الوجه اقتضى ادب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه لكنا نعدل الى المقام الثاني وهو النظر في افعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه و بدائع أمره في خلقه فانها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر الى صفاته من آثار صفاته فانا لا نطيق النظر الى صفاته كما انا لا نطيق النظر الى الارض مهما استنارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالاضافة الى نور القمر وسائر الكواكب لان نور الارض من آثار نور الشمس والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وان كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر وجميع موجودات الدنيا اثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من انوار ذاته بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور اظهر من الوجود ووجود الاشياء

كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس اذ قوام وجود الاشياء بذاته القيوم بنفسه كما أن قوام نور الاجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ومهما انكسف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر اليها ويكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر اليها فكذلك الافعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الافعال فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله تعالى

* (بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى) *

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته واحصاء ذلك غير ممكن لانه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره ولكنا نشير الى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه فنقول الموجودات المخلوقة منقسمة الى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى ويخلق ما لا تعلمون سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون وقال وننشئكم فيما لا تعلمون والى ما يعرف أصلها وجملها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها وهي منقسمة الى ما أدركناه بحس البصر والى ما لا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك ومجال الفكر في هذه الاشياء مما يضيق ويغمض فلنعدل الى الاقرب الى الافهام وهي المدركات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والارض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها والارض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والارض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها فهذه هي الاجناس المشاهدة من السموات والارض وما بينهما وكل جنس منها ينقسم الى أنواع وكل نوع منها ينقسم الى أقسام ويتشعب كل قسم الى أصناف ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة في السموات والارض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب الا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه وقد ورد القرءان بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال الله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب وكما قال تعالى ومن آياته من أول القرآن الى آخره فلنذكر كيفية التفكر في بعض الآيات * (فمن آياته) الانسان المخلوق من النطفة وأقرب شئ اليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الاعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع

في معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال وفي أنفسكم أفلا تبصرون وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره وقال تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون وقال تعالى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى وقال تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم وقال أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وقال إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما فقال تعالى ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة الآية فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل وقسم رؤسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار فلو ذهبنا إلى وصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضى فيه الأعمار فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه مفتقرا للتردد في حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق

عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقدر كبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الاشكال والصور فألف بعضها الى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها ستة تخص القحف واربعة عشر للحي الاعلى واثنان للحي الاسفل والبقية هي الاسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الانياب والاضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريفات وزيادات ونقصانات ينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من اسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من اربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة اجزاء مختلفة فيتصل به من اسفله عظم العصعص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة اجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز ثم عظام الفخذين والساقين واصابع الرجلين فلا نطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام في بدن الانسان مائتا عظم وثمانية واربعون عظما سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الاطباء والمشرحون وانما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها انه كيف قدرها ودبرها وخالف بين اشكالها وأقدارها وخصصها بهذا العدد المخصوص لانه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الانسان يحتاج الى قلعه ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج الى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها واهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فشتان بين الناظرين ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الانسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهي مختلفة المقادير والاشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل امر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وأمر الاعصاب والعروق والاوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها اعجب من هذا كله وشرحه يطول فللفكر مجال في آحاد هذه الاجزاء ثم في آحاد هذه الاعضاء ثم في جملة البدن وكل ذلك نظر الى عجائب اجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس اعظم فانظر الآن الى ظاهر الانسان وباطنه والى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي احكم خلقا واتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لا نسبة لجميع ما في الارض الى عجائب السموات ولذلك قال تعالى أأنتم اشد خلقا

أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها فارجع الآن إلى النطفة
وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا
للنطفة سمعا وبصرا وعقلا وقدرة وعلما وروحا أو يخلقوا فيها عظما وعرقا وعصبا
وجلدا وشعرا هل يقدرون على ذلك بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية
خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان
مصور على حائط تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال
الناظر إليها كأنه إنسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته
وعظم في قلبك محله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالحائط
وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من
خلق غيره وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص فيكثر تعجبك
منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب
والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها
وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال
أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون
ذلك سبب بقائها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر أساسا لبدنها
والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها
وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع
الأقذاء عنها ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد
أقطارها فهو ينظر إليها ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها
وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها
وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه
من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن
شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه
وأغذيته وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه وفتح
الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما في القلب وزين الفم بالأسنان لتكون آلة
الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها
متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها
وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام ثم خلق الحنجرة وهيأها
لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطيع الصوت في مخارج
مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ثم خلق الحناجر مختلفة
الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر
حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى
يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر
والأصداغ وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل

وزين العينين بالاهداب ثم خلق الاعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لاحالة الغذاء الى الدم والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها والكلية تخدمها بجذب المائية عنها والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ثم تخرجه فى طريق الاحليل والعروق تخدم الكبد فى ايصال الدم الى سائر اطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد الى المقاصد وعرض الكف وقسم الاصابع الخمس وقسم كل اصبع بثلاث انامل ووضع الاربعة فى جانب والابهام فى جانب لتدور الابهام على الجميع ولو اجتمع الاولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر فى وضع الاصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الابهام عن الاربع وتفاوت الاربع فى الطول وترتيبها فى صف واحد لم يقدروا عليه اذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والاعطاء فان بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد وان جمعها كانت له آلة للضرب وان ضمها ضما غير تام كانت مغرفة وان بسطها وضم اصابعها كانت مجرفة له ثم خلق الاظفار على رؤسها زينة للانامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع وليلتقط بها الاشياء الدقيقة التى لا تتناولها الانامل وليحك بدنه عند الحاجة فالظفر الذى هو أخس الاعضاء لو عدمه الانسان وظهر به حكة لكان اعجز الخلق وأضعفهم ولم يقم أحد مقامه فى حك بدنه ثم هدى اليد الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب لو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك الا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر اليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ولا يرى المصور ولا آلته فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه فسبحانه ما اعظم شأنه وأظهر برهانه ثم انظر مع كمال قدرته الى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبى لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج اليه ثم لما خرج واحتاج الى الغذاء كيف هداه الى التقام الثدى ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الاغذية الكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبى ثم فتح فى حلمة الثدى ثقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه الا بعد المص تدريجا فان الطفل لا يطيق منه الا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر الى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الاسنان الى تمام الحولين لانه فى الحولين لا يتغذى الا باللبن فيستغنى عن السن واذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج الى طعام غليظ ويحتاج الطعام الى المضغ والطحن فأنبت له الاسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها فسبحانه كيف اخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزا عن تدبير

نفسه فلولم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مراهقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا إما كفورا أو شكورا مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية والعجب كل العجب ممن يرى خطا حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا يدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهي فتجامع وتغضب فتقاتل والبهائم تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات ﴿أما الأرض﴾ فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم فقال تعالى والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون وقال تعالى هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وقال تعالى الذي جعل لكم الأرض فراشا وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقر الأحياء وبطنها مرقد الأموات قال الله تعالى ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حي فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون

ونخل

ونخل ورمان وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات والارايح يفضل بعضها على بعض فى الاكل تسقى بماء واحد وتخرج من ارض واحدة فان قلت ان اختلافها باختلاف بذورها واصولها فمتى كان فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ثم انظر الى ارض البوادى وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها فاذا انزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج الوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر الى كثرتها واختلاف اصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف اودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذى وهذا يقوى وهذا يحيى وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا اذا حصل فى المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل الى الصفراء وهذا يقمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل اليهما وهذا يصفى الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف فلم تنبت من الارض ورقة ولا تبنة الا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته الى عمل مخصوص فالنحل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستنبت ببث البذر فى الارض وبعضه بغرس الاغصان وبعضه يركب فى الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف اجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لا نقضت الايام فى وصف ذلك فيكفيك من كل نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات ٭ (ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الارض)٭ ففى الارض قطع متجاورات مختلفة فانظر الى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل وكيف هدى الله الناس الى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الاوانى والآلات والنقود والحلى منها ثم انظر الى معادن الارض من النفط والكبريت والقار وغيرها وأقلها الملح ولا يحتاج اليه الا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك اليها فانظر الى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الاراضى سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافى من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ليكون ذلك تطييبا لطعامك اذا اكلته فيتهنأ عيشك وما من جماد ولا حيوان ولا نبات الا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شئ منها عبثا ولا لعبا ولا هزلا بل خلق الكل بالحق كما ينبغى وعلى الوجه الذى ينبغى وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه ولذلك قال تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ٭ (ومن آياته اصناف الحيوانات)٭ وانقسامها الى ما يطير والى ما يمشى وانقسام ما يمشى الى ما يمشى على رجلين والى ما يمشى على اربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات ثم انقسامها فى المنافع والصور والاشكال والاخلاق والطباع فانظر الى طيور الجو والى وحوش

الا ترى الى البهائم الاهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة
مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصي ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب
البقة او النملة او النحلة او العنكبوت وهي من صغار الحيوانات في بنائها بيتها وفي جمعها
غذاءها وفي الفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها
الى حاجاتها لم نقدر على ذلك فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب اولا
موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين
طرفيه ثم يبتدئ ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يعدو الى الجانب
الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما
متناسبا تناسبا هندسيا حتى اذا احكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل
باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه الى بعض ويحكم العقد على موضع
التقاء اللحمة بالسدى ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع
فيها البق والذباب ويقعد في زاوية مترصدا لوقوع الصيد في الشبكة فاذا وقع الصيد بادر
الى اخذه واكله فان عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين
طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكسا في الهواء ينتظر ذبابة تطير
فاذا طارت رمى بنفسه اليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم اكله وما من
حيوان صغير ولا كبير الا وفيه من العجائب ما لا يحصى افترى انه تعلم هذه الصنعة
من نفسه او تكون بنفسه او كونه آدمي او علمه او لا هادي له ولا معلم افيشك ذو بصيرة
في انه مسكين ضعيف عاجز بل الفيل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن امر نفسه
فكيف هذا الحيوان الضعيف افلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته
وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم فالبصير يرى في هذا الحيوان
الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الالباب
والعقول فضلا عن سائر الحيوانات وهذا الباب ايضا لا حصر له فان الحيوانات
وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لانسها بكثرة
المشاهدة نعم اذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه وقال سبحان الله ما اعجبه
والانسان اعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الانعام التي ألفها ونظر
الى أشكالها وصورها ثم الى منافعها وفوائدها من جلودها واصوافها واوبارها
وأشعارها التي جعلها الله لباسا لخلقه واكنانا لهم في ظعنهم واقامتهم وآنية لاشربتهم
وأوعية لاغذيتهم وصوانا لاقدامهم وجعل ألبانها ولحومها اغذية لهم ثم جعل بعضها
زينة للركوب وبعضها حاملة للاثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة لاكثر
الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها الا بعلم محيط بجميع منافعها
سابق على خلقه اياها فسبحان من الامور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل
وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل
القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق الا الاذعان

لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والاقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه بل هو كما اثنى على نفسه وانما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته * (ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض) * التى هى قطع من البحر الاعظم المحيط بجميع الارض حتى ان جميع المكشوف من البوادى والجبال من الماء بالاضافة الى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الارض مستورة بالماء قال النبى صلى الله عليه وسلم الارض فى البحر كالاصطبل فى الارض فانسب اصطبلا الى جميع الارض واعلم أن الارض بالاضافة الى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الارض ومافيها فتأمل الآن عجائب البحر فان عجائب مافيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ماتشاهده على وجه الارض كما أن سعته أضعاف سعة الارض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ماترى ظهورها فى البحر فتظن انها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران اذا اشتعلت فتتحرك ويعلم انها حيوان ومامن صنف من اصناف حيوان البر من فرس اوطير أو بقر أو انسان الا وفى البحر أمثاله وأضعافه وفيه اجناس لايعهد لها نظير فى البر وقد ذكرت اوصافها فى مجلدات وجمعها اقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوّره فى صدفه تحت الماء وانظر كيف انبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وانما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ماعداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر الى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الاموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ثم ارسل الرياح لتسوق السفن ثم عرّف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله فى البحر فى مجلدات وأعجب من ذلك كله ماهو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الاجزاء كأنه شئ واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل مسخر للتصرّف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ماعلى وجه الارض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ثم لو شربها ومنع من اخراجها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى اخراجها فالعجب من الآدمى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء اذا احتاج الى شربها والاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمّل فى عجائب المياه والانهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها منادية ارباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذى لب اما ترانى وترى صورتى وتركيبى وصفاتى ومنافعى واختلاف حالاتى وكثرة فوائدى أتظنّ انى كونت نفسى اوخلقنى احد من جنسى اوماتستحى أن تنظر فى كلمة مرقومة من ثلاثة احرف فتقطع بأنها من صنعة آدمىّ عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر الى عجائب الخطوط

الإلهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم بعثك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدي وشفتي فترى التقويس يظهر شيئا فشيئا على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجه ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم أفما هذا النقاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذي صوّر ونقش وقدّر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصوّر كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كل عجب فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه فسبحان من هدى وأضلّ وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا رادّ لحكمه ولا معقب لقضائه (ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدّب الأرض) يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة في جو السماء ومستقلة سابحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابة فإن شاء جعله نشرا بين يدي رحمته كما قال سبحانه وأرسلنا الرياح لواقح فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء وإن شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته كما قال تعالى إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ثم انظر إلى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء وكذلك كل مجوّف فيه هواء لا يغوص في الماء لأن الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوي في البئر فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوي والغوص في الماء فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشدّ ثم انظر إلى

عجائب

عجائب الجوّ وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والامطار والثلوج والشهب والصواعق فهي عجائب مابين السماء والارض وقد أشار القرآن الى جملة ذلك في قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين وهذا هو الذي بينهما وأشار الى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى والسحاب المسخر بين السماء والارض وحيث تعرّض للرعد والبرق والسحاب والمطر فاذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة الا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم البهائم الى عالم الملأ الاعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها فغمض عينك الظاهرة وانظر بصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا ايضا باب يطول الفكر فيه اذ لا مطمع في استقصائه فتأمّل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جوّ صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى اذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له في جوّ السماء الى أن يأذن الله في ارسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي اراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاءه فترى السحاب يرش الماء على الارض ويرسله قطرات متفاصلة لاتدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لاتعدل عنه فلا يتقدّم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الارض قطرة قطرة فلو اجتمع الاوّلون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة او يعرفوا عدد ماينزل منها في بلدة واحدة اوقرية واحدة لعجز حساب الجنّ والانس عن ذلك فلا يعلم عددها الا الذي اوجدها ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الارض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط الهي لايدرك بالبصر الظاهر انها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل اليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع مافي انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لاتحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لاحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس للمؤمنين من خلقه الا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا للعميان الجاحدين الا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته فيقول الجاهل المغرور انما ينزل الماء لانه ثقيل بطبعه وانما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ولو قيل له مامعنى الطبع وما الذي خلقه ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل وما الذي رقى الماء المصبوب في اسافل الشجر الى اعالي الاغصان وهو ثقيل بطبعه فكيف هوى الى اسفل ثم ارتفع الى فوق في داخل تجاويف الاشجار شيئا فشيئا بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الاوراق فيغذي كل جزء من كل ورقة ويجري اليها في تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سواق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن ادراك البصر حتى تنبسط في جميع

عرض الورقه ويصل الماء فى أجوافهما الى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وتنميها ويربيها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك الى سائر أجزاء الفواكه فان كان الماء تتحرك بطبعه الى أسفل فكيف تحرك الى فوق فان كان ذلك بجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب وان كان ينتهى بالآخرة الى خالق السموات والارض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أول الامر فنهاية الجاهل بداية العاقل ٭(ومن آياته ملكوت السموات ومافيها من الكواكب)٭ وهو الامر كله ومن ادرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا فالارض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالاضافه الى السموات كقطرة فى بحر واصغر ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه فما من سورة الا وتشتمل على تفخيمها فى مواضع وكم من قسم فى القرآن بها كقوله تعالى والسماء ذات البروج والسماء والطارق والسماء ذات الحبك والسماء وما بناها وكقوله تعالى والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها وكقوله تعالى فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس وقوله تعالى والنجم اذا هوى فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الاولون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الارزاق عليه وأضافها اليه فقال تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون وأثنى على المتفكرين فيه فقال ويتفكرون فى خلق السموات والارض وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أى تجاوزها من غير فكر وذم المعرضين عنها فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون فأى نسبة لجميع البحار والارض الى السماء وهى متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير الى أن يبلغ الكتاب أجله ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وقال سبحانه وبنينا فوقكم سبعا شدادا وقال أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها فانظر الى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ولا تظن ان معنى النظر الى الملكوت بأن تمد البصر اليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فان البهائم تشاركك فى هذا النظر فان كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى ابراهيم بقوله وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما غاب عن الابصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشئ من علمه الا بما شاء وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول فأجل ايها العاقل فكرك فى الملكوت فعسى يفتح لك ابواب السماء فتجول بقلبك فى اقطارها الى أن تقوم قلبك بين يدى عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال رأى قلبى ربى وهذا لان بلوغ الاقصى لا يكون الا بعد مجاوزة الادنى وادنى شئ اليك نفسك ثم الارض التى هى مقرك ثم الهواء المكتنف لك ثم النبات والحيوان وما على وجه الارض ثم عجائب الجو وهو ما بين السما

والارض

والارض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسى ثم العرش ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ثم منه تجاوز الى النظر الى رب العرش والكرسى والسموات والارض ومابينها فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وانت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهى معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفة ربك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه ففيماذا أتفكر والى ماذا أتطلع فارفع الآن رأسك الى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ومن غير تغير فى سيرها بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص الى أن يطويها الله تعالى طى السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل الى الحمرة وبعضها الى البياض وبعضها الى اللون الرصاصى ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والاسد والانسان ومامن صورة فى الارض الا ولها مثال فى السماء ثم انظر الى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولاطبق الظلام على الدوام أوالضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر الى ايلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر الى امالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فاذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء واذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ واذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان وعجائب السموات لا مطمع فى احصاء عشر عشير جزء من أجزائها وانما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على الجملة انه مامن كوكب من الكواكب الا ولله تعالى حكم كثيرة فى خلقه ثم فى مقداره ثم فى شكله ثم فى لونه ثم فى وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التى بجنبه وبعده وقس على ذلك ماذكرناه من أعضاء بدنك اذ مامن جزء الا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الارض الى عالم السماء لا فى كبر جسم ولا فى كثرة معانيه وقس التفاوت الذى بينهما فى كثرة المعانى بمابينهما من التفاوت فى كبر الارض فأنت تعرف من كبر الارض واتساع أطرافها انه لا يقدر آدمى على أن يدركها ويدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الارض مائة ونيفا وستين مرة وفى الاخبار مايدل على عظمها ثم الكواكب التى تراها أصغرها مثل الارض ثمانى مرات وأكبرها ينتهى الى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الارض وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها اذ للبعد صارت ترى صغارا ولذلك أشار الله تعالى الى بعدها فقال رفع سمكها فسوّاها وفى الاخبار ان مابين كل سماء الى الاخرى مسيرة خمسمائة عام فاذا كان مقدار كوكب واحد مثل الارض أضعافا فانظر

الى كثرة الكواكب ثم انظر الى الشمس التى الكواكب مركوزة فيها والى عظمها ثم انظر
الى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لكن لا تشك انها
فى لحظة تسير مقدار عرض كوكب لان الزمان من طلوع أول جزء من كوكب الى تمامه
يسير وذلك الكوكب هو مثل الارض مائة مرة وزيادة فقد دار الفلك فى هذه اللحظة
مثل الارض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه وانظر كيف عبر جبريل
عليه السلام عن سرعة حركته اذ قال له النبى صلى الله عليه وسلم هل زالت الشمس
فقال لا نعم فقال كيف تقول لا نعم فقال من حيث قلت لا الى أن قلت نعم سارت
الشمس خمسمائة عام فانظر الى عظم شخصها ثم الى خفة حركتها ثم انظر الى قدرة الفاطر
الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع اكنافها فى حدقة العين مع صغرها حتى تجلس
على الارض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها
لا تنظر اليها انظر الى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير
علاقة من فوقها وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك انك تدخل بيت
غنى فتراه مزوقا بالصبغ مموها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف
حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر الى هذا البيت العظيم والى أرضه والى سقفه والى
هوائه والى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت
بقلبك اليه فما هذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه بل ذلك البيت هو جزء من
الارض التى هى أخس أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر اليه ليس له سبب الا انه
بيت ربك هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك
واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك هم الا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ
بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات
وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين
يديك ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك وان صدقوك فى مودتهم اياك فلا يملكون
لك ولا لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون فى بلدك من أغنياء
اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن
النظر فى جمال ملكوت السموات والارض ثم غفلت عن التنعم بالنظر الى جلال مالك
الملكوت والملك وما مثلك ومثل عقلك الا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى
قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الاركان مزين بالجوارى والغلمان
وأنواع الذخائر والنفائس فانها اذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث
لو قدرت على النطق الا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها فأما حال القصر والملك
الذى فى القصر فهى بمعزل عنه وعن التفكر فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن
نفسها وغذائها وبيتها الى غيره وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه
وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن سكانه فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن
ملائكته الذين هم سكان سمواته فلا تعرف من السماء الا ما تعرفه النملة من سقف

بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات الا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك نعم ليس للنملة طريق الى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فانه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالاضافة الى ما عرفه جملة العلماء والاولياء وما عرفوه قليل نزر حقير بالاضافة الى ما عرفه الانبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ما عرفوه قليل بالاضافة الى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم وما عرفه الانبياء كلهم قليل بالاضافة الى ما عرفته الملائكة المقربون كاسرافيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والانس اذا اضيف الى علم الله سبحانه لم يستحق أن يسمى علما بل هو الى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا اقرب فسبحان من عرّف عباده ما عرّف ثم خاطب جميعهم فقال وما اوتيتم من العلم الا قليلا فهذا بيان معاقد الجمل التى تجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى وليس فيها فكر فى ذات الله تعالى ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته اتم وهذا كما انك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه او شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسبه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى ان كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من ابيات شعره يزيده محلا من قلبك يستدعى التعظيم له فى نفسك فهكذا تأمّل فى خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل ما فى الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبدا وانما لكل عبد منه بقدر ما رزق فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف الى هذا ما فصلناه فى كتاب الشكر فانا نظرنا فى ذلك الكتاب فى فعل الله تعالى من حيث هو احسان الينا وانعام علينا وفى هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث انه فعل الله فقط وكل ما نظرنا فيه فان الطبيعى ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة فى السماء والارض الا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدى بها من يشاء فمن نظر فى هذه الامور من حيث انها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا النظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الاسباب فقد شقى وارتدى فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته . تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه . يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه وفضله

* (كتاب ذكر الموت وما بعده وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات وبه اختتام كتاب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة * وكسر به ظهور الاكاسرة * وقصر به آمال القياصرة * الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة * حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة * فنقلوا من القصور الى القبور * ومن ضياء المهود الى ظلمة اللحود * ومن ملاعبة الجواري والغلمان الى مقاساة الهوام والديدان * ومن التنعم بالطعام والشراب الى التمرغ في التراب * ومن انس العشرة الى وحشة الوحدة * ومن المضجع الوثير الى المصرع الوبيل * فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا * واتخذوا من دونه حجابا وحرزا وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا * فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء * واستأثر باستحقاق البقاء * وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء * ثم جعل الموت مخلصا للاتقياء * وموعدا في حقهم للقاء * وجعل القبر سجنا للاشقياء * وحبسا ضيقا عليهم الى يوم الفصل والقضاء * فله الانعام بالنعم المتظاهرة * وله الانتقام بالنقم القاهرة * وله الشكر في السموات والارض وله الحمد في الاولى والآخرة * والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة * والآيات الباهرة * وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فجدير بمن الموت مصرعه * والتراب مضجعه * والدود أنيسه * ومنكر ونكير جليسه * والقبر مقره * وبطن الارض مستقره * والقيامة موعده * والجنة والنار مورده * أن لا يكون له فكر الا في الموت ولا ذكر الا له ولا استعداد الا لاجله ولا تدبير الا فيه ولا تطلع الا اليه ولا تعريج الا عليه ولا اهتمام الا به ولا حول الا حوله ولا انتظار وتربص الا له وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور * فان كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت وقد قال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ولن يتيسر الاستعداد للشئ الا عند تجدد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره الا عند التذكر بالاصغاء الى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه ونحن نذكر من أمر الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكاره على التكرار * وملازمته بالافتكار والاستبصار * ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل * فما بقي من العمر الا القليل * والخلق عنه غافلون * اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين

(الشطر الاول في مقدماته وتوابعه الى نفخة الصور وفيه ثمانية أبواب)

الباب الاول في فضل ذكر الموت والترغيب فيه * الباب الثاني في ذكر طول الامل وقصره الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الاحوال عند الموت الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلفاء والامراء والصالحين الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور الباب السابع في حقيقة الموت

وما

وما يلقاه الميت فى القبر الى نفخة الصور الباب الثامن فيما عرف من احوال الموتى بالمكاشفة فى المنام

(الباب الاول فى ذكر الموت والترغيب فى الاكثار من ذكره)

اعلم أن المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلا يذكره واذا ذكر به كرهه ونفر منه اولئك هم الذين قال الله فيهم قل ان الموت الذى تفرّون منه فانه ملاقيكم ثم تردّون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ثم الناس أما منهمك واما تائب مبتدئ اوعارف منته أما المنهمك فلا يذكر الموت وان ذكره فيذكره للتأسف على دنياه و يشتغل بمذمته وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل اصلاح الزاد وهو معذور فى كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم من كره لقاء الله كره الله لقاءه فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وانما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعدّ كارها للقائه وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه والا التحق بالمنهمك فى الدنيا وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لانه موعد للقائه لحبيبه والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا فى غالب الامر يستبطئ مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من العاصين وينتقل الى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة انه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم اللهم ان كنت تعلم أن الفقر احب الىّ من الغنى والسقم أحب الىّ من الصحة والموت احب الىّ من العيش فسهل علىّ الموت حتى ألقاك فاذا التائب معذور فى كراهة الموت وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه وأعلى منهما رتبة من فوّض أمره الى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة بل يكون احب الاشياء اليه احبها الى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى مقام التسليم والرضى وهو الغاية والمنتهى وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثواب وفضل فان المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا اذ ينغص عليه نعيمه و يكدر عليه صفو لذته وكل ما يكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من اسباب النجاة

(بيان فضل ذكر الموت كيفما كان)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا من ذكر هاذم اللذات معناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم اليها فتقبلوا على الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا وقالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة وانما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو الى الانهماك فى شهوات الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم تحفة المؤمن الموت وانما قال هذا لان الدنيا سجن المؤمن اذ

لا يزال فيها في مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه فالموت اطلاق
له من هذا العذاب والاطلاق تحفة في حقه وقال صلى الله عليه وسلم الموت كفارة لكل
مسلم وأراد بهذا المسلم حقا المؤمن صدقا الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويحقق
فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي الا باللمم والصغائر فالموت يطهره منها
ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض قال عطاء الخراساني مر رسول الله صلى
الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات
قالوا وما مكدر اللذات قال الموت وقال أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم
كفى بالموت مفرقا وقال عليه السلام كفى بالموت واعظا وخرج رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو
تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل
فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت
قال فإن صاحبكم ليس هنالك وقال ابن عمر رضي الله عنهما أتيت النبي صلى الله عليه
وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله
فقال أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا
وكرامة الآخرة « (وأما الآثار) » فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا
فلم يترك لذي لب فرحا وقال الربيع بن خيثم ما غائب ينتظره المؤمن خير له من الموت
وكان يقول لا تشعروا بي أحدا وسلوني إلى ربي سلا وكتب بعض الحكماء إلى رجل من
إخوانه يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده
وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل
ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة
وقال إبراهيم التيمي شيئان قطعا عني لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل
وقال كعب من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها وقال مطرف رأيت
فيما يرى النائم كأن قائلا يقول في وسط مسجد البصرة قطع ذكر الموت قلوب الخائفين
فوالله ما تراهم إلا والهين وقال أشعث كنا ندخل على الحسن فإنما هو النار وأمر الآخرة
وذكر الموت وقالت صفية رضي الله عنها أن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها
قساوة قلبها فقالت أكثري ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر
عائشة رضي الله عنها وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما
وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تنخلع أوصاله فإذا ذكر الرحمة
رجعت إليه نفسه وقال الحسن ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه
حزينا وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظني فقال أنت أول خليفة تموت قال زدني
قال ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكى عمر لذلك وكان
الربيع بن خيثم قد حفر قبرا في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر

الموت وكان يقول لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد وقال مطرف بن عبد الله ابن الشخير ان هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لا موت فيه وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة أكثر ذكر الموت فان كنت واسع العيش ضيقه عليك وان كنت ضيق العيش وسعه عليك وقال أبو سليمان الداراني قلت لأم هارون أتحبين الموت قالت لا قلت لم قالت لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته

(بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب)

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شئ الا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد أن يسافر الى مفازة مخطرة أو يركب البحر فانه لا يتفكر الا فيه فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فمهما تذكر رجلا رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الاسباب وركونه الى القوة والشباب وميله الى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وانه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب اسنانه وكيف كان يدبر لنفسه مالا يحتاج اليه الى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت الا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء اما بالجنة أو بالنار فعند ذلك ينظر في نفسه انه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم قال أبو الدرداء رضي الله عنه اذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم وقال ابن مسعود رضي الله عنه السعيد من وعظ بغيره وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون انكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا الى الله عز وجل تضعونه في صدع من الارض قد توسد التراب وخلف الاحباب وقطع الاسباب فملازمة هذه الافكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور والا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ومهما طاب قلبه بشئ من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال انه لا بد له من مفارقته نظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير اليه من ضيق القبور

لمرت بالدنيا اعيننا بكى بكاءً شديداً حتى ارتفع صوته

(الباب الثاني في طول الامل وفضيلة قصر الامل وسبب طوله وكيفية معالجته)

(فضيلة قصر الامل)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر اذا اصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء واذا امسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فانك يا عبد الله لا تدرى ما اسمك غدا وروى على كرم الله وجهه انه صلى الله عليه وسلم قال ان أشد ما اخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الامل فأما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق وأما طول الامل فانه الحب للدنيا ثم قال ألا ان الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ويبغض واذا أحب عبدا اعطاه الايمان ألا ان للدين ابناء وللدنيا ابناء فكونوا من ابناء الدين ولا تكونوا من ابناء الدنيا ألا ان الدنيا قد ارتحلت مولية ألا ان الآخرة قد ارتحلت مقبلة الا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب الا وانكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل وقالت ام المنذر اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية الى الناس فقال ايها الناس أما تستحيون من الله قالوا وما ذاك يا رسول الله قال تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون وقال أبو سعيد الخدرى اشترى اسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من اسامة المشترى الى شهر ان اسامة لطويل الامل والذى نفسى بيده ما طرفت عيناى الا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفى فظننت انى واضعه حتى اقبض ولا لقمت لقمة الا ظننت انى لا اسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بنى آدم ان كنتم تعقلون فعدوا انفسكم من الموتى والذى نفسى بيده ان ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب فأقول له يا رسول الله ان الماء منك قريب فيقول ما يدرينى لعلى لا ابلغه وروى انه صلى الله عليه وسلم اخذ ثلاثة اعواد فغرز عودا بين يديه والآخر الى جنبه وأما الثالث فأبعده فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله اعلم قال هذا الانسان وهذا الاجل وذاك الامل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الاجل دون الامل وقال عليه السلام مثل ابن آدم والى جنبه تسع وتسعون منية ان اخطأته المنايا وقع فى الهرم قال ابن مسعود هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع اليه والهرم وراء الحتوف والامل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع اليه فايها أمر به اخذه فان اخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينظر الامل وقال عبد الله خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا الى جنب الخط وخط خطا خارجا وقال أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا الانسان للخط الذى فى الوسط وهذا الاجل محيط به وهذه الاعراض للخطوط التى حوله تنهشه ان اخطأه هذا نهشه هذا وذاك الامل يعنى الخط الخارج وقال انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والامل وفى رواية وتشب

معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نجا اول هذه الامة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الامة بالبخل والامل وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الارض فقال عيسى اللهم انزع منه الامل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى اللهم اردد اليه الامل فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال بينما أنا أعمل اذ قالت لى نفسى الى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لى نفسى والله لا بد لك من عيش ما بقيت فقمت الى مسحاتى وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يارسول الله قال قصروا من الامل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم انى أعوذبك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذبك من حياة تمنع خير الممات وأعوذبك من أمل يمنع خير العمل (الآثار) قال مطرف بن عبد الله لو علمت متى أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ولكن الله تعالى منّ على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنؤا بعيش ولا قامت بينهم الاسواق وقال الحسن السهو والامل نعمتان عظيمتان على بنى آدم ولولاهما مامشى المسلمون فى الطرق وقال الثورى بلغنى أن الانسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنه العيش وقال ابو سعيد بن عبد الرحمن انما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه ثلاث اعجبتنى حتى اضحكتنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك مل ءفيه ولا يدرى اساخط رب العالمين عليه أم راض وثلاث أحزنتنى حتى أبكتنى فراق الاحبة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدى الله ولا أدرى الى الجنة يؤمر بى أو الى النار * وقال بعضهم رأيت زرارة بن أبى أوفى بعد موته فى المنام فقلت أى الاعمال أبلغ عندكم قال التوكل وقصر الامل وقال الثورى الزهد فى الدنيا قصر الامل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة وسأل المفضل ابن فضالة ربه أن يرفع عنه الامل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الامل فرجع الى الطعام والشراب وقيل للحسن يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك فقال الامر أعجل من ذلك وقال الحسن الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم * وقال بعضهم أنا كرجل مادّ عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه وقال داود الطائى لو أمّلت أن أعيش شهرا لرأيتنى قد أتيت عظيما وكيف أؤمّل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق فى ساعات الليل والنهار * وحكى انه جاء شقيق البلخى الى استاذ له يقال له ابو هاشم الرمانى وفى طرف كسائه شئ مصرور فقال له استاذه ايش هذا معك فقال لوزات دفعها الى أخ لى وقال احب أن تفطر عليها فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك انك تبقى الى الليل لا كلمتك أبدا قال فأغلق فى وجهى الباب ودخل * وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته ان لكل سفر زادا لا محالة فتزودوا لسفركم من الدنيا الى الآخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما اعدّ الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطولنّ عليكم الامد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم فانه والله ما بسط أمل

أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الوحا الوحا النجا النجا

(بيان السبب في طول الأمل وعلاجه)

اعلم أن طول الأمل له سببان أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب وإذا كبر فيقول إلى أن تصير شيخاً فإذا صار شيخاً قال إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات فما يفرغ منها إلا من اطرحها

فما قضى أحد منها لبانته ٭ وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم أحبب من أحببت فإنك مفارقه وأما الجهل فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فإنما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبداً يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه وهو أبداً يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه فلم يألفه ولا يتصور أن

يألفه فانه لم يقع واذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الاول وهو الآخر وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم انه لا بدّ وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره ولعل اللبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض واذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة وأمّا حب الدنيا فالعلاج في اخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيي الاولين والآخرين علاجه ولا علاج له الا الايمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فانّ حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير فاذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت الى الدنيا كلها وان أعطي ملك الارض من المشرق الى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا الا قدر يسير مكدّر منغص فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الايمان بالآخرة فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر الى من مات من الاقران والاشكال وانهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا أما من كان مستعدّا فقد فاز فوزا عظيما وأمّا من كان مغرورا بطول الامل فقد خسر خسرانا مبينا فلينظر الانسان كل ساعة في اطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة وكيف تتفتت عظامها وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أوّلا أو اليسرى فما على بدنه شئ الا وهو طعمة الدود وماله من نفسه الا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الاكبر فأمثال هذه الافكار هي التي تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه الى الاستعداد له

(بيان مراتب الناس في طول الامل وقصره)

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدا قال الله تعالى يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة ومنهم من يأمل البقاء الى الهرم وهو اقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حبا شديدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وان التفت ترقوتاه من الكبر الا الذين اتقوا وقليل ما هم ومنهم من يأمل الى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدّر لنفسه وجودا في عام قابل ولكن هذا يستعدّ في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف فاذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة ومنهم من يأمل مدّة الصيف أو الشتاء فلا يدّخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله الى يوم وليلة فلا يستعدّ الا لنهاره وأمّا للغد فلا قال عيسى عليه السلام لا تهتموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فستأتي فيه أرزاقكم مع آجالكم وان لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم يا عبد الله اذا أصبحت فلا تحدّث

نفسك بالمساء واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ومنهم من لا يقدر البقاء أيضا ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول لعلي لا أبلغه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره وهذا الانسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة ايمانه فقال ما خطوت خطوة الا ظننت اني لا أتبعها الاخرى وكما نقل عن الاسود وهو حبشي انه كان يصلي ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل ما هذا قال انظر ملك الموت من أي جهة يأتيني فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ثم يظهر أثر قصر الامل في المبادرة الى العمل وكل انسان يدعي انه قصير الامل وهو كاذب وانما يظهر ذلك بأعماله فانه يعتني بأسباب ربما لا يحتاج اليها في سنة فيدل ذلك على طول أمله وانما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت فان عاش الى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بانه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله الى الصباح وهكذا اذا أصبح ولا يتيسر هذا الا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا اذا مات سعد وغنم وان عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالك يا مسكين فان السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا يكون كذلك الا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس امهلت فيه

(بيان المبادرة الى العمل وحذر آفة التأخير)

اعلم أن من له اخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم الى شهر او سنة وانما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا فانه أبدا يرى لنفسه متسعا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال صلى الله عليه وسلم ما ينتظر أحدكم من الدنيا الا غنى مطغيا او فقرا منسيا او مرضا مفسدا أو هرما مفندا او موتا مجهزا او الدجال فالدجال شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة ادهى وأمر وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وقال صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ أي انه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم من خاف ادلج ومن ادلج بلغ المنزل ألا ان سلعة الله غالية الا ان سلعة الله الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت الراجفة تتبعها الرادفة

وجاء الموت بما فيه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا انس من اصحابه غفلة اوغرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة اما بشقاوة واما بسعادة * وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد وقال ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على اطراف السعف فقال مابقى من الدنيا الا كما بقى من يومنا هذا فى مثل مامضى منه وقال صلى الله عليه وسلم مثل الدنيا كمثل ثوب شق من اوله الى آخره فبقى متعلقا بخيط فى آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع وقال جابر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحتكم ومستكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين اصبعيه وقال ابن مسعود رضى الله عنه تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام فقال ان النور اذا دخل الصدر انفسح فقيل يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله وقال السدى الذى خلق الموت والحيوة ليبلوكم ايكم أحسن عملا أى أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا وقال حذيفة مامن صباح ولا مساء الا ومناد ينادى أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى انها لاحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم او يتأخر فى الموت وقال سحيم مولى بنى تميم جلست الى عامر بن عبد الله وهو يصلى فأوجز فى صلاته ثم اقبل على فقال أرحنى بحاجتك فانى ابادر قلت وماتبادر قال ملك الموت رحمك الله قال فقمت عنه وقام الى صلاته ومر داود الطائى فسأله رجل عن حديث فقال دعنى انما ابادر خروج نفسى وقال عمر رضى الله عنه التؤدة فى كل شئ خير الا فى أعمال الخير للآخرة وقال المنذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادرى قبل أن يأتيك الامر ويحك بادرى قبل أن يأتيك الامر حتى كرر ذلك ستين مرة اسمعه ولا يرانى وكان الحسن يقول فى موعظته المبادرة المبادرة فانما هى الانفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها الى الله عزوجل رحم الله امرأ نظر الى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية انما نعد لهم عدا يعنى الانفاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخولك فى قبرك * واجتهد أبو موسى الاشعرى قبل موته اجتهادا شديدا فقيل له لو أمسكت او رفقت بنفسك بعض الرفق فقال ان الخيل اذا ارسلت فقاربت رأس مجراها اخرجت جميع ماعندها والذى بقى من اجلى أقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات وكان يقول لامرأته شدى رحلك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره عباد الله اتقوا الله مااستطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جد بكم وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة وان غائبا يحدبه الجديدان الليل والنهار لحرى بسرعة الاوبة وان قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لافضل العدة فالتقى عند

ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فان أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يمنيه التوبة ليسوفها ويزين اليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها وانه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار الا الموت أن ينزل به فيالها حسرة على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه الى شقوة جعلنا الله واياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة انه سميع الدعاء وانه بيده الخير دائما فعال لما يشاء وقال بعض المفسرين في قوله تعالى فتنتم أنفسكم قال بالشهوات واللذات وتربصتم قال بالتوبة وارتبتم قال شككتم حتى جاء أمر الله قال الموت وغركم بالله الغرور وقال الحسن تصبروا وتشددوا فانما هي أيام قلائل وانما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم * وقال ابن مسعود ما منكم من أحد أصبح الا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة وقال أبو عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم وأهلا حياكم الله بالسلام وأحلنا واياكم دار المقام هذه علانية حسنة ان صبرتم وصدقتم واتقيتم فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الاذن وتخرجوه من هذه الاذن فان من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائحا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر اليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون أتيتم ورب الكعبة كأنكم والامر معا رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا فأكل كسرة ولبس خلقا ولزق بالارض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك * وقال عاصم الاحول قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فان الامر يخلص اليك دونهم ولا تقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار في لا شيء فان الامر محفوظ عليك ولم تر شيئا قط أحسن طلبا ولا أسرع دركا من حسنة حديثة لذنب قديم

*(الباب الثالث) في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الاحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرا بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لاسيما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك * وقال لقمان لابنه يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك والعجب أن الانسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب الا الجهل والغرور واعلم أن شدة الالم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة الا من ذاقها ومن لم يذقها فانما يعرفها اما بالقياس الى الآلام التي أدركها وأما بالاستدلال باحوال الناس في النزع على شدة

ماهم

ماهم فيه فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالالم فاذا كان فيه الروح فالمدرك للالم هو الروح فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الاثر الى الروح فبقدر ما يسري الى الروح يتألم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الاجزاء فلا يصيب الروح الا بعض الالم فان كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الالم وما أشده والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن الا وقد حل به الالم ولو أصابته شوكة فالالم الذي يجده انما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة وانما يعظم أثر الاحتراق لان أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا الا وتصيبه النار فتحسه الاجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم وأما الجراحة فانما تصيب الموضع الذي مسه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فانه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الاعصاب وجزء من الاجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق الى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا ان الموت لاشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لان قطع البدن بالسيف انما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف اذا كان المتناول المباشر نفس الروح وانما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه وانما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لان الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهد كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الاطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالانين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالالم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان الى أعالي أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان الى أصله وترتفع الانثيان الى أعالي موضعهما وتخضر أنامله فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها الى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبل توبة العبد ما لم يغرغر وقال مجاهد في قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن قال اذا عاين الرسل فعند ذلك يبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول اللهم هوّن على محمد سكرات الموت والناس اغا لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فان الاشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الانبياء عليهم السلام والاولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهوّن على هذه السكرة يعني الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفي من الموت على الموت وروى أن نفرا من بني اسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه فدعوا الله تعالى فاذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها لا اغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى انه عليه السلام كان يقول اللهم انك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والانامل اللهم فأعني على الموت وهوّنه على وعن الحسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال ان أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف الا ومعها صوف ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال اني أعلم ما يلقى ما منه عرق الا و يألم للموت على حدته وكان علي كرم الله وجهه يحض على القتال و يقول ان لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لالف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش وقال الاوزاعي بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره وقال شداد بن اوس الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلى في القدور ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم وعن زيد بن اسلم عن ابيه قال اذا بقي على المؤمن من درجاته شئ لم يبلغها بالعمل شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة واذا كان للكافر معروف لم يجز به هوّن عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير الى النار وعن بعضهم انه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له فأنت كيف تجده فقال كأن السموات مطبقة على الارض وكأن نفسي يخرج من ثقب ابرة وقال صلى الله عليه وسلم موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر وروى عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والارض لماتوا باذن الله تعالى لان في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشئ الا مات ويروى لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت وروى أن ابراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت يا خليلي قال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب فقال اما انا قد هونا عليك وروى عن موسى عليه السلام انه لما صارت روحه الى الله تعالى قال له ربه يا موسى كيف وجدت الموت قال وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير وروى

عنه انه قال وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون علي سكرات الموت وفاطمة رضي الله عنها تقول واكرباه لكربك يا ابتاه وهو يقول لا كرب على أبيك بعد اليوم وقال عمر رضي الله عنه لكعب الاحبار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا أمير المؤمنين ان الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل واخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما اخذ وأبقى ما أبقى وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقني وأفارقك الى يوم القيامة فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فان دواهي الموت ثلاث * (الاولى) * شدة النزع كما ذكرناه * (الداهية الثانية) * مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته فقد روى عن ابراهيم الخليل عليه السلام انه قال لملك الموت هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر قال لا تطيق ذلك قال بلى قال فأعرض عني فأعرض عنه ثم التفت فاذا هو برجل اسود قائم الشعر منتن الريح اسود الثياب يخرج من فيه ومناخره لهيب النار والدخان فغشي على ابراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت الى صورته الاولى فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت الا صورة وجهك لكان حسبه وروى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان اذا خرج أغلق الابواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فاذا هي برجل في الدار فقالت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء فجاء داود فرآه فقال من أنت فقال أنا الذي لا اهاب الملوك ولا يمتنع مني الحجاب فقال فأنت والله اذا ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه وروى أن عيسى عليه السلام مر بجمجمة فضربها برجله فقال تكلمي باذن الله فقالت يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي اذ بدا الى ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله ثم خرجت نفسي اليه فياليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ويا ليت ما كان من ذلك الانس كان وحشة فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون فقد حكى الانبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها في منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال وأما المطيع فانه يراه في أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن ابراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فاذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فاذا برجل في جوف البيت فقال من أدخلك داري فقال أدخلنيها ربها فقال أنا ربها فقال أدخلنيها من هو أملك بها

مني وسلك فقال من أنت من الملائكة قال انا ملك الموت قال هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن قال نعم فأعرض عنى فأعرضت ثم التفت فاذا هو بشاب قد كرمن حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال ياملك الموت لولم يلق المؤمن عند الموت الا صورتك كان حسبه ومنها مشاهدة الملكين الحافظين قال وهيب بلغنا انه مامن ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله فان كان مطيعا قالا له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق اجلستنا وعمل صالح أحضرتنا وان كان فاجرا قالا له لاجزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء اجلستنا وعمل غير صالح احضرتنا وكلام قبيح اسمعتنا فلاجزاك الله عنا خيرا فذلك شخوص بصر الميت اليهما ولا يرجع الى الدنيا ابدا

(الداهية الثالثة) مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فانهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج ارواحهم ولن تخرج ارواحهم مالم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشر يين اما أبشر ياعدو الله بالنار أو أبشر ياولى الله بالجنة ومن هذا كان خوف ارباب الالباب وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لن يخرج احدكم من الدنيا حتى يعلم اين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة او النار وقال صلى الله عليه وسلم من احب لقاء الله احب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذاك بذاك ان المؤمن اذا فرج له عما هو قادم عليه احب لقاء الله وأحب الله لقاءه وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لمابه من آخر الليل قم فانظر اى ساعة هى فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء فقال حذيفة اعوذ بالله من صباح الى النار ودخل مروان على ابى هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه فقال ابو هريرة اللهم اشدد ثم بكى ابو هريرة وقال والله ما ابكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكنى أنتظر احدى البشريين من ربى بجنة ام بنار وروى فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله اذا رضى عن عبد قال ياملك الموت اذهب الى فلان فائتنى بروحه لاريحه حسبى من عمله قد بلوته فوجدته حيث احب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان فاذا نظر اليهم ابليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده مالك ياسيدنا فيقول أما ترون ما اعطى هذا العبد من الكرامة اين كنتم من هذا قالوا قد جهدنا به فكان معصوما وقال الحسن لا راحة للمؤمن الا فى لقاء الله ومن كانت راحته فى لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه وقيل لجابر بن زيد عند الموت ماتشتهى قال نظرة الى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه اليه ثم قال ياأخواناه الساعة والله افارقكم الى النار أو الى الجنة وقال محمد بن واسع عند الموت ياأخواناه عليكم السلام الى النار أو يعفو الله وتمنى بعضهم أن يبقى فى النزع ابدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهى العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه فى

كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع ولكنا لا نطوّل بذكره واعادته

(بيان ما يستحب من احوال المحتضر عند الموت)

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ارقبوا الميت عند ثلاث اذا رشح جبينه ودمعت عيناه ويبست شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به واذا غط غطيط المخنوق واحمرّ لونه واربدّت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير قال ابو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقنوا موتاكم لا اله الا الله وفي رواية حذيفة فانها تهدم ما قبلها من الخطايا وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات وهو يعلم أن لا اله الا الله دخل الجنة وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمان اذا احتضر الميت فلقنوه لا اله الا الله فانه ما من عبد يختم له بها عند موته الا كانت زاده الى الجنة وقال عمر رضي الله عنه احضروا موتاكم وذكروهم فانهم يرون ما لا ترون ولقنوهم لا اله الا الله وقال ابو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيأ ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول لا اله الا الله فغفر له بكلمة الاخلاص وينبغي للملقن أن لا يلح في التلقين ولكن يتلطف فربما لا ينطلق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدى الى استثقاله التلقين وكراهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة وانما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شئ غير الله فاذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه وان كان القلب مشغوفا بالدنيا ملتفتا اليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطق القلب على تحقيقها وقع الامر في خطر المشيئة فان مجرّد حركة اللسان قليل الجدوى الا أن يتفضل الله تعالى بالقبول وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء وقد وردت الاخبار بفضل حسن الظن بالله دخل واثلة بن الاسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله قال أغرقتني ذنوب لي وأشرفت على هلكة ولكني ارجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر اهل البيت بتكبيره وقال الله اكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يقول الله تعالى انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك قال ارجو الله وأخاف ذنوبي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا اعطاه الله الذي يرجو وامنه من الذي يخاف وقال ثابت البناني كان شاب به حدّة وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له يا بني ان لك يوما فاذكر يومك فلما نزل به امر الله تعالى اكبت عليه امه وجعلت تقول له يا بني قد كنت احذرك مصرعك هذا واقول ان لك يوما فقال يا امه ان لي ربا كثير المعروف واني لارجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه وقال جابر بن وداعة كان شاب به رهق فاحتضر فقالت

له امه بابي - توصي بشئ قال نعم حامي لا تسليميه فان فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني فلما دفن رؤي في المنام فقال أخبر والدتي أن الكلمة قد نفعتني وأن الله قد غفر لي ٭ ومرض أعرابي فقيل له انك تموت فقال ابن يذهب بي قالوا الى الله قال فما كراهتي أن اذهب الى من لا يرى الخير الا منه وقال ابو المعتمر بن سليمان قال ابي لما حضرته الوفاة يا معتمر حدثني بالرخص لعلي ألقى الله عز وجل - وانا احسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه

٭ (بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب بلسان الحال عنها) ٭

قال اشعث بن اسلم سأل ابراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه فقال يا ملك الموت ما تصنع اذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع قال ادعو الارواح باذن الله فتكون بين اصبعي هاتين وقال قد دحيت له الارض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل - وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالي لا اراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا قال ما انا بذلك بأعلم منك انما هي صحف او كتب تلقى الي فيها أسماء ٭ وقال وهب ابن منبه كان ملك من الملوك اراد أن يركب الى ارض فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه وطلب غيرها حتى لبس ما اعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه حتى اتي بدواب فركب احسنها فجاء ابليس فنفخ في منخره نفخة فملاءه كبرا ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر الى الناس كبرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت امرا عظيما قال ان لي اليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن فقهره على لجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فأدنى له رأسه فساره وقال انا ملك الموت فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى ارجع الى اهلي واقضي حاجتي وأودعهم قال لا والله لا ترى اهلك وثقلك ابدا فقبض روحه فخر كأنه خشبة ثم مضى فلقي عبدا مؤمنا في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال ان لي اليك حاجة اذكرها في اذنك فقال هات فساره وقال أنا ملك الموت فقال اهلا ومرحبا بمن طالت غيبته علي فوالله ما كان في الارض غائب احب الي أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال مالي حاجة اكبر عندي ولا احب من لقاء الله تعالى قال فاختر على اي حال شئت أن اقبض روحك فقال تقدر على ذلك قال نعم اني امرت بذلك قال فدعني حتى اتوضأ وأصلي ثم اقبض روحي وانا ساجد فقبض روحه وهو ساجد ٭ وقال ابو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني اسرائيل مالا فلما اشرف على الموت قال لبنيه أروني اصناف اموالي فأتي بشئ كثير من الخيل والابل والرقيق وغيره فلما نظر اليه بكى تحسرا عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فوالذي خولك ما انا بخارج من منزلك حتى افرق بين روحك وبدنك قال فالمهلة حتى افرقه قال هيهات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك فقبض روحه ٭ وروى أن رجلا جمع مالا

فأوعى ولم يدع صنفا من المال الا اتخذه وابتنى قصرا وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرسا من غلمانه ثم جمع اهله وصنع لهم طعاما وقعد على سريره ورفع احدى رجليه على الاخرى وهم يأكلون فلما فرغوا قال يانفس انعمى لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك فلم يفرغ من كلامه حتى اقبل اليه ملك الموت فى هيئة رجل عليه خلقان من الثياب فى عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين فقرع الباب بشدة عظيمة قرعا افزعه وهو على فراشه فوثب اليه الغلمان وقالوا ماشأنك فقال ادعوا الى مولاكم فقالوا والى مثلك يخرج مولانا قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فعلتم به وفعلتم فقرع الباب قرعة اشد من الاولى فوثب اليه الحرس فقال أخبروه أنى ملك الموت فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع فقال قولوا له قولا لينا وقولوا هل تأخذ به احدا فدخل عليه وقال اصنع فى مالك ما انت صانع فانى لست بخارج منها حتى اخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال انت شغلتنى عن عبادة ربى ومنعتنى أن اتخلى لربى فأنطق الله المال فقال لم تسبنى وقد كنت تدخل على السلاطين بى ويرد المتقى عن بابهم وكنت تنكح المتنعمات بى وتجلس مجالس الملوك بى وتنفقنى فى سبيل الشر فلا امتنع منك ولو أنفقتنى فى سبيل الخير نفعتك خلقت وابن آدم من تراب فمطلق ببر ومنطلق باثم ثم قبض ملك الموت روحه فسقط وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما فى الارض مثله ثم عرج الى السماء فقالت الملائكة لمن كنت اشد رحمة ممن قبضت روحه قال امرت بقبض نفس امرأة فى فلاة من الارض فأتيتها وقد ولدت مولودا فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه فى فلاة لا متعهد له بها فقالت الملائكة الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذى رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء ＊ قال عطاء بن يسار اذا كان ليلة النصف من شعبان دفع الى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض فى هذه السنة من فى هذه الصحيفة قال فان العبد ليغرس الغراس وينكح الازواج ويبنى البنيان وان اسمه فى تلك الصحيفة وهو لا يدرى ＊ وقال الحسن ما من يوم الا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى اجله قبض روحه فاذا قبض روحه أقبل اهله برنة وبكاء فيأخذ ملك الموت بعضادتى الباب فيقول والله ما اكلت له رزقا ولا افنيت له عمرا ولا انتقصت له اجلا وان لى فيكم لعودة بعد عودة حتى لا ابقى منكم احدا قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على انفسهم وقال يزيد الرقاشى بينما جبار من الجبابرة من بنى اسرائيل جالس فى منزله قد خلا ببعض اهله اذ نظر الى شخص قد دخل من باب بيته فثار اليه فزعا مغضبا فقال له من انت ومن ادخلك على دارى فقال أما الذى ادخلنى الدار فربها وأما انا فالذى لا يمنع منى الحجاب ولا استأذن على الملوك ولا اخاف صولة المتسلطنين ولا يمتنع منى كل جبار عنيد ولا شيطان مريد قال فسقط فى يدى الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ثم رفع رأسه اليه مستجديا متذللا له فقال له انت اذا ملك الموت قال انا هو قال فهل انت ممهلى

حتى احدث عهدا قال هيهات انقطعت مدتك واتقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس الى تأخيرك سبيل قال فالى اين تذهب بى قال الى عملك الذى قدمته والى بيتك الذى مهدته قال فانى لم اقدم عملا صالحا ولم امهد بيتا حسنا قال فالى لظى نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين اهله فمن بين صارخ وباك قال يزيد الرقاشى لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك اكثر ۞ وعن الاعمش عن خيثمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال لقد رأيته ينظر الىّ كأنه يريدنى قال فماذا تريد قال اريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى الى اقصى الهند ففعلت الريح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن اتاه ثانيا رأيتك تديم النظر الى واحد من جلسائى قال نعم كنت اتعجب منه لانى كنت امرت أن اقبضه باقصى الهند فى ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك

۞(الباب الرابع) فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

۞(وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم)۞

اعلم أن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة حسنة حيا وميتا وفعلا وقولا وجميع احواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين اذ لم يكن احد اكرم على الله منه اذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل امهله ساعة عند انقضاء مدته وهل اخره لحظة بعد حضور منيته لا بل ارسل اليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض ارواح الانام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعالجوها لترحلوها عن جسده الطاهر الى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل الى مقعد صدق فى جوار الرحمن فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك فيه اهلا وعشيرا وهل سامحه اذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيهات بل امتثل لما كان به مأمورا واتبع ما وجده فى اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض المورود وهو أول من تنشق عنه الارض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن اسراء الشهوات وقرناء المعاصى والسيئات فما بالنا لا نعتبر بمصرع محمد سيد المرسلين وامام المتقين وحبيب رب العالمين لعلنا نظن أنا مخلدون اونتوهم انا مع سوء افعالنا عند الله مكرمون هيهات هيهات بل نتيقن انا جميعا على النار واردون ثم لا ينجو منها الا المتقون فنحن للورود مستيقنون وللصدر عنها متوهمون لا بل ظلمنا انفسنا ان كنا كذلك لغالب الظن منتظرين فما نحن والله من المتقين وقد قال الله رب العالمين وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فلينظر كل عبد الى نفسه انه الى

الظالمين

الظالمين اقرب ام الى المتقين فانظر الى نفسك بعد أن تنظر الى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين ثم انظر الى سيد المرسلين فانه كان من امره على يقين اذ كان سيد النبيين وقائد المتقين واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد امره عند الانقلاب الى جنة المأوى قال ابن مسعود رضى الله عنه دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت امنا عائشة رضى الله عنها حين دنا الفراق فنظر الينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصركم الله وأوصيكم بتقوى الله واوصى بكم الله انى لكم منه نذير مبين أن لا تعلوا على الله فى بلاده وعباده وقد دنا الاجل والمنقلب الى الله والى سدرة المنتهى والى جنة المأوى والى الكاس الاوفى فاقرؤا على انفسكم وعلى من دخل فى دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله. وروى انه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته من لامتى بعدى فأوحى الله تعالى الى جبريل أن بشر حبيبى أنى لا أخذله فى امته وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الارض اذا بعثوا وسيدهم اذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الامم حتى يدخلها امته فقال الآن قرت عينى وقالت عائشة رضى الله عنها امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة ابار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لاهل أحد ودعا لهم وأوصى بالانصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فانكم تزيدون وأصبحت الانصار لا تزيد على هيئتها التى هى عليها اليوم وان الانصار عيبتى التى اويت اليها فأكرموا كريمهم يعنى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال ان عبدا خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى ابو بكر رضى الله عنه وظن انه يريد نفسه فقال النبى صلى الله عليه وسلم على رسلك يا ابا بكر سدوا هذه الابواب الشوارع فى المسجد الا باب ابى بكر فانى لا اعلم امرأ افضل عندى فى الصحبة من ابى بكر قالت عائشة رضى الله عنها فقبض صلى الله عليه وسلم فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ريقى وريقه عند الموت فدخل على اخى عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر اليه فعرفت انه يعجبه ذلك فقلت له آخذه لك فأومأ برأسه اى نعم فناولته اياه فأدخله فى فيه فاشتد عليه فقلت ألينه لك فأومأ برأسه اى نعم فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا اله الا الله ان للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الاعلى الرفيق الاعلى فقلت اذا والله لا يختارنا وروى سعيد بن عبد الله عن ابيه قال لما رأت الانصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا اطافوا بالمسجد فدخل العباس رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم واشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضى الله عنه فأعلمه بمثله فمد يده وقال ها فتناولوه فقال ما تقولون قالوا نقول نخشى أن تموت وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم الى النبى صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج متوكئا على على والفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه

حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال
أيها الناس إنه بلغني أنكم تخافون عليَّ الموت كأنه استنكار منكم للموت وما تنكرون من
موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم هل خلد نبي قبلي فيمن بعث فأخلد فيكم ألا
إني لاحق بربي وإنكم لاحقون به وإني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصي
المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا
إلى آخرها وإن الأمور تجري بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز
وجل لا يعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه فهل عسيتم إن
توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوؤوا
الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم
يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم
وليتجاوز عن مسيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم ألا وإني فرط لكم وأنتم لاحقون بي ألا وإن
موعدكم الحوض حوضي أعرض مما بين بصرى الشام وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب
الكوثر ماء أشد بياضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد من شرب منه لم
يظمأ أبدا حصباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه المسك من حرمه في الموقف غدا حرم الخير كله ألا فمن
أحب أن يرده عليَّ غدا فليكفف لسانه ويده إلا مما ينبغي فقال العباس يا نبيَّ الله أوص
بقريش فقال إنما أوصي بهذا الأمر قريشا والناس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم
لفاجرهم فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل
القسم فإذا برَّ الناس برهم أئمتهم وإذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى وكذلك نولي
بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وروى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى
الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا الأجل
فقال قد دنا الأجل وتدلى فقال ليهنك يا نبي الله ما عند الله فليت شعري عن منقلبنا
فقال إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والكأس الأوفى
والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنا فقال يا نبي الله من يلي غسلك قال رجال من أهل
بيتي الأدنى فالأدنى قال ففيم نكفنك قال في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي بياض مصر
فقال كيف الصلاة عليك منا وبكينا وبكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم
خيرا إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم
اخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلي عليَّ الله عز وجل هو الذي يصلي عليكم وملائكته
ثم يأذن للملائكة في الصلاة علي فأول من يدخل علي من خلق الله ويصلي علي جبريل ثم
ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم
أجمعين ثم أنتم فادخلوا عليَّ أفواجا فصلوا عليَّ أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذوني
بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ثم زمر النساء
ثم زمر الصبيان قال فمن يدخل القبر قال زمر من أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة
كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فأدوا عني إلى من بعدي د وقال عبد الله بن زمعة

جاء بلال فى أول ربيع الاول فأذن بالصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا ابابكر يصلى بالناس فخرجت فلم ار بحضرة الباب الاعمر فى رجال ليس فيهم ابو بكر فقلت قم يا عمر فصل بالناس فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال اين ابو بكر يأبى الله ذلك والمسلمون قالها ثلاث مرات مروا ابابكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله ان ابابكر رجل رقيق القلب اذا قام فى مقامك غلبه البكاء فقال انكن صويحبات يوسف مروا ابابكر فليصل بالناس قال فصلى ابو بكر بعد الصلاة التى صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك ويحك ماذا صنعت بى والله لولا أنى ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم امرك مافعلت فيقول عبد الله انى لم أر أحدا اولى بذلك منك قالت عائشة رضى الله عنها وماقلت ذلك ولا صرفته عن ابى بكر الا رغبة به عن الدنيا ولما فى الولاية من المخاطرة والهلكة الامن سلم الله وخشيت ايضا أن لايكون الناس يحبون رجلا صلى فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم وهو حى ابدا الا أن يشاء الله فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فاذا الامر أمر الله والقضاء قضاؤه وعصمه الله من كل ماتخوفت عليه من امر الدنيا والدين * وقالت عائشة رضى الله عنها فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة فى أول النهار فتفرق عنه الرجال الى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينما نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجن عنى هذا الملك يستأذن على فخرج من فى البيت غيرى ورأسه فى حجرى فجلس وتنحيت فى جانب البيت فناجى الملك طويلا ثم انه دعانى فأعاد رأسه فى حجرى وقال للنسوة ادخلن فقلت ماهذا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل ياعائشة هذا ملك الموت جاءنى فقال ان الله عزوجل ارسلنى وأمرنى أن لا أدخل عليك الا باذن فان لم تأذن لى ارجع وان اذنت لى دخلت وأمرنى أن لااقبضك حتى تأمرنى فماذا امرك فقلت اكفف عنى حتى يأتينى جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل قالت عائشة رضى الله عنها فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة مانحير اليه شيئا ومايتكلم احد من اهل البيت اعظاما لذلك الامر وهيبة ملأت اجوافنا قالت وجاء جبريل فى ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج اهل البيت فدخل فقال ان الله عزوجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك وهو أعلم بالذى تجد منك ولكن اراد أن يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة فى أمتك فقال اجدنى وجعا فقال أبشر فان الله تعالى اراد أن يبلغك ماعدلك فقال ياجبريل ان ملك الموت استأذن على وأخبره الخبر فقال جبريل يامحمد ان ربك اليك مشتاق ألم يعلمك الذى يريد بك لا والله ما استأذن ملك الموت على احد قط ولا يستأذن عليه ابدا الا ان ربك متم شرفك وهو اليك مشتاق قال فلا تبرح اذا حتى يجئ وأذن للنساء فقال يافاطمة

ادنى فأكببت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال
أدني مني رأسك فأكببت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام
فكان الذي رأينا منها عجبا فسألتها بعد ذلك فقالت أخبرني وقال إني ميت اليوم
فبكيت ثم قال إني دعوت الله أن يلحقك بي في أول أهلي وأن يجعلك معي فضحكت
وأدنت ابنيها منه فشمهما قالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك
ما تأمرنا يا محمد قال ألحقني بربي الآن فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق
ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ولكن
ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر
ما أنزل فيه إلى الأرض إذ انطوى الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة
غيرك ومالي فيه حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمدا بالحق ما في البيت
أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما سمع من
حديثه ووجدنا وأسنا قالت فقمت إلى النبي صلى الله عليه حتى أضع رأسه بين ثديي
وأمسكت بصدره وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا ما رأيته من
انسان قط فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول
له إذا أفاق بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح فقال يا عائشة إن نفس
المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار فعند ذلك ارتعنا
وبعثنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي بعثه إلي أبي فمات رسول الله
صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل
وجعل إذا أغمي عليه قال بل الرفيق الأعلى كأن الخيرة تعاد عليه فإذا أطاق الكلام
قال الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعا الصلاة الصلاة كان يوصي بها
حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة قالت عائشة رضي الله عنها مات رسول الله صلى الله
عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين قالت فاطمة رضي الله عنها
ما لقيت من يوم الاثنين والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم يوم
أصيب علي كرم الله وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين مات فيه رسول الله
صلى الله عليه وسلم وفيه قتل علي وفيه قتل أبي فما لقيت من يوم الاثنين وقالت
عائشة رضي الله عنها لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حتى ارتفعت
الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبي فاختلفوا فكذب بعضهم بموته
وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان وبقي
آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلي فيمن
أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لم يمت وليرجعنه الله عز وجل وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول
الله صلى الله عليه وسلم الموت إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم وفي
رواية أنه قال يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم

والله لا اسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات الا علوته بسيفي هذا» وأما علي فانه اقعد فلم يبرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فان الله عز وجل ايدهما بالتوفيق والسداد وان كان الناس لم يرعووا الا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لا اله الا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين اظهركم انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث ابن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر اليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال بأبي أنت وامي يا رسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج الى الناس فقال ايها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فانه حي لا يموت قال الله تعالى وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم الآية فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية الا يومئذ وفي رواية أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول بأبي أنت وامي ونفسي وأهلي طبت حيا وميتا انقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الانبياء والنبوة فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ولولا انك نهيت عن البكاء لانفدنا عليك ماء العيون فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وادكار محالفان لا يبرحان اللهم فأبلغه عنا اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ولنكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا» وعن ابن عمر انه لما دخل أبو بكر البيت وصلى واثنى عج أهل البيت عجيجا سمعه أهل المصلى كلما ذكر شيئا ازدادوا فما سكن عجيجهم الا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال السلام عليكم يا أهل البيت كل نفس ذائقة الموت الآية ان في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا فاستمعوا له وانكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع احدهم فلم ير أحدا ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته يا أهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ان في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغيبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم واستوفى القعقاع ابن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال قام ابو بكر في الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله واثنى عليه على كل حال وقال أشهد أن لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده

وغلب الاحزاب وحده فلله الحمد وحده وأشهد ان محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه
واشهد ان الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع وان الحديث كما حدث وان القول كما قال وان
الله هو الحق المبين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك
وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك اللهم واجعل صلواتك
ومعافاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وامام المتقين محمد قائد
الخير وامام الخير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاما
محمودا يغبطه به الاولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا
في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد
وبارك على محمد وآل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم انك حميد مجيد أيها الناس
انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لم يمت وان
الله قد تقدم اليكم في أمره فلا تدعوه جزعا فان الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله
عليه وسلم ما عنده على ما عندكم وقبضه الى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى
الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما انكر يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين
بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان عن نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا
الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم وقال ابن عباس لما فرغ
أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني انك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه
وسلم اما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا كذا وكذا ويوم كذا كذا وكذا
وقال تعالى في كتابه انك ميت وانهم ميتون فقال والله لكأني لم أسمع بها في كتاب
الله قبل الآن لما نزل بنا أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن
الله حي لا يموت انا لله وانا اليه راجعون وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب
رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس الى أبي بكر وقالت عائشة رضي الله عنها لما اجتمعوا
لغسله قالوا والله ما ندري كيف نغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم انجرده عن ثيابه
كما نصنع بموتانا أو نغسله في ثيابه قالت فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل الا
واضع لحيته على صدره نائما ثم قال قائل لا يدرى من هو اغسلوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه حتى
اذا فرغوا من غسله كفن وقال علي كرم الله وجهه أردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فأقررناه فغسلناه في قميصه كما نغسل موتانا
مستلقيا ما نشاء أن نقلب لنا منه عضوا لم يبالغ فيه الا قلب لنا حتى نفرغ منه
وان معنا لحفيفا في البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه
وسلم فانكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا
ولا لبدا الا دفن معه قال ابو جعفر فرش لحده بفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها
التي كان يلبس يقظان على القطيفة والفرش ثم وضع عليها في اكفانه فلم يترك بعد
وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة ففي وفاته عبرة

بالغة

تامة وللمسلمين به اسوة حسنة

(وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه)

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولي وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فان الحي الى الجديد أحوج من الميت وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته

وابيض يستسقى الغمام بوجهه * ربيع اليتامى عصمة للارامل

فقال أبو بكر ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعولك طبيبا ينظر اليك قال قد نظر الى طبيبي وقال اني فعال لما اريد ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يعوده فقال يا أبا بكر أوصنا فقال ان الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها الا بلاغك واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تحقرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف فاستخلف عمر رضي الله عنه فقال الناس له استخلفت علينا فظا غليظا فماذا تقول لربك فقال أقول استخلفت على خلقك خير خلقك ثم ارسل الى عمر رضي الله عنه فجاء فقال اني موصيك بوصية اعلم أن لله حقا في النهار لا يقبله في الليل وان لله حقا في الليل لا يقبله في النهار وانه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق أن يثقل وانما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل أن يخف وان الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل انا دون هؤلاء ولا ابلغ مبلغ هؤلاء فان الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا فيقول القائل انا أفضل من هؤلاء وان الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا راهبا ولا يلقي بيديه الى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق فان حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب اليك من الموت ولا بدلك منه وان ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض اليك من الموت ولا بدلك منه ولست تعجزه وقال سعيد بن المسيب لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه اتاه ناس من الصحابة فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فانا نراك لما بك فقال أبو بكر من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الافق المبين قالوا وما الافق المبين قال قاع بين يدي العرش فيه رياض وأنهار وأشجار يغشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه في ذلك المكان اللهم انك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك اليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير اللهم انك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل

أن تجامعهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تسقني بمعاصيك اللهم انك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك اللهم ان أحدا لا يشاء حتى تشاء فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني اليك اللهم انك قدرت حركات العباد فلا يتحرك شئ الا باذنك فاجعل حركاتي في تقواك اللهم انك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فاجعلني من خير القسمين اللهم انك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا فاجعلني من سكان جنتك اللهم انك اردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم فاشرح صدري للايمان وزينه في قلبي اللهم انك دبرت الامور فجعلت مصيرها اليك فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقربني اليك زلفى اللهم من أصبح وامسى ثقته ورجاؤه غيرك فانت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوة الا بالله قال ابو بكر هذا كله في كتاب الله عز وجل

(وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه)

قال عمرو بن ميمون كنت بالغداة اصيب عمر ما بيني وبينه الا عبد الله بن عباس وكان اذا مر بين الصفين قام بينهما فاذا رأى خللا قال استووا حتى اذا لم ير فيهم خللا تقدم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف او النحل او نحو ذلك في الركعة الاولى حتى يجتمع الناس فما هو الا أن كبر فسمعته يقول قتلني او أكلني الكلب حين طعنه ابو لؤلؤة وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا او شمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم تسعة وفي رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن العلج انه مأخوذ نحر نفسه وتناول عمر رضي الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الامر غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن العباس انظر من قتلني قال فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة فقال عمر رضي الله عنه قاتله الله لقد كنت امرت به معروفا ثم قال الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل مسلم قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقا فقال ابن عباس ان شئت فعلت أي ان شئت قتلناهم قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا الى قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل الى بيته فانطلقنا معه قال وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال فقائل يقول اخاف عليه وقائل يقول لا بأس فأتي بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ثم أتي بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فعرفوا انه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الاسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لا علي ولا لي فلما أدبر الرجل اذا ازاره يمس الارض فقال ردوا علي الغلام فقال يا ابن اخي ارفع ثوبك فانه انقى لثوبك واتقى لربك ثم قال يا عبد الله انظر ما علي من الدين فحسبوه فوجدوه

ستة وثمانين ألفا أو نحوه فقال ان وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم والا فسل في بني عدي بن كعب فان لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم الى غيرهم وادعني هذا المال انطلق الى ام المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام و يستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال ارفعوني فأسنده رجل اليه فقال مالديك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال الحمد لله ما كان شئ أهم الي من ذلك فاذا أنا قضيت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر فان أذنت لي فأدخلوني وان ردتني ردوني الى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت داخلا فسمعنا بكاءها من داخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف فقال ما أرى أحق بهذا الامر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شئ كهيئة التعزية له فان اصابت الامارة سعدا فذاك والا فليستعن به ايكم أمر فاني لم أعزله من عجز ولا خيانة وقال أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الاولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالانصار خيرا الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه بأهل الامصار خيرا فانهم ردء الاسلام وحياة الاموال وغيظ العدو وأن لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضى منهم وأوصيه بالاعراب خيرا فانهم أصل العرب ومادة الاسلام أن يؤخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من ورائهم ولا يكلفوا الا طاقتهم * قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب فقالت أدخلوه فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال لي جبريل عليه السلام ليبك الاسلام على موت عمر وعن ابن عباس قال وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعني الا رجل قد أخذ بمنكبي فالتفت فاذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال ماخلفت أحدا أحب الي أن ألقى الله بمثل عمله منك وايم الله ان كنت لاظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك اني كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر فاني كنت لارجوا ولاظن أن يجعلك الله معهما

(وفاة عثمان رضي الله عنه)

الحديث في قتله مسموم وقد قال عبد الله بن سلام أتيت أخي عثمان لاسلم عليه وهو محصور وقد دخلت عليه فقال مرحبا يا أخي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة وهي خوخة في البيت فقال يا عثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فأدلى الي دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت حتى اني لاجد برده بين ثديي وبين كتفي وقال لي ان شئت نصرت عليهم وان شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط قالوا سمعناه يقول اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا والذي نفسي بيده لودعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا الى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال ائتوني بصاحبيكم اللذين ألباكم علي قال فجيء بهما كأنهما جملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال انشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشتري رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر قالوا اللهم نعم قال انشدكم الله والاسلام هل تعلمون اني جهزت جيش العسرة من مالي قالوا نعم قال انشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن اصلي فيها ركعتين قالوا اللهم نعم قال انشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير مكة ومعه أبو بكر وعمر وانا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال اسكن ثبير فما عليك الا نبي وصديق وشهيدان قالوا اللهم نعم قال الله اكبر شهدوا لي ورب الكعبة اني شهيد وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضرب والدما تسيل على لحيته جعل يقول لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين اللهم اني استعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني

(وفاة علي كرم الله وجهه)

قال الاصبغ الحنظلي لما كانت الليلة التي اصيب فيها علي كرم الله وجهه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام علي يمشي وهو يقول

اشدد حيازيمك للموت ۞ فان الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت ۞ اذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت ام كلثوم ابنة علي رضي الله عنه فجعلت تقول مالي ولصلاة الغداة قتل زوجي امير المؤمنين صلاة الغداة وقتل أبي

صلاة الغداة وعن شيخ من قريش أن عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن علي انه لما ضرب اوصى بنيه ثم لم ينطق الا بلا اله الا الله حتى قبض ولما ثقل الحسن بن علي رضي الله عنهما دخل عليه الحسين رضي الله عنه فقال يا اخي لاي شيء تجزع تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى علي بن ابي طالب وهما ابواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما امّاك وعلى حمزة وجعفر وهما عماك قال يا اخي اقدم على امر لم اقدم على مثله وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضي الله عنه وأيقن انهم قاتلوه قام في اصحابه خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد نزل من الامر ما ترون وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واشمرت حتى لم يبق منها الا كصبابة الاناء الا خسيس من عيش كالمرعى الوبيل الا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى واني لا ارى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا جرما ❊

(الباب الخامس في كلام المحتضرين من الخلفاء والامراء والصالحين)❊

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال أقعدوني فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطام ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان وبكى حتى علا بكاؤه وقال يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولم يثق بأحد سواك وروى عن شيخ من قريش انه دخل مع جماعة عليه في مرضه فرأوا في جلده غضونا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فهل الدنيا اجمع الا ما جربنا ورأينا أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا واستلذذنا بعيشنا فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة فأصبحت الدنيا وقد وترتنا واخلقتنا واستلامت الينا أف للدنيا من دار ثم أف لها من دار ويروى ان آخر خطبة خطبها معاوية أن قال أيها الناس اني من زرع قد استحصد واني قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدي الا وهو شر مني كما كان من قبلي خيرا مني ويا يزيد اذا وفي اجلي فول غسلي رجلا لبيبا فان اللبيب من الله بمكان فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ثم اعمد الى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة انفي وفمي واذني وعيني واجعل الثوب على جلدي دون اكفاني ويا يزيد احفظ وصية الله في الوالدين فاذا ادرجتموني في جديدي ووضعتموني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين وقال محمد بن عقبة لما نزل بمعاوية الموت قال يا ليتني كنت رجلا من قريش بذي طوى واني لم ال من هذا الامر شيئا ❊ ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر الى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة فقال عبد الملك ليتني كنت غسالا آكل كسب يدي يوما بيوم ولم أل من أمر الدنيا شيئا فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم اذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه واذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه كيف تجدك يا أمير المؤمنين قال

أحدكم كما قال الله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم الآية وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعته يقول تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ثم هدأ فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له انظر أنائم هو فلما دخل صاح فوثبت فاذا هو ميت وقيل له لما حضره الموت اعهد يا أمير المؤمنين قال احذركم مثل مصرعي هذا فانه لا بد لكم منه وروي انه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعي له طبيب فلما نظر اليه قال أرى الرجل قد سقي السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم قال الطبيب هل حسست بذلك يا أمير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال فتعالج يا أمير المؤمنين فاني أخاف أن تذهب نفسك قال ربي خير مذهوب اليه والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني ما رفعت يدي الى أذني فتناولته اللهم خر لعمر في لقائك فلم يلبث الا أياما حتى مات وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل ما يبكيك يا أمير المؤمنين أبشر فقد أحيا الله بك سننا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله الا أن يلقنها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث الا يسيرا حتى مات ولما قرب وقت موته قال أجلسوني فأجلسوه فقال أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ثلاث مرات ولكن لا اله الا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر فقيل له في ذلك فقال اني لأرى خضرة ما هم بانس ولا جن ثم قبض رحمه الله . وحكي عن هارون الرشيد انه انتقى أكفانه بيده عند الموت وكان ينظر اليها ويقول ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه وفرش المأمون رمادا واضطجع عليه وكان يقول يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان المعتصم يقول عند موته لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت ما فعلت . وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين فقال ليس الا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر الى صناديق فيها مال من يأخذها بما فيها ليته كان بعرا وقال الحجاج عند موته اللهم اغفر لي فان الناس يقولون انك لا تغفر لي فكان عمر ابن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ولما حكي ذلك للحسن قال أقالها قيل نعم قال عسى

(بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين)

لما حضر معاذا رضي الله عنه الوفاة قال اللهم اني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم انك تعلم اني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الانهار ولا لغرس

الاخبار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر ولما اشتد به النزع ونزع نزعا لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب اخنقني خنقك فوعزتك انك تعلم أن قلبي يحبك * ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال ما ابكي جزعا على الدنيا ولكن عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فاذا قيمته بضعة عشر درهما * ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته واحزناه فقال بل واطرباه غدا نلقى الاحبه محمدا وحزبه وقيل فتح عبد الله بن المبارك عينيه عند الوفاة وضحك وقال لمثل هذا فليعمل العاملون * ولما حضر ابراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال أنتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة أو بالنار * ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك فقال والله ما ابكي لذنب أعلم اني أتيته ولكن أخاف اني أتيت شيئا حسبته هينا وهو عند الله عظيم * ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال ما ابكي جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن ابكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء * ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال وابعد سفراه واقلة زاداه * ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه اجعل رأسي على التراب فبكى نصر فقال له ما يبكيك قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هوذا تموت فقيرا غريبا قال اسكت فاني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الاغنياء وأن يميتني موت الفقراء ثم قال له لقني ولا تعد علي ما لم اتكلم بكلام ثان * وقال عطاء ابن يسار تبدى ابليس لرجل عند الموت فقال له نجوت فقال ما آمنك بعد * وبكى بعضهم عند الموت فقيل له ما يبكيك قال آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل انما يتقبل الله من المتقين * ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال ان امرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره وان امرا هذا آخره لجدير أن يزهد في اوله * وقال الحريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرأ القرآن فختم فقلت له في هذه الحالة يا أبا القاسم فقال ومن اولى بذلك مني وهوذا تطوى صحيفتي * وقال رويم حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول

حنين قلوب العارفين الى الذكر * وتذكارهم وقت المناجاة للسر
اديرت كؤوس للمنايا عليهم * فأغفوا عن الدنيا كاغفاء ذي الشكر
همومهم جوالة بمعسكر * به أهل ود الله كالانجم الزهر
فاجسامهم في الارض قتلى بحبه * وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري
فما عرسوا الا بقرب حبيبهم * وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد ان أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت فقال لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا * وقيل لذي النون عند موته ما تشتهي قال أن اعرفه قبل موتي بلحظة * وقيل لبعضهم وهو في النزع قل الله فقال الى متى تقولون وأنا محترق بالله وقال بعضهم كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير وقال السلام عليكم هل هنا موضع نظيف

يمكن الانسان أن يموت فيه قال فأشاروا اليه بمكان وكان ثم عين ماء فجدد الغسل الوضوء وركع ماشاء الله ومضى الى ذلك المكان ومد رجليه ومات * وكان ابو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه فصاحت امرأة تواجدا فقال لها موتي فقامت المرأة فلما بلغت باب الدار التفتت اليه وقالت قد مت ووقعت ميتة * ويحكى عن فاطمة اخت أبي علي الروذباري قالت لما قرب أجل ابي علي الروذباري وكان رأسه في حجري فتح عينيه وقال هذه ابواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا ابا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وان لم تردها ثم أنشأ يقول

وحقك لا نظرت الى سواكا * بعين مودة حتى اراكا

اراك معذبي بفتور لحظ * وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد قل لا اله الا الله فقال ما نسيته فأذكره * وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ما الذي رأيت منه فقال قال علي درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بالوف فما على قلبي شغل أعظم منه ثم قال وضئني للصلاة ففعلت فنسيت تخليل لحيته وقد أمسك على لسانه فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره ادب من آداب الشريعة * وقيل لبشر ابن الحارث لما احتضر وكان يشق عليه كأنك تحب الحياة فقال القدوم على الله شديد * وقيل لصالح بن مسمار ألا توصي بابنك وعيالك فقال اني لأستحي من الله أن اوصي بهم الى غيره * ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه اصحابه فقالوا أبشر فانك تقدم على رب غفور رحيم فقال لهم ألا تقولون احذروا فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير * ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له أوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم * واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها ما يبكيك فقالت عليك ابكي فقال ان كنت باكية فابكي على نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم اربعين سنة * وقال الجنيد دخلت على سري السقطي اعوده في مرض موته فقلت كيف تجدك فانشأ يقول

كيف اشكو الى طبيبي ما بي * والذي بي اصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لا روحه فقال كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق ثم أنشأ يقول

القلب محترق والدمع مستبق * والكرب مجتمع والصبر مفترق

كيف القرار على من لا قرار له * مما جناه الهوى والشوق والقلق

يارب ان يك شئ فيه لي فرج * فامنن علي به ما دام بي رمق

وحكي أن قوما من اصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا اله الا الله فأنشأ يقول

ان بيتا أنت ساكنه * غير محتاج الى السرج

وجهك المأمول حجتنا * يوم يأتي الناس بالحجج

لا أتاح الله لي فرجا * يوم ادعو منك بالفرج

وحكى

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد فى وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرنى فانى كنت فى وردى ثم ولى وجهه الى القبلة وكبر ومات * وقيل للكتانى لما حضرته الوفاة ما كان عملك فقال لو لم يقرب اجلى ما اخبرتكم به وقفت على باب قلبى اربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه * وحكى عن المعتمر قال كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فانه كان وكان فذكرت محاسنه فأفاق فقال من المتكلم فقلت أنا فقال ان ملك الموت عليه السلام يقول لى انى بكل سخى رفيق ثم طفى * ولما حضرت يوسف ابن اسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقا فقال يا أبا محمد هذا اوان القلق والجزع فقال يا أبا عبد الله وكيف لا اقلق ولا اجزع وانى لا أعلم انى صدقت الله فى شئ من عملى فقال حذيفة واعجبا لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته انه لا يعلم انه صدق الله فى شئ من عمله وعن المغازلى قال دخلت على شيخ من أصحاب هذه الصفة وهو عليل وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بى ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينورى فى وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما اعرتها طرفى وقيل لرويم عند الموت قل لا اله الا الله فقال لا احسن غيره ولما حضر الثورى الوفاة قيل له قل لا اله الا الله فقال أليس ثم أمر ودخل المزنى على الشافعى رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له كيف اصبحت يا أبا عبد الله فقال اصبحت من الدنيا راحلا وللاخوان مفارقا ولسوء عملى ملاقيا ولكاس المنية شاربا وعلى الله تعالى واردا ولا أدرى اروحى تصير الى الجنة فاهنيها ام الى النار فأعزيها ثم انشأ يقول

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى * جعلت رجاءى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته * بعفوك ربى كان عفوك اعظما
فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل * تجود وتعفو منة وتكرما
ولولاك لم يغوى بابليس عابد * فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضر احمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسألة فدمعت عيناه وقال يا بنى باب كنت ادقه خمسا وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لى لا أدرى ايفتح بالسعادة او بالشقاوة فأنى لى اوان الجواب فهذه أقاويلهم وانما اختلفت بحسب اختلاف احوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالاضافة الى احوالهم

(الباب السادس فى اقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور)

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لاهل الغفلة فانها لا تزيدهم مشاهدتها الا قساوة لانهم يظنون انهم ابدا الى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون انهم لا محالة على الجنائز يحملون او يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا يحسبون فبطل حسبانهم وانقرض على القرب

ربما لم ينظر عبد الى جنازة الا وقد رأى نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكأن قد ولعله في غد أو بعد غد يروى عن ابي هريرة انه كان اذا رأى جنازة قال امضوا فانا على الاثر وكان مكحول الدمشقي اذا رأى جنازة قال اغدوا فانا رائحون موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الاول والآخر لا عقل له وقال اسيد بن حضير ما شهدت جنازة فحدثتني نفسي بشئ سوى ما هو مفعول به وما هو صائر اليه ولما مات اخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول والله لا تقر عيني حتى أعلم الى ماذا صرت اليه ولا اعلم ما دمت حيا وقال الاعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن الجميع وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا نرى الا متقنعا باكيا فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لا ننظر الى جماعة يحضرون جنازة الا واكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون الا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأقاربه الا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم الى ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله اذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة الا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والاهوال التي بين ايدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فان احسن احوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ولو عقلوا لبكوا على انفسهم لا على الميت . نظر ابراهيم الزيات الى اناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على انفسكم لكان خير لكم انه نجا من اهوال ثلاثة وجه ملك الموت وقد رأى ومرارة الموت وقد ذاق وخوف الخاتمة وقد أمن وقال ابو عمرو بن العلاء جلست الى جرير وهو يملي على كاتبه شعرا فاطلعت جنازة فأمسك وقال شيبتني والله هذه الجنائز وانشأ يقول

تروعنا الجنائز مقبلات . ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب * فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكر والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه ومن آدابه حسن الظن بالميت وان كان فاسقا واساءة الظن بالنفس وان كان ظاهرها الصلاح فان الخاتمة مخطرة لا تدري حقيقتها ولذلك روي عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلي في قبره وقف على قبره وقال يرحمك الله يا ابا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وان قالوا مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا . ويحكى أن رجلا من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته اذ لم يدر بها احد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملها الى المصلى فما صلى عليه احد فحملتها الى الصحراء للدفن وكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلي عليها فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان فخرج اهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه

فقال

فقال قيل لى فى المنام ازل الى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها احد الا امرأة فصل عليه فانه مغفور له فراد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وانه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره فى الماخور مشغولا بشرب الخمر فقال انظرى هل تعرفين منه شيأ من أعمال الخير قالت نعم ثلاثة اشياء كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح فى جماعة ثم يعود الى الماخور ويشتغل بالفسق والثانى انه كان ابدا لا يخلو بيته من يتيم او يتيمين وكان احسانه اليهم أكثر من احسانه الى اولاده وكان شديد التفقد لهم والثالث انه كان يفيق فى اثناء سكره فى ظلام الليل فيبكى ويقول يارب اى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملاها بهذا الخبيث يعنى نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع اشكاله من امره ٭ وعن صلة بن اشيم وقد دفن اخا له فقال على قبره

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة ٭ والا فانى لا اخالك ناجيا

٭(بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور)٭

قال الضحاك قال رجل يارسول الله من ازهد الناس قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعدّ غدا من ايامه وعدّ نفسه من اهل القبور ٭ وقيل لعلىّ كرم الله وجهه ما شانك جاورت المقبرة قال انى اجدهم خير جيران انى اجدهم جيران صدق يكفون الالسنة ويذكرون الآخرة ٭ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيت منظرا الا والقبر افظع منه ٭ وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقابر فجلس الى قبر وكنت ادنى القوم منه فبكى وبكيت وبكوا فقال ما يبكيكم قلنا بكينا لبكائك قال هذا قبر أمى آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى فاستأذنته أن استغفر لها فأبى علىّ فادركنى ما يدرك الولد من الرقة ٭ وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه اذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فسئل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتبكى اذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان القبر اول منازل الآخرة فان نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وان لم ينج منه فما بعده اشدّ ٭ وقيل ان عمرو بن العاص نظر الى المقبرة فنزل وصلى ركعتين فقيل له هذا شئ لم تكن تصنعه فقال ذكرت اهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن اتقرب الى الله بها ٭ وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول انا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة هذا ما اعددت لك فما اذا أعددت لى ٭ وقال ابوذر ألا اخبركم بيوم فقرى يوم اوضع فى قبرى ٭ وكان ابو الدرداء يقعد الى القبور فقيل له فى ذلك فقال أجلس الى قوم يذكرونى معادى واذا قمت لم يغتابونى ٭ وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول يا اهل القبور مالى اذا دعوتكم لا تجيبونى ثم يقول حيل والله بينهم وبين جوابى وكأنى بى اكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة الى طلوع الفجر ٭ وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد أرقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه انك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الانس

مسلسله ولرأيت بيتا تحول فيه الهوام ويجرى فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الاكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب قال ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه ، وكان يزيد الرقاشي يقول ايها المقبور في حفرته والمتخلى في القبر بوحدته المستأنس في بطن الارض بأعماله ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأي اخوانك اغتبطت ثم يبكي حتى يبل عمامته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله باخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان اذا نظر الى القبور خار كما يخور الثور ، وقال حاتم الاصم من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم ، وكان بكر العابد يقول يا اماه ليتك كنت بي عقيما ان لابنك في القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رحيلا وقال يحيى بن معاذ يا ابن آدم دعاك ربك الى دار السلام فانظر من اين تجيبه ان اجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة اليه دخلتها وان أجبته من قبرك منعتها ، وكان الحسن بن صالح اذا اشرف على المقابر يقول ما احسن ظواهرك انما الدواهي في بواطنك وكان عطاء السلمي اذا جن عليه الليل خرج الى المقبرة ثم يقول يا اهل القبور متم فواموتاه وعاينتم اعمالكم فواعملاه ثم يقول غدا عطاء في القبور غدا عطاء في القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح ، وقال سفيان من اكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار ، وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبرا فكان اذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول رب ارجعوني لعلي اعمل صالحا فيما تركت يرددها ثم يرد على نفسه يا ربيع قد رجعتك فاعمل ، وقال احمد بن حرب تتعجب الارض من رجل يمهد مضجعه ويسوي فراشه للنوم فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شيء ، وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز الى المقبرة فلما نظر الى القبور بكى ثم اقبل علي فقال يا ميمون هذه قبور آبائي بني امية كأنهم لم يشاركوا اهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلاء واصابت الهوام مقيلا في ابدانهم ثم بكى وقال والله ما اعلم احدا انعم ممن صار الى هذه القبور وقد امن من عذاب الله ، وقال ثابت البناني دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فاذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يغرنك صموت اهلها فكم من نفس مغمومة فيها ، ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت الى جنازة زوجها الحسن بن الحسين فغطت وجهها وقالت

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية ، لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل انها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما فقدوا وسمعوا من الجانب الآخر بل يئسوا فانقلبوا وقال ابو موسى التميمي توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن يا ابا فراس ماذا اعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا اله الا الله منذ ستين سنة فلما دفنت اقام الفرزدق على قبرها فقال

اخاف وراء القبر ان لم تعافنى * اشدّ من القبر التهابا وأضيقا
اذا جاءنى يوم القيامة قائد * عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من اولاد آدم من مشى * الى النار مغلول القلادة ازرقا

وقد أنشدوا فى اهل القبور

قف بالقبور وقل على ساحاتها * من منكم المغمور فى ظلماتها
ومن المكرّم منكم فى قعرها * قد ذاق برد الامن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد * لا يستبين الفضل فى درجاتها
لو جاوبوك لاخبروك بألسن * تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل فى روضة * يفضى الى ما شاء من دوحاتها
والمجرم الطاغى بها متقلب * فى حفرة يأوى الى حياتها
وعقارب تسعى اليه فروحه * فى شدّة التعذيب من لدغاتها

ومرّ داود الطائى على امرأة تبكى على قبر وهى تقول

عدمت الحياة ولا نلتها * اذا كنت فى القبر قد ألحدوكا
فكيف اذوق لطعم الكرى * وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابناه ليت شعرى بأى خدّيك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخرّ مغشيا عليه
* وقال مالك بن دينار مررت بالمقبرة فانشأت اقول

اتيت القبور فناديتها * فأين المعظم والمحتقر
واين المدل بسلطانه * وأين المزكى اذا ما افتخر

قال فنوديت من بينها اسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول

تفانوا جميعا فما مخبر * وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى * فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن اناس مضوا * أما لك فيما ترى معتبر

قال فرجعت وانا باك

(ابيات وجدت مكتوبة على القبور)

وجد مكتوبا على قبر

تناجيك أجداث وهنّ صموت * وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه * لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوبا

ايا غانم أما ذراك فواسع * وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره * اذا كان فيه جسمه يتهدّم

وقال ابن السماك مررت على المقابر فاذا على قبر مكتوب

يمرّ أقاربى جنبات قبرى * كأن أقاربى لم يعرفونى
ذوو الميراث يقتسمون مالى * وما يألون ان جحدوا ديونى

وقد أخذوا أسهامهم وعاشوا * فيالله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر مكتوبا

إن الحبيب من الأحباب مختلس * لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها * يا من يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلا في النقص منغمسا * وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته * ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به * عن الجواب لسانا ما به خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف * فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

ووجدت على قبر آخر مكتوبا

وقفت على الأحبة حين صفت * قبورهم كأفراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعي * رأت عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر طبيب مكتوبا

قد قلت لما قال لي قائل * قد صار لقمان إلى رمسه
فأين ما يوصف من طبه * وحذقه في الماء مع جسه
هيهات لا يدفع عن غيره * من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا

يا أيها الناس كان لي أمل * قصر بي عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل * أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى * كل إلى مثله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها لأنهم عرفوا قدر الأعمال وانكشفت لهم حقائق الأمور فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره ويتخلص من العقاب وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها فوطن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذ لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار فقد قال بعض الصالحين رأيت أخا لي في الله فيما يرى النائم فقلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لأن أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله رب العالمين أحب إلي من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنوني فإن فلانا قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلي من الدنيا وما فيها

(بيان أقاويلهم عند موت الولد)

حق على من مات ولده اوقريب من اقاربه أن ينزله فى تقدمه عليه فى الموت منزلة مالو كانا فى سفر فسبقه الولد الى البلد الذى هو مستقره ووطنه فانه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه انه لاحق به على القرب وليس بينهما الا تقدم وتأخر وهكذا الموت فان معناه السبق الى الوطن الى أن يلحق المتأخر واذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه لا سيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان اقدم سقطا احب الى من أن اخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله وانما ذكر السقط تنبيها بالادنى على الاعلى والا فالثواب على قدر محل الولد من القلب * وقال زيد ابن اسلم توفى ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا فقيل له ما كان عدله عندك قال مثل الارض ذهبا قيل له فان لك من الاجر فى الآخرة مثل ذلك * وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الا كانوا له جنة من النار فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم او اثنان قال او اثنان وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فانه ارجى دعاء واقربه الى الاجابة. وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال اللهم انى اصبحت ارجوك له واخافك عليه فحقق رجاءى وآمن خوفى. ووقف ابو سنان على قبر ابنه فقال اللهم انى قد غفرت له ما وجب لى عليه فاغفر له ما وجب لك عليه فانك اجود واكرم * ووقف أعرابى على قبر ابنه فقال اللهم انى قد وهبت له ما قصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك * ولما مات ذر بن عمر بن ذر قام ابوه عمر بن ذر بعد ما وضع فى لحده فقال يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعرى ماذا قلت وماذا قيل لك ثم قال اللهم ان هذا ذر متعتنى به ما متعتنى ووفيته اجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتى اللهم وما وعدتنى عليه من الاجر فى مصيبتى فقد وهبت له ذلك فهب لى عذابه ولا تعذبه فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر وما بنا الى انسان مع الله حاجة فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك. ونظر رجل الى امرأة بالبصرة فقال ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك الا من قلة الحزن فقالت يا عبد الله انى لفى حزن ما يشركنى فيه احد قال فكيف قالت ان زوجى ذبح شاة فى يوم عيد الاضحى وكان لى صبيان مليحان يلعبان فقال الاكبر للآخر اتريد أن اريك كيف ذبح ابى الشاة قال نعم فأخذه وذبحه وما شعرنا به الا متشحطا فى دمه فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ الى جبل فرهقه ذئب فأكله وخرج ابوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فأفردنى الدهر كما ترى فأمثال هذه المصائب ينبغى أن تتذكر عند موت الاولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فما من مصيبة الا ويتصور ما هو اعظم منها وما يدفعه الله فى كل حال فهو الاكثر

(بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به) *

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار وزيارة قبور الصالحين مستحبة لاجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور

ثم أذن في ذلك بعد روي عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا
هجرا وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ
وفي هذا اليوم قال أذن لي في الزيارة دون الاستغفار كما أوردناه من قبل ه وقال ابن أبي
مليكة أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت
قالت من قبر أخي عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها
قالت نعم ثم أمر بها ولا ينبغي أن تتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر فإنهن
يكثرن الهجر على رؤس المقابر فلا يفي خير زيارتهن بشرها ولا يخلون في الطريق عن
تكشف وتبرج وهذه عظائم والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها نعم لا بأس
بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك
الحديث على رأس القبر ه وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زر القبور تذكر
بها الآخرة واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل
ذلك أن يحزنك فإن الحزين في ظل الله ه وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم زوروا موتاكم وسلموا عليهم فإن لكم فيهم عبرة وعن نافع عن ابن عمر كان لا يمر بقبر
أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي صلى الله
عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله
عليه وسلم من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا وعن ابن سيرين قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما
من بعدهما فيكتبه الله من البارين وقال النبي صلى الله عليه وسلم من زار قبري فقد
وجبت له شفاعتي وقال صلى الله عليه وسلم من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا
وشهيدا يوم القيامة وقال كعب الأحبار ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا
من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه
وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشقت الأرض
خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر
القبلة مستقبلا بوجهه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله فإن ذلك من
عادة النصارى ه قال نافع كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول
السلام على النبي السلام على أبي بكر السلام على أبي وينصرف ه وعن أبي أمامة قال
رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح
الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف وقالت عائشة رضي الله عنها قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس
به ورد عليه حتى يقوم وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
في النوم فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم قال
نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام

وعرفه

وعرفه واذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام ۔ وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصما في منامي بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت قال بلى فقلت اين انت فقال انا والله في روضة من رياض الجنة انا ونفر من اصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها الى ابي بكر بن عبد الله المزني فنتلاقى أخباركم قلت اجسامكم ام أرواحكم قال هيهات بليت الاجسام وانما تتلاقى الارواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا اياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت الى طلوع الشمس قلت وكيف ذاك دون الايام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه ۔ وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له لو أخرت الى يوم الاثنين قال بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده ۔ وقال الضحاك من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته قيل وكيف ذاك قال لمكان يوم الجمعة ۔ وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف الى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فاذا امسى وقف على باب المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأمسيت ذات ليلة فانصرفت الى اهلي ولم آت المقابر فأدعو كما كنت ادعو فبينما انا نائم اذا بخلق كثير قد جاءوني فقلت ما انتم وما حاجتكم قالوا نحن اهل المقابر قلت ما جاء بكم قالوا انك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك الى اهلك قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو قلت فاني اعود لذلك فما تركتها بعد ذلك ۔ وقال بشار بن غالب النجراني رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار بن الغالب هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذاك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الاحياء اذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على اطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم اتي به الميت فقيل له هذه هدية فلان اليك ۔ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الميت في قبره الا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من ابيه او أخيه او صديق له فاذا لحقته كانت احب اليه من الدنيا وما فيها وان هدايا الاحياء للاموات الدعاء والاستغفار ۔ وقال بعضهم مات اخ لي فرأيته في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك قال اتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعا لي لرأيت انه سيضربني به وعن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له ۔ قال سعيد بن عبد الله الاودي شهدت ابا امامة الباهلي وهو في النزع فقال يا ابا سعيد اذا مت فاصنعوا بي كما امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا مات احدكم فسويتم عليه التراب فليقم احدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة فانه يسمع ولا يجيب ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فانه يستوي قاعدا ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثالثة فانه يقول أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وانك رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن اماما فان منكرا ونكيرا يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا

ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ويكون الله عز وجل حجيجه دونهم فقال رجل
يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه إلى حواء * ولا بأس بقراءة القرآن على
القبور روي عن علي بن موسى الحداد قال كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد
ابن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد
يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد
يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر بن إسماعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيئا
قال نعم قال أخبرني مبشر بن إسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه
أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصي
بذلك فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ * وقال محمد بن أحمد المروزي سمعت
أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقرؤا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد
واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم * وقال أبو قلابة أقبلت من الشام إلى
البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسي على قبر فنمت
ثم انتبهت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول لقد آذيتني منذ الليلة ثم قال إنكم لا تعلمون
ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال
جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا اقرئهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نور أمثال
الجبال * فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي
أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وإنما يحصل له الاعتبار
بأن يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وأنه على القرب
سيلحق به كما روي عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة
فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغني
أنها عوتبت في كثرة إتيانها المقابر فقالت إن القلب القاسي إذا جفا لم يلينه إلا رسوم
البلى وإني لآتي القبور فكأني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها وكأني أنظر إلى تلك
الوجوه المتعفرة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأكفان الدسمة فيا لها من نظرة
لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشد تلفها للأبدان بل ينبغي أن يحضر
من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير
صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يا فلان لو رأيتني بعد ثلاث وقد أدخلت قبري وقد
خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان وخرج
الصديد من الفم وانفتح الفم ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود
والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن * ويستحب الثناء على الميت
وأن لا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه وقال صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الأموات
فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا وقال صلى الله عليه وسلم لا تذكروا موتاكم إلا بخير فإنهم
إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه وقال أنس

ابن مالك مرّت بجنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومرّوا بأخرى فأثنوا عليها خيرا فقال صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر عن ذلك فقال ان هذا اثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا اثنيتم عليه شرا فوجبت له النار وانتم شهداء الله في الارض . وقال ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى لملائكته اشهدكم انى قد قبلت شهادة عبيدى على عبدى وتجاوزت عن علمى فى عبدى

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر الى نفخة الصور)

(بيان حقيقة الموت)

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد اخطأوا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم وانه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأى الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم انه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب مادام فى القبر الى أن يعاد فى وقت الحشر وقال آخرون ان الروح باقية لا تنعدم بالموت وانما المثاب والمعاقب هى الارواح دون الاجساد وأن الاجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذى تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والاخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد اما معذبة واما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فان الاعضاء آلات للروح تستعملها حتى انها لتبطش باليد وتسمع بالاذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الاشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الاشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالاعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الاعضاء فيتعطل بموت الجسد الى أن تعاد الروح الى الجسد ولا يبعد أن تعاد الروح الى الجسد فى القبر ولا يبعد أن تؤخر الى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وانما تعطل الجسد بالموت يضاهى تعطل اعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع فى الاعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الاعضاء وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الاعضاء كلها وكل الاعضاء آلات والروح هى المستعملة لها وأعنى بالروح المعنى الذى يدرك من الانسان العلوم وآلام الغموم ولذات الافراح ومهما بطل تصرفها فى الاعضاء لم تبطل منها العلوم والادراكات ولا بطل منها الافراح والغموم ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت اى لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له كما أن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة فالموت زمانة مطلقة فى الاعضاء

كلها وحقيقة الانسان نفسه وروحه وهي باقية نعم تغير حاله من جهتين احداهما انه سلب منه عينه واذنه ولسانه ويده ورجله وجميع اعضائه وسلب منه اهله وولده واقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الاشياء من الانسان وبين أن يسلب الانسان من هذه الاشياء فان المؤلم هو الفراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال والالم واحد في الحالتين وانما معنى الموت سلب الانسان عن امواله بازعاجه الى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فان كان له في الدنيا شئ يأنس به ويستريح اليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقته بل يلتفت قلبه الى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى الى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به وان لم يكن يفرح الا بذكر الله ولم يأنس الا به عظم نعيمه وتمت سعادته اذ خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل اذ جميع اسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله فهذا احد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة والثاني انه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفا له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفا في النوم والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطورا في كتاب مطوي في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فاذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر الى سيئة الا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ويكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتعل فيه نيران الفراق اعني فراق ما كان يطمئن اليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لاجل الزاد والبلغة فان من طلب الزاد للبلغة فاذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد اذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا الا بقدر الضرورة وكان يود أن ينقطع ضرورته ليستغني عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه انواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه الى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن اليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتمادا على أن الملك يتساهل في امره او على أن الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح افعاله فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة وخطوة خطوة والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت الى من تشفع اليه في العصاة عليه فانظر الى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن اليها قبل نزول عذاب القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فان الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما فهذه اشارة الى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة اقوى من مشاهدة العين

وشهد

وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت اذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح فى نفسها وادراك ماهية ذاتها ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من أمر ربى فليس لاحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وان اطلع عليه وانما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام ادراكها آيات وأخبار كثيرة . أما الآيات فما ورد فى الشهداء اذ قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا فقيل يا رسول الله اتناديهم وهم اموات فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده انهم لاسمع لهذا الكلام منكم الا انهم لا يقدرون على الجواب فهذا نص فى بقاء روح الشقى وبقاء ادراكها ومعرفتها والآية نص فى أرواح الشهداء ولا يخلو الميت عن سعادة او شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر وانما يتأخر بعض انواع العذاب والثواب دون أصله وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته وقال صلى الله عليه وسلم اذا مات احدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية ان كان من أهل الجنة فمن الجنة وان كان من أهل النار فمن النار ويقال هذا مقعدك حتى تبعث اليه يوم القيامة وليس يخفى ما فى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال وعن أبى قيس قال كنا مع علقمة فى جنازة فقال أما هذا فقد قامت قيامته وقال على كرم الله وجهه حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هى ام من أهل النار وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة وقال مسروق ما غبطت احدا ما غبطت مؤمنا فى اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله وقال يعلى بن الوليد كنت امشى يوما مع أبى الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب قال الموت قلت فان لم يمت قال يقل ماله وولده وانما احب الموت لانه لا يحبه الا المؤمن والموت اطلاق المؤمن من السجن وانما احب قلة المال والولد لانه فتنة وسبب للانس بالدنيا والانس بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء فكل ما سوى الله وذكره والانس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة ولهذا قال عبد الله بن عمرو انما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات فى سجن فأخرج منه فهو يتفسح فى الارض ويتقلب فيها وهذا الذى ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له انس الا بذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان فى الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذى كان به انسه

من غير عائق ولا دافع وما أجيد ذلك بأن يكون منتهى النعم واللذات وأكمل اللذات
للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن
علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته فإن نظر إلى الدنيا فقد
باعها طوعاً بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها
وتشوق إليها فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه وتجرد
القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير
والقتال سبب للموت فكان سبباً لإدراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا عظم النعيم
إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده قال الله تعالى ولهم فيها ما يشتهون فكان هذا
أجمع عبارة لمعاني لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله
تعالى وحيل بينهم وبين ما يشتهون فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم وهذا
النعيم يدركه الشهيد كما انقطع نفسه من غير تأخير وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب
بنور اليقين وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه
وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى فقد روي عن عائشة
رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر ألا أبشرك يا جابر وكان
قد استشهد أبوه يوم أحد فقال بلى بشرك الله بالخير فقال إن الله عز وجل قد أحيى أباك
وأقعده بين يديه وقال تمنّ عليّ عبدي ما شئت أعطيكه فقال يا رب ما عبدتك حق
عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له
إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع وقال كعب يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له لم تبكي
وأنت في الجنة قال أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة فكنت أشتهي أن أرد فأقتل
فيه قتلات . واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله
ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم
فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار
والثمار والطيور فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله
عليه وسلم مثلاً فقال لرجل مات أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان
قد رضي فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه فعرفك
بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم وقال صلى الله
عليه وسلم إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على
مخرجه حتى إذا رأى الضوء ورضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه وكذلك المؤمن يجزع
من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى
بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلاناً قد مات فقال مستريح
أو مستراح منه أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل
الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقيا مر ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فإذا
جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئاً

وانّ الارواح التى تعاقب وتثاب الى يوم القيامة وعن عمرو بن دينار قال مامن ميت يموت الا وهو يعلم مايكون فى اهله بعده وانهم ليغسلونه ويكفنونه وانه لينظر اليهم وقال مالك بن انس بلغنى أن ارواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت وقال النعمان ابن بشير سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول ألا انه لم يبق من الدنيا الا مثل الذباب يمور فى جوها فالله الله فى اخوانكم من اهل القبور وان أعمالكم تعرض عليهم وقال ابوهريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم لا تفضحوا موتاكم بسيئات اعمالكم فانها تعرض على اوليائكم من اهل القبور ولذلك قال ابو الدرداء اللهم انى اعوذبك أن اعمل عملا اخزى به عند عبدالله بن رواحة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبدالله بن عمرو بن العاص عن ارواح المؤمنين اذاماتوا أين هى قال فى حواصل طير بيض فى ظل العرش وأرواح الكافرين فى الارض السابعة وقال ابو سعيد الخدرى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره وقال صالح المرى بلغنى أن الارواح تتلاقى عند الموت فتقول ارواح الموتى للروح التى تخرج اليهم كيف كان مأواك وفى اى الجسدين كنت فى طيب اوخبيث وقال عبيد بن عمير أهل القبور يتوكفون الى اخبار فاذا أتاهم الميت قالوا مافعل فلان فيقول ألم يأتكم اوماقدم عليكم فيقولون انالله وانا اليه راجعون سلك به غير سبيلنا وعن جعفر بن سعيد قال اذامات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب وقال مجاهد ان الرجل ليبشر بصلاح ولده فى قبره وروى ابو أيوب الانصارى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان نفس المؤمن اذاقبضت تلقاها اهل الرحمة من عندالله كما يتلقى البشير فى الدنيا يقولون انظروا اخاكم حتى يستريح فانه كان فى كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت فلانة فاذا سألوه عن رجل مات قبله وقال مات قبلى قالوا انالله وانا اليه راجعون ذهب به الى امه الهاوية

(بيان كلام القبر للميت وكلام الموتى اما بلسان المقال او بلسان الحال)

التى هى افصح فى تفهيم الموتى من لسان المقال فى تفهيم الاحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ماغرّك بى ألم تعلم انى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ماغرّك بى اذ كنت تمرّبى فدادا فان كان مصلحا اجاب عنه مجيب للقبر فيقول ارأيت ان كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر انى اذاً أتحوّل عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه الى الله تعالى والفداذ هوالذى يقدّم رجلا ويؤخر اخرى هكذا فسره الراوى وقال عبيد بن عمير الليثى ليس من ميت يموت الا نادته حفرته التى يدفن فيها انا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فان كنت فى حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة وان كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة انا الذى من دخلنى مطيعا خرج مسرورا ومن دخلنى عاصيا خرج مثبورا وقال محمد ابن صبيح بلغنا أن الرجل اذا وضع فى قبره فعذب أوأصابه بعض مايكره ناداه جيرانه من الموتى ايها المتخلف فى الدنيا بعد اخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك فى

متقمصا بالك فكره أما رأيت انقطاع أعمالها عنها وأيت في المهلة فهلا استدركت ما فات
من أحوالك وسادية بقاع الأرض أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في
بطن الأرض ممن غرته الدنيا فقلبك ثم سيق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولا تهاداه
أحبته إلى المنزل الذي لا بد له منه وقال يزيد الرقاشي بلغني أن الميت إذا وضع في قبره
احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء
والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا وقال كعب إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته
أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتجيء ملائكة العذاب من
قبل رجليه فتقول الصلاة إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد طال بي القيام لله عليهما
فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام لا سبيل لكم عليه فقد طال ظمأه لله في دار الدنيا
فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد إليكم عنه فقد أنصب
نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول
الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد
الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيأ طبت حيا وطبت ميتا
قال وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له في قبره
مد بصره ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره وقال
عبيد الله بن عبيد بن عمير في جنازة بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن
الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس
قد حذرتني وحذرت ضيقي ونتني وهولي ودودي فما أعددت لي

(بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير)

قال البراء بن عازب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار
فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال اللهم إني أعوذ بك
من عذاب القبر ثلاثا ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة
كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فإذا خرجت روحه
صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس
منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان
فيقول ارجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم
الآية وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك ومن
نبيك فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم قال فينتهرانه انتهارا
شديدا وهي آخر فتنة تعرض على الميت فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهو معنى
قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت الآية ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب
الريح حسن الثياب فيقول أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم فيقول وأنت
فبشرك الله بخير من أنت فيقول أنا عملك الصالح والله ما علمت إن كنت لسريعا إلى طاعة
الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا قال ثم ينادي مناد أن افرشوا له من فرش الجنة

وافتحوا له بابا الى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب الى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى ارجع الى اهلى ومالى * قال وأما الكافر فانه اذا كان فى قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت اليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فاذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والارض وكل ملك فى السماء وغلقت ابواب السماء فليس منها باب الا يكره أن يدخل بروحه منه فاذا صعد بروحه نبذ وقيل اى رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا ارض فيقول الله عزوجل ارجعوه فأروه ما اعددت له من الشر انى وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم الآية وانه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حتى يقال له يا هذا من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لا ادرى فيقال لا دريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول أبشر بسخط من الله وبعذاب اليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من انت فيقول انا عملك الخبيث والله ان كنت لسريعا فى معصية الله بطيأ عن طاعة الله فجزاك الله شرا فيقول وأنت فجزاك الله شرا ثم يقيض له اصم اعمى ابكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا وصرب بها جبل صار ترابا فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الارضين ليس الثقلين قال ثم ينادى منادأن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا الى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب الى النار وقال محمد بن على ما من ميت يموت الا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص الى حسناته ويطرق عن سيئاته وقال ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المؤمن اذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال ايتها النفس المطمئنة اخرجى راضية ومرضيا عنك الى روح الله وكرامته فاذا اخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها الى عليين وان الكافر اذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعا شديدا ويقال ايتها النفس الخبيثة اخرجى ساخطة ومسخوطا عليك الى هوان الله وعذابه فاذا اخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وان لها نشيشا ويطوى عليها المسح ويذهب بها الى سجين وعن محمد بن كعب القرظى انه كان يقرأ قوله تعالى حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال اى شئ تريد فى اى شئ ترغب اتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبنى البنيان وتشق الانهار قال لعلى اعمل صالحا فيما تركت قال فيقول الجبار كلا انها كلمة هو قائلها اى ليقولها عند الموت وقال ابو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيما ذا نزلت فان له معيشة ضنكا قالوا الله ورسوله اعلم قال عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤس يخدشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه الى يوم يبعثون ولا ينبغى أن يتعجب من هذا

العدد على الخصوص فان أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الاخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات فان لها اصولا معدودة ثم تتشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها أقسام تلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوي منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذي ايذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها الا أن مقدار عددها لا يوقف عليه الا بنور النبوة فامثال هذه الاخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي ان ينكر ظواهرها بل اقل درجات الايمان التصديق والتسليم فان قلت فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيأ من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا (احدها) وهو الاظهر والاصح والاسلم أن تصدق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة الامور الملكوتية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بانه عليه السلام يشاهده فان كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح اصل الايمان بالملائكة والوحي اهم عليك وان كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الامة فكيف لا تجوز هذا في الميت وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة اخرى (المقام الثاني) أن تتذكر أمر النائم وانه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصيح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقك غير مشاهد واذا كان في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل او تشاهد (المقام الثالث) انك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاك منها وهو السم ثم السم ليس هو الالم بل عذابك في الاثر الذي يحصل فيك من السم فلو حصل مثل ذلك الاثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب الا بأن يضاف الى السبب الذي يفضي اليه في العادة فانه لو خلق في الانسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها الا بالاضافة اليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وان لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لذاته وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق فانه كان لذيذا فطرأ حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من انواع العذاب ما يتمنى معه ان لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال بل هذا بعينه هو احد انواع عذاب الميت فانه قد سلط

العشق فى الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ جميع ذلك فى حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشتدّ عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لى مال قط ولا جاه قط فكنت لا أتأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ماحال من كان له واحد ۞ غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح الا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم الى اعدائه ثم ينضاف الى هذا العذاب تحسره على مافاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عزوجل فان حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته على مافاته من نعيم الآخرة ابد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذى يعذب به اذ لا يتبع نار الفراق الا نار جهنم كما قال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب الا الله وكان مشتاقا الى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الامن من الزوال ابد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب فاذا ألم فراق الفرس عنده اعظم من لدغ العقرب وحبه للفرس هو الذى يلدغه اذا اخذ منه فرسه فليستعد لهذه اللدغات فان الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ويأخذ منه جاهه وقبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره واعضاءه وييأس من رجوع جميع ذلك اليه فاذا لم يحب سواه وقد اخذ جميع ذلك منه فذلك اعظم عليه من العقارب والحيات وكما لو أخذ ذلك منه وهو حى فيعظم عقابه فكذلك اذا مات لانا قد بينا أن المعنى الذى هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت اشد لانه فى الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود اليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة بعد الموت اذ قد انسد عليه طرق التسلى وحصل اليأس فاذا كل قميص له ومنديل قد احبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فانه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به فان كان مخفا فى الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم نجا المخفون وان كان مثقلا اعظم عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم اخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم صاحب الدرهم اخف حسابا من صاحب الدرهمين ومامن شئ من الدنيا يتخلف عنك عند الموت الا وهو حسرة عليك بعد الموت فان شئت فاستكثر وان شئت فاستقلل فان استكثرت فلست بمستكثر الامن الحسرة وان استقللت فلست تخفف الاعن ظهرك وانما تكثر الحيات والعقارب فى قبور الاغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا اليها فهذه مقامات الايمان فى حيات القبر وعقاربه وفى سائر أنواع عذابه راى ابوسعيد الخدرى ابا له قد مات فى المنام فقال له يابنى عظنى قال لا تخالف

الله تعالى فيما يريد قال يا سيدي ردني قال يا بائس لا تطيق قال قل قال لا تجعل بيني وبين الله قميصاً فالتمس قميصاً ثلاثين سنة فإن قلت فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث فاعلم أن من الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده ومنهم من أنكر الأول وأثبت الثاني ومنهم من لم يثبت إلا الثالث وإنما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك في حيز الإمكان وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع ورب عبد تجتمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره هذا هو الحق فصدق به تقليداً فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقاً والذي أوصيك به أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان

(بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر)

قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان له ما كنت تقول في النبي فإن كان مؤمناً قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً وينور له في قبره ثم يقال له نم فيقول دعوني أرجع إلى أهلي فأخبرهم فيقال له نم فينام كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وإن كان منافقاً قال لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيئاً وكنت أقوله فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وعن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجران أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك كيف بك عند ذلك يا عمر فقال عمر ويكون معي مثل عقلي الآن قال نعم قال إذاً أكفيكهما وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء فيكون الميت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام واللذات كما كان لا يتغير من

عقله

عقله شئ وليس العقل المدرك هذه الاعضاء بل هو شئ باطن ليس له طول ولا عرض بل الذى لا ينقسم فى نفسه هو المدرك للاشياء ولو تناثرت أعضاء الانسان كلها ولم يبق الا الجزء المدرك الذى لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الانسان العاقل بكماله قائما باقيا وهو كذلك بعد الموت فان ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم وقال محمد بن المنكدر بلغنى أن الكافر يسلط عليه فى قبره دابة عمياء صماء فى يدها سوط من حديد فى رأسه مثل غرب الجمل تضربه به الى يوم القيامة لا تراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه وقال ابو هريرة اذا وضع الميت فى قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته فان اتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرءان وان اتاه من قبل رجليه جاء قيامه وان اتاه من قبل يديه قالت اليدان والله لقد كان يبسطنى للصدقة والدعاء لا سبيل لكم عليه وان جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما انى لو رأيت خللا لكنت أنا صاحبه قال سفيان تحاجش عنه اعماله الصالحة كما يحاجش الرجل عن اخيه وأهله وولده ثم يقال له عند ذلك بارك الله لك فى مضجعك فنعم الاخلاء اخلاؤك ونعم الاصحاب اصحابك وعن حذيفة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال يضغط المؤمن فى هذا ضغطة ترد منها حمائله وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان للقبر ضغطة ولو سلم او نجا منها أحد لنجا سعد ابن معاذ وعن أنس قال توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله فلما انتهينا الى القبر فدخله التمع وجهه صفوة فلما خرج أسفر وجهه فقلنا يا رسول الله رأينا منك شأنا فمم ذلك قال ذكرت ضغطة ابنتى وشدة عذاب القبر فأتيت فاخبرت أن الله قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين

(الباب الثامن فيما عرف من احوال الموتى بالمكاشفة فى المنام)

اعلم أن انوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار تعرفنا احوال الموتى على الجملة وانقسامهم الى سعداء واشقياء ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف بذلك أصلا فانا ان عولنا على ايمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذا مات وكيف ختم له وان عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى انما يتقبل الله من المتقين فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو الا بمشاهدته ومشاهدة ما يجرى عليه واذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة الى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وانما يرى بعين اخرى خلقت تلك العين فى قلب كل انسان ولكن الانسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصور أن يبصر بها شيأ من عالم الملكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الانبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا الى الملكوت وشاهدوا عجائبه والموتى فى عالم الملكوت فشاهدوهم

واخبروا ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم وإنما الممكن منا لنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضا مشاهدة نبوية وأعني بها المشاهدة في المنام وهي من أنوار النبوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهو أيضا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضا فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها ومهما صفا الباطن انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم حتى نزل قوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح وتارة بالكتاب المبين وتارة بإمام مبين كما ورد في القرآن فجميع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين ولا تظنن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم وأن الكتاب من كاغد أو رق بل ينبغي أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل إن كنت تطلب له مثالا يقربه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ولو فتشت دماغه جزأ جزأ لم تشاهد من ذلك الخط حرفا وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح مرآة رسوم العلوم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته تلألأ في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف وقد يثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب وما دام متيقظا فهو مشغول بما تورده

الحواس عليه من عالم الملك والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا توردها على القلب فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع في قلبه شئ مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة إذا ارتفع الحجاب بينهما إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا التخيل عن عمله وعن تحركه فما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني بالمناسبة التي بين المتخيل والمعاني وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير ويكفيك مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين رأيت كأن بيدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان قال صدقت فانظر أن روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تنحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو الموت وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف في أثر كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فما ذا ترى في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازي والفضائح نعوذ بالله من ذلك وإما مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ويقال أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون وإليهم الإشارة بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عما ذا يرتفع وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة لكان ذلك كافيا في استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذرياتنا بأعضائنا وسمعنا وبصرنا مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول له ما قال لسيد النبيين أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به فلا جرم لما كان ذلك مكشوفا له بعين اليقين كان في الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولم يخلف دينارا ولا درهما ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا نعم قال لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه وأن

حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعا لخليل ولا حبيب وقد قال لامته
ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ودعا امته من اسعه وما اسعه الا من أعرض
عن الدنيا واقبل على الآخرة فانه مادعا الا الى الله واليوم الآخر وما صرف الا عن
الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما اعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد
سلكت سبيله الذى سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته وبقدر ما اتبعته فقد
صرت من امته وبقدر ما اقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته
والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى
فلو خرجت من مكمن الغرور وانصفت نفسك يارجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت انك من
حين تصبح الى حين تمسى لاتسعى الا فى الحظوظ العاجلة ولا تتحرك ولا تسكن الا للعاجل
الدنيا ثم تطمع أن تكون غدا من امته واتباعه ما ابعد ظنك وما أبرد طمعك أفنجعل
المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ولنرجع الى ما كنا فيه وبصدده فقد امتد عنان
الكلام الى غير مقصده ولنذكر الآن من المنامات المكاشفة لاحوال الموتى ما تعظم
الانتفاع به اذ ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك الا المنامات

﴿بيان منامات تكشف عن احوال الموتى والاعمال النافعة فى الآخرة﴾

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام من رآنى فى المنام فقد
رآنى حقا فان الشيطان لا يتمثل بى وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى المنام فرأيته لا ينظر الىّ فقلت يارسول الله ماشأنى فالتفت الىّ
وقال ألست المقبل وانت صائم قال والذى نفسى بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدا وقال
العباس رضى الله عنه كنت ودا لعمر فاشتهيت أن اراه فى المنام فما رأيته الا عند رأس
الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا اوان فراغى ان كان عرشى لهد
لولا انى لقيته رؤفا رحيما وقال الحسن بن على قال لى على رضى الله عنه ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم سنح لى الليلة فى منامى فقلت يارسول الله ما لقيت من امتك قال ادع
عليهم فقلت اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم وأبدلهم بى من هو شر لهم منى فخرج
فضربه ابن ملجم وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول
الله استغفر لى فأعرض عنى فقلت يارسول الله ان سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن
المنكدر عن جابر بن عبد الله انك لم تسأل شيئا قط فقلت لا فأقبل علىّ فقال غفر الله
لك وروى عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لابى لهب مصاحبا له فلما
مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمنى امره فسألت الله تعالى حولا
أن يرينى اياه فى المنام قال فرأيته يلتهب نارا فسألته عن حاله فقال صرت الى النار
فى العذاب لا يخفف عنى ولا يروح الا ليلة الاثنين فى كل الايام والليالى قلت وكيف
ذلك قال ولد فى تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتنى أميمة فبشرتنى بولادة آمنة
اياه ففرحت به واعتقت وليدة لى فرحا به فأثابنى الله بذلك أن رفع عنى العذاب فى كل
ليلة اثنين وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجا فصحبنى رجل كان لا يقوم ولا يقعد

ولا يتحرك ولا يسكن الا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فقال اخبرك عن ذلك خرجت اول مرة الى مكة ومعي ابي فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل فبينا أنا نائم اذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمات الله اباك وسوّد وجهه قال فقمت مذعورا فكشفت الثوب عن وجهه فاذا هو ميت اسود الوجه فداخلني من ذلك رعب فبينا أنا في ذلك الغم اذ غلبتني عيني فنمت فاذا على رأس أبي أربعة سودان معهم اعمدة حديد اذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين اخضرين فقال لهم تنحوا فمسح وجهه بيده ثم أتاني فقال قم فقد بيض الله وجه ابيك فقلت له من أنت بأبي أنت وامي فقال أنا محمد قال فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبي فاذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم * وعن عمر بن عبد العزيز قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده فسلمت وجلست فبينما أنا جالس اذ أتي بعلي ومعاوية فادخلا بيتا واجيف عليهما الباب وأنا انظر فما كان باسرع من أن خرج علي رضي الله عنه وهو يقول قضي لي ورب الكعبة وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة * واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فأنكره اصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال ألا تعلم ما صنعت امتي بعدي قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم اصحابه ارفعها الى الله تعالى فجاء الخبر بعد اربعة وعشرين يوما بقتله في اليوم الذي رآه * ورؤي الصديق رضي الله عنه فقيل له انك كنت تقول ابدا في لسانك هذا أوردني الموارد فماذا فعل الله بك قال قلت به لا اله الا الله فأوردني الجنة

(بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم اجمعين)

قال بعض المشايخ رأيت ممشاد الدوري في المنام فقلت يا سيدي ما فعل الله بك فقال دير بي في الجنان فقيل لي يا ممشاد هل استحسنت فيها شيئا قلت لا يا سيدي فقال لو استحسنت منها شيئا لوكلتك اليه ولم اوصلك الي * ورؤي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لي قيل بماذا قال ما خلطت جدا بهزل وعن منصور بن اسماعيل قال رأيت عبد الله البزاز في النوم فقلت ما فعل الله بك قال اوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب اقررت به الا ذنبا واحدا فاني استحييت أن اقر به فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقلت ما كان ذلك الذنب قال نظرت الى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن اذكره وقال أبو جعفر الصيدلاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقراء فبينما نحن كذلك اذ انشقت السماء فنزل ملكان احدهما بيده طشت وبيد الآخر ابريق فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم امر حتى غسلوا ثم وضع الطشت بين يدي فقال أحدهما للآخر لا تصب على يده فانه ليس منهم فقلت يا رسول الله أليس قد روي عنك انك قلت المرء مع من أحب قال بلى قلت يا رسول الله فاني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء فقال صلى الله عليه وسلم

صب على يده فإنه منهم وقال الجنيد رأيت في المنام كأني أتكلم على الناس فوقف علي ملك فقال أقرب ما تقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا فقلت عمل خفي بميزان وفي فولى الملك وهو يقول كلام موفق والله ورؤي مجمع في النوم فقيل له كيف رأيت الأمر فقال رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد رأيتك في النوم كأنك في الجنة فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد أمرا فعصمت منه فأشخص رجلا يعملني وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره وقال صالح بن بشير رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا قال أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحا دائما فقلت في أي الدرجات أنت فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية وسئل زرارة بن أبي أوفى في المنام أي الأعمال أفضل عندكم فقال الرضى وقصر الأمل وقال يزيد بن مذعور رأيت الأوزاعي في المنام فقلت يا أبا عمرو دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى قال ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه وقال ابن عيينة رأيت أخي في المنام فقلت يا أخي ما فعل الله بك فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي وقال علي الطلحي رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت من أنت فقالت حوراء فقلت زوجيني نفسك قالت اخطبني إلى سيدي وأمهرني قلت وما مهرك قالت حبس نفسك عن آفاتها وقال إبراهيم ابن إسحاق الحربي رأيت زبيدة في المنام فقلت ما فعل الله بك قالت غفر لي فقلت لها إنفعت في طريق مكة قالت أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها وغفر لي بنيتي ولما مات سفيان الثوري رؤي في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال وضعت أول قدمي على الصراط والثاني في الجنة وقال أحمد بن أبي الحواري رأيت فيما يرى النائم جارية ما رأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نورا فقلت لها مما ذا ضوء وجهك قالت تذكر تلك الليلة التي بكيت وبذلك نعم قالت أخذت دمعك فمسحت به وجهي فمن ثم ضوء وجهي كما ترى وقال الكتاني رأيت الجنيد في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل ورؤيت زبيدة في المنام فقيل لها ما فعل الله بك قالت غفر لي بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفني بها عمري لا إله إلا الله أدخل بها قبري لا إله إلا الله أخلو بها وحدي لا إله إلا الله ألقى بها ربي ورؤي بشر في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال رحمني ربي عز وجل وقال يا بشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف ورؤي أبو سليمان في النوم فقيل له ما فعل الله بك قال رحمني وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم إلي وقال أبو بكر الكتاني رأيت في النوم شابا لم أر أحسن منه فقلت له من أنت قال التقوى قلت فأين تسكن قال كل قلب حزين ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم قلت فأين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال فانتبهت وتعاهدت أن لا

أضحك الاغلبة وقال ابوسعيد الخراز رأيت فى المنام كأن ابليس وثب على فأخذت العصا لاضربه فلم يفزع منها فهتف بى هاتف ان هذا لا يخاف من هذه وانما يخاف من نور يكون فى القلب وقال المسوحى رأيت ابليس فى النوم يمشى عريان فقلت الا تستحى من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت العب بهم طرفى النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة بل الناس قوم غير هؤلاء قد اسقموا جسمى واشار بيده الى اصحابنا الصوفية وقال ابوسعيد الخراز كنت فى دمشق فرأيت فى المنام كأن النبى صلى الله عليه وسلم جاءنى متكئا على ابى بكر وعمر رضى الله عنهما فجاء فوقف على وأنا اقول شيأ من الاصوات وأدق فى صدرى فقال شره هذا اكثر من خيره وعن ابن عيينة قال رأيت سفيان الثورى فى النوم كأنه فى الجنة يطير من شجرة الى شجرة يقول لمثل هذا فليعمل العاملون فقلت له أوصنى قال أقلل من معرفة الناس وروى ابوحاتم الرازى عن قبيصة بن عقبة قال رأيت سفيان الثورى فقلت ما فعل الله بك فقال

نظرت الى ربى شفاها فقال لى * هنيأ رضائى عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما اذا اظلم الدجى * بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته * وزرنى فانى منك غير بعيد

ورؤى الشبلى بعد موته بثلاثة ايام فقيل له ما فعل الله بك قال ناقشنى حتى أيست فلما رأى يأسى تغمدنى برحمته ورؤى مجنون بنى عامر بعد موته فى المنام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لى وجعلنى حجة على المحبين ورؤى الثورى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك قال رحمنى فقيل له ما حال عبدالله بن المبارك فقال هو ممن يلج على ربه فى كل يوم مرتين ورؤى بعضهم فسئل عن حاله فقال حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا ورؤى مالك بن انس فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحى الذى لا يموت ورؤى فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن ابواب السماء مفتحة وكأن مناديا ينادى الا ان الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض ورؤى الجاحظ فقيل له ما فعل الله بك فقال ولا تكتب بخطك غير شئ * يسرك فى القيامة ان تراه ورأى الجنيد ابليس فى المنام عريان فقال الا تستحى من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس اقوام فى مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى قال الجنيد فلما انتبهت غدوت الى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأونى قالوا لا يغرنك حديث الخبيث ورؤى النصراباذى بمكة بعد وفاته فى النوم فقيل له ما فعل الله بك قال عوتبت عتاب الاشراف ثم نوديت يا أبا القاسم ابعد الاتصال انفصال فقلت لا يا ذا الجلال فما وضعت فى اللحد حتى لحقت بربى ورأى عتبة الغلام حوراء فى المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة انا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الاعمال شيأ يحال بينى وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى عليها حتى القاك وقيل رأى ايوب السختيانى جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها فرأى الميت بعضهم فى المنام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لى

وقال قل لأيوب قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق
وقال بعضهم رأيت في الليلة التي مات فيها داود الطائي نورا وملائكة نزولا وملائكة
صعودا فقلت أي ليلة هذه فقالوا ليلة مات فيها داود الطائي وقد زخرف الجنة لقدوم
روحه وقال أبو سعيد الشحام رأيت سهلا الصعلوكي في المنام فقلت أيها الشيخ قال دع
التشييخ قلت تلك الأحوال التي شاهدتها فقال لم تغن عنا فقلت ما فعل الله بك قال
غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجز وقال أبو بكر الرشيدي رأيت محمد الطوسي المعلم
في النوم فقال لي قل لأبي سعيد الصفار المؤذن

وكنا على أن لا نحول عن الهوى ° فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا

قال فانتبهت فذكرت ذلك له فقال كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة وقال
ابن راشد رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت أليس قد مت قال بلى قلت فما صنع
الله بك قال غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثوري قال بخ بخ ذاك من
الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية وقال الربيع بن سليمان رأيت
الشافعي رحمه الله تعالى بعد وفاته في المنام فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك قال أجلسني
على كرسي من ذهب ونثر علي اللؤلؤ الرطب ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري
ليلة مات الحسن كأن مناديا ينادي إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران
على العالمين واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه وقال أبو يعقوب القاري الدقيقي
رأيت في منامي رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت من هذا قالوا أويس القرني
فأتيته فقلت أوصني رحمك الله فكلح في وجهي فقلت مسترشد فأرشدني أرشدك الله
فأقبل علي وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع
رجاءك منه في خلال ذلك ثم ولى وتركني وقال أبو بكر بن أبي مريم رأيت ورقاء بن بشر
الحضرمي فقلت ما فعلت يا ورقاء قال نجوت بعد كل جهد قلت فأي الأعمال
وجدتموها أفضل قال البكا من خشية الله وقال يزيد بن نعامة هلكت جارية
في الطاعون الجارف فرآها أبوها في المنام فقال لها يا بنية أخبريني عن الآخرة
قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون والله لتسبيحة
أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في صحيفة عملي أحب إلي من الدنيا وما فيها وقال بعض
أصحاب عتبة الغلام رأيت عتبة في المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك
الدعوة المكتوبة في بيتك قال فلما أصبحت جئت إلى بيتي فإذا خط عتبة الغلام في حائط
البيت مكتوب يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العاثرين ارحم
عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين
أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين رب العالمين وقال
موسى بن حماد رأيت سفيان الثوري في الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى
شجرة فقلت يا أبا عبد الله بم نلت هذا قال بالورع قلت فما بال علي بن عاصم قال ذاك
لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب ورأى رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم

فى المنام فقال يا رسول الله عظنى قال نعم من لم يتفقد النقصان فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له وقال الشافعى رحمة الله عليه دهمنى فى هذه الايام امر أمضنى وآلمنى ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فلما كان البارحة أتانى آت فى منامى فقال لى يا محمد بن ادريس قل اللهم انى لا املك لنفسى نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ الا ما اعطيتنى ولا أتقى الا ما وقيتنى اللهم فوفقنى لما تحب وترضى من القول والعمل فى عافية فلما أصبحت اعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطانى الله عز وجل طلبتى وسهل لى الخلاص مما كنت فيه فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها فهذه جملة من المكاشفات تدل على احوال الموتى وعلى الاعمال المقربة الى الله زلفى فلنذكر بعدها ما بين يدى الموتى من ابتداء نفخة الصور الى آخر القرار اما فى الجنة او فى النار والحمد لله حمد الشاكرين

*(الشطر الثانى من كتاب ذكر الموت فى احوال الميت من وقت نفخة الصور الى آخر الاستقرار فى الجنة او النار وتفصيل ما بين يديه من الاهوال والاخطار) وفيه بيان نفخة الصور وصفة ارض المحشر وأهله وصفة عرق أهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة ودواهيها واساميها وصفة المسائلة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الخصماء ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الحوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة واصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر الى وجه الله تعالى وباب فى سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب ان شاء الله تعالى

(صفة نفخة الصور)

قد عرفت فيما سبق شدة احوال الميت فى سكرات الموت وخطره فى خوف العاقبة ثم مقاساة ظلمة القبر وديدانه ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره ان كان مغضوبا عليه واعظم من ذلك كله الاخطار التى بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ثم انتظار النداء عند فصل القضاء اما بالاسعاد واما بالاشقاء فهذه احوال وأهوال لا بد لك من معرفتها ثم الايمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها واكثر الناس لم يدخل الايمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء افئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والاهوال بل اذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذى اخبره صدقت ثم مد يده لتناوله كان مصدقا بلسانه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل ابلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم قال الله

تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه إياي فيقول إن لي ولداً وأما تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بدأني وإياك فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور ولو لم تشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له إن صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وقال تعالى أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى فخلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته فإن كان في إيمانك ضعف فقو الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها وإن كنت قوي الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار لتسلب من قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتفكر أولاً فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك مغبراً بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتاً من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاهم وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافاً إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وقال تعالى فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير وقال تعالى ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديراً بأن يتقى فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض يعني يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ قال مقاتل الصور هو القرن وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح إسرافيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يلبث الخلق بعد

النفخة الاولى فى البرزخ اربعين سنة ثم يحيى الله اسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه اخرى فاذاهم قيام ينظرون على ارجلهم ينظرون الى البعث وقال صلى الله عليه وسلم حين بعث اتى صاحب الصور فأهوى به الى فيه وقدم رجلا واخر اخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة فتفكر فى الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظار المايقضى عليهم من سعادة اوشقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم بل ان كنت فى الدنيا من المترفهين والاغنياء المتنعمين فملوك الارض فى ذلك اليوم اذل أهل ارض الجمع واصغرهم واحقرهم يوطؤن بالاقدام مثل الذر وعندذلك يقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رؤسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها ولكن حشرهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى واذا الوحوش حشرت ثم اقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا فتفكر فى حالك وحال قلبك هنالك

(صفة ارض المحشر وأهله)

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا الى أرض المحشر أرض بيضاء قاع صفصف لاترى فيها عوجا ولا امتا ولاترى عليها ربوة يختفى الانسان وراءها ولا وهدة ينخفض عن الاعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لاتفاوت فيه يساقون اليه زمرا فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف اصنافهم من اقطار الارض اذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة والراجفة هى النفخة الاولى والرادفة هى الثانية وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الابصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ارض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لاحد قال الراوى والعفرة بياض ليس بالناصع والنقى هو النقى عن القشر والنخالة ومعلم أى لابناء يستر ولاتفاوت يرد البصر ولاتظنن أن تلك الارض مثل ارض الدنيا بل لاتساويها الا فى الاسم قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات قال ابن عباس يزاد فيها وينقص وتذهب اشجارها وجبالها وأوديتها ومافيها وتمد مد الاديم العكاظى ارض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها فانظر يامسكين فى هول ذلك اليوم وشدته فانه اذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلمت الارض لخمود سراجها فبيناهم كذلك اذدارت السماء من فوق رؤسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فياهول صوت انشقاقها فى سمعك وياهيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت

السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن واشتغل الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث فقلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا الى بعض فقال شغل الناس عن ذلك لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات الى غيرهم قال ابو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم وفي طبع الآدمي انكار كل ما لم يأنس به ولو لم يشاهد الانسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لانكر تصور المشي على غير رجل والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فاياك أن تنكر شيأ من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا فانك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد انكارا لها فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عاريا مكشوفا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا منتظرا لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء وأعظم هذه الحال فانها عظيمة

«(صفة العرق)»

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والارضين السبع من ملك وجن وانس وشيطان ووحش وسبع وطير فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رؤس العالمين كقاب قوسين فلم يبق على الارض ظل الا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستظلال به الا المقربون فمن بين مستظل بالعرش وبين مضحى لحر الشمس قد صهره بحرها واشتد كربه وغمه من وهجها ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الاقدام وانضاف اليه شدة الخجل والحياء من الافتضاح والاخزاء عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحر الانفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبتيه وبعضهم حقويه وبعضهم الى شحمة اذنيه وبعضهم كاد يغيب فيه قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه الى أنصاف اذنيه وقال ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الارض سبعين باعا ويلجمهم ويبلغ آذانهم كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح وفي حديث آخر قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة الى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب * وقال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تدنو الشمس

من الارض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه واشار بيده فألجمها فاه ومنهم من يغطيه العرق وضرب بيده على رأسه هكذا فتأمل يامسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو الى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فانك واحد منهم ولا تدرى الى أين يبلغ بك العرق واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد فى قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ونهى عن منكر فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون امرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة فانه يوم عظيم شديد طويلة مدته

(صفة طول يوم القيامة)

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة ابصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر فى امورهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه اكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم قال كعب وقتادة يوم يقوم الناس لرب العالمين قال يقومون مقدار ثلثمائة عام بل قال عبد الله بن عمرو تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال كيف بكم اذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين الف سنة لا ينظر اليكم وقال الحسن ما ظنك بيوم قاموا فيه على اقدامهم مقدار خمسين الف سنة لا يأكلون فيها اكلة ولا يشربون فيه شربة حتى اذا انقطعت اعناقهم عطشا واحترقت اجوافهم جوعا انصرف بهم الى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لفحها فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا فى طلب من يكرم على مولاه ليشفع فى حقهم فلم يتعلقوا بنبى الا دفعهم وقال دعونى نفسى نفسى شغلنى امرى عن امر غيرى واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه لا يملكون الشفاعة الا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولا فتأمل فى طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر واعلم ان من طال انتظاره فى الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فانه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذى نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون اهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا فاجتهد ان تكون من اولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالامر اليك والاستعداد بيديك فاعمل فى ايام قصار لايام طوال تربح ربحا لا منتهى لسروره واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا وتعبك يسيرا

(صفة يوم القيامة ودواهيه واساميه)

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه المديد زمانه القاهر سلطانه القريب أوانه يوم ترى السماء فيه قد انفطرت والكواكب من هوله قد انتثرت والنجوم الزواهر قد انكدرت والشمس قد كورت والجبال قد سيرت والعشار قد عطلت والوحوش قد حشرت والبحار قد سجرت والنفوس الى الابدان قد زوجت والجحيم قد سعرت والجنة قد ازلفت والجبال قد نسفت والارض قد مدت يوم ترى الارض قد زلزلت فيه زلزالها واخرجت الارض اثقالها يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم يوم تحمل الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية يوم تسير الجبال وترى الارض بارزة يوم ترج الارض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش يوم تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار يوم تنسف فيه الجبال نسفا فتترك قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب وتنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ولا يسأل فيه عن الاجرام بل يؤخذ بالنواصي والاقدام يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه امدا بعيدا يوم تعلم فيه كل نفس ما احضرت وتشهد ما قدمت وأخرت يوم تخرس فيه الالسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين اذ قال له الصديق رضي الله عنه اراك قد شبت يا رسول الله قال شيبتني هود واخواتها وهي الواقعة والمرسلات وعم يتسألون واذا الشمس كورت فيأيها القارئ العاجز انما حظك من قراءتك أن تجمجم القرآن وتحرك به اللسان ولو كنت متفكرا فيما تقرأه لكنت جديرا أن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين واذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة احد ما ذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها واكثر من اساميها لنقف بكثرة اساميها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الاسامي تكرير الاسامي والالقاب بل الغرض تنبيه اولي الالباب فتحت كل اسم من اسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونحن الآن نجمع لك اساميها وهي يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المسائلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الغاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء

ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزى ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم الجزع ويوم المنتهى ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميعاد ويوم المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيأ ويوم تشخص فيه الابصار ويوم لا يغنى مولى عن مولى شيأ ويوم لا تملك نفس لنفس شيأ ويوم يدعون الى نار جهنم دعا ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم فى النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفرّ المرء من اخيه وامه وابيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لا مردّ له من الله يومهم بارزون يومهم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار يوم ترد فيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الاستار يوم تخشع فيه الابصار وتسكن الاصوات ويقلّ فيه الالتفات وتبرز الخفيات وتظهر الخطيئات يوم يساق العباد ومعهم الاشهاد ويشيب الصغير ويسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم واغلى الحميم وزفرت النار ويئس الكفار وسعرت النيران وتغيرت الالوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الانسان فيأيها الانسان ما غرك بربك الكريم حيث اغلقت الابواب وارخيت الستور واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرّفنا غفلتنا ويقول اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقتربت الساعة وانشق القمر انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ثم يكون احسن احوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر فى كثرة اوصاف هذا اليوم واساميه ولا نستعدّ للتخلص من دواهيه فنعوذ بالله من هذه الغفلة ان لم يتداركنا الله بواسع رحمته

(صفة المسائلة)

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الاحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير فبينما انت فى كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها اذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد

امروا أن يأحدوا بنواصي المجرمين الى موقف العرض على الجبار وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عز وجل ملكا ما بين شعري عينيه مسيرة مائة عام فما ظنك بعد اذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة ارسلوا اليك ليأخذوك الى مقام العرض وتراهم على عظم اشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين عما بدا من غضب الجبار على عباده وعند رؤيتهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح الا ويخرون لاذقانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذين فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة افيكم ربنا وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم اجلالا لخالقهم عن أن يكون فيهم فينادوا باصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه اهل الارض وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهانة لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله فلنسألن الذين ارسل اليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين وقوله فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون فيبدأ سبحانه بالانبياء يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم قالوا لا علم لنا انك انت علام الغيوب فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الانبياء وتمحى علومهم من شدة الهيبة اذ يقال لهم ماذا اجبتم وقد ارسلتم الى الخلائق وكانوا قد علموا فدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا انك انت علام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادقون اذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم الى أن يقويهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لامته هل بلغكم فيقولون ما اتانا من نذير ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له أأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الانبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يا فلان ابن فلان هلم الى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى اقوام أن يذهب بهم الى النار ولا تعرض قبائح اعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش واشرقت الارض بنور ربها وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمسائلة العباد وظن كل واحد أنه ما يراه احد سواه وأنه المقصود بالاخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك يا جبريل ائتني بالنار فيجيء بها جبريل ويقول يا جهنم أجيبي خالقك ومليكك فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها فلم تلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت الى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها وانتهضت حزنتها متوثبة الى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف امره فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا جثيا على الركب وولوا مدبرين يوم ترى كل امة جاثية ويسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادي العصاة والظالمون بالويل والثبور وينادي الصديقون نفسي نفسي فبيناهم

كذلك اذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع وانقضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين وذهلت العقول من السعداء والاشقياء اجمعين وبعد ذلك اقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا اجبتم فاذا رأوا ما قد اقيم من السياسة على الانبياء اشتد الفزع على العصاة ففر الوالد من ولده والاخ من اخيه والزوج من زوجته وبقي كل واحد منتظر الامره ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه واعضائه قال ابو هريرة قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له الم اكرمك واسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل واذرك ترأس وتربع فيقول العبد بلى فيقول اظننت انك ملاقي فيقول لا فيقول فأنا انساك كما نسيتني فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وانت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها فيقول لك ألم انعم عليك بالشباب ففيماذا أبليته ألم امهل لك في العمر ففيماذا أفنيته ألم ارزقك المال فمن اين اكتسبته وفيماذا انفقته ألم اكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك انعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فان انكرت شهدت عليك جوارحك * قال انس رضي الله عنه كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ثم قال اتدرون مم اضحك قلنا الله ورسوله اعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فاني لا اجيز على نفسي الا شاهدا مني فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه ويقال لاركانه انطقي قال فتنطق بأعماله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول لاعضائه بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت اناضل فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الاعضاء الا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره * سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنو احدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول اني سترتها عليك في الدنيا واني اغفرها لك اليوم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة فهذا انما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة وهب انه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء الى العرض فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك اذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة

وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدة الهول مطلع فقدر نفسك وأنت بهذه الصفة تخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق اليك أبصارهم فتوهم نفسك انك فى أيدى الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك الى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم ادن منى فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر واعطيت كتابك الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها فكم لك من خجل وجبن وكم لك من حصر وعجز فليت شعرى بأى قدم تقف بين يديه وبأى لسان تجيب وبأى قلب تعقل ما تقول ثم تفكر فى عظم حيائك اذا ذكرك ذنوبك شفاها اذ يقول يا عبدى أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح واستحييت من خلقى فأظهرت لهم الجميل أكنت اهون عليك من سائر عبادى استخففت نظرى اليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيرى ألم أنعم عليك فماذا غرك بى اظننت أنى لا اراك وانك لا تلقانى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من احد الا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقفن احدكم بين يدى الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم اوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم ارسل اليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى الا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى الا النار فليتق احدكم النار ولو بشق تمرة فان لم يجد فبكلمة طيبة وقال ابن مسعود ما منكم من احد الا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو احدكم بالقمر ليلة البدر ثم تقول يا ابن آدم ما غرك بى يا ابن آدم ما عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا اجبت المرسلين يا ابن آدم ألم اكن رقيبا على عينك وانت تنظر بها الى ما لا يحل لك ألم اكن رقيبا على اذنيك وهكذا حتى عد سائر اعضائه وقال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى الله عز وجل حتى يسأله عن اربع خصال عن عمره فيما افناه وعن علمه ما عمل فيه وعن جسده فيما ابلاه وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفقه فأعظم يا مسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك فانك بين أن يقال لك سترتها عليك فى الدنيا وانا اغفرها لك اليوم فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الاولون والآخرون واما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه وعند ذلك لو بكت السموات والارض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنية لم تبق معك

(صفة الميزان)

ثم لا تغفل عن الفكر فى الميزان وتطاير الكتب الى الايمان والشمائل فان الناس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق اسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة

لاسعادة بعدها وقسم آخر لا سيئة لهم فينادي مناد ليقم الحمادون لله على كل حال فيقومون ويسرحون الى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى وينادى عليهم سعادة لا شقاوة بعدها ويبقى قسم ثالث وهم الاكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم اوسيئاتهم ولكن يأبى الله الا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الابصار الى الكتب اتقع فى اليمين اوفى الشمال ثم الى لسان الميزان أيميل الى جانب السيئات اوالى جانب الحسنات وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق وروى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه فى حجر عائشة رضى الله عنها فنعس فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فقطع على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال ما يبكيك ياعائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون اهليكم يوم القيامة قال والذى نفسى بيده فى ثلاث مواطن فان احدا لايذكر الانفسه اذا وضعت الموازين ووزنت الاعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه ام يثقل وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه او بشماله وعند الصراط وعن انس قال يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها ابدا وان خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها ابدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار الى النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم القيامة انه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك ابلسوا حتى ما اوضحوا بضاحكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند اصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ان معكم لخليقتين ما كانتا مع احد قط الا كثرتاه مع من هلك من بنى آدم وبنى ابليس قالوا وما هما يارسول الله قال يأجوج ومأجوج قال فسرى عن القوم فقال اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ما انتم فى الناس يوم القيامة الا كالشامة فى جنب البعير اوكالرقمة فى ذراع الدابة

(صفة الخصماء ورد المظالم)

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الاعين شاخصة الى لسان الميزان فمن ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ومن خفت موازينه فأمه هاويه وما ادراك ماهيه نار حامية واعلم انه لا ينجو من خطر الميزان الا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع اعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وانما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويتدارك ما فرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ويرد المظالم

حية تعيد حمة و تستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوطه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وان مات قبل رد المظالم احاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق بلببه هذا يقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني وهذا يقول استهزأت بي وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني وهذا يقول جاورتني فأسأت جواري وهذا يقول عاملتني فغششتني وهذا يقول بايعتني فغبنتني واخفيت عني عيب سلعتك وهذا يقول كذبت في سعر متاعك وهذا يقول رأيتني محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتني وهذا يقول وجدتني مظلوما وكنت قادرا على دفع الظالم عني فداهنت الظالم وما راعيتني فبينا انت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم واحكموا في تلابيبك ايديهم وانت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك احد عاملته على درهم او جالسته في مجلس الا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة او جناية او نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء الى سيدك ومولاك لعله يخلصك من ايديهم اذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار وتتذكر ما انذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء وانذر الناس فما اشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك اموالهم وما اشد حسراتك في ذلك اليوم اذا وقف ربك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وانت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا او تظهر عذرا فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل الى خصمائك عوضا عن حقوقهم قال ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون من المفلس قلنا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال المفلس من امتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا واكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته وان فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار فانظر الى مصيبتك في مثل هذا اليوم اذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان فان سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك واخذوها ولعلك لو حاسبت نفسك وانت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت انه لا ينقضي عنك يوم الا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من اكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماء من القرناء فقد روى ابو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال يا ابا ذر اتدري فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة وقال ابو هريرة في قوله عز وجل وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم

امثالكم انه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شئ فيبلغ من
عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كوني ترابا فذلك حين يقول الكافر
ياليتني كنت ترابا فكيف انت يا مسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات
طال فيها تعبك فتقول اين حسناتي فيقال نقلت الى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك
مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول
بسيئات طال في الصبر عنها نصبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يارب
هذه سيئات ما قارفتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم
بالسوء وظلمتهم في المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر
اصناف المعاملة قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان
قد يئس أن تعبد الاصنام بأرض العرب ولكن سيرضي منكم بما هو دون ذلك
بالمحقرات وهي الموبقات فاتقوا الظالم ما استطعتم فان العبد ليجئ يوم القيامة بأمثال
الجبال من الطاعات فيرى انهن سينجينه فما يزال عبد يجيء فيقول رب ان فلانا ظلمني
مظلمة فيقول امح من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شئ وان مثل
ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الارض ليس معهم حطب فتفرق القوم فحطبوا فلم يلبثوا
أن اعظموا نارهم وصنعوا ما ارادوا وكذلك الذنوب ولما نزل قوله تعالى انك ميت وانهم
ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يا رسول الله أيكرر علينا
ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا الى كل ذي
حق حقه قال الزبير والله ان الامر لشديد فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة
ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال انس سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله العباد عراة غبرا بهما قال قلنا ما بهما
قال ليس معهم شئ ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من
قرب انا الملك انا الديان لا ينبغي لاحد من اهل الجنة أن يدخل الجنة ولا احد من
اهل النار عليه مظلمة حتى اقتصه منه ولا لاحد من اهل النار أن يدخل النار ولا احد
من اهل الجنة عنده مظلمة حتى اقتصه منه حتى اللطمة قلنا وكيف وانما نأتي الله عزوجل
عراة غبرا بهما فقال بالحسنات والسيئات فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد بأخذ
اموالهم والتعرض لاعراضهم وتضييق قلوبهم واساءة الخلق في معاشرتهم فان ما بين
العبد وبين الله خاصة فالمغفرة اليه اسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر
عليه استحلال ارباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر بعض الحسنات
بينه وبين الله بكمال الاخلاص بحيث لا يطلع عليه الا الله فعساه يقربه ذلك الى الله تعالى
فينال به لطفه الذي ادخره لاحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم كما روى عن انس
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس اذ رأيناه
يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما اضحكك يا رسول الله بأبي انت وامي قال رجلان
من امتي جثيا بين يدي رب العزة فقال احدهما يا رب خذ لي مظلمتي من اخي فقال الله

تعالى أعط اخاك مظلمته فقال يارب لم يبق من حسناتي شئ فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شئ قال يارب تحمل عني من اوزاري قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال ان ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس الى أن يحمل عنهم من اوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال يارب ارى مدائن من فضة مرتفعة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لاى نبي هذا اولاى صديق هذا اولاى شهيد هذا قال لمن اعطاني الثمن قال يارب ومن يملك ثمنه قال انت تملكه قال وما هو قال عفوك عن اخيك قال يارب اني قد عفوت عنه قال الله تعالى خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين المؤمنين وهذا تنبيه على أن ذلك انما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو اصلاح ذات البين وسائر الاخلاق فتفكر الآن في نفسك ان خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الابد كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلعة الرضاء وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الاوزار ظهرك ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضى يتلألأ من جبينك وخلق الاولين والآخرين ينظرون اليك والى حالك ويغبطونك في حسنك وجمالك والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رؤس الاشهاد هذا فلان بن فلان رضي الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التي نلتها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك فان كنت تعلم انه خير منه بل لا نسبة له اليه فتوسل الى ادراك هذه الرتبة بالاخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك الا به وان تكن الاخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك خطيئة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة فمقتك لاجلها فقال عليك لعنتي يا عبد السوء لا اتقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء الا ويسود وجهك ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى ويقولون وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين وعند ذلك تتناول اليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالق القهار فقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة فأخذوا ناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون الى اسوداد وجهك والى ظهور خزيك وأنت تنادي بالويل والثبور وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادي الملائكة ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خيفة من عباد الله او طلبا للمكانة في قلوبهم أو خوفا من الافتضاح عندهم فما أعظم جهلك اذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملأ العظيم مع التعرض لسخط الله

وعقابه

وعقابه الاليم والسياق بأيدى الزبانية الى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الاعظم وهو خطر الصراط

(صفة الصراط)

ثم تفكر بعد هذه الاهوال فى قول الله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وفى قوله تعالى فاهدوهم الى صراط الجحيم وقفوهم انهم مسؤلون فالناس بعد هذه الاهوال يساقون الى الصراط وهو جسر ممدود على متن النار أحدّ من السيف وأدق من الشعر فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالاوزار وعصى تعثر فى أول قدم من الصراط وتردى فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك اذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها وقد كلفت أن تمشى على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالاوزار المانعة لك عن المشى على بساط الارض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك اذا وضعت عليه احدى رجليك فأحسست بحدّته واضطررت الى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب وانت تنظر اليهم كيف ينكسون فتتسفل الى جهة النار رؤسهم وتعلو أرجلهم فياله من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه فانظر الى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد اليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يمينا وشمالا الى الخلق وهم يتهافتون فى النار والرسول عليه السلام يقول يارب سلم سلم والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت اليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك فناديت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه فياليتنى قدّمت لحياتى ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ياليتنى كنت ترابا ياليتنى كنت نسيا منسيا ياليت أمى لم تلدنى وعند ذلك تختطفك النيران والعياذ بالله وينادى المنادى اخسؤا فيها ولا تكلمون فلا يبقى سبيل الا الصياح والانين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك وهذه الاخطار بين يديك فان كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار فى دركات جهنم وان كنت به مؤمنا وعنه غافلا وبالاستعداد له متهاونا فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك ايمانك اذا لم يبعثك على السعى فى طلب رضى الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك الاهول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه وان سلمت فناهيك به هولا وفزعا ورعبا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أوّل من يجيز بأمته من الرسل ولا يتكلم يومئذ الا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم يارسول الله قال فانها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها الا الله تعالى تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله

ومنهم من يجردل ثم ينجو وقال ابو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر
الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يمينا
وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق
ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجرى ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من
يمشي مشيا ومنهم من يحبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا فأما أهل النار الذين هم أهلها
فلا يموتون ولا يحيون وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحما
يؤذن في الشفاعة وذكر الى آخر الحديث وعن ابن مسعود رضي الله عنه انه صلى الله
عليه وسلم قال يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة
شاخصة أبصارهم الى السماء ينتظرون فصل القضاء وذكر الحديث الى أن ذكر وقت
سجود المؤمنين قال ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤسكم فيرفعون رؤسهم فيعطيهم نورهم
على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى
نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من
ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على ابهام قدمه فيضيء مرة ويخبو مرة فاذا
أضاء قدم قدمه فمشى واذا أظلم قام ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم
من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر
كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كشد الفرس ومنهم من يمر كشد الرجل حتى
يمر الذي أعطى نوره على ابهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تخر منه يد وتعلق
أخرى وتعلق رجل وتخر أخرى وتصيب جوانبه النار قال فلا يزال كذلك حتى يخلص
فاذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله ما لم يعط أحدا اذ نجاني منها بعد
اذ رأيتها فينطلق به الى غدير عند باب الجنة فيغتسل وقال أنس بن مالك سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وان الملائكة
ينجون المؤمنين والمؤمنات وان جبريل عليه السلام لآخذ بحجزتي واني لأقول يارب
سلم سلم فالزالون والزالات يومئذ كثير فهذه أهوال الصراط وعظائمه فطول فيه فكرك
فان أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا فان الله لا يجمع بين
خوفين على عبد فمن خاف هذه الاهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ولست أعني بالخوف
رقة كرقة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود الى
لهوك ولعبك فما هذا من الخوف في شيء بل من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا طلبه
فلا ينجيك الا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته وأبعد من رقة
النساء خوف الحمقى اذا سمعوا الاهوال سبق الى ألسنتهم الاستعاذة فقال احدهم
استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب
هلاكهم فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء
ووراءه حصن فاذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه أعوذ بهذا الحصن
الحصين واستعين بشدة بنيانه وأحكام أركانه فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه

فاني

فأنى يغني ذلك عنه من السمع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن الا قول لا اله الا الله صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ومن اتخذ الهه هواه فهو بعيد من الصدق فى توحيده وأمره مخطر فى نفسه فان عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومتشوقا الى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة ان كنت قليل البضاعة

(صفة الشفاعة)

اعلم أنه اذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فان الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الانبياء والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاعة فى أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على ان تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بأن لا تحقر آدميا أصلا فان الله تعالى خبأ ولايته فى عباده فلعل الذى تزدريه عينك هو ولى الله ولا تستصغر معصية أصلا فان الله تعالى خبأ غضبه فى معاصيه فلعل مقت الله فيه ولا تستحقر أصلا طاعة فان الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة أو النية الحسنة أو ما يجرى مجراه وشواهد الشفاعة فى القرآن والاخبار كثيرة قال الله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى روى عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول ابراهيم عليه السلام رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم وقول عيسى عليه السلام ان تعذبهم فانهم عبادك ثم رفع يديه وقال أمتى أمتى ثم بكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب الى محمد فسله ما يبكيك فأتاه جبريل فسأله فأخبره والله أعلم به فقال يا جبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك وقال صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى وجعلت لى الارض مسجدا وترابها طهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأعطيت الشفاعة وكل نبى بعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة وقال صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر وقال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أول من تنشق الارض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدى لواء الحمد تحته آدم فمن دونه وقال صلى الله عليه وسلم لكل نبى دعوة مستجابة فاريد أن اختبئ دعوتى شفاعة لامتى يوم القيامة وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصب للانبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويبقى منبرى لا أجلس عليه قائما بين يدى ربى منتصبا مخافة ان يبعث بى الى الجنة وتبقى أمتى بعدى فأقول يا رب أمتى فيقول الله عز وجل يا محمد وما تريد ان أصنع بأمتك فأقول يا رب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكا برجال قد بعث بهم الى النار وحتى ان مالكا خازن النار يقول يا محمد ما تركت النار لغضب ربك فى أمتك من

بقية وقال صلى الله عليه وسلم انى لاشفع يوم القيامه لاكثر مما على وجه الارض من
حجر ومدر وقال ابو هريرة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع اليه الذراع وكانت
تعجبه فنهش منها نهسة ثم قال انا سيد المرسلين يوم القيامه وهل تدرون مم ذلك يجمع
الله الاولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس
فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس بعضهم
لبعض الاترون ما قد بلغكم الاترون من يشفع لكم الى ربكم فيقول بعض الناس لبعض
عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت ابو البشر خلقك الله بيده ونفخ
فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه الا ترى
ما قد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله
ولن يغضب بعده مثله وانه قد نهانى عن الشجرة فعصيته نفسى نفسى اذهبوا الى
غيرى اذهبوا الى نوح فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يا نوح انت اول الرسل
الى اهل الارض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا الى ربك الا ترى ما نحن فيه
فيقول ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله
وانه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا
الى ابراهيم خليل الله فيأتون ابراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبى الله
وخليله من اهل الارض اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول لهم ان ربى قد
غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وانى كنت كذبت ثلاث
كذبات ويذكرها نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى موسى فيأتون موسى
عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس
اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب
قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانى قتلت نفسا لم اومر بقتلها نفسى نفسى اذهبوا الى
غيرى اذهبوا الى عيسى عليه السلام فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى انت رسول الله
وكلمته القاها الى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد اشفع لنا الى ربك الا ترى ما نحن
فيه فيقول عيسى عليه السلام ان ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن
يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى محمد صلى الله
عليه وسلم فيأتونى فيقولون يا محمد انت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم
من ذنبك وما تأخر اشفع لنا الى ربك الا ترى ما نحن فيه فانطلق فآتى تحت العرش فأقع
ساجدا لربى ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيأ لم يفتحه على احد قبلى ثم
يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعطى واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول امتى امتى يا رب
فيقال يا محمد ادخل من امتك من لا حساب عليهم من الباب الايمن من ابواب الجنة
وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الابواب ثم قال والذى نفسى بيده ان بين
المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى وفى حديث آخر
هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا ابراهيم وهو قوله فى الكوكب هذا ربى وقوله لآلهتهم

بل فعله كبيرهم هذا وقوله انى سقيم فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولآحاد
امته من العلماء والصالحين شفاعة ايضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل
الجنة بشفاعة رجل من امتى اكثر من ربيعة ومضر وقال صلى الله عليه وسلم يقال
للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولاهل البيت وللرجل والرجلين
على قدر عمله وقال انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا من اهل الجنة
يشرف يوم القيامة على اهل النار فيناديه رجل من اهل النار ويقول يا فلان هل
تعرفنى فيقول لا والله ما اعرفك من انت فيقول انا الذى مررت بى فى الدنيا
فاستسقيتنى شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لى بها عند ربك فيسأل الله
تعالى ذكره ويقول انى اشرفت على اهل النار فنادانى رجل من أهلها فقال هل
تعرفنى فقلت لا من انت فقال انا الذى استسقيتنى فى الدنيا فسقيتك فاشفع لى عند
ربك فشفعنى فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار وعن انس قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم انا اول الناس خروجا اذا بعثوا وانا خطيبهم اذا
وفدوا وانا مبشرهم اذا يئسوا لواء الحمد يومئذ بيدى وانا اكرم ولد آدم على ربى ولا فخر
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى اقوم بين يدى ربى عزوجل فاكسى حلة من
حلل الجنة ثم اقوم عن يمين العرش ليس احد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى وقال
ابن عباس رضى الله عنهما جلس ناس من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
ينتظرونه فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم
عجبا ان الله عزوجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا وقال آخر ماذا باعجب
من كلام موسى كلمه تكليما وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه وقال آخر آدم اصطفاه
الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال سمعت كلامكم وتعجبكم ان ابراهيم خليل
الله وهو كذلك وموسى نجى الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وآدم
اصطفاه الله وهو كذلك الا وانا حبيب الله ولا فخر وانا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا
فخر وانا اول شافع واول مشفع يوم القيامة ولا فخر وانا اول من يحرك حلق الجنة فيفتح
الله لى فأدخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر وانا اكرم الاولين والآخرين ولا فخر

(صفة الحوض)

اعلم ان الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الاخبار
على وصفه ونحن نرجو ان يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه وفى الآخرة ذوقه فان من
صفاته ان من شرب منه لم يظمأ منه ابدا قال انس اغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم
اغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يا رسول الله لم ضحكت فقال آية نزلت على آنفا
وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا أعطيناك الكوثر حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما الكوثر
قالوا الله ورسوله اعلم قال انه نهر وعدنيه ربى عزوجل فى الجنة عليه خير كثير عليه
حوض ترد عليه امتى يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء وقال انس قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم بينما انا اسير فى الجنة اذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف قلت ما هذا

يا جبريل قال هذا الكوثر كان الذي اعطاك ربك فضرب الملك بيده فاذا طينه مسك اذفر وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان وروى ابن عمر أنه لما نزل قوله تعالى انا اعطيناك الكوثر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب شرابه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجري على جنادل اللؤلؤ والمرجان وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حوضي ما بين عدن الى عمان البلقاء ماؤه اشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل واكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها ابدا اول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين فقال عمر بن الخطاب ومن هم يا رسول الله قال هم الشعث رؤسا الدنس ثيابا الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم ابواب السدد فقال عمر بن عبد العزيز والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي ابواب السدد الا أن يرحمني الله لا جرم لا ادهن رأسي حتى تشعث ولا اغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ وعن أبي ذر قال قلت يا رسول الله ما آنية الحوض قال والذي نفس محمد بيده لآنيته اكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله ما بين عمان وايلة ماؤه اشد بياضا من اللبن واحلى من العسل وعن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل نبي حوضا وانهم يتباهون أيهم اكثر واردة واني لارجو أن أكون أكثرهم واردة فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين وليحذر أن يكون متمنيا ومغترا وهو يظن انه راج فان الراجي للحصاد من بث البذر ونقى الارض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالانبات ودفع الصواعق الى اوان الحصاد فأما من ترك الحراثة او الزراعة وتنقية الارض وسقيها واخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين في شيء وهكذا رجاء اكثر الخلق وهو غرور الحمقى نعوذ بالله من الغرور والغفلة فان الاغترار بالله اعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور

(القول في صفة جهنم واهوالها وانكالها)

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال دع التفكر فيما انت مرتحل عنه واصرف الفكر الى موردك فانك اخبرت بأن النار مورد للجميع اذ قيل وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا فبينما هم في كربها واهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة انبائها وتشفيع شفعائها اذ احاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت

عليهم نار ذات لهب وسمعوا الهازفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب فعند ذلك
ايقن المجرمون بالعطب وجثت الامم على الركب حتى اشفق البراء من سوء المنقلب
وخرج المنادى من الزبانية قائلا اين فلان ابن فلان المسوف نفسه فى الدنيا بطول الامل
المضيع عمره فى سوء العمل فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد
ويسوقونه الى العذاب الشديد وينكسونه فى قعر الجحيم ويقولون له ذق انك أنت العزيز
الكريم فأسكنوا دارا ضيقة الارجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك يخلد فيها الاسير ويوقد
فيها السعير شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم امانيهم
فيها الهلاك ومالهم منها فكاك قد شدت أقدامهم الى النواصي واسودت وجوههم من
ظلمة المعاصى ينادون من اكنافها ويصيحون فى نواحيها وأطرافها يامالك قد حق
علينا الوعيد يامالك قد اثقلنا الحديد يامالك قد نضجت منا الجلود يامالك اخرجنا منها
فانا لا نعود فتقول الزبانية هيهات لات حين امان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسئوا
فيها ولا تكلمون ولو اخرجتم منها لكنتم الى مانهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون
وعلى مافرطوا فى جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الاسف بل يكبون
على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن ايمانهم والنار عن
شمائلهم فهم غرقى فى النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين
مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل فهم يتجلجلون
فى مضايقها ويتحطمون فى دركاتها ويضطربون بين غواشيها تغلى بهم النار كغلى القدور
ويهتفون بالويل والعويل ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به
مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فينفجر الصديد من
افواههم وتنقطع من العطش اكبادهم وتسيل على الخدود احداقهم ويسقط من
الوجنات لحومها ويتمعط من الاطراف شعورها بل جلودها وكلما نضجت جلودهم
بدلوا جلودا غيرها قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الارواح منوطة بالعروق
وعلائق العصب وهى تنش فى لفح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون
فكيف بك لو نظرت اليهم وقد سودت وجوههم اشد سوادا من الحميم واعميت ابصارهم
وبكمت السنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت
جلودهم وغلت ايديهم الى اعناقهم وجمع بين نواصيهم واقدامهم وهم يمشون على النار
بوجوههم ويطؤن حسك الحديد باحداقهم فلهيب النار سار فى بواطن اجزائهم وحيات
الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر اعضائهم هذا بعض جملة احوالهم وانظر الآن
فى تفصيل اهوالهم وتفكر ايضا فى اودية جهنم وشعابها فقد قال النبى صلى الله
عليه وسلم ان فى جهنم سبعين الف واد فى كل واد سبعون الف شعب فى كل شعب
سبعون الف ثعبان وسبعون الف عقرب لا ينتهى الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله
وقال على كرم وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوذوا بالله من جب الحزن
او وادى الحزن قيل يارسول الله وما وادى او جب الحزن قال واد فى جهنم تتعوذ منه

جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للمرائين فهذه سبعة جهنم وابواب
اودية بها وهي بحسب عدد اودية الدنيا وشهواتها وعدد ابوابها بعدد الاعضاء
السبعة التي بها يعصي العبد بعضها فوق بعض الاعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم
السعير ثم الجحيم ثم الهاوية فانظر الآن في عمق الهاوية فانه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق
شهوات الدنيا فكما لا ينتهي ارب من الدنيا الا الى ارب اعظم منه فلا تنتهي هاوية من
جهنم الا الى هاوية اعمق منها قال ابو هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله
اعلم قال هذا حجر ارسل في جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى الى قعرها ثم انظر الى
تفاوت الدركات فان الآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا فكما ان اكباب الناس
على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها الى حد محدود
فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف انواع
العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه
وذنبه الا ان اقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو
فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ادنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل
بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه فانظر الآن الى من خفف عليه واعتبر به
من شدد عليه ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب اصبعك من النار وقس
ذلك به ثم اعلم انك اخطأت في القياس فان نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان
اشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات لو وجد أهل
الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه وعن هذا عبر في بعض الاخبار
حيث قيل ان نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى اطاقها اهل الدنيا
بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال امر الله تعالى أن يوقد على
النار ألف عام حتى احمرت ثم اوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم اوقد عليها ألف عام
حتى اسودت فهي سوداء مظلمة وقال صلى الله عليه وسلم اشتكت النار الى ربها فقالت
يارب اكل بعضي بعضا فأذن لها في نفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فاشد
ما تجدونه في الصيف من حرها وأشد ما تجدونه في الشتاء من زمهريرها وقال انس
ابن مالك يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له
هل رأيت نعيما قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس ضرا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة
غمسة ثم يقال له هل رأيت ضرا قط فيقول لا وقال أبو هريرة لو كان في المسجد مائة ألف
او يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا وقد قال بعض العلماء في قوله تلفح وجوههم
النار انها لفحتهم لفحة واحدة فما ابقت لحما على عظم الا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا
في نتن الصديد الذي يسيل من ابدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق قال أبو سعيد
الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن دلوا من غساق جهنم ألقي في الدنيا
لانتن أهل الارض فهذا شرابهم اذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد

يتجرعه

يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وان يستغيثوا
يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ثم انظر الى طعامهم وهو
الزقوم كما قال الله تعالى ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم
فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم وقال تعالى انها
شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون
منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ثم ان مرجعهم لالى الجحيم وقال تعالى
تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية وقال تعالى ان لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة
وعذابا أليما وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن قطرة من الزقوم
قطرت فى بحار الدنيا افسدت على اهل الدنيا معايشهم فكيف من يكون طعامه ذلك
وقال انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارغبوا فيما رغبكم الله واحذروا وخافوا
ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم فانه لو كانت قطرة من الجنة معكم
فى دنياكم التى أنتم فيها طيبتها لكم ولو كانت قطرة من النار معكم فى دنياكم التى أنتم فيها
خبثتها عليكم وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى على أهل النار
الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من
ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة
فيذكرون انهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع
اليهم الحميم بكلاليب الحديد فاذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فاذا دخل الشراب
بطونهم قطع ما فى بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم
أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات
قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال قال فيقولون ادعوا مالكا فيدعون
فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك قال فيجيبهم انكم ماكثون قال الاعمش انبئت
أن بين دعائهم وبين اجابة مالك اياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير
من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا اخرجنا منها فان عدنا
فانا ظالمون قال فيجيبهم اخسؤا فيها ولا تكلمون قال فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند
ذلك اخذوا فى الزفير والحسرة والويل وقال أبو امامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
فى قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه قال يقرب اليه فيتكرهه
فاذا ادنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من
دبره يقول الله تعالى وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم وقال تعالى وان يستغيثوا يغاثوا
بماء كالمهل يشوى الوجوه فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم فانظر الآن
الى حيات جهنم وعقاربها والى شدة سمومها وعظم اشخاصها وفظاظة منظرها وقد
سلطت على أهلها واغريت بهم فهى لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة قال
أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له
يوم القيامة شجاعا اقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهازمه يعنى اشداقه

فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله الآية وقال الرسول صلى الله عليه وسلم إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وإن فيها العقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقي ذلك وقي هذه الحيات فلم تمثل له ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فإن الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يزداد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه وقال عليه السلام إن الكافر ليجر لسانه في سجين يوم القيامة يتواطاه الناس ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات وتتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن في قوله تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور فإن ذلك يسلط عليهم في أول إلقائهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود ولو أرسلت فيها السفن لجرت وما دام يؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك قال محمد ابن كعب لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل فيقول الله تعالى مجيبا لهم ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ثم يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا فيجيبهم الله تعالى أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال فيقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ثم يقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون فيجيبهم الله تعالى اخسؤوا فيها ولا تكلمون فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب قال مالك بن أنس رضي الله عنه قال زيد بن أسلم في قوله تعالى سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا وقال صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت

وعن

وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل ورؤي الحسن رضي الله عنه جالسا في زاوية وهو يبكي فقيل له لم تبكي فقال اخشى أن يطرحني في النار ولا يبالي فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لا نهاية له فاعظم الامور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة اذلم يبيعوا ذلك الا بشهوات حقيرة في الدنيا اياما قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرة منغصة فيقولون في انفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا انفسنا بعصيان ربنا وكيف لم نكلف انفسنا الصبر أياما قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا ايامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متنعمين بالرضى والرضوان فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شئ من نعيم الدنيا ولذاتها ثم انهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى يوم القيامة بناس الى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا الى قصورها والى ما أعدّ الله لاهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الاوّلون والآخرون بمثلها فيقولون يا ربنا لو ادخلتنا النار قبل أن تريناما اريتنا من ثوابك وما اعددت فيها لاوليائك كان أهون علينا فيقول الله تعالى ذاك اردت بكم كنتم اذا خلوتم بارزتموني بالعظائم واذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراؤن الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني واجللتم الناس ولم تجلوني وتركتم للناس ولم تتركوا لي فاليوم اذيقكم العذاب الاليم مع ما حرمتكم من الثواب المقيم قال احمد بن حرب ان احدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار وقال عيسى عليه السلام كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح وقال داود الهي لا صبر لي على حرّ شمسك فكيف صبري على حرّ نارك ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فانظر يا مسكين في هذه الاهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها اهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه قال الله تعالى وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الامر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ولعمري الاشارة به الى يوم القيامة بل في ازل الازل ولكن اظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك فان قلت فليت شعري ماذا موردي والى ماذا مآلي ومرجعي وما الذي سبق به القضاء في حقي فلك علامة تستأنس بها وتصدّق رجاءك بسببها وهو أن تنظر الى احوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له فان كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فانك مبعد عن النار وان كنت لا تقصد خيرا الا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرا الا ويتيسر لك اسبابه فاعلم انك مقضي عليك فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم فاعرض نفسك على الآيتين

وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم

(القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها)

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان يمشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب المنون آمنون فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور ويؤتون بأكواب وأي أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته لم يصنعه آدمي فيقصر في تسوية صنعته وتحسين صناعته في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها ولكن من أين للشمس مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ويتهنأ بعيش دونها والله لو لم تكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضروريه كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون وهم في كل يوم بفناء

العرش يحضرون والى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله مالا ينظرون معه الى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين اصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى مناد يا أهل الجنة ان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وان لكم أن تحيوا فلا تموتوا ابدا وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وان لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل ونودوا أن تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون ومهما اردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرءان فليس وراء بيان الله تعالى بيان واقرأ من قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان الى آخر سورة الرحمن واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور وان اردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الاخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد ان اطلعت على جملتها وتأمل اولا * (عدد الجنان) * قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن ثم انظر الى. (ابواب الجنة) * فانها كثيرة بحسب اصول الطاعات كما أن ابواب النار بحسب اصول المعاصى قال ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من انفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من ابواب الجنة وللجنة ثمانية ابواب فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد فقال أبو بكر رضى الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها قال نعم وارجو أن تكون منهم وعن عاصم بن ضمرة عن على كرّم الله وجهه انه ذكر النار فعظم أمرها ذكر الا احفظه ثم قال وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا انتهوا الى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا الى احداهما كما أمروا به فشربوا منها فاذهبت ما فى بطونهم من أذى او بأس ثم عمدوا الى الاخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ولا تشعث رؤسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا الى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة يقولون له أبشر أعدّ الله لك من الكرامة كذا قال فينطلق غلام من أولئك الولدان الى بعض أزواجه من الحور العين فيقول قد جاء فلان باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا فتقول أنت رأيته فيقول أنا رأيته وهو بأثرى فيستخفها الفرح حتى تقوم الى اسكفة بابها فاذا انتهى الى منزله نظر الى اساس بنيانه فاذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر الى سقفه فاذا مثل البرق ولولا ان الله تعالى قدره لالم أن يذهب بصره ثم يطاطى رأسه فاذا أزواجه واكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة ثم اتكأ فقال الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ثم ينادى مناد تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظعنون أبدا

وصحون ولا تمرصون أبدا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا افتح لاحد قبلك ثم تأمل الآن فى *(غرف الجنة)* واختلاف درجة العلو فيها فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلا وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة والاخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر فان كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى سابقوا الى مغفرة من ربكم وقال تعالى وفى ذلك فليتنافس المتنافسون والعجب انه لو تقدم عليك اقرانك او جيرانك بزيادة درهم او بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها فقد قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغائر فى الافق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وقال أيضا ان أهل الدرجات العلا ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى أفق من آفاق السماء وان ابا بكر وعمر منهم وأنعما وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا احدثكم بغرف الجنة قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك بأبانا أنت وأمنا قال ان فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف قال لمن افشى السلام واطعم الطعام وادام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك قال امتى تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقى أخاه فسلم عليه اورد عليه فقد أفشى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة فى جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام يعنى اليهود والنصارى والمجوس وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ومساكن طيبة فى جنات عدن قال قصور من لؤلؤ فى كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر فى كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر فى كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام فى كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن فى كل غداة يعنى من القوة ما يأتى على ذلك اجمع

(صفة حائط الجنة وأرضها وأشجارها وأنهارها)

تأمل فى صورة الجنة وتفكر فى غبطة سكانها وفى حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضا عنها فقد قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حائط الجنة لبنة

من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها اقرؤا ان شئتم وظل ممدود وقال أبو امامة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ان الله عز وجل ينفعنا بالاعراب ومسائلهم أقبل اعرابي فقال يارسول قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماهي قال السدر فان لها شوكا فقال قد قال الله تعالى في سدر مخضود يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تنفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر وقال جرير ابن عبد الله نزلنا الصفاح فاذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه فقلت للغلام انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فاذا هو سلمان فأتيته اسلم عليه فقال يا جرير تواضع لله فان من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة قلت لا أدري قال ظلم الناس بعضهم ثم أخذ عويدا لا اكاد أراه من صغره فقال يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده قلت يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر قال أصولها اللؤلؤ والذهب واعلاها الثمر

(صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وارائكهم وخيامهم)

قال الله تعالى يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير والآيات في تفصيل ذلك كثيرة وانما تفصله في الاخبار فقد روى أبو هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من يدخل الجنة ينعم لا ييأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق تخلق أم نسج تنسج فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مم تضحكون من جاهل سأل عالما ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية وفي رواية على كل زوجة سبعون حلة وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى يحلون فيها من أساور من ذهب قال ان عليهم التيجان ان أدنى لؤلؤة فيها لتضيء ما بين المشرق

والمغرب وقال صلى الله عليه وسلم الجنة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراه الا آخرون رواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى وفرش مرفوعة قال ما بين الفراشين كما بين السماء والارض

(صفة طعام أهل الجنة)

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى قال الله تعالى كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها وقد ذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة وقد قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت قاعدا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود وذكر مسئلة الى أن قال فمن أول اجازة يعني على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودي فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد الحوت قال فما غداؤهم على أثرها قال ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل في أطرافها قال فما شرابهم عليه قال من عين فيها تسمى سلسبيلا فقال صدقت وقال زيد ابن ارقم جاء رجل من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا أبا القاسم ألست تزعم ان أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لاصحابه ان أقر لي بها خصمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذي نفسي بيده ان احدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب والجماع فقال اليهودي فان الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فاذا البطن قد ضمر وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انك لتنظر الى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا وقال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الجنة طيرا امثال البخاتي قال ابو بكر رضي الله عنه انها لناعمة يا رسول الله قال انعم منها من يأكلها وانت ممن يأكلها يا أبا بكر وقال عبد الله بن عمرو في قوله تعالى يطاف عليهم بصحاف قال يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الاخرى مثله وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ومزاجه من تسنيم قال يمزج لاصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفا وقال ابو الدرداء رضي الله عنه في قوله تعالى ختامه مسك قال هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلا من أهل الدنيا ادخل يده فيه ثم اخرجها لم يبق ذو روح الا وجد ريح طيبها

(صفة الحور العين والولدان)

قد تكرر في القرآن وصفهم ووردت الاخبار بزيادة شرح فيه روى انس رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال غدوة في سبيل الله او روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس احدكم او موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت الى الارض لاضاءت ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها

على رأسها خير من الدنيا بما فيها يعني الخمار وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى كأنهن الياقوت والمرجان قال ينظر الى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وان أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وانه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك وقال انس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اسرى بي دخلت الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الاخضر والياقوت الاحمر فقلن السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل ماهذا النداء قال هؤلاء المقصورات في الخيام استأذن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نظعن أبدا وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى حور مقصورات في الخيام وقال مجاهد في قوله تعالى وأزواج مطهرة قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد وقال الاوزاعي في شغل فاكهون قال شغلهم افتضاض الابكار وقال رجل يا رسول الله ايباضع أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم وقال عبد الله بن عمر ان أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء الا الصورة من الرجال والنساء فاذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها وان فيها المجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له وقال انس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الحور في الجنة يتغنين نحن الحور الحسان خبئنا لازواج كرام وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى في روضة يحبرون قال السماع في الجنة وقال أبو امامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد يدخل الجنة الا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه

(بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الاخبار)

روى اسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ألا هل مشمر للجنة ان الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة في مقام أبدا ونضرة في دار عالية بهية سليمة قالوا نحن المشمرون لها يا رسول الله قال قولوا ان شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هل في الجنة خيل فانها تعجبني قال ان احببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت وقال له رجل ان الابل تعجبني فهل في الجنة من ابل فقال يا عبد الله ان

ادخلت الجنة الملك فيها ما اشتهت نفسك ولدت غيبا لك وعن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يستهى يكون حمله وفصاله وسنه في ساعة واحدة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الاخوان الى الاخوان فيسير سرير هذا الى سرير هذا فيلتقيان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول يا أخي تذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحولون ابناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة اذرع وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ادنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم وثنتان وسبعون زوجة وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية الى صنعاء وان عليهم التيجان وان أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وقال صلى الله عليه وسلم نظرت الى الجنة فاذا الرمانة من رمانها كخلف البعير المقتب واذا طيرها كالبخت واذا فيها جارية فقلت يا جارية لمن أنت فقالت لزيد بن حارثة واذا في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال كعب خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده وكتب التوراة بيده وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها مفصلا وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملها فقال ان رمانها مثل الدلاء وان انهارها من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لذة للشاربين لا تسفه الاحلام ولا يصدع منها الرؤس وان فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ملوك ناعمون ابناء ثلاث وثلاثين في سن واحدة طولهم ستون ذراعا في السماء كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار وان أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد وان عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها الا الله تعالى وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وان لهم فيها خيلا وابلا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون وان المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة قد طهر الله الاخلاق من السوء والاجساد من الموت لا يتمخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وانما هو جشاء ورشح مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا اما انه ليس ليل تكر الغدو على الرواح والرواح على الغدو وان آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمد له في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ويفسح له في بصره حتى ينظر الى اقصاه كما ينظر الى أدناه يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها في كل صحفة لون ليس في الاخرى مثله ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوله وان في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب وقال مجاهد ان أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى اقصاه كما يرى أدناه وأرفعهم

الذي

الذي ينظر الى ربه بالغداة والعشي * وقال سعيد بن المسيب ليس احد من أهل الجنة الا في يده ثلاثة اسورة سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة وقال ابوهريرة رضي الله عنه ان في الجنة حوراء يقال لها العيناء اذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال يحيى بن معاذ ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا مهر الآخرة وقال أيضا في طلب الدنيا ذل النفوس وفي طلب الآخرة عز النفوس فيا عجبا لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى

(صفة الرؤية والنظر الى وجه الله تبارك وتعالى)

قال الله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة وهذه الزيادة هي النظر الى وجه الله تعالى وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب المحبة وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده اهل البدعة قال جرير بن عبد الله البجلي كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال انكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وهو مخرج في الصحيحين وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة قال اذا دخل اهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا ماهذا الموعد ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيرفع الحجاب وينظرون الى وجه الله عزوجل فما اعطوا شيأ أحب اليهم من النظر اليه وقد روى حديث الرؤية جماعة من الصحابة وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعماء وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى بل لا نسبة لشئ من لذات الجنة الى لذة اللقاء وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشئ سوى لقاء المولى وأما سائر نعيم الجنة فانه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى

(نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك)

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل وليس لنا من الاعمال ما نرجوا به المغفرة فنقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم في التفاؤل ونرجوا أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وقال تعالى قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وقال تعالى ومن يعمل سوأ او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم او طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا ونستغفره من اقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم

خاطئة غيره ونستغفره من كل وعد وعدناه من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان بادٍ وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجوا بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن يكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا أو باطنا فإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ويروى أنه إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا وقال النبي صلى الله عليه وسلم يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف وقال صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتي وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بإخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها وقال جابر بن عبد الله من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه وقال سعد بن بلال يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ويأمر بردهما إلى النار فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية ويقول الذي تلكأ

حسن ظنى بك كان يشعرنى أن لا تردّنى اليها بعدما اخرجتنى منها فيأمر بهما الى الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا امة محمد أما ما كان لى قبلكم فقدوهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى ويروى ان اعرابيا سمع ابن عباس يقرأ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها فقال الاعرابى والله ما انقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير فقيه وقال الصنابحى دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت فبكيت فقال مهلا لم تبكى فوالله مامن حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم فيه خير الا حدثتكموه الا حديثا واحدا وسوف احدثكموه اليوم وقد احيط بنفسى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من شهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله حرّم الله عليه النار وقال عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يستخلص رجلا من امتى على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مدّ البصر ثم يقول اتنكر من هذا شيئا اظلمتك كتبتى الحافظون فيقول لا يارب فيقول افلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى ان لك عندنا حسنة وانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها اشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول انك لا تظلم قال فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شئ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط ان الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها احدا ممن امرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها احدا ممن امرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها احدا ممن امرتنا به فكان ابو سعيد يقول ان لم تصدّقونى بهذا الحديث فاقرؤا ان شئتم ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما قال فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا ارحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم فى نهر فى افواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة فى حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلى الحجر والشجر ما يكون الى الشمس اصفر وأبيض وما يكون منها الى الظل ابيض قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتيم يعرفهم اهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين ادخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدّموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم فيقولون ربنا اعطيتنا مالم تعط احدا من العالمين فيقول الله تعالى ان لكم عندى ما هو أفضل من هذا فيقولون ياربنا أى شئ أفضل من هذا فيقول رضاى عنكم فلا اسخط

عليكم بعده ابدا رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وروى البخاري ايضا عن ابن عباس
رضي الله عنهما قال خرج الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت
علي الامم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي
معه الرهط فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون امتي فقيل لي هذا موسى وقومه
ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الافق فقيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت
سوادا كثيرا فقيل لي هؤلاء امتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب
فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا
أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء هم ابناؤنا فبلغ ذلك
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون
وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال انت
منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سبقك بها
عكاشة وعن عمرو بن حزم الانصاري قال تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
ثلاثا لا يخرج الا لصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج الينا فقلنا
يا رسول الله احتبست عنا حتى ظننا انه قد حدث حدث قال لم يحدث الا خير ان ربي
عز وجل وعدني أن يدخل من امتي الجنة سبعين ألفا لا حساب عليهم واني سألت
ربي في هذه الثلاثة ايام المزيد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد
من السبعين ألفا سبعين ألفا قال قلت يا رب وتبلغ امتي هذا قال اكمل لك العدد من
الاعراب وقال ابو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض لي جبريل في جانب الحرة
فقال بشر امتك انه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة فقلت يا جبريل وان سرق
وان زنى قال نعم وان سرق وان زنى قلت وان سرق وان زنى قال وان سرق وان زنى قلت
وان سرق وان زنى قال وان سرق وان زنى وان شرب الخمر وقال ابو الدرداء قرأ رسول الله
صلى الله عليه وسلم ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان سرق وان زنى يا رسول الله
فقال ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان سرق وان زنى فقال ولمن خاف مقام ربه
جنتان فقلت وان سرق وان زنى يا رسول الله قال وان رغم انف ابي الدرداء وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة دفع الى كل مؤمن رجل من
اهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار وروى مسلم في الصحيح عن ابي بردة انه حدث
عمر بن عبد العزيز عن ابيه عن ابي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يموت
رجل مسلم الا ادخل الله تعالى مكانه النار يهوديا او نصرانيا فاستحلفه عمر بن عبد العزيز
بالله الذي لا اله الا هو ثلاث مرات ان اباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
فحلف له وروي انه وقع صبي في بعض المغازي ينادى عليه فيمن يزيد في يوم صائف
شديد الحر فبصرت به امرأة في خباء القوم فأقبلت تشتد وأقبل أصحابها خلفها حتى
اخذت الصبي وألصقته الى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه
الحر وقالت ابني ابني فبكى الناس وتركوا ما هم فيه فأقبل رسول الله صلى الله عليه

وسلم

وسلم حتى وقف عليهم فأخبره الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال اعجبتم من رحمة هذه لابنها قالوا نعم قال صلى الله عليه وسلم فان الله تبارك وتعالى ارحم بكم جميعا من هذه بابنها فتفرق المسلمون على افضل السرور وأعظم البشارة فهذه الاحاديث وما اوردناه فى كتاب الرجاء يبشر بابسعة رحمة الله تعالى فنرجوا من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته

تم الكتاب بحمد الله ومنه وكرمه ٭ وبه كمل كتاب احياء علوم الدين
فلله الحمد اولا وآخرا وظاهرا وباطنا لا نحصى ثناء
عليه هو كما اثنى على نفسه والحمد لله وحده

(بسم الله الرحمن الرحيم)

يقول الفقير الى لطف ربه الخفى ٭ احمد شرف الدين المرصفى ٭ بحمد الله تم رقيق طبع هذا الكتاب ٭ المستطاب صافى ورده لاولى الالباب ٭ المفرد فى بابه بجمع الفائدة ٭ الجامع فى فرائده الحكمة الزائدة ٭ البالغ فى المحاسن اقصاها ٭ وفى الاحاسن منتهاها ٭ مع جزالة معانيه ٭ وسهولة مبانيه ٭ ولله در حجة الاسلام والمسلمين ٭ حيث سماه باحياء علوم الدين ٭ فانه لم يسبق بمثاله ٭ ولم ينسج ناسج على منواله ٭ اذ جمع بين علم المعاملة والعبادة ٭ وبيان المهلكات والمنجيات لاهل السعادة ٭ نبه فيه على حبائل الشيطان ٭ ودسائس نفس الانسان ٭ فلعمرى لقد أحيى به السنه ٭ فما أعظمها من منه ٭ وأوضحها بالحجج الباهره ٭ وضرب الامثال الظاهره ٭ فانتفع به قس وباقل ٭ والعالم والجاهل ٭ فعم نفعه الخاص والعام ٭ وتداولته أيدى الافاضل الاعلام ٭ فلذا كان جديرا بالاعتناء بطبعه الرائق ٭ وحقيقا بالاهتمام بشأنه الفائق ٭ ولما كان الحبر الفاضل ٭ والعالم العامل ٭ من هو للفضائل حاوى ٭ حضرة الامام الشيخ حسن العدوى الحمزاوى ٭ ممن رغب فى نشر سمة السيد السند ٭ لتقتطف أزهارها على طرف الثمام كل يد ٭ وكان هذا الكتاب أحق بنشر نشره ٭ واذاعة أسرار سره ٭ التزم طبعه السليم ٭ رجاء ان يكون سببا لفوزه بجنات النعيم ٭ بلغه الله فى الدنيا مناه ٭ وأحسن فى العقبى مثواه ٭ مقلدا الى تصحيحه فلم آل فى ذلك الجهد ٭ بل بلغت بتصحيحه أقصى غاية الحد ٭ وكان تمام هذا الطبع اللطيف ٭ على أحسن احكام وترصيف ٭ بالمطبعة المصرية ٭ التى عليها مدار نشر العلوم الدينية ٭ يوم الخميس المبارك لثلاثة عشر بقين
من شهر الله المحرم الذى هو مبدأ شهور سنة ثمان وسبعين
بعد المائتين والالف ٭ من هجرة من خلقه الله على
أكمل وصف ٭ صلى الله عليه وسلم ٭ وشرف
وكرم وعظم ٭ وعلى آله وأصحابه
الكرام ٭ ورزقنا بجاههم
حسن الختام ٭
آمين